غوستاف فلوبير

نصوص الصِّبا

قصص وتأمّلات



ترجمتها عن الفرنسيّة

ماري طوق

مشروع «كلمة»
كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

غوستاف فلوبير

نصوص الصِّبا

قصص وتأمّلات

ترجمتها عن الفرنسيّة
ماري طوق

مراجعة
كاظم جهاد

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

PQ2162 .T39 2014
Flaubert, Gustave, 1821-1880
[Œuvres de jeunesse]
نصوص الصِّبا: قصص و تأمّلات/ تأليف غوستاف فلوبير؛ ترجمة ماري طوق ؛ مراجعة كاظم جهاد.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 489 ؛ 14×21 سم.
كلاسيكيّات الأدب الفرنسي.
ترجمة كتاب: Œuvres de jeunesse
تدمك: 9-854-20-9948-978
1-كلاسيكيّات الأدب الفرنسي المترجم إلى العربية.
أ- طوق، ماري. ب-جهاد، كاظم.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Flaubert, Gustave, *Œuvres de jeunesse*



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY



نصوص الصّبا

قصص وتأمّلات

.

المحتوى


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ديباجة

طالما اعتُبر غوستاف فلوبير Gustave Flaubert (1821—1880) رائد الواقعيّة في الرواية والقصّة، وذلك رغم امتعاضه المعلَن من ذلك. صحيحٌ أنّ فلوبير كثيراً ما ترسَّم، عن وعي وإرادة، خُطى بلزاك، وصحيحٌ أنّه أغدق تشجيعه ودعمه على بعض أبرز كتّاب التيّار الطبيعيّ، وهو التيّار الأقرب إلى الواقعيّة، لا سيّما زولا وموباسان اللّذان لم يُخفيا اعتبارهما إيّاه معلّماً لهما. ولكنّ الواقعيّة لدى فلوبير ليست أبداً خلْواً من الغنائيّة العالية ولا من التّعرية النّقديّة والتهكّم الفلسفيّ، ولا خصوصاً من الأناقة البالغة للأسلوب التي جعل منها هدفاً ورفعتْه نجاحاته فيها إلى مصاف إمام النّاثرين المحدثين، نجاحاتٍ كان يبلغها بفضلِ كدٍّ بطوليّ وبثمنِ مسوّداتٍ متواليةٍ لكلّ عمل من أعماله.

هذه الإرادة في اعتناق الكتابة وتحويلها إلى ما يشبه رهبنةً مقصودة أو عبادةً غير دينيّة نجدها أيضاً في نصوص صباه هذه. ندر أن عرف تاريخ الأدب عبقريّة تتفتّح بمثل هذا الإبكار، وممارسة للقراءة والكتابة يباشرها كاتب ناشيء بمثل هذا الإصرار الصّاحي في عهدٍ يكون فيه أقرانه منهكمين بَعدُ في ألعابهم الطّفوليّة أو مغامراتهم الصّبيانيّة. معروفٌ أنّ عمل فلوبير النّاضج يتوزّع على ثلاثة محاور رئيسة. يتمثّل المحور الأوّل في الانثيالات الغنائيّة التي تفعم صفحاته بروح الشّعر ولغة الرّومنطيقيّين الكبار، وتُثريها ببرنيق الأسلوب ورونق الصّور والعناية الفائقة بموسيقى العبارات. هذا ما نراه في روايته في التخييل التّاريخيّ «سالامبو» *Salammbô* (1862)، وفي «تجربة القدّيس أنطونيوس»

La tentation de Saint Antoine (1874)، وفي عمله الوجيز «ثلاث حكايات» *Trois contes* (1877). ويتشكّل المحور الثّاني من معالجات واقعيّة يحرص الكاتب فيها على «الغوص في الحقيقيّ أو الواقعيّ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً» بتعبيره هو نفسه. وهو ما نلمسه بخاصّةٍ في «مدام بوفاري» *Madame Bovary* (1857)، التي سيق بسببها إلى محاكمة بتهمة «المساس بالأخلاق العامّة والدين»، و«التّربية العاطفيّة» *L'Éducation sentimentale* (1869) و«بوفار وبيكوشيه» *Bouvard et Pécuchet* (غير مكتملة، نُشرت في 1881، أي بعد وفاته بعام). أمّا المحور الثّالث فيقوم على التّأمّلات والشّذرات التهكّمية ينتقد ويعرّي فيها العالم والتّاريخ، لا بل الشّرط الإنسانيّ بمجمله، وهو ما نقابله في نصوص فكريّة عديدة كما في قاموسه الشّهير «معجم الأفكار الجاهزة» *Dictionnaire des idées reçues* (صدر بعد وفاته، في 1913)، وكذلك في مراسلاته مع عشيقاته وأصدقائه وبعض معاصريه من الكتّاب، رسائل تغطّي آلاف الصّفحات وتشكّل أحد أهمّ نماذج تفكير كاتب كبير في ممارسته الأدبيّة وفي الأدب بعامّة. هذا التّقسيم يأخذ طبعاً بغلبة هذه النّبرة أو تلك في كلّ نصّ، وإلاّ فما من حدودٍ منيعة بين النّبرات الثّلاث، بل هي تتجاور أحياناً وتتجاوب في عملٍ بذاته.

محاور الكتابة الثلاثة هذه نراها حاضرة بادئ ذي بدء في نصوص صِباه، التي تشكّل بمجموعها مختبراً ضخماً جرّب فيه الكاتب الحدَث مختلف الموضوعات والهواجس المُلحّة التي سينعقد حولها عمله الكبير القادم، كما جرّب أساليب شتّى تمسّك لاحقاً ببعضها وهجر البعض الآخَر. تراه هنا يمارس الحكاية الرّمزيّة والقصّة الفنطازيّة والفلسفيّة والواقعيّة، مستمدّاً موضوعاته وشخوص نصوصه من قراءاته في التّاريخ

والأدب، أو من متابعة ملخّصات المرافعات في الصحف العموميّة والمنشورات القانونيّة، أو بتشريح تجربته الذّاتيّة كما في روايته القصيرة المترجمة هنا «مذكّرات مجنون»، التي تستمدّ مادّتها من عشقه الأفلاطونيّ اليائس لامرأة متزوّجة قابلها في صباه وأعاد لاحقاً معالجة شغفه بها بتوسّع وتعمّق في روايته الكبرى «التّربية العاطفيّة». كما يستمدّ مادّة روايته القصيرة الأخرى «نوفمبر» – وهي آخر نصوص صباه، قال هو عنها: «هنا يُختتم شبابي» –، نقول يستمدّها من عالمه الدّاخليّ المضطرب وانتقالاته الممضّة بين مختلف العوالم وأنماط العيش والفكر، وكذلك بين مختلف المشاعر والأحاسيس الذّاهبة من أقصى الاحتفاء بالواقع والعالم إلى انقشاعٍ للأوهام مريرٍ وشعورٍ متواترٍ بالموت في الحياة.

والحقّ فإنّ عالم فلوبير الذّاتيّ يبسط ظلّه المديد على كلّ هذه النّصوص، بما فيها القصص الأليغوريّة أو الرّمزيّة، ممّا يستدعي منّا أن نذكر بإيجاز بعض خطوط حياته. وُلد فلوبير لأبٍ طبيب جرّاح كان رجلاً حديثاً ومتنوّراً إلاّ في التّربية، مارسها مثلَ ذويه المزارعين، حيث يتمتّع حقّ البكوريّة بسطوةٍ رهيبة على الصّعيدين المادّيّ والمعنويّ. هكذا أورث ابنه البكر أشيل Achille (وهو اسمه الأوّل، أي اسم الوالد، نفسه) عِلمه ومهنته وسمعته الشّخصيّة وجعله يخْلفه في منصبه في مستشفى مدينة روان، حارماً بالمقابل الصّغير غوستاف من كلّ عنايةٍ واعتبار. أكثر من هذا فرض عليه دراسة القانون التي لم يتمكّن الصّبيّ الطّامح إلى الكتابة من الهرب منها إلاّ بفضل أزماتٍ عصبيّة يُرجَّح أن يكون هو أوقعَ فيها نفسه أو اجترحها كمن ينمّي في ذاته نقصاً أو عاهة. هذه المعاملة من لدن أبيه أصابته بأزمة هويّة ظلّت ترافقه طيلة حياته وشكّلت بطانة عمله الإبداعيّ. وقد عالجها نقّادٌ كبارٌ عديدون لا سيّما سارتر في عمله الضّخم

«أبله العائلة» *L'idiot de la famille* . وهي تشكّل بالفعل مفتاحاً لفهم عالم فلوبير الشّخصيّ ودليلاً إلى ما أراد أن يهرب منه، واجداً في الأدب ملاذاً ظليلاً ومُنقذاً وهبه هو كلّ ثقته وكرّس له كامل قواه وحياته.

من هنا شكّلت المنافسة بين الإخوة والغيرة المريرة يشعر بها الأخ الصّغير المهمَل إزاء الشّقيق البكر وارث الأب موضوعَ نصوصٍ عديدة. وهي تلقى هنا معالجة نافذة في قصّة «الطّاعون في فلورنسا»، التي استعان فيها فلوبير بوصفٍ لا يتعدّى دزينة من السطور لصراعِ أخوَين يبدو أنّه عثر عليه في أحد كتب تاريخ إيطاليا، فأعاد معالجته بهذا الشكل الباذخ ليعبّر رمزيّاً عن مأساة حياته.

أمّا شعوره بموته في العالم أو في الحياة فقد دفعه إلى أن يجعل من الموت بصريح الكلمة أحد الموضوعات الأكثر حضوراً في عمله، ونراه حاضراً هنا بقوّة في أكثر من قصّة، خصوصاً في «امرأة الدّنيا» و«الغضب والعجز» و«نوفمبر».

تميّز تفكير فلوبير، كما هو معروف، بميلٍ إلى المحافظة. دفعته فترة الرّعب أو الإرهاب التي وسمت أواخر الثّورة الفرنسيّة إلى رفض الثّورة بكاملها وكلّ ثورة. ولكنّ انتماءه الصريح إلى البرجوازية الثريّة أو الكبرى لم يمنعه من أن يكون بين أشرس نقّاد البرجوازية في تاريخ الأدب. لا البرجوازيّة وحدها، بل منذ نصوص الصّبا هذه، وبصورة تتصاعد في أعماله النّاضجة، تراه يصبّ جام غضبه على مختلف أنماط البشر، وعلى التّاريخ، لا بل على نواميس الكون نفسه، متأرجحاً بين أقصى الغضب على المقدّسات وما يشبه تقوى مكتومة. ولئن بدت لغته بالغة القسوة إزاء كلّ شيء، إلاّ أنّه غالباً ما أعرب عن تعاطفٍ عميقٍ مع الكائنات المسحوقة والمهمّشين. وهو ما نجده في «عطر خفيّ أو البهلوانات» وهي

أولى قصصه الفعليّة (بمعنى قصّة مكتوبة خارج مجال المحاكاة والتّقليد الذي ميّز نصوص صباه السّابقة لها). تصوّر القصّة في مزيج من الواقعيّة والبذخ الشّاعريّ للأسلوب مأساة امرأة يدفعها قبحها وفقرها إلى المرارة فالحسد فالانتحار. وبذا يخرج بها فلوبير من تصوّرٍ رومنطيقيّ سائدٍ لدى هوغو مثلاً، كان يرى في الفقر معادلاً للطّيبة وفي الحرمان دليلاً على البراءة. كما يقارب في «نوفمبر» عالم بائعات الهوى فيرى فيهنّ ضحايا مجتمعٍ يرتكب في الخفاء ما هو أفظع من صنيعهنّ وأذلّ. وفي «غواية الكتب» و«درس في التّاريخ الطّبيعيّ» يلامس أحد أكبر هواجسه في تلك الفترة، إذ ينفذ بنا إلى عالم بعض عشّاق الكتابة يأتون إليها عبر طرقٍ جانبيّة، هاوين جمع الكتب أو مُزجين أوقاتهم في نسخ الأعمال، وهو العالم الذي كان فلوبير الشّاب يخشى أن يكون من قاطنيه فلا يرقى إلى مصاف الكاتب أبداً. ولعلّ هذه الخشية أو رغبته في أن يلمع ناضجاً منذ أوّل نصّ منشور هي التي جعلته يقرّر عدم نشر نصوص صباه هذه. فباستثناء نصّين اثنين صدرا في نشرةٍ محليّة غير ذات بال، كان يبعث بنصوصه مخطوطةً إلى أصحابه، ألفريد لوبواتفان بخاصّة، في نسَخٍ وحيدة لم يسعَ إلى استرجاعها قطّ.

يؤكّد شرّاح فلوبير، معتمدين على تواريخ دفاتره ومخطوطاته، أنّه كان يمارس الكتابة الأدبيّة منذ أن عرف الكتابة - أي معالجة حروف الأبجديّة. أمّا النّصوص المترجمة ههنا، وهي مؤرّخة كلّها، فقد كتبها بين سنّ الخامسة عشرة والعشرين. وهي لم تُنشر إلاّ بعد وفاته بعشرين عاماً، إذ ظهرت روايته القصيرة «مذكّرات مجنون» في ١٩٠٠، ثمّ راحت طبعات نصوص صباه تتوالى، مغتنيةً بنصوصٍ جديدة كلّ مرّة. حتّى نُشرت آثار فلوبير الكاملة في ترتيب جديد في سلسلة لا بلياد Collection

de la Pléiade، التي تصدر في منشورات غاليمار Gallimard بباريس، فخُصِّص جزؤها الأوّل الذي رأى النور في 2001 لأعمال الصّبا هذه. يجمع هذا الجزء منها ما مجموعه 1667 صفحة، ويضمّ قصصاً وحكايات وشذرات فكريّة ومحاولات مسرحيّة مكتملة وأخرى غير مكتملة، وكذلك صيغة أولى من رواية «التّربية العاطفيّة» التي عاد إليها فلوبير في سنوات النّضج وحوّلها إلى عملٍ عظيم. وما كان في مقدورنا بطبيعة الحال اختيار كلّ هذه النّصوص للتّرجمة، لا لضخامتها فحسب بل لأنّ العديد منها لا يهمّ سوى الباحث المختصّ أو القارئ الرّاغب في رصد تطوّر فلوبير وتنامي لغته الأدبيّة. فحصَرنا الاختيار بالنّصوص السّرديّة المكتملة، التّالية لمرحلة التّقليد والمحاكاة، وببعض الكتابات التّأمّليّة.

ينبغي الإشارة أخيراً إلى أنّ حلم فلوبير القويّ هذا بالكتابة يتجلّى عبر طريقة تدوينه لنصوصه. يبرز هذا في أربعة عناصر ماديّة توقّف عندها نقّاده وشرّاحه، وقد حرصتْ هذه التّرجمة على الحفاظ عليها كما هي. أوّلها استهلاله أغلب النّصوص بعبارة مقتبسة من أحد كبار الكتّاب تشكّل ما يشبه سنداً ودعامةً لمغامرته الأدبيّة. ويلي القبسة في كثيرٍ من الأحيان تقديم موجز يشرح فيه فلوبير نيّته في الكتابة وخطّة نصّه وأحياناً ظروف تأليفه. وثانيها الإهداء، فأغلب النّصوص مهداة إلى صديقٍ له، والإهداء يلتحم أحياناً بالعنوان نفسه ويتكرّر في بعض النّصوص على نحوٍ غير مسبوق. وثالثها حرصه على ذكر تأريخ كتابة النّص، وهنا أيضاً يتكرّر التّأريخ أحياناً في بداية النّصّ وفي ذيله، لا بل حتّى في ذيل التّقديم الموجز الذي به يمهّد الكاتب الشّابّ لعمله. وآخرها التّوقيع، وهو أيضاً يتكرّر أحياناً في أوّل النصّ وخاتمته، وغالباً ما يختصر فلوبير اسمه الأوّل، غوستاف Gustave، إلى حرفه الأوّل: G، أو إلى بدايته ومنتهاه:

Gve، مركّزاً على اسم الشّهرة، ماحياً إذن الشّخص، شخص الأحوال المدنيّة إذا جاز القول، ورافعاً من نفسه فاعلَ كتابة. هذه العناية بالتّوقيع تتراجع كما هو معلوم في عمل فلوبير النّاضج، الذي لطالما اشتكى من التّركيز على شخص الكاتب، سواء أتى هذا التّركيز من قرّائه المعجَبين بعمله ومن نقّاده أو في متابعات المحاكمة التي ساقه إليها القضاء الفرنسيّ لدى صدور «مدام بوفاري»، كما فعل مع بودلير في العام ذاته (1857) لدى صدور مجموعته الشعريّة «أزهار الشرّ»، وللباعث المشار إليه أعلاه نفسه. لكن سواء في محو الاسم الأوّل أو الشخصيّ ورفض الانصياع لغواية النشر في مرحلة الصبا، أو في حياة ناسك الأدب التي اختارها فلوبير في مرحلة النضج، نقابل لديه دوماً إرادة الانصهار بالعمل الأدبيّ هذه، التي يودّ فيها الكاتب لو يصير جزءاً من آلة الكتابة، ما يدعوه هو نفسه «إنساناً–يراعاً» homme-plume. هذا الحلم، وإن اختلفت طرائق التعبير عنه، يخترق ويُهيكل بدايات فلوبير الأدبية المطروحة هنا بين أيدي القرّاء، ويشحنها بطاقة مبدعة تمدّها بقيمة تتجاوز القيمة التاريخيّة المحض لتلقي بنا في أعماق الأدب.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

عِطرٌ خفيّ
أو
البهلوانات

– حكاية فلسفيّة، أخلاقيّة أو لا أخلاقيّة –
(كما تشاؤون[1])

أبريل/ نيسان 1836

توطئة

هذه الصفحات المكتوبة دون اتّساق، أو نظام، أو أسلوب، حريٌّ بها أن تبقى مدفونة في غبار دُرجي. وإذا كنت أُغامر بإطلاع ثلّة من الأصدقاء عليها فتلك دلالة على ثقتي بهم، وجديرٌ بي أن أوضّح لهم الفكرة الكامنة وراءها.

أردْتُ أن أضع فيها بهلوانتين[2] مواجهةً، الأولى قبيحة، محتقَرة، درداء، معنّفة من قِبَل زوجها، والثانية جميلة، مكلّلة بالأزهار والعطور والحبّ؛ وأن أجمعهما تحت سقفٍ واحد، وأجعلهما تكتويان بنار الغيرة

---

(1) كتبها باللّاتينيّة: ad libitum. (الحواشي من تحرير المترجمة، أفادت في بعضها من ملاحظات شرّاح قصص فلوبير).

(2) مع أنّ بطلتي القصّة هما بهلوانتان اثنتان، فقد آثرنا صياغة العنوان على الجمع لأنّ القصّة تضيء على عالمَ الحواة والبهلوانات وموسيقيّي الشوارع كلّه.

حتّى النهاية التي ارتأيتها غريبة مريرة. ثمّ، بعد إظهاري كلّ هذه الآلام الدفينة، والجراح المموّهة بالضحكات المزيّفة وأزياء الاستعراض، وبعد رفع حجاب الدعارة والكذب، أن أستحضر في ذهن القارئ السؤال التالي: على مَن يقع الإثم؟

بالطبع، لا يقع الإثم على أيّ من شخصيّات هذه الدراما، بل هو وليد الظروف، والأحكام المسبقة، والمجتمع، والطبيعة التي تبدي وجه الأمّ الشرّيرة.

وسأسأل بعدئذٍ محبّي البشر الأسخياء الذين لا يملكون براهين على التقدّم الفكريّ إلاّ سكك الحديد والمدارس الابتدائيّة، سأسأل هؤلاء العلماء الأفاضل، إنْ همْ قرأوا قصّتي، أيّ علاج سيقترحون لمداواة العلل التي أبثتُها لهم. لا شيء، أليس كذلك؟ وإذا وقعوا على الكلمة المناسبة قالوا «إنّه القدر»[1]، فالذنب يعود لهذه الألوهة القاتمة الغامضة التي تولد مع الإنسان وتبقى بعد موته، التي تترصّد كلّ عصرٍ وكلّ سلطانٍ، وتضحك مكشّرة عن أنيابها الوحشيّة إذ ترى الفلاسفة والناس يستبسلون في ابتداع السفسطات لينفوا وجودها فيما هي تهصرهم بقبضتها الحديديّة كعملاقٍ يلهو بجماجم متيبّسة!

غوستاف فلوبير[2]

شباط/ فبراير 1836

---

(1) وردت باللغة الإغريقيّة في النصّ (anakné)، وتعني «الضرورة» أو «القدَر».

(2) وقّع النصّ، كما يفعل في أغلب نصوص صباه هذه، مختصراً اسمه الأوّل: Gve Flaubert. وحده «درس في التاريخ الطبيعيّ» مذيّل بالحرفين الأوّلين لاسمه الأوّل واسم شهرته: G. F.، ووحدهما «مذكّرات مجنون» و«نوفمبر» لا يحملان توقيعه. انظر بصدد توقيع فلوبير الشابّ ديباجة الكتاب.

عِطرٌ خفيّ
أو
البهلوانات

1

أوشك العرض أن يبدأ. راح بعض العازفين يُدَوْزِنون مزاميرَهم وكمنجاتهم الجارحة أنغامها، فيما احتشدت بعض الجموع حول الخيمة، والتمعت أعينُ الفلاحين دهشةً وبهجةً وهم يحدّقون باللّافتة الكبيرة حيثُ كُتب بأحرفٍ حمراء وسوداء ضخمة: «فرقة السيّد بدريّو البهلوانيّة».

وعلى مسافة أبعد، تَرى على قماشة مربّعة مزدانة بالرسوم، صورةً بيّنةً لرجلٍ مفتول العضلات، عارٍ كمتوحّش، يسند إلى ظهره كميّة أثقال هائلة، وتتدلّى من فمه راية صغيرة ثلاثيّة الألوان كُتِبَ عليها: «أنا هرقل الشمال».

أمّا أن أقول لكم ما كان بيارو[1] يصرخ به من أعلى منصّته، فأنتم أدرى منّي بذلك. لا شكّ أنّ هذا المشهد الهزليّ استوقفكم في طفولتكم مراراً وضحكتم كالجميع من اللّكمات والرفسات التي تنهال فجأة على «الحكواتيّ» وتقاطعه في عزّ خطبته أو حكايته.

لكنّ المشهد كان مختلفاً داخل الخيمة: ثلاثة أطفال، أصغرهم لم يكد

(1) بيارو: رجل متنكّر بلباس مهرّج في المسرحيّات الإيمائيّة (البانتوميم). شخصيّة من الكوميديا الإيطاليّة.

يبلغ السابعة، يقفزونَ على الدرابزين الداخليّ للدرج، أو يتمرّنون على الحبل استعداداً للعرض.

بدا عليهم الوهن والضعف، واتّسمت سحناتهم بالشحوب، وملامحهم بالتعاسة والعذاب.

كنت سترى دون مشقّة عبر صدريّاتهم الورديّة المطرّزة بخيوط فضيّة، وخلف المساحيق التي تلوّن خدودهم، والابتسامة اللطيفة التي كانوا يتمرّنون عليها آنذاك، أطرافهم الناحلة وخدودهم الغائرة من جرّاء الجوع والدموع الخفيّة.

قال الأكبر سنّاً لأخيه الذي كان يتسلّق الحبل مستنداً إلى قوّة معصمه وحدها:

- أوغست... ألا ترى...

ثمّ ردّد بصوتٍ منخفض وكأنّه يخشى أن يسمعه الرجل العابس الذي كان يجول حولهما:

- أوغست... يبدو لي أنّ وقتاً طويلاً مضى على غياب والدتنا.

فقال أوغست مطلِقاً تنهيدة عميقة:

- نعم، أنت على حقّ، مضى وقتٌ طويل على غيابها.

- ألم أمنعك يا إرنستو أن تتحدّث عن تلك المرأة؟ كانت تزعجني وقد رحلت بعيداً، وهذا أفضل. اخرس إذنْ. وفي المرّة القادمة إذا سمعتك تلفظ اسمها ثانيةً فسوف أضربك ضرباً مبرِّحاً.

وخرج الرجل إلى الشارع بعد هذه التوصيَة.

ما إن ابتعد بدريّو حتّى قال الصبيّ:

- اللئيم! إنّه هكذا دوماً لا يفتح فاه إلّا ليتلفّظ بأشياء قاسية تجرح القلب. على الأقلّ كانت أمّنا المسكينة تُحبّنا.

قال الأخ الأصغر:
- آه كم يُحزنني غيابُها.
وأخذ يبكي.
قال أوغست:
المسكينة، كان يضرِبُها لأنّها قبيحة على حدّ قوله.
امسحْ دموعك بسرعة. بدأوا يدخلون. يجب أن تبتسم.

***

شغل الجميع أمكنتهم على المقاعد، وسرعان ما امتلأت الخيمة بعد انتهاء التمثيليّة التهريجيّة أمام بابها. ودخل بدريّو هوَ نفسه بعد أن ردّد عدّة مرّات: يا سادة، يا سادة، الدفع عند الخروج.

بدايةً، صعد الأصغر سناً بين الأولاد بِخُطى رشيقة الدرجَ المُفضي إلى الحبل. بدت خطواته الأولى متردّدة لكنّه ما لبث أن تشجّع لدى سماعه جملة بدريّو المبتذلة التي كان يردّدها في كلّ لحظة مشيِّعاً أدنى حركاته:

- تشجّع يا فتى، تشجّع. جيّد، لا بل جيّد جداً. سوف تحصل على حصّتك من السكّر هذا المساء.

بعد نزوله صعد أخوه محاولاً القيام ببضع قفزات لكنّه ما لبث أن سقط على رأسه. فانتشله بدريّو موجِّهاً إليه نظرةً ساخطة. فتوارى عن الأنظار وهوَ يبكي.

وجاء دور إرنستو.

أخذت أطرافه كلّها ترتجف. وتضاعف خوفه عندما رأى والده يلتقط عصا صغيرة من الخشب الأبيض كانت ملقاة على الأرض.

تحلّق المتفرّجون حوله وهوَ يتسلّق الحبل فيما حدَجَه بدريّو بنظرات زاجرَة.

توجّب عليه التقدّم.

يا للفتى المسكين! يا لنظراته الفزعة وهوَ يُتابع متهيّباً العصا المتمايلة أمام عينيه وكأنّها قاع الهاوية للواقف على شفا جرفٍ هارٍ!

أمّا العصا فكانت تتابع كلّ حركة يقوم بها الراقص، تنخفض برقّة كيما تشجّعه، وتهتزّ بغضب لتهدّده، وتُرشِده ضابطةً إيقاع الرقص على الحبل. موجز القول إنّ العصا كانت ملاكه الحارس وطوق نجاته، وأيضاً سيف ديموقليس المسلّط فوق رأسه إنْ هو قام بخطوة عاثرة.

منذ بعض الوقت كان وجه إرنستو يتقلّص متشنّجاً. ثمّ سُمِعَ في الهواء صَفير. وما لبثت عينا الراقص أن امتلأتا بالدموع الغزيرة وشقّ عليه كتمانها.

والحال أنّه نزل سريعاً عن الحبل تارِكاً آثار دماء عليه.

كان هرقل الشمال، وهو الاسم المسرحيّ لبدريّو، قد بدأ في استعراض قواه حين سُمِع شجار عند الباب بين الحارس وأحدهم.

- قلت لكِ ممنوع الدخول. ألم تفهمي: ممنوع الدخول.

- بل أريد أن أدخل.

- لا نستقبل هنا أمثالكِ.

- أريد أن أتحدّث إلى بدريّو. أريد أن أتحدّث إليه، هل تفهم؟

فردّد الحارس الأمين غاضباً:

- ابتعدي من هنا... قلت لك، ممنوع الدخول وأنتِ في هذه الثياب. هنا لا نستقبل المتسوّلين.

لفت الشجار انتباه الحضور. وذهب بدريّو لرؤية مَن يطلبه.

قال للمرأة التاعسة المرتدية الأسمال:

- أف! هذه أنتِ أيّتها العجوز الخبيثة. لم أتوقّع رؤيتك بهذه السرعة. أين كنت؟ لكن اسمعي ستقولين لي كلّ التفاصيل لاحقاً. ادخلي يا مرغريت، نحن نقوم بالعروض الآن. هيّا ستساعديننا. ستقفزين، هل فهمت. قدّمي أفضل ما لديكِ.

لم يكن هناك مجال للرفض، ومع ذلك جازفت بأن تقول له:

- بدريّو، أنت تعرف أنّهم سيهزأون منّي فثيابي رثّة.

أرادَت أن تُضيف شيئاً آخر بعد لكنّها لم تجرؤ.

- ادخلي، ادخلي.

توجّب عليها الانصياع للأوامر. لكنْ، لم يكد يراها المتفرّجون حتّى تصاعدت همساتهم واندفعوا يقهقهون ساخرين منها، وما أشبه ضحكاتهم بالضحكات المسعورة في وجه من زلّت به القدم، أو بتلك التي تطلقها الكبرياء المتسربلة بالذهب هازئةً من بؤس الدعارة، أو تلك التي ينفثها الطفل على الفراشة بعد انتزاع جناحيها.

صعدت مرغريت الدرج بمشقّة، وما كادت تقوم بخطوتين حتّى سقطت بكلّ ثقلها أرضاً. أطلقت صرخة حادّة، وتهشّمت العصا حطاماً.

وبلمح البرق أقفرت الخيمة. وخرج معظم المتفرجين.............

أثار هذا الشجار العائليّ الأخير استنكار العدد الأكبر من الحضور، وبدّد أمل صبيّ صغير ورديّ الخدّين مستديرهما كان قد رغِب حتّى تلك الساعة في أن يكون بهلواناً لِيحصل على سروالٍ ورديّ وحذاء من جلد الماعز.

2

قالت مرغريت عندما أصبحت وحدها بمعيّة أولادها وبدريّو:

- ألم أُخطِرك بالأمر؟
- ماذا دهاك؟
- أنا مريضة، لا أزال أتألم. آه أتألّم كثيراً. بدريّو ليتك تحبّني كما أحبّك.
- كفى يا مرغريت لا تبدأي شكواك مجدداً. تعرفين أنّ ذلك يزعجني. لِنَرَ: ممّ كنت تشكين؟
- كيف! أنت أدرى منّي... ألا تذكر ذاك اليوم حين سقطتُ كما حصل لي منذ قليل... فكُسِرَت ساقي... عند المساء، لم أشأ تناول الطعام، بكيت كثيراً، خفتَ أن أقول لك إنّني بتّ عديمة النفع بالنسبة لك... لم أشأ الذهاب إلى المستشفى خشية أن أترك إرنستو وغاروفا.
- ومع ذلك ذهبت إلى المستشفى.
- نعم للأسف وإلاّ لَكنت قضيت نحبي.

وأوى البهلوانات إلى خيمة مصنوعة من الكتّان الصلب وُضع خلفها على موقد من الجمر حساء العشاء الذي كان يغلي على نارٍ هادئة.

هبط الليل بارداً رطباً. هبّت ريح خريفيّة عنيفة وانقضّت على أشجار الجادّة، متغلغلةً بين الفينة والأخرى في الخيمة، مرجّفةً نور الشمعة التي تحلّق من حولها البهلوانات جالسين على صندوقٍ كبيرٍ ضخم، وقد وضع كلّ واحدٍ منهم قصعته أمامه مدفئاً أصابعه المرتعشةَ بالبخَار المتصاعد من الحساء.

اخترق نور المشعل الهزيل الذي ينير المكان عتمة الليل وجعل ينعكس

على وجوههم المتلاصقة مضفياً عليها مظهراً غريباً غامضاً.

مكث الجميع ساكتين منتظرين أن يقطع شيء ما حبل الصمت. إلى أن بادر بدريّو بالكلام ناظراً إلى مرغريت مستأنفاً الحديث الذي كان قد بدأه منذ نصف ساعة:

- كنت في المستشفى إذنْ... هل شفيت الآن؟

رفعت مرغريت رأسها ونظرت لِوَهلة إلى أطفالها، ثمّ خفضته وراحت تبكي وهي تقول بِصوتٍ خافت:

- لا، لا أزال أعرج في مشيتي.

- ماذا أفعل بك يا مرغريت؟ لنرَ لأيّ شيءٍ تصلحين!

مالت المرأة المسكينة ناحية زوجها وهمست في أذنه بعض الكلمات. فقال: «أيّها الأولاد اذهبوا للنوم. هل سمعتم ما أقول؟ هيّا إلى النوم» .

***

بدت هذه الجملة غريبة لغاروفا الذي قال بنبرة حزينة:

- والسكّر؟

ابتسم بدريّو بمرارةٍ قائلاً: «ستكون محظوظاً إن استطعتِ الحصول على الخبز غداً أيّها الطفل البائس» .

كانت ابتسامته صفراء؛ افترّت شفتاه المزرقّتان بفعل البرد عن صفّين من الأسنان البيضاء، ثمّ حدّقت عيناه السوداوان الكبيرتان بالطفل بطريقة ألقت الرعب في نفسه.

في تلك اللحظة، اشتدّت الريح فسُمِعَ انقصاف ألواح الكوخ.

- لكنّك وعدتني بأن تعطيني سكّراً.

- أقفلْ فمك، قلت لك.

- أبي، أتوسّل إليك.

ودفعه بقوّة، فذهب الطفل للنوم وهو يبكي.

كان بدريّو يتألّم أسوةً بطفله، وراحت أسنانه تصطكّ لِفرطِ تشنّجه.

قالت مرغريت:

- كم كنت قاسياً معه!

- هذا صحيح.

واسترسل في شرود عميق وكأنّه سارح بأفكارٍ تتنازعه.

عصفت هبّة ريح أخرى وأطفأت الشمعة.

قالت مرغريت وهي تقترب منه:

- أشعر بالبرد. أشعر بالبرد حقاً، أعِرني معطفك.

- معطفي!... لكنّي بِعت معطفي.

لماذا؟

- لشراء الخبز يا مرغريت... ألا يتوجّب عليّ أن أعطيَك بعضاً منه أيضاً؟

- ماذا أردْتَ أن تقول لي منذ قليل؟ قله الآن وقد صرفْتَ الأولاد...

- ماذا كنت أريد أن أقول... لا أعرف...

- لكنّي أشعر بالبرد حقاً.

- ماذا أفعل يا مرغريت، لم يتبقَّ لديّ شيء إطلاقاً.

ثمّ قال بعد صمتٍ: «لا شيء إلّا فلس واحد..».

- آه أشفق عليّ يا بدريّو.

وعانقته بذراعيها الحمراوين الناحلتين.

إذْ ترى هذه المرأة القبيحة المرتدية الأسمال وهي تعانق بحبٍّ جارف

ذاك الرجل الذي يصدّها وكأنّ شعوراً عفوياً يدفعه إلى ذلك... إذْ ترى هذا البؤس وهذا الحنان مجتمعين، يخيّل إليك أنك أمام مشهدٍ منفّرٍ وسامٍ في آنٍ معاً.

قال بدريّو:

- اسمعي، غداً تذهبين إلى الساحة برفقة الأولاد، تأخذين كمنجتي وتبذلين جهدك لكسب ما يُعيلنا.

وما هيَ إلّا نصف ساعة حتّى غفا جميع البهلوانات، وهدأت الريح.

وسطع القمر، منعتقاً من الغيوم التي تطوّقه، جيلاً بهيّاً بانعكاسه على رقاق الجليد الأبيض، وغمر بلونٍ فضيٍّ اللّافتة التي توقفت عن التأرجح والانثناء. كانت الخيمة ساكنة ومع ذلك كانت تُسمَع أحياناً تنهّدات وشهقات.

كانت امرأة تبكي.

3

في صباح اليوم التالي، استيقظت مرغريت باكراً جدّاً. لم تنم طيلة الليلة. نَدِيت يداها بعرق لزجٍ سقيم، ورشحت رطوبة محمومة من قدَمَيها، وشعرت برأسها حارّاً حارقاً.

أخذت معها كمنجة بدريّو وسجّادة فارسية قديمة، ثمّ خرجت برفقة إرنستو وغاروفا.

ألم يسبق لكم أن لمحْتُم في طقسٍ مثلجٍ أو ماطرٍ شحّاذاً جالساً القرفصاء أمام أبواب كنيسة؟ ألم تشعروا مساءً عند منعطفِ شارعٍ مظلمٍ وضيّق بيدٍ تمسك بمعطفكم؟ ثمّ ندّت منكم التفاتة... فرأيتم متسوّلاً

مرتدياً الأسمال، أو امرأة فقيرة تقول لكم دامعة العينين بنبرةٍ مريرةٍ: أنا جائعة. ثمّ راحت تشهق بالبكاء لدى تواري خيالكم، إلى حين وقوفه أمام باب المسرح وسط العربات المطهّمة وبزّات الخدم المزدانة بشرائط ذهبيّة.

ربّما تذكّرتم لاحقاً في أثناء فاصل مسرحيّ تلك الوجوه الحزينة الشاحبة التي رأيتموها على ضوء الفوانيس. وإذا كنتم من الأجاود خرجتم لرؤيتها من جديد وتقديم المساعدة لها. لكنّ الأوان قد فات... ربّما دخلت المرأة إلى الماخور، وشرعت في ممارسة الدعارة لتشتري رغيف خبز، أو لاذ المتسوّل تحت قناطر جسر «بون نوف» مكافحاً للبقاء على قيد الحياة، فيما الأوركسترا تواصل عزفها والأيدي تصفيقها الحارّ.

بالنسبة لي، لا شيء يحزنني كالبؤس المحتجب خلف أسمال الثراء، كشريط الخادم الذي يزيّن رأسَ الفقر العاري، كالغناء يغلّف الشهقات، كالدمعة مغسولةً بقطرة عسل.

وهكذا أنظر بعين الشفقة والأسى إلى البهلوانات وبائعات الهوى.

لكنْ، لو صادفتم مرغريت برفقة أطفالها، لو رأيتم مرغريت تعزف على الكمنجة وصغارها يقفزون على السجّادة، وشاهدتم بأمّ أعينكم لا مبالاة هذا الحشد الفضوليّ البربريّ الذي يراقبهم بنظراته البلهاء الساخرة، لانفطر قلبكم لمرأى هذه الأنانيّة التي فاقت كلّ حدّ.

هذا صحيح، المجتمع منشغلٌ بأمورٍ أخرى أهمّ بكثيرٍ من رؤية بهلوانة وولدَيها. والدولة قلّما تكترث بتأمين القوت لهذه المرأة، زد على ذلك أنّها لا تملك المال لتعطيها... ثمّ أليس من الأولى بها أن توزّعه على جلاّديها الستّة والثمانين؟

وبالفعل، أعترف، لا أحد مستعدّ في صبيحةٍ قاسيةٍ من نوفمبر لأن

يتوقّف لمشاهدة مهارات بدنيّة أو يهتمّ برؤية مرغريت.

كانت ممتلئة القامة سيّئة التكوين، شعرها الأحمر مرفوع بمشبط من العظم الأبيض. أمّا فستانها فكان محتجباً تحت قطعة قماش مثقوب من اللّون البنيّ تلفّها حتّى الركبتين. إن أنتَ خفضْتَ بصرك إلى الأسفل رأيْتَ ربلتي ساقين ثخينتين مكسوّتين بجوربين ورديّين، وقدمين عريضتين تنتعلان مداساً من جلد سميك متشقّق. وإذا نظرت إلى الأعلى وجدْتَ على رأسها قلنسوة من الشّف مزدانة بشرائط ورديّة وبضع أزهار ذابلة تنسدِل على الوجنتين الشاحبتين والفم الخالي من الأسنان.

مرّت حوالى الساعة وإرنستو وغاروفا يبذلان قصارى جهدهما ليجتذبا أنظار المارّة. وراحت مرغريت بصوتها الأجشّ المتلجلج بالدمع تنادي مستنجدة بِكرَم العابرين إلى أن مرّت، أمام الراقصين، عربة برّاقة يقودها حصانان أبيضان ورمتْهم بالوحل. رأت مرغريت معطفها وجوربيها الورديّين وقد اكتسا بالوحل فأطرقت رأسها إلى كمنجتها وذرفت دموعاً سالت على صندوق الآلة الموسيقيّة وغارت داخله. ازدادت دموعها غزارة فأخفت رأسها تحت معطفها. وعندئذٍ استسلمت لحلم غريبٍ أليم. رأت نفسها محاطة بعربات خيلٍ تقذفها بالوحل. رأت نفسها هزأةً، وموضعَ احتقار وازدراء. رأت أطفالها يموتون جوعاً بجانبها وزوجها يُصاب بالجنون. وعندئذٍ ازدحمت الذكريات في ذهنها، رأت سريرها حيث كانت مضطجعة في المستشفى، وتذكّرت الراهبة التي اعتنت بها، والضربات التي كان بدريّو أوقعها بها في العشيّة، والاستقبال المزري الذي كانت لاقته لدى ظهورها... عبرت كلّ ذكرياتها في خاطرها مثل خيالات ما إن تظهر حتّى تتلاشى ثمّ تمّحي مداورة. لم تكن نائمة بل تحلم وهي ترخي عينيها إلى صدرها وتذرف

دموعاً تسقط حارّة على يديها.

منذ بعض الوقت، كانت قد أقلعت عن العزف، وتابع صغارها الرقص والمارّة يتوقّفون لمشاهدتهم، فيما المرأة تمسك بكمنجَتِها دون أن تضرب على آلتها وتراً واحداً.

ثمّ ما لبثت أن استيقظت مذعورة. بدا وجهها المذهول بعينيها الرماديّتين الجاحظتين غريباً باعثاً على الضحك. وكذلك كان غريباً لباسها: جورباها الورديّان ومعطفها المثقوب المشابه للسجّادة المبسوطة على الرصيف، وأزهارها الذابلة، وشعرها الأحمر.... كان كلّ عابرٍ يرميها بكلمة واحدة - ما أقبحها! - ثمّ يمضي في سبيله ضاحكاً.

كان الطقس بارداً، لا بل شديد البرودة. انعدم إحساس مرغريت بأصابعها وعجزت عن تحريكها. فأفلتت الكمنجة من بين يديها... فتحطّمت هذه متناثرة شظايا على السجادة محْدثة صوتاً حادّاً منفّراً.

نظرت إلى قطع الكمنجة وهي تتدحرج لبعض الوقت مكتوفة اليدين لاهثة الصدر. ماذا سيقول بدريّو عندما يرى مرغريت عائدة دون فلسٍ، فلسٍ واحد؟

كم كانت هذه الفكرة تُعذّب مرغريت، كم كانت تضنيها، تمزّقها دون رحمة. تصوّرت ألف خطّة تافهة تداري بها غضب زوجها. مرّت بخاطرها مثل كابوس، لا تكاد تظهر واحدة حتّى تتلاشى ممحوّة بأخرى أكثر غرابة منها.

تارةً كانت تريد أن تهرب مع أطفالها، لكن أين؟ لا تعرف. المهمّ هو الهرب، الهرب من نظرة بدريّو الثاقبة الفظيعة، الهرب من ضحكته المشؤومة، ومن هذه الكلمات: «ماذا سيصير بحالنا يا مرغريت؟»

وتارةً أخرى كانت تفكّر بالله... ثمّ لا تلبث أن تستنجد بالشيطان

وتمنّى الموت.. لكنّها تعود فتتشبّث بالحياة من أجل أطفالها. ماذا سيصير بحالها دونها؟

وأخيراً دحرجت السجادة على شظايا الكمنجة، ورحلت عن تلك الساحة حيث واجهت إهانات كثيرة، وسحّت الدموع مدراراً.

إلّا أن فكرة مبهجة وردت على خاطرها فابتسمت لها بخفّة... فكّرَت أنّها ببيعها معطفها أو السجّادة، سوف يكون بإمكانها أن تجلب المال لبدريّو وتُصلِح كمنجتها.

....

لكنّ بدريّو بِدَورِه سيسألها ماذا فعلت بمعطفها.

هذه الملامة الحزينة التي وجّهتها لنفسها جعلتها أشدّ تعاسة من ذي قبل. وطفقت تشكو السماء التي تمنّ عليها برجاءٍ قليلٍ لا يلبث أن يخذله الواقع فينزل أشدّ إيلاماً وتعذيباً بالنفس.

***

كانت الساعة عندئذٍ حوالى الثانية أو الثالثة بعد الظهر. الشمس ساطعة وتدفئ الجوّ بحرارتها، كما يحدث أحياناً خلال آحاد الشتاء، والمدينة بأكملها تتنزّه في الجادّات. آذنت صلاة العصر وكان الكثير من الناس يجْرون منهمكين في الشوارع، وبعض المحلّات كانت ما تزال مفتوحة.

توقّفت مرغريت أمام محلّ للحلويات فاحت منه رائحة دافئة زكيّة، رائحة قطع الحلوى الخارجة لِتوّها من الفرن، مدغدغةً أنوف العابرين.

تريّثت أمام الواجهة فرأت داخل الدكّان أمّاً مع طفليها اللّذين يقاربان سنّي إرنستو وغاروفا، صبيّين لطيفين أشقرَي الشعر، سحنتهما نضرة ورديّة، وثيابهما نظيفة مرتّبة، وملابسهما الداخليّة الظاهرة عبر ربطة العنق الساتان بيضاء كالسكّر الذي يغطّي قطع الحلوى التي يلتهمانها.

أوجع هذا المنظر قلب مرغريت.

وكان إلى جانب المرأة المرتدية قبّعةً ومعطفاً أخضر مزداناً بزنّار مجدول مذهّب، وصيفة تحمل بين ذراعيها كلباً إسبانيوليّاً[1] صغيراً أسود. عندما اكتفى الطفلان من أكل الحلوى منحا فضلتهما للحيوان وهما يحثّانه على أخذها بمداعباتٍ مفرِطة. استشاطت مرغريت غضباً، هي الجائعة، هي التي طالبها أطفالها أكثر من مرّة خلال النهار بالخبز، بكسرة خبز واحدة. أحسّت بجبينها حارقاً فألصقته بالزجاج لتبرّده.

عندما سدّدت السيّدة ثمن الحلويات، خرجت مع طفليها ولدى مرورها لامس حفيف ثوبها الحريريّ يدَي مرغريت.

وبشعورٍ غريب شقّ عليها تفسيره، بقيت طويلاً هناك أمام المحلّ ووجهها ملتصق بالزجاج. لكنّ بائع الحلوى انزعج منها وصرفها وهو يشتمها.

أنّى لها أن تردّ عليه؟

لدى اجتيازها شارعاً مظلماً متعرّجاً، رأت امرأة ممدّدة على سريرٍ تنشد أغاني داعرة. عندئذٍ فكّرت من جديد ببدريّو وبمصيرها... ثمّ نظرت إلى هذه المرأة طويلاً مستمعةً إلى الأغاني.

لا، لا هذا غير ممكن... مَن يرغب في واحدة مثلي؟

(1) كلب صغير قصير القوائم طويل الوبر كبير الأذنين يُستعمل للصيد، جاء اسمه من البلد المتحدّرة منه هذه الفصيلة.

4

يتدحرج الذهب على الطاولات. لم تكن تلك مَقْمَرةً مرخّصاً لها قانونيّاً، كمَقَامِرِ القصر الملكيّ حيث كنت ترى وزراء وأمراء ومصرفيّين يأتون بربطات عنقهم الأنيقة، ونظراتهم الباردة التي تشي بخبرتهم الفائقة في هذه التجارة المشبوهة.

بل كان ذاك ملهىً، بكلّ دعارته الشائنة، أحد هذه الأكواخ التي يُعثر فيها أحياناً صباحَ اليوم التالي على جثّة مشوّهة ممدّدة وسط كؤوس محطّمة وأسمالٍ مضرّجة دماً.

كانت القاعة منخفضة وجدرانها مسودّة من الدخان. أحاط رجال متّسخو الثياب بالطاولات التي تحلّق حولها رجال آخرون يلتمع الجشع في أعينهم المتوقّدة المظلّلة بحواجب كثيفة. كانوا يُصرّون على أسنانهم ويقبّضون أيديهم غضباً. وخلف تجاعيد جبهاتهم القاتمة تستشفّ قلقاً ربّما أثقلته جرائم كثيرة.

كانت بعض النساء يتجوّلنَ حولهم بهدوءٍ شبه عاريات. وعلى مسافة بعيدة في إحدى الزوايا فتاة يافعة ممدّدة على الأرض موثقة إلى حبال، يحرسها رجلان مسلّحان راحا يقترعان بواسطة عيدان مختلفة الطول.

ربّما كنت ترتجفين أيّتها القارئة الحبيبة من هذا الوصف لِنصْف المجتمع، أي الملهى، أمّا النصف الآخر فهو المستشفى والمقصلة.

أوَمَا أيقنْتِ أيّتها الطفلة الصغيرة التي أعمتْها تربية خبيثة عن رؤية الواقع، أنّك لم تنحدري بعدُ إلى مَهاوي البؤس، ولم ترَي هذيانه، ولم تسمعي زئير غضبه، ولم تسبري عمق كلومه، ولم تدركي آلامه المريرة ويأسه وجرائمه؟

آه أيّتها الفتاة الشابّة المسكينة كم منَ الأماكن تجهلين وجودها. ذلك أنّهم حجبوا عنك كلمة تختصر كلّ مجتمعنا: العهر.

ثمّ عندما يجرف المكشطُ الذهبَ عن الطاولة وتبدّد قرقعته الحادّة صمت الانتظار، تُسمَع أفظع الشتائم، وتلوح في التوعّدات نبرة القتل، وقد تُرتكبُ في الحال أفعالٌ ثأريّةٌ، وربّما رأيتَ التماع نصلِ خنجرٍ وهو ينغرز في صدر رجلٍ.

عندئذٍ... يعمد مسيِّرُ القمار إلى تفريق المتقاتلين برَميِ امرأة بينهم.

ثمّ سُمِعَ طرقٌ عنيفٌ على الباب.

فُتِح الباب فدخل رجلٌ.

كان يرتدي ثوب بهلوان.

كان طويل القامة، وشعره الأسود الكثيف المشعّث يغطّي عينيه ويَحول دون رؤية تعبيرهما. لا بدّ أنّ تعبيرهما كان رهيباً في تلك اللحظة. كانت يده اليُمنى تقبض بقوّة على شيءٍ ما. قال وهوَ يرمي ماله على الطاولة: خذوا... خذوا... ثمّ توقّف مطلِقاً ضحكة متشنّجة. خذوا هذه عشرة فرنكات.

لكم أن ترثوا لحال هذا المقامر، هذا البهلوان، هذا الرجل الفاجر الذي لا يحبّ طفليه ويضرب زوجته. ارثوا لحاله لأنّه دنيء، وبهلوان، ورجل فاجر، رجل يضرب زوجته ولا يحبّ أولاده.

ذلك أنّ البؤس شاءه بهلواناً، ودفعه إلى الميسر وقد عضّه الجوع. لا بدّ أنّ تربيته أيضاً جعلت منه رجلاً سيّئاً، وشاء القدر أن يقترن بزوجةٍ قبيحةٍ، حمراء الشعر، ودرداء. أجل لديه زوجة صهباء، وأولاد لا يروقون له لأنّهم يتضوّرون جوعاً ويصرخون به، وصراخهم يؤلمه لأنّه لا يملك

ما يعطيهم.

ارثوا الحاله. منذ قليل، عادت زوجته... بعد أن حطّمت كمنجتها... ولم تأتِ بالخبز.

كانت الساعة السادسة بعد الظهر. الطقس بارد والجميع جائعون.

أوَتريدون أن يترك أطفاله يموتون، أطفاله البائسين الذين يجمعون أيديهم وكأنّهم أمام المذبح ويزحفون عند قدميه وهم يقولون له بابتسامة ودمعة: نريد خبزاً.

يركعون جامعين أيديهم أمام بهلوان: ترون جيّداً أنّ البؤس يدفع لتصرّفاتٍ رذيلة.

ومن ثمّ في غمرة يأسه، ضرب زوجته ولعن ولديه واستنجد بالشيطان.... ثمّ ألقم مسدسه.... وبحركةٍ آليّة تركه يسقط من يده. ارتفعت سخونة رأسه، ثمّ شعر بكلّ شيءٍ يدور من حوله، فباع سلاحه... وعندئذٍ دخل إلى صالة القمار... نظر بألمٍ إلى القطعتين النقديّتين اللتين كانتا في حوزته تتدحرجان على السجّادة، القطعتين اللتين ستقرّران مصيره، ومصير أطفاله وزوجته.

إذا خسر في هذه اللحظة فسيتحوّل إلى لصّ، وربّما إلى قاتل. وسيُساق إلى المقصلة. وستدلّ الأمّهات أولادهنّ عليه لدى مروره كأنّه وحش أو كأنّه مسخ قادر بنظرة واحدة منه على زرع الخوف في النفوس، وسيتدحرج رأسه على الصفائح الخشبيّة الرطبة... وسيَصبّ الحشد اللعنات على رأسه المبتور... وها قد استحال مجرماً كبيراً ذاك الرجل الذي ذنبه الوحيد أنّه جائع.

وزوجته، إذا لم تمت ألماً فستموت بؤساً، أو أنّها ستتحوّل إلى بائعة هوى حقيرة.

وستبصق الجموع في وجهها ضاحكة. إنّها زوجة قاتل، وبغيّ، وقبيحة.

أمّا أطفالها، فقد يلتقطهم إحسان المستشفيات، وسُيربّون على التوجّس من الآخرين وتجنّبهم. وسيُعطَون كساءً في البرد، وقطعة خبز عند الجوع، لكنّ دموعهم، آه من دموعهم، ستظلّ لوقتٍ طويل تنهمر على أوجههم، حافرةً في وجناتهم أخاديد...

وسيَرميهم أولاد الأثرياء لدى مرورهم بقطعة ذهب لامعة وهم يطلقون ضحكة ساخرة.

ثمّ عند بلوغهم سيقترفون جرائم تجسّد حقدهم على هذا المجتمع الذي لعنهم لأنّهم أبناء رجلٍ ملعون.

***

كلّ هذا كان يدور ويجول ويدوّم ويتراقص في رأس بدريّو.

كلّ هذه الأفكار كانت تتحقّق في خياله؛ لم يكن يبتدعها بل يراها ويُحسّها.

لكنّه لم يكن يفهم، على سبيل المثال، لماذا كانت عائلته على هذه التعاسة. لا لم يكن يفهم واشتدّت نقمته على السماء، ولو استطاع لدمّر الخليقة والكون.

كان يتنفّس بمشقّة... ويتنهّد أحياناً... ربّما خُيّلَ له أنّه سيُجَنّ. لديه عشرون فرنكاً... أخذها بفرح، عصرَها، قبّلها... ثمّ رماها بحركة مكابرة...

صدَحَت القاعة بالهتاف والصراخ... لمن هذا الذهب الذي تجرفه

أسنان المُكشط ويفيض عن الطاولة؟... إنّه لبدريّو الذي كسب لتوّه عشرة آلاف فرنك.

... بدريّو يضحك، ويبكي ويقفز، لكنّ ذاك الأخرق رماها على طاولة الميسر من جديد. إنّه سعيد في تلك الحظة، لديه عشرة آلاف فرنك. إنّه رجل صالح... باستطاعته أن يشتري لنفسه ثياباً ويُهدي ثوباً لزوجته وألعاباً لأطفاله، عشرة آلاف فرنك - باستطاعته بها يملكه من ذهب في جيبه أن يرمي في وجه البؤس حصّته منَ الخزي. إنّه رجل شريف -عشرة آلاف فرنك- مهلاً مهلاً! تشنّجت ملامحه، فترت ضحكته، باتت نظرته أقلّ توقّداً، ورأسه أقلّ شموخاً. هذا غير ممكن! مستحيل!: ليس لديه إلّا أربعمائة فرنك... يضع يده على صدره... بقي لديه خمسون فرنكاً... يطلق صرخة ألمٍ خافتة... ليس في حوزته إلّا خمسة فرنكات... ثمّ... لا شيء...

بدا أنّ حظّه السيّء لم يؤثّر به - وعندما سأله جاره عن عدم تأثّره قال له بنفس الضحكة والنبرة اللتين رمى بهما العشرة آلاف فرنك: «راقب جيّداً»، وكشف عن صدره، كان الدم ينزف منه، ونتف من اللّحم البشريّ تقبع على رؤوس أصابعه.

5

خيّم الليل، ليل حالك الظلمة، لا قمرَ فيه، ليل مخيف ترى فيه أشباحاً وأطيافاً متراقصة على جدران المدافن البيضاء، ليل تجعلك الريح فيه ترتجف ذعراً فينتصب شعر رأسك، وتسمع في البعيد العواء الشاكي لكلبٍ يحوم حول أحد المستشفيات.

خرج بدريّو من الملهى.

جاء هواء الليل المنعش ليبرّد جبهته ويعيد إليه الشعور الحقيقيّ بوضعه. لكنّ الخيال اجتاح الواقع شيئاً فشيئاً. راح يحلم أثناء سيره. واتّخذت جميع الأشياء التي يراها أشكالاً عملاقة. بدت له الأشجار التي هزّتها الريح بأعنف ممّا في الليلة السابقة أشبه ما تكون بأمساخ، وحاكت البيوت كلّها بيوت الميسر في نظره. إن سمع ضجيج فرقة موسيقيّة لدى مروره قرب حفلة راقصة خالها موسيقى الجحيم. وإذا رأى امرأة تدور أمام ستارة حمراء ظنّها مومساً. وبدا له اصطكاك الأقداح على الصواني أشبه ما يكون بعربدة. ثمّ أخذ الثلج يهبط، وحين نظر إلى ثيابه وجد نفسه متدثّراً بكفنٍ أبيض.

ومكتنَفاً بالثلج طفق يجول الشوارع راكضاً. أحياناً يتوقّف ليجلس على حافّة أحد الأنصاب، ثمّ يتأمّل شعاع القمر والغيوم السابحة بين النجوم، الغيوم المتّخِذة الأشكال الأكثر غرابة وتنافراً، المستحيلة أمساخاً مخيفة... ثمّ أكداساً من الذهب... أو امرأة برفقة أطفالها... أو أسداً يزأر في قفصه... أو مشرحة وجثّة ممدّدة على البلاط الرطب... كان يسمع صفير المسوخ ورنين الذهب على الطاولات، ويرى دموع تلك المرأة وأطفالها، وينصت إلى زئير الأسد... ويشتمّ الرائحة النتنة لتلك الجثّة المتقعة. نظر إليها طويلاً ثمّ اتّخذت الغيمة شكلاً آخر... شعر بالخوف وأخذ يركض دون أن يجرؤ على الالتفات خلفه. وعندما وصل أمام خيمته... كان مبهور الأنفاس، والاضطراب يعلو ملامحه.

ألفى مرغريت واقفة على الباب في انتظاره.

لم تجرؤ على طرح أيّ سؤال لأنها أدركت ما به، هي التي مزّق الشقاء روحها أكثر من مرّة. أدركت حقيقة العرَق الذي كان يتصبّب من وجهه،

وتبيّنت سبب الغضب الكامن خلف احمرار عينيه. خمّنت الأشياء التي يفكّر بها من شحوب جبهته وعرفت معنى اصطكاك أسنانه.

مكثا كلاهما هكذا دون أن ينبسا بكلمة؛ ودون أن يتحدّثا لا عن عذابها ولا عن قنوطها- لكنّ أعينهما مع ذلك باحت بمكنونات النفس وما فيها من أفكار حزينة أليمة.

في اليوم التالي، عندما استيقظ الأطفال من نومهم، أمرهم بدريّو بأن يحزموا أمتعتهم. ثمّ بادر هوَ نفسه إلى جمع خيمته وثنيها في العربة. وعند الساعة التاسعة صباحاً سارت العربة الصغيرة ببطءٍ على الطريق المفروشة بالبلاط تجرّها فرسٌ بليدة. منذ العشيّة لم يتوقّف المطر. راح ينقر جوانب المركبة الخشبيّة. وعلى وقع دمدمته المنتظم ممتزجاً بصفير الريح وأزيز سيور العربة غفا البهلوانات المتجمّعون فوق مظلاّتهم وثيابهم الاستعراضيّة.

كان الجميع مستسلمين للنوم تهدهدهم اهتزازات العربة عندما صادف إرنستو الذي كان يقود الحصان عربتين تحملان أقفاص حيوانات متوحّشة. وعندئذٍ ميّزَ مرقّص الحيوانات لدى مروره بعربة البهلوانات رأسَ بدريّو عبر الزجاج المكسوّ بالبخار. والحال أنّ بدريّو كان صديقاً قديماً.

وبضربةٍ من سوطه أيقظ الفرقة. أمّا الكلمة الأولى التي وجّهها لرفيقه فكانت شتيمة مصحوبة بعبارات من قبيل: «يا ابن كذا وكذا، أيّها النذل»، ثمّ بعد هذه المقدّمة افتتح حديثه قائلاً: «الماء دافقٌ اليوم. يظهر أنّ السماء تفرغ مخزونها من النفايات» .

رفع بدريّو وجهه الممتقع ناظراً إلى هذا الرجل بدهشة ثمّ فتح كوّة النافذة وقال:

- هذا أنت!!

- بربّك قل لي ألم تعرفني؟ لمَ هذا التعالي مع أنّك لا تبدو ذا مالٍ. ولا أظنّك جديراً بأن يكون لديك مثلي مجموعة حيوانات.

وإذ قال هذا، أشار بإصبعه إلى أقفاصه وإلى فتاة شابّة جالسة قربه. وعند أوّل قرية وصلا إليها، أدخلا العربتين تحت هري مزرعة وهناك نزل البهلوانات وتبادلوا القبلات.

لم يشقّ على بدريّو أن يقبّل إيزابيلّا.

أمّا أن يعانق ايزامبار فكان الأمر بالنسبة له مختلفاً تماماً.

سأل صديقه:

- ما اسمها؟

- مرغريت.

إنّها فعلاً أقحوانة نضرة[1].

ولامَسَ جبينها الأصهب بأطراف شفتيه برهافة ثمّ أردف قائلاً:

- ها قد اجتمعنا. هل تريد أن نسافر سويّة؟ أن تكون شريكاً لي؟

- احمْ... احمْ... كما تشاء.

كان يجب انتهاز فرصة جميلة كهذه. سرعان ما أدركَ بدريّو ذلك، فضربه بقوّة على يده وهو يقول:

- لِيَكن ما تريد! أنت رجل شجاع.

أبدى إيزامبار امتعاضه لكن ما من وسيلة للتراجع. ثمّ فكّر: «عائلة بدريّو ستقوم بعروض على الحبل، وأنا مع حيواناتي، وهذا يعود بالنفع على الجميع. وبعد ذلك، ليأخذ إيزابيلّا إذا شاء، فأنا لست متعلّقاً بها».

انتظَروا حتّى كفّ المطر عن الهطول وصعدوا في العربتين متّجهين

---

(1) يلعب على اسمها، فـ «مرغريت» هو اسم زهرة الأقحوان.

إلى المدينة المجاورة حيث كان عليهم أن يُؤدّوا «العروض»، وعندما قال إيزامبار هذه الكلمة، خلع قبّعته مضيفاً: «للجمهور الطيّب الذي سنصادفه».

6

لا بدّ أنكم رأيتم إيزامبار مائة مرّة. هو رجل قصير القامة مربوعها، ذو سحنة ورديّة نضرة، أحمر الأنف، رماديّ العينين. هوَ الذي من بين جميع فِرَق البهلوانات أضحكَكم في صغركم، وأثار شفقتكم عندما تقدّمتم في السنّ قليلاً.

هوَ بجاربَيه الأحمرين وسرواله القصير وحذائه المزدان بحلقةٍ فضيّةٍ عريضة، وقبّعته الهيدالغو[1] الرماديّة الملساء المزيّنة بريشة ديك. إنّه هوَ، كما قلت لكم، الذي يتلقّى ذرور الطبشور بملء وجهه عندما يلِيْن به الحبل، وهو من يسقط أرضاً ويتلقّى الضربات... هوَ الذي عند إنارة المصابيح يتدحرج من أعلى السلّم ويسقط. ثمّ لا يلبث أن يتّخذ هيئة «صارمة» مُحاكِياً مدير المسرح، ويتقدّم واضعاً القبّعة تحت ذراعه ليعلن برنامج العرض.

ومرغريت تعرفونها أيضاً. هي التي تجمع القروش الثلاثة التي على كلّ متفرّج أن يدفعها لدى خروجه. ترتدي قبقاباً في قدميها وجوربين أبيضين مشدودين على ربلة الساق وتعصب رأسها بمنديل مزركش.

ورأيتم بدريّو: الرجل الطويل القامة النحيل، الموسوم بالجدريّ والذي يتسلّق الحبل برشاقةٍ ويقفز وينطّ غير مستعينٍ بميزان البهلوان.

---

(1) الهيدالغو hidalgo : أحد ألقاب طبقة النبلاء بالإسبانيّة.

مرّت سنتان وفرقتانا تعيشان في تفاهم تامّ، وعائلة بدريّو لم تندم على شراكتها مع إيزامبار. كانوا يعيشون جميعهم سعداء، هانئين، بمنأى عن الهموم، ويأكلون مساءً ممّا كسبوه خلال النهار...

وحدها مرغريت كانت تعيسة.

ومع ذلك... لم يعد زوجها يضربِها... وأطفالها يشبعون.

* * *

المشكلة أنّ إيزابيلّادا[1] كانت شابّة في العشرين من عمرها، وجميلة: بيضاء الأسنان، ساحرة العينين، سوداء الشعر، رشيقة القوام، ظريفة القدمين. وأنّ مرغريت كانت في الأربعين من عمرها، قبيحة، رماديّة العينين، حمراء الشعر، بدينة الجسم، عريضة القدمين. مرغريت كانت الزوجة وإيزابيلّادا العشيقة. الأولى توجّه اللّوم والتبكيت،... والأخرى تمنح القبلات المحمومة. كانت إيزابيلّادا الحبّ الثاني لبدريّو، جعلها أمّاً، وأنجبت طفلاً جميلاً مثلها.

نظر إيزامبار لكلّ ذلك بعين الحكمة مكتفياً بعبارة لاذعة قائلاً إنّه لم يعد هناك من داعٍ للذهاب وجلب الماء لتحضير الحساء ما دام هناك بَحران اثنان تحت الخَيمة[2]... وكان يروي هذه الطرفة لأوّل زائرٍ ثمّ يقول معقّباً: «ألستُ صاحبَ نكتة؟»، ويسترسل نصف ساعة في الضحك.

وكم كانت مرغريت تشعر بالمذلّة من جرّاء هذه المقارنة التي تُجرى كلّ يوم وكلّ لحظة بينها وبين إيزابيلّا، والتي كان يتوجّب عليها تحمّلها،

(1) اسم تحبّب لإيزابيلّا.

(2) يمارس التورية متلاعباً بالجناس بين mer (وتعني «بَحر»)، وmère (وتعني «أمّ»)، مشيراً إلى مرغريت وإيزابيلّا.

وبباعثٍ من هذا الاحتقار لِشخصِها ولكلّ ما تفعله. لكنّ ما كان يؤذيها أكثر من أيّ شيء آخر هو سماعها مساءً قبلات العشيقين السعيدَين، ورؤيتهما يتعانقان دون خشية أو خجل. لا بل بحبّ. أمّا الطفل الذي أنجبه بدريّو من عشيقته، فكانت تكرهه كرهاً نابعاً من غيرتها القاتمة المريرة.

وذات يومٍ في الصيف، كانت الفرقة ترقص، دون مشاركة الأولاد، عند مفترق شارع شبه مقفر.

وكانت إيزابيلّا ومرغريت ترقصان أيضاً. أجل مرغريت المسكينة.

كان بدريّو قد اعتمر قلنسوَة صينيّة على رأسه ووضع دفوفاً بين ركبتيه ونایاً في فمه، وراح يقرَع على طبلٍ كبيرٍ مشكّلاً بنفسه الفرقة الموسيقيّة كلّها. وارتدت إيزابيلّا ثوباً أبيض، وعقَدت منديلاً ورديّاً حول عنقها وأخذت تقفز، وترقص وتدور على السجّادة الفارسيّة القديمة.

كانت متوقّدَة النظرات، هيفاء، رشيقة القوام، تنثني وتنخفض ثمّ تنتصب كعنقِ بجعة.

لا، لم يكن ثوباً ما تلبسه بل تنّورة تحتيّة بيضاء شفّافة مطرّزة بأزهار على حاشيتها، تنّورة خفيفة تصل إلى منتصف فخذيها وتحتها جوربان ورديّان يكتنفان ساقيها الجميلتين.

كانت ترقص الفالْس، تدور على ذاتها مدوّمة مثل خواطر الحبّ المتواثبة في قلب الشاعر.

وكان صدرها أكثر بياضاً من المرمر، نقيّاً نضراً لذيذاً... ووجهها، وعيناها وابتسامتها...

آهٍ من صدر المرأة حين تكون شابّة وجميلة مثل إيزابيلّا، حين تتنشّقه

كوردة عبر الموسلين[1] المتمايل مع حركات رقصتها. آه من صدر المرأة... ثمّ إنّك... في أحلامك عن الحبّ... وفي ليالي أرقك... في تلك الليالي التي تمضيها باكياً تلعن من ولدتْك. قل لي ألم تسند على صدر امرأة رأسك الساخن المحموم، أليس على صدرها ارتعشتَ حبّاً، واهتزّت أوتار روحك كقيثارة تلمسها أنامل فتاة، وتصلّبتْ شهوةً كعضلات مصارع.

ألم تَلْتهمِ القبلاتِ المحمومة بين نهدَيها؟

ألم تشربَ الحياة من نبع نظرتها الرقراق، ألم تعش من ابتساماتها؟

هنا على سريرك، ألم تعانق قدمك قدمها الظريفة وساقك ساقها المنسكبة انسكاباً؟

وإلى هذا الصدر وهذه القامة الساحرة، هناك الوجه الذي يكمل طلّة إيزابيلّا الإلهيّة. ففي نظرتها وحركة عينيها، وفي الحفيف الذي يحدِثه ثوبها وهيَ تدور، وفي الطريقة التي ترقص بها على السجادة المثقوبة، في ذلك كلّه شيء يفوق الوصف، شيء لا مثيل له، حالم ونقيّ.

لم تكن امرأة تقفز وتدور وترقص... آه لم تكن امرأة بل فكرة حبّ متجسّدة...

وإذ تراها هكذا في غمرة هذه الموسيقى الرنّانة الغريبة، بين إيزامبار ومرغريت،... تشعر أنّها ألماسة فوق كومةِ وحل.

كان إيزامبار لا يزال في وصلة تهريجه المملّ. كان قد ارتدى دثاراً ضيّقاً وجوربين أزرقين ووضع شعراً اصطناعيّاً نصفه أحمر ونصفه أسود... وفي هذا الزيّ المضحك، كان يقول ألف شيءٍ مُسَلٍّ ومملٍّ في آنٍ معاً.

---

(1) يحيل بعضهم أصل تسمية هذا القماش القطنيّ الهفهاف إلى مدينة الموصل في العراق، باعتبارها أحد أماكن صناعته في الأزمنة القديمة، وبعضهم الآخر يؤكّد عائديّة إنتاجه إلى بنغلاديش وجنوب الهند حيث يُعرف هذا القماش باسم ميسلوس أو ماساليا.

ومرغريت ماذا كانت تفعل؟

كانت تتألّم وتبكي بصمت. نعم، ولكنّ الألم والبكاء لا يعنيان لكم شيئاً.

أفهم موقفكم.

حسناً... كان كلّ متفرّجٍ يأتي ليشاهد بمتعةٍ عارمةٍ الحوريّةَ، فيما يرمق بنظرةٍ مستاءةٍ المرأةَ الأخرى التي كانت هناك على بعد خطواتٍ منها.

ماذا كانت تفعل؟

تؤدّي حركاتٍ رشاقة بالغة الصعوبة.

نعم، إلى جانب هذه الفتاة الشابّة الرائعة الجمال، الفائقة النضارة، كنتم ترون امرأة صهباء منتفخة الخدّين، مشوّهة القدَمين، متخلّعة الوركين. كانت تخطو على نغمات الموسيقى نفسها وتلامس قدماها السجّادة نفسها التي تلامسها قدَما إيزابيلّا. أجل، هذه المرأة التي تقفز بِرَشاقة مذهلة وتغمرك بالسناء الملتمع في عينيها، وتجعل جسدك يرتعش ارتعاشة حبٍّ مديدة حين يلامس ثوبها فخذيك... كانت بهلوانة مثلها مثل مرغريت. كانت موضوعة في المرتبة نفسها لكتلة اللّحم تلك التي تستدير بجهدٍ مثنيّةً جسدها مُرجعةً رأسها حتّى مستوى القدمين، لا يُرى تحت ثوبها الطويل الأزرق إلّا بطنها بدل رأسها، ونهدان مترهّلان ثقيلان.

ثمّ عندما تنهض من جديد، يصطبغ وجهها بلونٍ قرمزيٍّ، وتصبح عيناها بنفسجيّتين مليئتين دماً، وتنتفخ أوداجها.

وهذا المنظر المضحك المخزي كانت تنبثق من ثناياه رائحة بائعة هوى متملّقة، يريد فمها الأدرد أن يبتسم فيُكشّر، وتتّسم نظراتها بثقلٍ مملٍّ. لكنّها تبدو في غاية القبح عندما تقول بصوتٍ حادّ وبنبرة امرأة سليطة:

«والآن راقبوا جيّداً أيّها السادة مدى صعوبة هذه الحركة».

والموسيقى تتابع عزفها وإيزابيلّا ترقص وتقفز وتدوّم مثل أفكار الحبّ في قلب الشاعر.

ومن وقتٍ لآخر يُسمَع رنينٌ في صحنٍ على السجادة:

- هناك الكثير من المال. قال إيزامبار وهوَ يخلع شعره المستعار.

7

ربّما كنتم لا تعرفون من هم حاملو الأقنعة الأربعة التي تسير متلاصقة في شارع المسرح.

المتنكّر الأوّل بيارو يرتدي قناع رأس عجل: رجل قصير القامة عريض المنكبين، مرح المزاج، ويعِد الجمهور بأنّه، على حدّ قوله، «سيَقصف في اللّهو واللعب» . إلى يساره، متنكّر ببرنس أسود مع قناعٍ نصفيّ... له هيئة امرأة.

ثمّ هناك المتقنّع بهيئة شيطان جميل الهيئة يتحدّث إلى متنكّرة بزيٍّ سويسريّة جميلة ترتدي تنّورة قصيرة وتتشامخ برأسٍ دون قناع.

إنّه لَشيءٌ مميّزٌ الحفلُ التنكريّ.

لا تظننّ أنّني أكلّمكم عن الحفلات التنكريّة في دار الأوبرا، هذه الحفلات التي تولد في شهر كانون الثاني/ يناير وتختفي في ثلاثاء مَرفَع المسيح، حفلات الأوبرا حيث يضجر المرء، وحيث لم أذهب قطّ،لأنّك ترى، هناك أيضاً، خلف القناع نظّارةَ المصرفيّ الذهبيّة، وتحت قائمة القرد قفّازَ المتأنّق المعطّر. لا، لم تكن من هذه الحفلات بل كانت حفلة تنكريّة شعبيّة يذهب الشعب إليها وحيداً مندفعاً للّهو، ويضحك الليلَ بِطوله مقابلَ عشرين فلساً.

إنّها حفلة تنكريّة تحيّرك أكثر من الحفلات الأخرى، حفلة يجعل منك غضبك فيها محطّة سخرية وانتقاد، وحيث المنظّمون يتحدّونَ اعتبارات الفصول ويُقدّمون الحفل للشّعب إذا كان الطقس جميلاً يوم الأحد وإذا لم يكن الخبز غالي الثمن.

في مثل تلك الحفلات تُقام رقصات فاجرة تجعلكِ تخجلين أيّتها الفتاة المسكينة. وإذا ما ذهبْتِ فلربّما عدْتِ في اليوم التالي فاقدةً عذريّتك. ومع ذلك فهناك نلهو ونشعر بالسعادة، لا سيّما الرجال الذين لا حشمة لديهم، والنساء المُدنّسات الفاقدات شرفهنّ.

يكون المرء سعيداً بدون الفضيلة. أمر غريب أليس كذلك؟ ربّما لم يخطر ببالكم أنّ بإمكانكم أن تكونوا سعداء بتجرّدكم من الفضائل.

لا بدّ أنّكم عرفتم المتقنّعين الأربعة... إنّهم بهلواناتنا.

فيما مضى لم يكن لديهم خبز، واليوم يسعون إلى المسرح.

ذلك أنّهم باتوا يملكون مالاً، أجل، مالاً. من أين يأتيهم المال؟ من إيزابيلّادا. لا تظنّوا أنّهم يدينون بثروتهم لحيوانات إيزامبار وإيماءاته ومهارات مرغريت.

لا إطلاقاً. بل يعود الفضل لتلك البُنيّة التي ترقص الآن رقصة فالْس هنغاريّة، وسط الحفل، هائمة، سكرى، مغمورة بالأزهار والقاعة من حولها تهتزّ بالتصفيق وتزدحم بالمشاهدين الصاخبين الذين راحوا يقفزون منَ الفرح.

لكنّ متنكّراً واحداً مكث ساهماً حزيناً على مقعده وقد حمله التصفيق في الصالة على البكاء. إنّ سحر إيزابيلّادا يُثقل عليه.

هذا المتنكّر هو صاحبة البرنس الأسود.

أمّا إيزامبار فكان يرقص بتثاقلٍ ويصرخ بقوّة ثمّ يذهب للجلوس

أمام طاولة القمار مع مهرّجين آخرين، ويغشّ في لعبه، ويضحك مقهقهاً، ويجمع الحاضرين من حوله، ثمّ يُعاود مجدّداً ما كان يفعله. منذ بعض الوقت غاب عن ناظرَيْ مرغريت، إلى أن أحسّت بأحدٍ يضربها على كتفها.

التفتتْ.

فرأت المقنّع برأس العِجل.

وسرعان ما عرفتْ صاحبنا.

لكنْ عندما سمعت المقنّع يقول لها: «أعرفك جيّداً يا ذات القناع الجميل»، لم يكن الصوت صوته، لا، بالطبع لم يكن هو. ثمّ بعد كلّ حساب ربّما كانت متوهّمة فهناك الكثيرون ممّن يتنكّرون في الزيّ نفسه، وهذه الموضة بارتداء رؤوس الحيوانات كانت شائعة جداً آنذاك.

أمّا الصوت فأتى مموّهاً تحت القناع.

قال المهرّج المرتدي ملابس على طريقة بيارو:

- أعرفك جيداً، هل أقول اسمك؟

قُلْه.

- مرغريت الصهباء القبيحة.

هذا الصوت الحادّ المتهدّج والضحكة البلهاء، هذا القناع الغبيّ، هذا العِجل الذي ينفخ الهواء من منخريه العريضين، زرع الخوف في نفس مرغريت. فانتحت زاويةً وهي ترتجف.

ثمّ أردف قائلاً:

- هلّا نظرت إلى تلك الفتاة الشابّة التي تقفز هناك، هل تعرفينها؟

وأشار إلى إيزابيلّادا، وراح يضحك طويلاً خلف قناعه الضخم فيما صوته يتابع:

- إنها أجمل منك، هل ترين كم يخفق نهداها برشاقة، كم يداها شديدتا البياض، وكيف ينسكب ثوبها على قامتها ويبرز جمالها؟

بدت مرغريت نافدة الصبر وأخذت تعضّ على شفتيها. ثمّ بدأت بالبكاء. انهمرت دموعها على قناعها تاركةً أثراً أبيض.

فيما واصل رأس العجل ضحكه نافخاً الهواء من منخريه العريضين فاتحاً فمه ببلاهة متوحّشة. ثمّ قال بإيقاع أسرع:

- هذا المساء بعد الحفل، عندما تُطْفَأ الأنوار، وتعودين إلى خيمتك لموافاة أطفالك ستسمعين على مسافة قريبة منك صدى قبلات الحبّ.

- أشفقْ عليّ أرجوك.

وانطلق القناع في ضحكة مجلجلة. وبدأ يُحرّك كمّيه الطويلين حول رأس مرغريت ويُداعب خدّيها.

وهذه المرأة التي هيَ محطّ إعجاب الجميع ستكون لرجل واحد: زوجك.

- رحماك يا إيزامبار، رحماك.

ثمّ قال وهوَ يضحك متوجّهاً إلى الجمهور:

- انظروا ها إنّ امرأة تغضب لأنّي أقول لها إنّ زوجها يُداعب امرأة أخرى.

التفت إلى مرغريت واجتذبها إلى فتحة نافذة. عندئذٍ، لم تعد قادرة على الإفلات منه، وبات بإمكانه أن يرمي كلّ شتائمه في وجهها ويحدّثها عمّا تقاسيه من عذابات أليمة، أن يقول لها كم هيَ قبيحة، مُظهِراً لها مدى الفرق بينها وبين الراقصة، أن يروي لها كلّ تفاصيل الحبّ بين بدريّو وإيزابيلّا ممعناً في تصوير غراميّاتهما الزوجيّة، مردّداً على مسامعها

الكلمات التي يهمسان بها همساً، وتأوّهاتها المتقطّعة.

وهذا ما فعله.

- سوف تستيقظين غداً على ضحكة طفلٍ مجلجلة، سيكون طفلها.

- ويحك يا إيزامبار، ماذا فعلت لك؟

- لا شيء، لكنّك لا تعجبينني. أحياناً، عندما أراك تقومين بألعابك البهلوانيّة، يخطر على بالي مراراً أن أرشق ثوبكِ الأزرق بالوحل، وأن أشدّك من شعرك وأمحق نهديك. أعرف جيّداً، لمْ تؤذيني قطّ بشيء، لا بل أنتِ أفضل من سواك. ولكنّك، خلاصة القول، لا تعجبينني، وأنا أتمنّى لكِ الشرّ. إنّها نزوة لديَّ. ثمّ هل لي أن أسألك لماذا تبكين دوماً، وتقلبين سحنتك وتمشين مشيتك المقيتة؟ إنّ لك مظهراً يغيظني في آخر الأمر!

ومن ثمّ أنت تنتحبين وتتذمّرين دوماً- تبّاً لك، لِمَ لا ترحلين عنّا فنحن نطعمك وأنت لا تعودين بالفائدة علينا أبداً. تقولين إنّ لديك أطفالاً، حسناً بإمكانِ أيّ مركز للإحسان أن يرعاهم. وأنا لو كنت مكانك لامتهنت الدعارة على الأقلّ.

....

لكنّك أقبح من أن تقدري على ذلك!

أفّ! عندما أرى عينيك الشبيهتين بعيني قطّة عبرَ قناعك. ثمّ أيّ قناعٍ هذا...

ثمّ تخلّى عن هيئته الغاضبة ومضى وهوَ يضحك مقهقهاً.

***

طلبت إيزابيلّادا المنهكة من بدريّو أن ينصرفا، واتّكأت لدى مغادرتهما الحفل على ذراعه بتراخٍ. كان صدرها مكشوفاً وظهرها سابحاً في عرقٍ زكيّ الرّائحة.

وصفّق لها الجمهور من جديد.

8

ترك بدريّو مرغريت وحيدة وذهب ناحية حظيرة الحيوانات. وتركهما إيزامبار وشأنهما، وخلد للنوم بسرعة، ولم يستيقظ إلّا في اليوم التالي في الساعة الواحدة بعد الظهر.

خلعت المتنكّرة بالبرنس الأسود قناعها الذي كان يضيّق على أنفاسها وأسندَت كوعها إلى الطاولة ناظرةً إلى الشمعة وهي تحترق مسترجعةً ذكريات الحفل.

عادت كلمات إيزامبار إلى ذهنها. وسمعت ضحكته المقهقهة المتهكّمة خلف قناعه.

كانت ذكرى رقصة إيزابيلّادا هيَ التي توجعها، وكلّ هذا التصفيق المحتفي بامرأة أخرى، وكلّ هذا الكره لها، وحبّ بدريّو للابن الذي أنجبه منها. استعادت من جديد صورة قناع رأس العِجل بمنخرَيه المنفرجين وضحكته المتوحّشة.

وأيضاً تعبيره الأبله كان لا يزال يُرعِبها.

لا أعرف إذا كنتم قد تفحّصتم مثلي كلّ هذه الأقنعة الهزليّة، ولكنّ هناك بعض الأقنعة التي تخال أن صانعها يجب أن يكون في منتهى الكفر وكره البشر لكي يجمع على الوجه المستعار ذاك الشبه بين البهيمة

والإنسان.

كان كره إيزامبار لها دون سبب قد خلّف فيها شعوراً غريباً. كان يمقتها بسبب مشيتها البغيضة، وشعرها الأحمر، وحبّها لأطفالها.

ثمّ إنّ هذا الحلّ المشين الذي اقترحه عليها لتدارك شرورها... وهذه الإهانة المخزية حين أشعَرَها أنّهم يُطعمونها بدافع الشفقة وأنّها عالة عليهم. كلّ ذلك تسبّب لها بالعذاب، هيَ التي كانت تعشق بدريّو، هي التي لم تطلب من السماء إلّا حياة مفعمة بالحبّ، إلّا زوجاً يحبّها ويتفهّم عواطفها ويعلم مدى الشّعر الكامن في قلبها هي البهلوانة المنبوذة المحتقرة من المجتمع. حين تمرّ بها امرأة ترتدي قبّعة أنيقة تقول في نفسها بحسرة: «لماذا لست مثلها؟» وعندئذٍ تشعر بالحسد ينهش قلبها. وعندما ترى إيزابيلّادا ترقص لا يسعها إلّا أن تسأل السماء لماذا لم تخلقها على هذا النحو، فتكره عشيقة زوجها. أجل، في تلك اللحظات حين تشعر بالبرد، وترى بدريّو يعيش سعيداً وراضياً، تملأ الضغينة قلبها وتمعن في التجديف.

وكذلك كانت ستستغني عن المال – فجلّ ما تنشده لدى الناس هو الحبّ لكنّهم يهزأون بها، وتلتمس الحنوّ، فيدلّونها على طريق المستشفى، وتنشد الشفقة لكنّها بهلوانة فهل مَن يشفق على بهلوانة؟ أيْ على سارقة أطفال ومتسكّعة!

وهذا المجتمع الذي لم يشأ أن يُعطيها لا خبزاً ولا حبّاً ولا شفقة، رصدت هي له الحقد والغيرة. والله الذي تضرّعت إليه مرّات عدّة راكعة على الرصيف، دامعة العينين، الله الذي لم يستمع لِصلاتها، جدّفت به.

وراحت تسخر من كلّ امرأة فاتنة ذات ابتسامة رقيقة، وعينين رؤومَين ناعستين، وشعر أسود، وعنق مرمريّ، وتسخر أيضاً من المعجبين بها قائلة في نفسها: «ماذا كان يقتضي الأمر لتكون مثلي؟ لو

خُلقَتْ بشعر من لونٍ آخر وعينين صغيرتين وقامة غير متناسقة لكانت مثل مرغريت. وإذا بغضها زوجها واحتقرها وضربها لأصبحت بشعة ومحتقرة مثل مرغريت» .

كانت مستغرقة في هذه الأفكار حين أخذها الوسن فغفت مُسنِدةً كوعها إلى الطاولة وخدّها إلى يدها فيما الشمعة تواصل احتراقها.

9

في اليوم التالي استيقظت على صوت إرنستو يتشاجر وإيزابيلّادا.

أصاخت إليهما سمعها.

- لماذا أخذتِه منّي؟ أليس غطائي؟ أعيديه لي إذنْ.

ارتدت مرغريت ثيابها على عجل واختبأت خلف عربة الحيوانات وراقبتهما دون أن تقول شيئاً.

رأت شقيقة إيزامبار تحمل غطاء أحد أولادها وترفض إعادته لإرنستو.

ها قد انضمّ سبب آخر إلى طائفة من الدواعي التي كانت تحملها على بُغضِ هذه المرأة. لم يعد بإمكانها أن تحتمل هذا المشهد لوقتٍ أطول فهجمت بوثبة واحدة على إيزابيلّادا وانتزعت منها الغطاء.

- أنتِ دائماً يا إيزابيلّادا!

وتلفّظت بهذا الاسم بكلّ الحقد الذي يعتمل في صدرها لأنّ انسجام الاسم كان ينفّرها.

ثمّ أردفت غاضبة:

ألا يكفي أنك أتيتِ لتسكني في بيتي وتهيمني عليه وتنصّبي نفسكِ

سيّدة فيه؟ ألا يكفي أنّك تسلبينني زوجي وتنتزعينه كلّ يوم من سريري لتأخذيه إلى سريرك، ألا يكفيك هذا يا ابنة الشيطان، تهيننا بين الناس بجمالك الذي تتعهّرين به لأوّل قادم. قولي ألا يكفيك ما فعلته بنا؟ جلبْتِ لنا الخزي والعار، والآن تريدين أيضاً أن تسلبينا الأغطية التي تستر دماء جراحنا؟ سيرتدّ عليك الدّم فاحذري. ويلاً للفتيات الجميلات، لأولئك الحسناوات اللّواتي يرميهنّ الجميع بالأزهار، ويمطرونهنّ بالمال والكلمات المعسولة، لكنّهنّ يعطيننا بالمقابل الاحتقار والعار والبؤس.

ماذا تقول يا بدريّو ألسْتُ على حقّ؟

- ماذا هناك يا إيزابيلّادا؟

- أراد ابنها أن يأخذ غطاء ابني ومرغريت تدّعي أنّه لها.

- مرغريت، ماذا تقولين؟

- إنّها تكذب يا بدريّو، فلا تستمع إليها.

- أنت التي تكذبين يا مرغريت.

ودفعها بقسوة إلى الخيمة.

وهناك نتفت شعرها ومزّقت ثيابها وتمرّغت أرضاً وأدْمَت وجهها.

ثمّ نهضت.

يجب إذنْ تجرّع كأس المرارة حتّى الثمالة، مرّةً وأُخرى... يا إيزابيلّادا ارقصي بأفضل ما لديك إذا كان هذا ممكناً. وأنت يا بدريّو زد في حبّها، وأنا سأزيد في كرهكما أكثر وأكثر.

وفجأةً ارتمت على قدمي بدريّو الذي دخل إلى الخيمة للتوّ.

- ماذا جئت تفعل هنا؟

- آخذ المال.

- لمن؟

- لها.

- لها، كلّ شيء لها. آه يا بدريّو يبدو أنّك تحبّها حقّاً أليس كذلك؟

- نعم.

- أشفق عليّ، لا تريني صورة وجهها بعد اليوم، ولا تذكر اسمها أمامي، ولا تتغنَّ بجمالِها. أتوسّل إليك أن تحبّني. ماذا يتوجّب عليّ فعله كي أروق لك؟ ولكن لا أريد أن تكلّمني بعد اليوم، رجاءً.

رقّ قلبه قليلاً لمنظر هذه المرأة بوجهها الدامي وثيابها الممزّقة، المرتمية عند قدميه وهي تتلوّى غضباً.

- ماذا تريدين يا مرغريتتي؟

- بدريّو، دعك من هذا الآن. لكنْ، ذات يومٍ حين ستقتلني هي، هل تسمعني، من جرّاء إهاناتها، أتعرف كيفَ يزأر أسد نوميديا في قفصه، أوَ تعلم بأيّ شهوة يلتهم اللّحم الذي يُعطى له؟ حسناً ذات يومٍ سأسألك المعروف نفسه.

- ماذا دهاكِ يا مرغريت، عودي إلى رشدك.

- ماذا دهاني! أنا أحترق غيرة. آه، ألم تعرف نار الغيرة أنت؟ ماذا دهاني! ربّما كنت مجنونة، لا أعرف. لكنّي أكرهها وأحبّك.

10

كان الطقس حارّاً والشمس تضرب بسهامها الطريق المعفّرة، وأشجار التفّاح التي تحفّ بها احترقت أوراقها. ووسط أقياظ شهر يونيو هذه، من العذوبة بمكانٍ أن يترك المرء لتأرجح الحنطور[1] أن يهدهده ويستسلم

---

(1) تسمية عاميّة شائعة في بعض البلدان العربيّة لعربة الخيل، الصغيرة، ذات المقعدين المتقابلين.

لحلم مفعم بالشاعريّة فيما تتسرّب عبر ستائر النوافذ الزرقاء المغلقة غيمة غبارٍ خفيفةً حملتها الريح وأتت لتغمر ثيابه.

هذا صحيح. لكن لا يتسنّى للجميع أن يُسافر في الحنطور. وبهلواناتنا كانوا ينامون عندئذٍ في عرباتهم. يسير بدريّو ومرغريت على أقدامهما ويتحدّثان. لم يكن يقطع حبل الصمت إلّا صوتاهما اللّذان كانا وحدهما يُسمَعان وسط الريف، وأيضاً خبب الأحصنة على الطريق المغبرّة، وطنين نحلة تحوم حول قفص الأسد وتمنعه من الاستغراق في أحلامه. ربّما كان لديه هو أيضاً أحلام، ربّما كان يحلم بشمس أفريقيا التي سُلخ عنها، وبعرينه في تلك الأصقاع النائية، أو بصحرائه الشاسعة، واللّبوة التي كان يُجامعها في ظلّ نخلة. كان يعضعض رؤوس مخالبه بكآبة. لنَدعه يتذكّر سعادته الماضية، ويستعيد أفراحه المتوحّشة الغابرة.

لنعدْ إلى عذابات مرغريت.

قالت له فجأة:

– تحبّها إذنْ.

– نعم يا مرغريت. لماذا تعيدين السؤال نفسه؟

– ما الذي يعجبك فيها؟

– كلّ شيء. وأنت تضجرينني بأسئلتك. ماذا تريدين منّي؟

– الموت.

– أنتِ حقّاً مجنونة.

– ربّما. وأنت شرّير، لا أطلب منك الحبّ ولا الشفقة لكنّي أسألكَ عن سبب هذا الحبّ، ثمّ الموت بعده.

قال بدريّو بنبرةٍ غاضبة:

– أمّا عن سبب هذا الحبّ فأنا أجهله. وأمّا عن الموت، فأتوسّل إليكِ

يا مرغريت أن تكفّي عن هذرك لأنّكِ تعرفين أنّ للرجل نوبات غضبه.

فأجابت مرغريت وهي تضحك ساخرة:

- وللمرأة نوبات غيرتها. نعم غيرتها، أيْ حقدها. كنت أسألك عن سبب هذا الحبّ لإيزابيلّادا. حسناً إذنْ، سأقول لك أنا عن سبب حقدي عليك وعليها.

- مرغريت الزَمي حدودكِ.

- لا أريد. ها هوَ السبب، السبب أنّها جميلة. وأنا أكره الجميلات لأنّني قبيحة. أنت تحبّها، وأنا أكرهها، أكره من تحبّهم. أنت سعيد، وأنا أكره السعداء، أنت ثريّ، وأكره الأثرياء. السبب هو أنّه لا أحد يحبّني ولأنّني تعيسة وبائسة. لماذا إذنْ يا بدريّو، لماذا ترمي بي دوماً وكأنّني شيء تخجل منه؟ هذا لأنك تخشى أن يُهزأ بك علناً. أتعرف، أكرهك لأنّني أحبّ ما يكره المجتمع، أحبّ البهلوانات، وبائعات الهوى، وفتيات الحثالة، وأكره إيزابيلّادا حبيبتك. آه لو كان باستطاعتي لَسحقتُها تحت قدمي. ولالتهمتُها بفرح ولذّة عظيمين.

كان الغضب بادياً على بدريّو.

- مرغريت حاذري، الأسد هنا في قفصه. رجاءً اصمتي، لا تنبسي بكلمة واحدة.

- يفترض بكَ أن تكونَ رجلاً وقحاً عقيم الروح لكي تكرهني على هذا النحو، وتهين مرغريت المسكينة وتلوّثها وتجرجرها في الوحل، مرغريت التي كانت تحبّك كثيراً والتي ارتمت بين ذراعيك مفعمَةً شِعراً وحبّاً، لكنّك رفستها بقدَمك مثل كلب أجرب يريد أن يلعق

صاحبه.

- ويحك يا مرغريت، ستدفعينني للقيام بفعلٍ بغيضٍ مرعب.

- ولا تنسَ أنّ هذه المرأة التي تُدعى مرغريت لديها أطفال ووالدهم يعاملهم بلا شفقة ويحرمهم من الخبز أحياناً - وإذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة فهذا لأنّ الله لطفَ بهم. فالخنزير البريّ أو البهيمة المتوحشة تلتهم أحياناً أطفالها، لكنّها لا تجعلهم يموتون من جرّاء الجوع - حسناً ارمِني إذا شئت لهذا الأسد، فلن أطلب منك لا النجدة ولا المغفرة. لا، فلأنّك أذقتني مرّ العذاب سأسمّم حياتك بشتائمي وإهاناتي وملاماتي. اسمع، اسمع، اسمع، لديّ أيضاً ما أقوله، اسمع ما سأقوله مرّة أخرى: أكره إيزابيلّادا. نعم أكرهها، وأرغب في أن أمسكها بين يديّ وأسحقها وأمزّقها بأظافري وأغرِق رأسي في دمها وأرتوي منه وأرتوي.

***

زأر الأسد في قفصه، وأخذ يصفّق بذنَبه ويحرّك عرفه. ثمّ فتح شدقَيه منتظراً امرأة كان بدريّو يمسكها بين ذراعيه.

فتح بدريّو الباب ورمى بمرغريت في القفص.

وفي اللحظة التي أنشب فيها الحيوان الفخور برائنه في جسد مرغريت مطلقاً زئيره هرع إيزامبار لدى سماعه وانتشلها منه. كان صدرها ممزّقاً وعلى يديها آثار المخالب.

11

مَن تكون هذه المرأة التي تخرج من المستشفى مترنّحة، هذه المرأة البدينة، الحمراء الشعر، الهائمة النظرات، الممزّقة الثياب، التي تغطّي شعرها بقلنسوة من الدانتيل المزيّنة بالأزهار المتّسخة، وتثير بهيئتها البائسة الشفقة؟ أتراها مجنونة؟

ترون جيّداً أنّ ضحكتها غريبة وكلماتها متلعثمة، تركض ثمّ تتوقّف عن الركض. إنّها مجنونة بالطبع.

على يديها ووجهها ندوب. لا شكّ أنّها مرغريت. لا بل هي ذاتها.

منذ يومين وهي تسير على غير هدىً، لا تحمل أو تلمّ شيئاً عن الطريق، لا شيء إلّا الوحل الذي كانت تُرمى به.

كان الصبيَة يركضون خلفها وعندما تلتفت لتقول لهم: «يا قليلي الحياء والأدب!»، كانت سيماء وجهها وثيابها وأزهارها على القلنسوة الممزّقة تثير ضحكاتهم فيمطرونها بِوابل شتائمهم وصرخات احتقارهم.

ولشدّة تعبها وإرهاقها، فقدت كلّ قدرة، وسقطت شبه مغميّ عليها على عشب الجادّة المجزوز.

وفجأةً رفعت رأسها وأجالت بنظراتها المذهولة حولها وصرخت بصوتٍ راعد: «أولادي أين هم أولادي؟ أين أوغست وإرنستو وغاروفا؟» .

مرّت مركبَة خفيفة متهادية.

وفيها سيّدة طويلة القامة ميسورة الحال، ومعطفها الكشمير الأبيض ينسدل في الخلف حتّى مقعد الخادم، وريشات قبعتها البيضاء والسوداء

تهتزّ برشاقة في الهواء. ابتسامتها عذبة وقامتها رشيقة. بدت سعيدة، لديها الألماس، وعربة ومعطف من الكشمير وسلاسل من ذهب.

هرعَت مرغريت إليها وتشبّثت بمكبَح العربة وقد تملّكها غضبٌ عارم:

ألا يكفيك ما أنزلتِه بنا من خزي وعار، ألا يكفيكِ أنكِ سلبتِنا الستر الذي يخفي جروحنا؟... إيزابيلّادا هذه أنتِ. على مَن تضحَكين؟، لقد عرفتُك. عرفتكِ من هيئة المومس التي تتقدّمك، من قلّة الحياء في لباسك.

ولم تكن مخطِئة.

ذات يوم فيما كانت إيزابيلّادا ترقص في الساحة، رآها سيّد من الوجهاء ومنذ ذلك اليوم أصبحت السيّدة مرافقته.

سأل الرجلُ الذي كان في العربة:

- مَن هذه المرأة؟

- لا أعرف، إنّها مجنونة بلا شكّ.

- ربّما، نعم أنا مجنونة.

- جون، اطردْها.

ضربَها الخادم بالسوط على وجهها. لكنّها بقيت متشبّثة بمكابِح العجلة.

قالت:

- لا لن أذهب، اسمعي، ألا اسمعي، إذا كنتِ أذقتني طعم المرارة فسأسمّم حياتكِ بالشتائم والملامات والإهانات.

أخذ الحشد يصرخ راكضاً خلف مرغريت:

- المجنونة! المجنونة!

توقّفت العربة فصدمت جبهتها.

قالت ضاحكة:
- الموت.
وتوجّهت بِخطى مُسرِعَة إلى نهر السين.

12

انتُشِلت للتوّ جثّة من الماء ووضعت في المشرحة.

جثّة امرأة، على رأسها قلنسوة من الدانتيل مزدانة بأزهار متّسخة، ثيابها ممزّقة وتكشف عن أطرافٍ ناحلة. حام بعض الذباب حولها وراح يمتصّ الدم المتجمّد على فمها المنفرج. كانت ذراعاها المنتفختان مزرقّتين وملطّختين ببقعٍ صغيرةٍ سوداء.

نفذ آخر شعاعات الشمس الغاربة عبر قضبان نوافذ المشرحة وانعكس على عينيها المفتوحتين قليلاً فأضفى عليهما بريقاً غريباً.

كان منظر هذا الجسد المكسوّ بالندوب وآثار المخالب، المنتفخ، المتقع، الممدّد هكذا على البلاط الرطب، مقرفاً ومؤذياً للنظر.

أمّا الرائحة النتنة المنبعثة من هذه الجثّة الممزّقة فنفّرت جميع المارّة المتبطّلين، لكنّها جذبت طالبين يدرسان الطبّ.

قال أحدهما بعد أن نظر إليها لبعض الوقت:

- ألم تنتبه للأمر! كانت في المستشفى منذ بضعة أيّام.

ثمّ تفحّصها بانتباه.

كان طالبَ طبّ حقيقيّاً يرتدي ثوباً أخضر موبراً ورثّاً، ويُدخّن غليوناً من الخزف حشاه بتبغ ميريلاند الفاخر.

- ما رأيك أن نشتريها؟

- وماذا تريد أن تفعل بها؟

فارتفع صوت الحوذيّ الذي كان يصطحب في مركبته الآنسة إيزابيلّادا إلى الأوبرا في يومٍ ليس ببعيد:

- حذارِ!

وللحال انصاع تلميذا أسكليبيوس[1].

وأفلت الغليون من المدخّن إذ استدار، فقال وهوَ يضرب الأرض بقدمه:

- اللعنة! هذا هوَ الغليون الثالث الذي أكسِره هذا اليوم!

الأوّل من نيسان/ أبريل 1836

عِبرة

قال الأستاذ، العلّامة الغاسكونيّ، قاضي بوردو ميشال دو مونتاني[2]:

«ها هنا أيّها القارئ كتاب حسن النيّة... إنّني أعطي رأيي، لا بوصفه جيّداً بل بوصفه رأيي» .

وأنا أيضاً أقول إنّه انطلاقاً من حسن النيّة هذا كتبت هذه الصفحات. حتّى أنّني ألّفتها بحَميّة وحماسة.

---

(1) أسكليبيوس Asclépios : إله الطبّ في الميثولوجيا الإغريقيّة.

(2) ميشال دو مونتاني Michel de Montaigne: مفكّر فرنسي (1533– 1592)، اشتهر بكتابه الذي ضمّنه مقالاته ومنحه عنوان «محاولات» *Les Essais* لأنّها كانت مقالات استكشافيّة وغير منهجيّة، ثمّ صارت الكلمة تُطلق على المقالات الموسّعة والدراسات الأدبيّة. ويعتبر كتابه هذا حدثاً في تاريخ اللغة الفرنسيّة، وأيضاً في تاريخ الأدب العالميّ إذ يتجلّى فيه مونتاني كاتباً إنسانيّاً، متسامحاً، يلتمس الحكمة من شتّى الينابيع.

أردت أن أثور على الأحكام المسبقة، وربّما أثرتُ احتجاجاتٍ على كاتبٍ وقحٍ مثلي.

أمّا العنوان الذي وضعته وهوَ «عطرٌ خفيّ»، فعنيتُ به أنّ مرغريت كانت أشبه ما تكون بالعطر، وكان بإمكاني أن أضيف إلى العنوان أيضاً: «زهرة للنظر»، لأنّ جمال إيزابيلّادا كان يختصر كيانها.

والآن، أخشى أن تُسقط الكنيسة الكاثوليكيّة الرسوليّة الرومانيّة الكليّة القداسة عليّ صواعقها بسبب عنواني الغريب: «حكاية فلسفيّة، لا أخلاقيّة أو أخلاقيّة (كما تشاؤون)»، لذا سأبرّر موقفي ما إن توضّحوا لي تعريف ما هوَ أخلاقي إزاء كلّ ما ليس أخلاقيّاً.

ما تشاؤون

ربّما كنتم لا تعرفون ما هيَ لذّة التأليف!

الكتابة هي أن تستولي على العالم بأسره، بما فيه من أحكامٍ مسبقة وفضائل، فتَختزله في كتاب.

الكتابة هي أن تشعر بأفكارك تولد وتنمو وتعيش ثمّ ترتفع كما يعلو النّصب قاعدته لا يفارقها.

انتهيت للتوّ من هذا الكتاب الغريب العجيب اللّامفهوم. الفصل الأوّل كتبته بيوم واحد. ثمّ بقيت شهراً كاملاً لم أكتب حرفاً واحداً، ثمّ بأسبوعٍ واحدٍ كتبت خمسة فصولٍ أخرى، وبيومين أنهيته.

لن أمدّكم بشروحٍ عن فكرته الفلسفيّة فهي حزينة ومريرة وقاتمة ونزّاعة إلى الشكّ... فابحثوا عنها...

أمّا الآن فأنا متعب ومنهك، أتهاوى إرهاقاً على أريكتي دون أن تكون

لديّ القدرة على شكركم إذا كنتم قرأتموني، ولا على إلزامكم بعدم قراءتي إذا كنتم تجهلون إنتاجي.

الأوّل من نيسان/ أبريل 1836

غوستاف فلوبير

امرأة الدّنيا

«من هنا أستدلّ، وليُسامحني الله، وليأخذني الشيطان، على أنّ إبليس ما انفكّ يتخابث على الآب الأبديّ».

«نزُل جبال أدريه»[1]

1

أنتِ لا تعرفينني[2] أيّتها الخليقة الذليلة السقيمة فاسمعيني!

2

اسمي ملعون على وجه الأرض. ومع ذلك فإنّ الشقاء واليأس والحسد، وهم الطغاة المستحكمون فيها، غالباً ما ينادونني لنجدتهم.

---

(1) «نُزل جبال أدريه» *Auberge des Adrets* عنوان ميلودراما من ثلاثة فصول كتبها بنجامين أنتييه Benjamin Antier عرضت لأوّل مرّة في باريس في 6 ديسمبر عام 1823 لكنّ العبارة التي يستشهد بها فلوبير غير واردة في النص الأصليّ.

(2) للإبانة عن فظائع الموت، الذي شكّل موضوعاً متواصلاً في عمل فلوبير، يضع الكاتب الشابّ على امتداد هذا النصّ، الذي هو نوع من الأليغوريا أو المَثَل، يضع هذه الشذرات الصادمة على لسان الموت نفسه، وقد عمد إلى تشخيصه أو أنْسَنته. سمّاه في العنوان «امرأة الدّنيا» *La femme du monde*، إذ المنيّة هي امرأة العالَم أو الخليقة، التي تتمخّض عن كلّ شيء، المآثر والأحداث، والرزايا والأعمال، وهو يصف هنا وفي نصوص لاحقة تدخّلاتها الساحقة في الحياة، وفي التاريخ.

3

أبتهج في الحواضر الكبيرة وأوجّه ضرباتي إلى شعوب المدن.

4

ومع ذلك فإنّني أذهب عند الفلّاح، آخذ نعاجه من الحظيرة، وأنتزع العنزة التي ترعى على التلّة، وظبيَ الجبل الذي يقفز على الصخرة المسنّنة؛ وأخطف العصفور في طيرانه، والملك عن عرشه.

5

منذ اليوم الذي طُرِدَ فيه آدم وزوجته من الجنّة، مذذاك، أقف، أنا ابنة إبليس، إزاء الإمبراطوريّات جميعها، وإزاء العصور كلّها، وأسحقها بقدميّ العظميّتين.

6

عبثاً سمعت عن شعوبٍ التهمها الطاعون تصرخ مستنجدةً بالحياة، عبثاً رأيت ملوكاً يتشبّثون بتيجانهم، عبثاً رأيت دموع أمٍّ تطلب منّي استرجاع ابنها. ليس دعاؤهم بالنسبة لي إلّا لغواً مضحكاً غير ذي بال.

7

ولطالما حطّمْتُ بنَهم تحت أسناني الشبابَ اللّامع، والممالك الجبّارة، والعصور المليئة مجداً وشرفاً، والملوك والأباطرة. محوْتُ شعائرهم ومجدهم، وبين يديّ العظميّين سحقْتُ بيُسْرٍ مماثلٍ الصولجانَ المذهّب وعصا الراعي ونثرتهما غباراً.

8

وكم هويت الاندساس في سريرِ فتاةٍ يافعة، مجوِّفاً خدّيها ببطءٍ، ممتصّاً دمَها، حتّى أنال منها وأختطفها من عشيقها وأهلها الباكين المنتحبين حزناً على هذه الوردة البائسة التي ذوت في ريعان تفتّحها.

9

عندئذٍ أستمتع برؤية جبينها الشاحب وتأمّل شفتيها اللّتين شقّقتهما الحمّى، وأصغي بلذّةٍ إلى طنين الذباب الذي يحوم فوق رأسها نذيراً بتحلّلها.

10

ثمّ أطلق العنان لضحكاتي المجلجلة لدى رؤيتي الديدان تزحف على جسدها.

11

سيّان لديّ أجلستُ على الأرجوان في المآدب الملكيّة، أم تمدّدت على العشب في الحقول وسط الفلاحين وهم يتناولون وجباتهم المبهجة. سيّان لديّ أوَضعْتُ إصبعي الفاتكة على جبين الأسياد أم على جبين العامّة.

12

غالباً، لدى سماعي ضحكات الأطفال الصاخبة، لدى رؤيتي إيّاهم يتزيّنون بالأزهار، أحملهم بين ذراعي فأُزيّن رأسي بباقاتهم وأبتسم مثلهم، ولكن ما إن يخرج هذا الصوت الأجوف القبريّ من صدري الناحل، حتّى يعرف الجميع أنّه صوتُ وهمٍ.

13

ولكنْ حذارِ! فهذا الوهم هو أصدق حقائق الأرض كلّها.

14

وعلى صخرته يتحطّم كلّ شيء، كلّ شيء، وابن الآب نفسه.

15

الا فاذكروا لي موجة محيط واحدة، كلمة حقد أو حبّ واحدة، نسمة في الهواء، طيراناً في السماء، ابتسامة على الشفاه، لم تمّحِ.

16

وأقول لكم إنّ المستقبل كلّه سيأتي ويسقط أمام منجلي القاطع – لا بل حتّى العالم نفسه.

17

قديماً في أزمنة أشباه كاليغولا ونيرون، كنت أزأر في حلبة المصارعة وآتي لمعاونة ميسالينا[1] في تنكيلها الفاجر، وألتهم المسيحيّين مزمجراً في الكوليزيه مع النمور والأسود.

18

وفي فرنسا، في عهد الملوك، كنت أنضمّ إلى مجالسهم، آنذاك أفصحتُ عن وجهي في مذبحة سان بارتيلمي[2].

(1) فاليريا ميسالينا (28–48) زوجة الإمبراطور الروماني كلوديوس الثالثة، عُرف عنها فسقها ودسائسها المميتة.

(2) مذبحة سان بارتيلمي حدثت في فرنساعام 1572 وذُبح فيها 30 ألف بروتستانيّ على يد السلطات الكاثوليكية.

19

لا شيء أفلت من قبضتي، ولا حتّى عصر فولتير الذي ارتفع شامخاً عظيماً، متبجّحاً، متورّماً بالفلسفة والفساد والنفاق؛ فأنزلتُ به أحداث ١٧٩٣ [1].

20

وكذلك عصر الرجل العظيم[2] لم يُفلت من قبضتي هو أيضاً، هو الذي بمظهره المتخشّع الكاذب ويده المُحبّة للبشر كان أشبه ما يكون بمومس تتوب عن أخطائها وتبدأ حياة جديدة.

21

كان راضياً تمام الرضى عن مستعمراته في أفريقيا، وطرقاته، ومركباته البخاريّة، فأنزلْتُ به طاعوناً انفجر مثل قنبلة وسط مأدبة مليئة بالعطور والنساء، وفتك بالرجال والأطفال مُخمداً أنفاسهم في الحال. أرسلتُ له الكوليرا، الكوليرا اللّعينة، بأظافرها السوداء وسحنتها المتقعة وأسنانها المصفرّة وأطرافها المتشنّجة تسحب الإنسان إلى القبر بأسرع من السهم الذي يجتاز الهواء ومن البرق الذي يشقّ السموات.

(1) بداية حكم الإرهاب: المرحلة الختاميّة للثورة الفرنسيّة حين خضعت فرنسا لدكتاتوريّة لجنة الأمن (وكان بين أعضائها روبسبيير) التي استهدفت سحق معارضي الثورة وواصلت عمليّات التطهير من المشبوهين أو الخصوم بجميع الوسائل.

(2) المقصود هنا الملك لويس فيليب؛ ملك فرنسا في الفترة الممتدّة بين 1810 إلى 1848.

22

صحيحٌ ما يقال عن أنّ العلق الطبيّ الذي استخدمه الطبيب بروسيه[1] واكتشاف اللقاح، ومعجونة رينيو[2]، والعلاج الناجح للأمراض المستعصية، هذا كلّه قد حدّ قليلاً من بطشي، فلم يكن منّي إلّا أن استجمعت قواي وثأرت لنفسي عبر مجلس الأعيان[3]، وموقعة «معسكر»[4]، واعتداء ٢٨ يوليو/ تمّوز، وقانون فيسكي[5].

23

أحبّ سماع صوت امرأة عجوز تبكي ميتاً.

---

(1) بروسيه Broussais (1712– 1838) طبيب فرنسي كان يعالج الأمراض بالعلق الطبيّ.

(2) رينيو Regnault : صيدليّ أعطى اسمه لمعجون مفيد للصدر.

(3) مجلس الأعيان: هو المجلس الأعلى للبرلمان في فرنسا بين 1818 و1848.

(4) معسكر: إشارة إلى موقعة «المقطع» في الجزائر حيث أنزل الأمير عبد القادر الجزائري في 28 حزيران/يونيو 1835 هزائم بالجيش الفرنسيّ وقتلت قوّاته حوالى ثلاثمائة جنديّ. لكنّ فرنسا أرادت الانتقام فأرسلت قوّات جديدة واستطاعت الدخول إلى «معسكر»، عاصمة الأمير، وأحرقتها.

(5) قانون فيسكي: إشارة إلى الأحداث التي وقعت في 28 تمّوز/ يوليو 1835 حين أطلق الكورسيكي جوزيبه فيسكي Giuseppe Fieschi النار على الملك لويس فيليب وأولاده بواسطة «آلة جهنّمية» مركّبة من أربع وعشرين سبطانة بندقيّة، فقُتِلَ أربعون شخصاً لكنّ الملك وأبناءه لم يُصابوا بأذى. أفضى هذا الاعتداء إلى سلسلة قوانين جبريّة سمّيت بقوانين أيلول/سبتمبر لكنّ فلوبير أطلق عليها اسم «قانون فيسكي».

24

أحبّ الأجراس حين تصدح برنينها الأجشّ الصّياح.

25

أحبّ أن أسمع اهتزاز مطرقة المنبّه عند منتصف الليل أوان ذهاب سحرة السبت إلى حفلهم مُرسلين صفيراً غريباً حادّاً.

26

أطير فرحاً إذ أتمرّغ بقدرِ ما يحلو لي في عربة مزيّنة جميلة، وعندما يغالي الناس في استعراض أباطيلهم. إنّه لمنظر يثير الفضول حقّاً.

هيّا أيّها الكلب، بجّل الكلب الذي تعفّن على حافة الطريق!

هيا أيّها المجتمع بجّلِ الثريّ الذي يمرّ في عربة الموتى. ها إنّ الأحصنة المغمورة بالفضّة تجعل الرصيف يلتمع، وما أجمل المظلّات المسربلة بالذهب والأحجار الكريمة! ثمّ تُقال الكلمات في فضائل المرحوم. كان كريماً ورائعاً بلا ريب. أعطى الفقراء المساكين فلسين ورغيف خبز وشمعة. نعم، أنفق الثريّ ماله بسخاء.

هيّا أيّها الكلب، أمعِن تقريظاً بالكلب الذي تلتهمه الغربان. قل إنّه كان يتلقّف بنهمٍ القطعة التي كانت تُرمى له كلّ مساء من لحم الحصان.

27

أودّ أن أحدّثكم مليّاً عن كلّ العذابات التي يعاني منها هؤلاء الذين أغمرهم بجناحيّ.

والآن هل عرفتموني؟ لديّ رأسُ هيكلٍ عظميّ ويدان من حديدٍ أحمل فيهما منجلاً.

يسمّونني المنيّة.

وتمزّق الكفن الذي يلفّ عظامها وكشف عن أحشاء شبه متعفّنة تمتصّها أفعى[1].

(1) العبارة الأخيرة هي للكاتب، باعتباره ناقل خطاب الموت. وقد كتب فلوبير الشابّ أسفل مخطوطته: «كُتبَ هذا النصّ في ليلة الأوّل على الثاني من حزيران/يونيو 1836، في أقلّ من نصف ساعة».

غوستاف فلوبير

الطاعون في فلورنسا

أيلول/سبتمبر 1836

«ذلك أنني أكرهك كره الأخ لأخيه»

ألكساندر دوما

(«دون جوان دو مارانا»)

الطاعون في فلورنسا

1

يُحكى أنّ امرأة ستينيّة تُدعى بياتريشا كانت تعيش في مدينة فلورنسا، وتقطن في أكثر أحيائها بؤساً. ولم تكن لديها وسيلة تكسب بها رزقها إلّا قراءة الطالع للنبلاء وبيع بعض العقاقير لجيرانها الفقراء في حال مرضهم، علاوةً على التسوّل.

كانت في شبابها سيّدة رفيعة القدْر. لكنّ ظهرها كان محدودباً بحيث تشقّ على الناظر رؤية وجهها. كانت ملامحها غير متناسقة: أنفها كبير معقوف، وعيناها صغيرتان سوداوان، وذقنها طويل، وفمها عريض تبرز منه سنّانِ أوِ ثلاث طويلة مصفرّة ومتخلخلة ما يجعل ريقها يسيل

بشكلٍ مقرفٍ على شفتها السفلى. وكان لباسها غريباً: تنّورة زرقاء وقميص أسود. أمّا حذاؤها فكانت تستغني عنه وتسير طيلة الوقت حافية القدمين وهي تتكئ على عصاً أطول منها.

بيدَ أنّ شعرها كان جيلاً أبيض يغمر كتفيها وظهرها وينسدل على جانبي وجهها منتثراً مشعّثاً لأنّها لم تكن تملك عصابة لترفعه.

أثناء النهار وشطر من الليل، كانت تتجوّل في شوارع فلورنسا، لكنّها عند المساء تعود إلى منزلها لتتناول الطعام، وتقرأ الطالع لهؤلاء الذين كان يخجلهم تطيّرهم فلم يشاؤوا التوقّف علناً أمام امرأة مماثلة.

ذات يوم دنا منها شابّان من النبلاء وأمراها بأن تصطحبهما إلى بيتها فانصاعت لهما وتقدّمتهما في المسير.

وفي الطريق، وفيما يجتاز الثلاثة الشوارع المظلمة والملتوية في الحيّ القديم، راح أحد الشابّين يفصح للآخر عن مخاوفه وينحو عليه باللّائمة على رغبته المفرطة في أن يُقرأ له طالُعه.

قال له:

- ماذا خطر ببالك فأردت الذهاب عند هذه المرأة؟ أيُعقل هذا؟ فكّرْ أنّ الساعة الآن تُقارب الثامنة والنهار إلى أفول، فكّر أيضاً أنّه إذا ما رآنا أحد، بسيفَينا النفيسَين وأرياش قبّعتينا ودانتيل طوقَينا، في هذا الحيّ القذر الذي يقطنه أكثر الرعاع خساسة، فقد يظنّ أنّ هناك ذهباً في...

فقاطعه فرنسوا قائلاً:

- أنت مجنون يا غارسيا، وجبان.

- قلْ لي أتعرف هذه المرأة؟ هل تعرف اسمها؟

- نعم، إنّها بياتريشا.

أوقعت هذه الكلمة تأثيراً في مسامع الشاب فتوقّف عن السير فجأةً فيما التفتت البصّارة لدى سماعها اسمها محدّقة إليه بوجهها الشاحب الذي يجلّله شعرها الأبيض المتطاير بخفّة مع الرّيح، ما جعله يرتجف لمرآها.

تمالك غارسيا خوفه، وتابع السير بصمت مقترباً أكثر فأكثر من شقيقه فرنسوا.

وأخيراً، بعد نصف ساعة من المسير وصلا أمام ممرّ طويل اقتضى اجتيازه للوصول إلى عند بياتريشا.

قال غارسيا متوجّهاً للعجوز:

- يمكنك القيام بعرافتك هنا.

- مستحيل. ما هي إلّا بضع لحظات ونصل.

وفتحت باباً يُفضي إلى درج ملتوٍ من خشب السنديان.

وبعد أن صعدت بياتريشا أدراجاً كثيرة، فتحت باباً آخر، باب حجيرتها التي يُضيئها مصباح واهن متَدَلٍّ من السقف. لكنْ، إذا أمعن المرء النظر قليلاً في هذه الغرفة الضيّقة الخفيضة استطاع أن يتبيّن، على الرغم من العتمة شبه الكاملة، بضعة رؤوس موتى. وإذا تلمّسَتِ اليد صدفةً الطاولة الكبيرة المستديرة اصطدمت بأعشابٍ مبلّلة وشعورٍ طويلة يقطر منها الدم.

قال فرنسوا:

- أسرعي، هيّا.

أمسكت بياتريشا بيده وقرّبتها من المصباح ثمّ قالت له:

- هل ترى هذه الخطوط الثلاثة على شكل *M*، إنّها علامة الحظّ السعيد. أمّا الخطوط الأخرى التي تتلاقى وتتشابك ناحية الإبهام

فإنّها تشير إلى أنّ الخيانة ستعمّ عائلتك، أنت نفسك ستموت بسبب غدر أحد أقاربك بك. لكنّي أقول لك إنّ خططك ستتكلّل بالنجاح عمّا قريب. هذا كلّ ما عندي.

قال غارسيا بصوتٍ متهدّج:

- والآن جاء دوري.

أمسكت بياتريشا بيده اليمنى، كانت حارقة.

- ستكون حياتك مزيجاً من الخير والشرّ. لكنّ سرطان الحسد والحقد سيلتهم قلبك. سيكون سيف الجريمة في يدك وستجد في دم ضحيّتك تكفيراً عن الإهانات التي لاقيتها في حياتك. هذا كلّ ما عندي.

رمى لها غارسيا بقطعة نقودٍ ذهبيّة تدحرجت على البلاط إلى حين اصطدامها بجمجمة ثمّ قال:

- وداعاً يا امرأة جهنّم، وداعاً يا زانية بابل، فلْتنزل لعنة السماء على منزلك وعِلمك وليمتنع كلّ واحدٍ عن الانخداع بما تقولينه...

وخرجا في الحال. كان الدرج لا يزال يرجّع صدى خطواتهما فيما راحت بياتريشا تتأمّل من نافذتها النجومَ اللّامعة في السماء والقمرَ الذي كان يفضّض بِلُجَيْنِهِ سقوف فلورنسا.

2

حين عاد غارسيا عند كوسما، والده، لم يغمض له جفن طيلة اللّيل. وإذ عجز عن احتمال أرقه نهض والحمّى تخفق في أوردته. حلمَ طيلة اللّيل بنبوءة بياتريشا.

لا أعرف إذا كنتم متطيّرين مثلي لكن يجب الاعتراف بأنّ هنالك شيئاً ما غريباً وحزيناً في هذه المرأة العجوز بشعرها الطويل، ولباسها، وشخصها كلّه، وأقوالها المشؤومة، وفي ما جمعه هذا الجهاز الجنائزيّ الذي يُزيّن شقّتها من جماجم بشريّة وشعور رؤوسٍ مقطوعة حديثاً... لا شكّ أنّ هذا كان خليقاً ببثّ الرعب في نفس رجل مثل غارسيا دو ميديسيس في ليل فلورنسا القرن السابع عشر في إيطاليا.

كان في العشرين من عمره، والحال أنّه كان لعشرين عاماً خلتْ فريسةَ الهزء والإهانات والشتائم التي تكيلها عائلته له. كان غارسيا دو ميديسيس رجلاً شرّيراً، خؤوناً وحاقداً. لكن ألا يجد هذا المكر الشرّير وهذا الحسد القاتم الجشع، اللّذان كانا يثقلان بوطأتهما على أيّامه، أصلَهما في ما كابده من مضايقات؟

كان هزيلاً وسقيماً. أمّا شقيقه فرنسوا فكان قويّ البنية متينها. كان غارسيا قبيحاً أخرق ومائعاً مجرّداً من الحيويّة أو الذكاء. أمّا فرنسوا فكان فارساً جميلاً مهذّباً لا تعوزه اللياقة ولا أصول الأدب، وكان ماهراً في ركوب الحصان وصيد الأيائل ويُعَدّ أفضل صيّادٍ في الولايات التابعة للبابا.

كان فرنسوا بكر العائلة المحبوب. له كلّ التكريم والسؤدد والألقاب والمقامات. ولغارسيا المسكين الظلمة والاحتقار.

كان كوسما يحبّ ابنه البكر حبّاً جمّاً. طلب له منصب الكردينال وكان على أهبة الفوز به فيما بقيَ الابن الأصغر ضابطاً عاديّاً في جيش أبيه.

منذ زمنٍ طويل وغارسيا يبيّت الحقد في قلبه. لكنّ نبوءة العجوز فاقمَتْ تَجبُّرَه. مذ علِمَ أنّ شقيقه سيغدو كاردينالاً بدأت هذه الفكرة تُضنيه. ولشدّة حقده، أخذ يتمنّى الموت لفرنسوا. أطرق رأسه باكياً من

شدّة الغضب وقال: «آه من حظّي المنكود... سيصبح هذا الرجل الذي أكرهه المونسينيور الكردينال فرنسوا، سيكون أعلى مقاماً من دوقٍ ومن ملكٍ، سيكون تقريباً في مثل رتبة البابا... كيف لهذا أن يحصل؟ وأنا... أنا شقيقه البائس المغمور، أشبه ما أكون بخادمٍ برجوازيٍّ. وإذا شوهدَت عربة المونسنيور تجري في شوارع فلورنسا، فقدَ يسأل طفل جاهل لأشياء هذا العالم والدته قائلاً:

– من هم هؤلاء الرجال المرتدون الأحمر خلف الكردينال؟

– خدمه.

– ومن هذا الذي يتبعه على الحصان مرتدياً الأسود؟

– إنّه شقيقه. شقيقه الذي يتبعه على الحصان.

«آه، يا لذلّي ومهانتي بين الناس! وفوق ذلك عليّ احترام هذا الكردينال، عليّ تسميته المونسنيور والسجود أمام قدميه!

«عندما كنت فتياً وصافي السريرة، عندما كنت لا أزال أؤمن بالمستقبل والسعادة والله – كنت أكره تهكّم الكفّار. أمّا الآن فأنا أدرك مسرّات الدم وشهوات الانتقام والإلحاد والنجاسة».

وراح يشهق بالبكاء.

كان النهار قد طلع عندما شوهِدَ في البعيد رسول في جند البابا يقترب راكضاً باتّجاه قصر الدوق.

رآه غارسيا فبكى بكاءً مرّاً.

3

وذات ليلة مجنونة من ليالي إيطاليا، في شهر آب في فلورنسا، أضيء

قصر الدوق، وراح الشعب يرقص في الساحات العامّة. عمّ الرقص والضحك والصخب كلّ مكان فيما كان الطاعون يعيث فساداً في المدينة بعد أن أهلك عُشرَ سكّانها.

في القصر أيضاً عمّ الرقص والضحك والصخب خلواً من الفرح. هنا أيضاً كان طاعون من نوعٍ آخر يعتصر قلب رجلٍ ويعيث فساداً فيه. كان وباء شقيّ يعتصر غارسيا بقوّة بين مخالبه المتوحّشة إلى حدّ سحْقه مثلما يُسحَق الكأس بين يدي رجل سكران.

كان كوسيا دو ميديسيس هو الذي يقيم هذه الأعياد الشعبيّة كلّها احتفالاً بتنصيب ابنه المحبوب فرنسوا دو ميديسيس كاردينالاً. وقد أقيمت على الأرجح بقصد صرف الشعب عن الأحداث المشؤومة التي تشغله. يا للشعب المسكين – الذي نلهيه عن احتضاره ببعض المساحيق والأزياء المسرحيّة! وكما يحدث غالباً، فالدمعة تُخفيها ابتسامة.

لعلّ أحد الراقصين في صالون الدوق سيسقط في وسط رقصته على الأرض ويروح يختلج تحت ضوء الثريّات والمرايا. أو لعلّ تلك المرأة الشابّة يُغمى عليها وتسترسل في الهذيان. انظروا جيّداً كيف أنّ يديها تتقلّصان وقدميها تتخبّطان وأسنانها تصطكّ. إنّها تُحتضر، إنّ روحها تحشرج في صدرها، ويديها الخائرتَين تدعكان ثوبها الساتان فتلفظ أنفاسها الأخيرة وهي في لباس الاحتفال.

وتواصلت الحفلة مشعّة جميلة. دعا كوسيا إليها كلّ علماء إيطاليا وفنّانيها. وتبوّأ الكردينال فرنسوا قمّة المجد والأبّهة.

رموه بالتيجان والأزهار والقصائد والأشعار. أشبعوه مَدحاً وتقريظاً وتملّقاً.

وفي زاوية من الصالة، كنت ترى وسط جماعات النخبة رجلاً لابساً

الأسود ومظهره الجديّ يدلّ على أنّه صاحب عِلم. إنّه الطبيب رودريغو صديق عائلة ميديسيس. كان رجلاً فريداً وخيميائيّاً مميّزاً بالنسبة لعصره. كان قلّما ينكبّ على العلم الذي يعتاش منه لكنّه واسع المعرفة في العلم الذي شُغل به على سبيل الهواية.

طبعتْه دراسة الكتب ومراقبة الناس على سخرية خبيثة تظهر في ابتسامته التي تمحو بخفّةٍ التجاعيدَ القاتمة لجبينه. درس كثيراً في شبابه وخصوصاً الفلسفة واللّاهوت لكنّه إذ لم يجد فيهما إلّا القرف والشكّ، ترك النظريّات من أجل الواقع، والكتاب من أجل الدنيا.

وهي كتاب آخر فيه الكثير ممّا تجدر قراءته.

كان في ذاك الحين يتحدّث إلى الكونت سالفييري ودوق فلورنسا الذي يجد فيه أحداً يستمع إلى كلّ أقواله دون اعتراض ويُجاريه فيها دوماً. تعلمون أنّه إذا كان لديكم رأي جريء، وتصوُّر جديد للأمور، فمن الأفضل عرضهما أمام رجلٍ أرفع منكم أصلاً وأدنى منكم علماً. ذاك هو السبب في أنّ الدكتور رودريغو الذي كان رجلاً فائق الذكاء يهوى صحبة كوسما الثاني دو ميديسيس الذي لا يملك من الذكاء شيئاً.

كان منذ ما يُقارب الساعتين يحدّث الدوق في بحثٍ مُطوّل عن المعجزات في العهد القديم. سبق لكوسما أن اعترف عدّة مرّاتٍ بهزيمته أمام رودريغو لأنّه كان يدحض أفكاره البسيطة الساذجة في الدين بآراء جبّارة ومنطق حيويّ حازم.

ثمّ قال لهما سالفييري:

– حبّذا لو تبتعدان من هنا، فأنتما تمنعان هذه الصبيّة من الرقص، لِنذهب إلى مكانٍ آخر. هنا نُعيق حركة الراقصين. ما رأيك يا دكتور في أن نتسلّى بلعبة النّرد؟

- بكلّ طيبة خاطر، أجاب الطبيب وقد اغتنم هذه الفرصة لإنهاء الحوار لأنّه كان يخشى أحياناً أن يخدش شعور الأمير اللطيف.

أمّا كوسما، فبعد كلّ محادثة مع طبيبه كان يخامره شعور بفقدان إيمانه بشيء ما، باضمحلال أوهامه، وفراغ أكبر في نفسه. كان ينصرف متمتماً في سرّه: «هذا اللعين رودريغو، إنّه في منتهى الثقافة والذكاء. لكن ليُسامحني الله على خطيئتي بتصديق رجلٍ مثله - وإنْ يكن ما يقوله صحيحاً» .

بيد أنّه في اليوم التالي يسارع للشروع معه في نقاش فلسفيّ.

كانت عظمة الدوق تتجلى بكلّ بهائها في ذاك الاحتفال الذي يندر أن يُشاهَدَ بمثل فخامته وروعته. بدا كلّ شيءٍ جميلاً، وقوراً، يفيض بذخاً وثراءً وجلالاً. ولكنْ، بين هؤلاء النساء المزيّنات باللآلئ والأزهار والألماس، ووسط الثريّات والمرايا وأنغام موسيقى البوليرو[1] الراقصة، وهذا الهدير الاحتفاليّ، ورنين الذهب على الطاولات، وفي غمرة هذا الحفل الباعث على النشوة، والرقص الجذّاب، وهذه الصفوف الطويلة من الرجال والنساء وما تتّسم به من سحر وأناقة وأبّهة، حيث لا تَلمح سوى ابتسامات رقيقة ولا تَسمع إلّا أقوالاً ليّنة، كنت ترى وجه غارسيا متعالياً قاتماً، أشبه ما يكون بطيف بانكو الشاحب[2].

جاء إلى الحفل هو أيضاً- كأيّ مدعوّ آخر- يحمل معه وسط الضحكات والمباهج جرحه النازف وحزنه العميق. كان يتأمّل كلّ هذا

(1) أشار الشرّاح إلى كون البوليرو في فلورنسا في ذاك القرن أمراً مستغرباً. البوليرو رقصة إسبانيّة وتحديداً أندلسيّة ومعروفة فقط منذ القرن الثامن عشر. ولكنّ فلوبير يمزج بسهولة ما هوَ إيطاليّ بما هوَ إسبانيّ كما يفعل مع أسماء شخصيّاته!

(2) في الفصل الثالث من مسرحيّة «مكبث» لشكسبير، المشهد الرابع، يدخل طيف بانكو الذي قُتل بأمر من مكبث، ويشغل مكانه في المأدبة المعدّة. إنّه أوّل تلميح لشكسبير في كتابات فلوبير الشابّة.

بعينٍ كئيبة تعيسة كمن لا يكترث بأفراح الحياة التافهة المزيّفة، كالمحتضر الناظر إلى الشمس من على سرير احتضاره.

نادراً ما وجّه إليه أحدهم الكلام منذ بداية الحفل. كان وحيداً وسط جمعٍ غفير، وحيداً مع حزنه الذي يتأكّله، وصخب الرقص الذي يُضنيه. أثارَ منظرُ أخيه الغضب في نفسه. نظر إلى هذه الجموع المسرورة، ثمّ نظر إلى ما آل إليه، هوَ اليائس البائس المتسربلِ بثياب فردٍ من أفراد الحاشية، فتحسّس غمده وأراد أن يُمَزّق بأظافره المرأة التي لامسته بثوبها وهي تتقدّم مُراقصها، وذلك رغبةً منه في تكدير جوّ الحفل وإيذاء السعداء.

لاحظ شقيقه انزعاجه فجاء إليه قائلاً له بلطف:

- ما بك يا غارسيا؟ تُجرّح غمد السيف بأظافرك وكأنّك ستمزّقه.
- لا أشكو شيئا يا مونسنيور.
- أنت متعجرف يا غارسيا.
- وأنا لكذلك فماذا تريد منّي، ربّما كنت أكثر تعجرفاً منك، لكنّه تعجرف المتسوّل الذي يشتم السيّد الكبير لأنّ حصانه لطّخه.

وأرفق هذه الكلمات بضحكة متكلّفة.

أدار الكردينال له ظهره غير آبهٍ، وذهب ليتلقّى التهاني من دوق دو بيلامونته الذي وصلَ للتوّ متبوعاً بموكب عظيم.

وعندئذٍ انهار رجلٌ على أحد المقاعد فاقداً وعيه.

فحمله أوّل خادم كان يمرّ من هناك بين ذراعيه واجتذبه خارج القاعة.

إنّ أحداً لم يستعلم عن هذا الرجل.

كان هو غارسيا.

4

انتظم بعض رماة السهام في صفوفهم وسط الباحة ينتظرون بفارغ الصبر وصول أسيادهم ليبادروا إلى الانطلاق- لأنّ أحصنتهم كانت تتململ ناهبةً الأرض بحوافرها توّاقةً إلى العَدْوِ في السهل. وكانت الكلاب التي يمسك الخيّالة برَسنها تنبح من حولهم وتعضّ سيقانهم، فراحوا يهدّئونها بالشتائم وضربات السياط.

أتمّ الدوق وعائلته استعداداتها للانطلاق وانتظرا فقط وصول بضع سيّدات والدكتور الفاضل رودريغو الذي جاء ممتطياً فرسه السوداء الرائعة. فُتِحَ الباب الكبير وبدأوا المسير. اعتلى الرجال أحصنتهم واضعين بنادقهم على أكتافهم وسكّين الصيد على الجانب الأيسر.

أما السيّدات فقد تبعنهم في الخلف معتلياتٍ براذينَ، وهنّ قابضات على الصقور بأيديهنّ.

افتتح كوسيا والكردينال الموكب، وأثناء مرورهما تحت الباب، جفلت فرس الكردينال من القلنسوة الحمراء لأحد الحرّاس فقفزت وأوقعت فارِسَها.

فهمهم الدوق قائلاً:

- إنّه لفأل سيّئ.

فقال رودريغو:

- ماذا! هل تؤمن بهذه الترّهات، لا بدّ أنّك تمزح.

فصمت كوسيا وغرز جنب الفرس بالمهماز فانطلق يخبّ، وتبِعه الجميع.

اجتذب وقْع حوافر الأحصنة على البلاط وجلبة السيوف المرتطمة

بالصهوات جميع السكّان فوقفوا عند نوافذهم يشيّعون موكب الدوق كوسما الثاني دو ميديسيس لدى مروره، ذاهِباً إلى الصيد مع ابنه الكردينال.

وإذ وصل الجمع إلى الساحة الكبيرة، انقسم إلى ثلاث فرقٍ مختلفة. نفخ السّواط الأوّل في البوق، وانطلق الفرسان عدْواً في شوارع فلورنسا.

ذهب كوسما برِفقة رودريغو، وغارسيا مع فرنسوا، وكان على بيلامونته مع السيّدات ورماة السهام أن يحيطوا الطريدة بالكلاب.

تجهّمت السماء منذرة بالعاصفة. أضحى الهواء خانقاً وأزبدت أفواه الأحصنة الهادرة.

كان الطقس جميلاً في الغابة، وعاد الهواءِ منعشاً نقيّاً. كان الوقت في عزّ الظهيرة واستسلم الجميع لمتعة الإحساس العذب الذي تبعثه الأفياء وشعاع الشمس يلتمع في البعيد نافذاً عبر الأغصان.

بدا غارسيا في لباسه الأسوَد متجهّماً ساهِماً. كان يتبع بطريقة آليّة أخاه الذي ابتعد عن الآخرين ليقتفي أثر الأيّل الذي فرّ للتوّ. وبعد قليل وجَدا نفسيهما وحيدين في أيكةٍ منعزلة، وبات مستحيلاً عليهما التقدّم فتوقّفا ثمّ نزلا عن حصانيهما وجلسا على العشب.

بعد صمتٍ طويل يرين عليه الحزن، بادر غارسيا أخاه الكلام بحماسة:

- ها قد أصبحت كردينالاً.

ثمّ أردف وهو يستلّ سيفه: «ها قد أصبحت كردينالاً. كردينالاً...

ثمّ ضحِكَ ضحكة ملعونة فاقعة متوحّشة.

- وما الذي يدهشك في الأمر يا غارسيا؟

- أما تذكر نبوءة بياتريشا؟

- نعم، وإن يكنْ؟

- هل تذكر غرفتها حيث كان هناك رؤوس مقطوعة وجماجم بشريّة-
هل تذكر شعرها الأبيض الطويل؟ ألا تجد يا عزيزي الكردينال أنّ
في تلك المرأة شيئاً شيطانياً وفي نظرتها قبساً من الجحيم؟
وعندئذٍ التمعت عيناه بنظرة جعلت فرنسوا يرتعد.
- ما الذي ترمي إليه بحديثك عن تلك المرأة؟
- هل تذكر نبوءتها؟ هل تذكر أنّها قالت لك إنّ مشاريعك ستتكلّل بالنجاح. أرأيت، لديّ ذاكرة جيّدة مع أنّه مرّ على لقائنا بها يومان، وهذان اليومان كانا بالنسبة لي طويلين كدهر. آه، هناك في الحياة أيّام تترك أثرها عند المساء أكثر ما يؤثر السكّين في الجبين.
واغرورقت عيناه بالدموع.
فقاطعه أخوه قائلاً:
- أنت تُسئمني بحديثك يا غارسيا.
- نعم أُسئمك. حسناً، مشاريعك نجحت. صدَقَت النبوءة، ولكن أنسيتَ أنّها قالت إنّ سرطان الغيرة والغضب سيسمّم روحي؟ أنسيت أنّها قالت إنّ الدم سيكون موردي والجريمة بهجة حياتي؟ أنسيت ذلك؟ فاعلم إذنْ أنّ نبوءتها صحيحة. ألا ترى آثار الدموع التي ذرفتُها منذ يومين؟ ألا ترى بُقَعاً في رأسي منزوعة الشعر؟ ألا تنتبه إلى انكسار صوتي ووهنه؟ نتفتُ شعري قهراً ومزّقتُ وجهي بأظافري وأمضيتُ الليالي أصرخ من شدّة الغضب واليأس.
وأخذ يشهق حتّى لكأنّ الدم سينفر من عروقه.
قال الكردينال وهو ينهض مذعوراً:
- أنت مجنون يا غارسيا!
- أنا مجنون، هذا صحيح. وقاتل ربّما. اسمع يا سيادة الكردينال

فرنسوا الذي عيّنه البابا. اسمع: حياتنا كانت مبارزة رهيبة حتّى الموت لكنّها مبارزة فيها من الإهانة ما يجعل الأبدان تقشعرّ لروايتها، أنت كنت ذا حظوة حتّى الساعة، والمجتمع حَماك. لكنّ العدل قوام الدنيا- لقد عذّبتَني طيلة حياتي، والآن سأذبحك.

وأسقطه أرضاً بذراعه المسحورة ثمّ وضع سيفه في صدره فقال فرنسوا بصوتٍ متهدّج:

- عفوك غارسيا، عفوك... قل لي ماذا فعلت لكَ؟

- ماذا فعلتَ لي، ألا تدرك ماذا فعلت؟

وَبَصَقَ في وجهه.

- سأردّ لك الشتيمة شتيمة والاحتقار بمثله. أنت كردينال وأنا ألعن مقامك الروحيّ. أنت جميل، قويّ وجبّار، وأنا ألعن قوّتك وجمالك وجبروتك. أنت الآن تحت يدي، وقلبك يخفق جزعاً تحت ركبتي- ها أنت ترتجف. ارتجفْ إذنْ وتعذّب كما ارتجفت أنا وتعذّبت. أنت لا تعرف، أنت الذي حِكمتك محطّ إعجاب الجميع ومديحهم، أنت لا تعرف كم يشبه إنسانٌ الشيطانَ عندما يحيله الظلم بهيمةً متوحّشة. آه كم تعذّبني رؤيتك تعيش فَخُذْ.

ودوّت صرخة تصمّ الآذان.

انطلق غارسيا يعدو. كانت بقع من الدم تلطّخ دانتيل طوقه.

***

استيقظ سكّان فلورنسا الطيّبون حوالى منتصف الليل على جلبة كبيرة من الأحصنة والفرسان الذين كانوا يعبرون الشوارع حاملين القناديل

والمشاعل.

رجع المونسنيور والدوق من الصيد.

على مسافة أبعد كان يتبعه أربعة خدّام بصمتٍ وهم يرفعون محْملاً. كانوا يمشون بخطواتٍ سريعة وكأنّهم يريدون العبور خلسة. بدا الدوق حزيناً، متدثّراً بمعطفه مطرقَ الرأس، لكأنّه يريد أن يتهالك دموعه.

عندما وصلوا إلى قصر الدوق هرَعَت امرأة أمام الصيّادين تسألهم أين الكردينال. وعندما رأت المحمل سألت الدوق زوجها:

- ماذا هنالك؟

رمى الدوق غارسيا بنظرةٍ قاسيةٍ باردةٍ ثمّ تردّد بضع ثوانٍ وقال بنبرةٍ أليمة:

- جثّة.

5

أنار ضوء الصبح الغرفة متسرّباً عبر الستائر المسدلة بإحكامٍ، ناعماً هائناً.

كان رجل يذرع الغرفة بِخطى واسِعَة. رجل عجوز. بدا عليه مستغرقاً في أفكار تعكّر صفْوَ روحه. تارةً يتّجه إلى طاولته ويأخذ عنها سيفاً مجرّداً من غمده يتفحّصه باشمئزاز، وتارة أخرى يذهب إلى عمق الغرفة حيث أُسدلت ستارة سوداء كبيرة كان الذباب يطنّ من حولها. كان الجوّ بارداً في هذه الغرفة، وتنبعث منها رائحة نتنة رطِبَة كتلك التي تنبعث من صالة تشريح.

وأخيراً توقّف فجأة وهوَ يضرب الأرض بقدَمه بغضب: «التقتصّ

العدالة لنفسها. ذاك واجب محتوم. إنّ دَمَ المظلوم يصرخ بنا كي نثأر له. فلنثأر له» . وأمر أحد خدّامه بأن ينادي له على غارسيا.

وفي الحال وصل غارسيا. كانت شفتاه بيضاوَين مشقّقَتين كمَنْ نجا من نوبة حمّى، وكان شعره الأسود المردود إلى الخلف يكشف عن جبينٍ شاحب يبدو وكأنّ الله قد طبع عليه لعنته.

قال لدى دخوله:

- هل ناديتني يا أبي؟

- نعم. ها قد رتّبت هندامك وغيّرت ثيابك. أبدلت الثياب التي كنت ترتديها أمس فالبقع تُرى بوضوحٍ على لباسٍ أسود، أليس كذلك يا غارسيا؟ أصابعك رطبة. يبدو أنّك غسلت يديك جيّداً وعطّرت شعرك.

- لكن لِمَ هذه الأسئلة يا أبي؟

- ولِمَ العجب؟ آه يا غارسيا يا بُنيّ، الصيد لذّة ملكيّة أليس كذلك؟ لكنّنا أحياناً ننسى الطريدة وإذا لم يبادر أحد ما يتحلّى بالنخوة لانتشالها فإنّها...

ثمّ أمسك بسيفه وقاد غارسيا إلى عمق القاعة ففتح الستارة بيده اليُسرى وأشاح بنظره قائلاً له:

- ألا فانظرْ وتأمّلْ!!!

كانت الجثّة ممدّدة على السرير عارية والدّم لا يزال ينزف من جراحِها. بدا وجه الميّت متشنّجاً راعباً بعينيه المفتوحتين اللتين ترنوان جهة غارسيا، وهذه النظرة الكئيبة الكامدة للجثّة جعلت أسنانه تصطكّ. كان فم الميّت منفرجاً وذبابات اللحم أتت تحوّم على أسنانه، فيما التصقت خمس أو ستّ أخرى بالدم المتجمّد على خدّه. رأى غارسيا أيضاً سحنة البشرة المتقعة،

وبياض الأظافر وبعض الكدَمات على الذراعين والركبتين...

ومكث أخرس مأخوذاً من الذهول والدهشة. ثمّ خرّ على ركبتيه بارداً جامداً مثل جثّة الكردينال. سُمِعَ صفيرٌ يعبر الهواء.

وجلبة جسد ثقيل يسقط على الأرض وحشرجة مرعِبة، حشرجة مجنونة، حشرجة جهنّمية يتردّد صَداها تحت القبب.

6

كانت فلورنسا غارقة في الحِداد، من جرّاء الطاعون الذي يفتك بأبنائها ويسود منذ شهر ملكاً على المدينة، إلّا أنّ غضبه المسعور اشتدّ في اليومين الأخيرين. كان الشعب يموت وهوَ يلعن السماء وممثّليها على الأرض، ويُجدّف في هذيانه، وإذا كان ثمّة كلمة ينطق بها على سرير كرْبته وألمه فهي لعنة. وبما أنّه كان واثقاً من نهايته القريبة راح يتمرّغ ضاحكاً بجنونٍ في وحل الفجور والرذيلة.

ذلك أنّ الانسان حين تحفل حياته بالمآسي والآلام القاهرة، والقنوط الخانق لا يسعه إلّا أن يجد لذّة في شتم ذاك الذي يتسبّب في ألمه، ويرمي باحتقارٍ كرامته كإنسان كما يُرمى قناع المسرح، ويستسلم للفجور أوسخِه، وللرذيلة أحطِّها، ويلفظ أنفاسه وهو يسكر على أنغام الموسيقى.

إنّه المحكوم بالإعدام يسكر قبل إعدامه.

حريّ بالفلاسفة أن يتحدّثوا عن كرامة الإنسان وروح الجماهير في مثل هذه الظروف المصيريّة بالذات.

إلا أنّ حدثاً هامّاً جاء ليلهي مع ذلك فلورنسا الغارقة في يأسها الصارخ وصلواتها وأمانيها الزهيدة، متجلّياً في وفاة ولدَيْ كوسما دو

ميديسيس اللّذين لم يوفّرهما الوباء وأودى بهما كما يودي بأوضع خادم عند أصغر بورجوازيّ.

في ذلك اليوم كان يُحتفَل بجنازتهما، وللحظةٍ نهض الشعب من فراشه، فتح كلّ واحدٍ نافذته بيديه المتراخيتين العَرِقتين ليحظى بفرحة تأمّل اثنين من أسياده يُدفنان في التراب.

بدا الموكب في حداده الفخم، وسط فلورنسا، حزيناً متخشّعاً.

كانت جثّتا غارسيا وفرنسوا ممدّدتين على هوْدَجَين تجرّهما أفراس سوداء.

كلّ شيء كان هادئاً ووديعاً، لا تُسمع إلّا حوافر الأفراس تمشي الهوينى على بلاط الشوارع، وضجّة المخملين اللّذين كانت قضبانهما تقرقع لدى كلّ حركة. ثمّ انطلقت تراتيل الموت تنوح على هاتين الجثّتين، وفي البعيد، صدحت في كلّ مكانٍ قرعات النواقيس الجنائزية ناحبَةً بصوت نحاسها الرنّان.

وإلى جانب المخملين كان يمشي الدكتور رودريغو، والدوق دو بيلامونته، والكونت دو سالفيري.

قال هذا الأخير وهو يتوجّه إلى الطبيب:

– أيُعقل أن يصاب رجلٌ قتله الطاعون بهذه الجراح البليغة؟

كان يشير إلى جروح غارسيا.

– أجل، أحياناً، بفعلِ المَحاجِم[1].

ولم يكن يُسمع إلّا نَشيد الموتى والأجراس التي تُقرع منتحِبَةً عبرَ الأثير.

---

(1) مفردها مِحجَم ومِحجَمة، كؤوس الحِجامة والمعالجة بها، وهي استخراج دم المريض وفصْده بواسطة آلة تشبه كأساً مقوّسة.

عِبرة

ذلك أنّ لكلّ شيءٍ
عبرَةً
يجبُ أن تُعتبَر.

غواية الكتب

في شارعٍ ضيّق لا تزوره الشمس من شوارع برشلونة، كان يعيش، منذ زمنٍ ليس ببعيد، رجل شاحب الوجه، كامد النظرات أجوفها، أشبه ما يكون بتلك المخلوقات الشيطانيّة الغريبة الخارجة من القبور التي تحفل بها رؤى هوفمان[1].

كان الرجل يُدعى جاكومو ويعمل في بيع الكتب. وبالرغم من بلوغه الثلاثين إلّا إنّه بدا طاعناً في السنّ. إذ تقوّست قامته السامقة وغزا الشيب شعره الطويل فابيضّ كلّه. كانت يداه قويّتين مشدودتَي الأعصاب لكنّهما مكسوّتان بالتجاعيد، وثيابه رثّة بالية. أمّا تصرّفاته فخرقاء مرتبكة. كان مرآه شاحباً، كئيباً وقبيحاً، لا بل تفِهاً. نادراً ما كنت تراه في الشوارع، خلا الأيّام التي تباع فيها الكتب الغريبة النادرة في المزاد العلنيّ. عندئذٍ لا يعود ذاك الرجلَ المضحك والمنعدم النشاط. لا يلبث أن تنتعش عيناه، وتنشط همّته فيمشي مهرولاً ضارباً الأرض بقدميه، جاهداً لاحتواء فرحته وتوتّره ومخاوفه وآلامه. ثمّ يعود إلى منزله لاهثاً، منهكاً، مبهور الأنفاس. يتشبّث بالكتاب الأثير معانقاً إيّاه بنظراته العاشقة، ويحنو عليه كما يحنو أب على ابنته ويهوى ملك تاجه، أو كما يضنّ بخيل بثروته.

لم يتحدّث هذا الرجل إلى أحد قطّ، ما عدا تجّار الكتب وبائعي العتائق. كان صموتاً وحالماً، متجهّماً وحزيناً، لا تشغله إلّا فكرة واحدة ولا يختلج فؤاده إلّا بحبّ أوحد، ألا وهوَ الكتب. وكانت نار هذا الحبّ

---

(1) إرنست هوفمان Ernst Hoffmann (1776–1822): أديب وموسيقي ألماني، أحد كبار الكتّاب في الحركة الرومانسيّة ويعتبر رائداً في القصص الغربية الخياليّة.

وهذا الشغف تكوي أحشاءه، وتستنزف أيّامه، وتلتهم حياته.

وفي الليل، غالباً ما كان جيرانه يرون عبر نافذته نوراً مرتعشاً، نوراً يتقدّم ويبتعد، يتعالى ثمّ ينطفئ. وفي الحال يسمعون طرْقاً على بابهم. إنّه جاكومو الذي جاء يعيد إشعال شمعته بعدما أطفأها طرسٌ ما.

كان يمضي تلك الليالي المحمومة والحارقة بين كتبه، مهرولاً في مستودعاته، عابراً أروقة مكتبته بنشوة وافتتان إلى أن يتوقّف، مشعّث الشعر، محدّقاً إلى الكتب بنظرات ثابتة متوقّدة؛ يلامسها على الرفوف فترتجف يداه الحارّتان الرطبتان. ثمّ يمسك كتاباً ويقلّب صفحاته متلمّساً الورق، متفحّصاً التذهيب والحبر والثنيات والرسوم المرافقة لكلمة «انتهى»، ويقرّر تغيير مكانه فيضعه في رفٍّ أكثر ارتفاعاً، ويمكث ساعات بكاملها وهوَ يتأمّل عنوانه وشكله.

ثمّ يذهب شطر مخطوطاته، أعزّ أبنائه. يأخذ المخطوطة الأقدم والأكثر ترهّلاً واتّساخاً. وينظر إلى الرقّ بسعادة وحبّ، ويشتمّ رائحته الوقورَ المقدّسة ملء منخريه فيزهو بهجةً وفخراً وترتسم على شفتيه ابتسامة عريضة.

كم كان سعيداً ذاك الرجل! ما أسعده وسط كلّ هذا العلم الذي كان لا يكاد يدرك مغزاه الأخلاقي وقيمته الأدبيّة. ما أسعده بين كلّ هذه الكتب يُجيل عينيه على أحرفها المذهّبة وصفحاتها الباليَة وَرِقّها الكامد. كان يحبّ العلم كما يحبّ أعمىً ضوء النهار.

لا، لم يكن العلم ما يُحبّه هو، بل شكله وبيانه، كان يحبّ كتاباً لأنّه كتاب. يحبّ رائحته، ومظهره وعنوانه. كان يستهويه في مخطوطته أنّها ترقى إلى تاريخ قديم غير واضح، والأحرف القوطيّة الغريبة، والزخارف المذهّبة التي تغزو الرسوم، وهذه الصفحات المكسوّة بالغبار. غبار يستنشق

عطره اللذيذ الرقيق بشغفٍ. وكذلك كلمة «انتهى» الجميلة مُحاطةً برسم ملاكين محمولين على شريط ومتكئين إلى نافورة، أو محفورةً على شاهدةِ قبر، أو مستلقيةً في سلّة، بين الورود والتفاحات الذهبيّة وباقات الأزهار الزرقاء.

كان هذا الشغف يستحوذ عليه بكلّيته: لا يطيب له طعام ولا يهنأ له رقاد بل تسكنه ليلَ نهار فكرته التي لا يحيد عنها ألا وهي اقتناء الكتب. يحلم بمكتبة فخمة كبيرة كتلك التي للملوك تحوي كلّ ما هو مقدّس وسامٍ وجميل. لا يتنفّس ملء رئتيه، ولا يشعر بالفخر والجبروت إلّاعندما يُسرِّح نظره في الأروقة الهائلة للمستودعات ويهيم نظره بين الكتب! إذا رفع رأسه وجد كتباً، وإذا خفضه وجد كتباً، وإن التفت يميناً ويساراً ألفى الكتب في كلّ مكان.

رأى فيه أهل برشلونة رجلاً غريباً وشرّيراً، ومنهم من عدّه عالماً أو مشعوذاً.

لم يكن يُحسن القراءة. ولم يكن أحد يجرؤ على التحدّث إليه لِفَرطِ شحوبه وتجهّمه. ينبعث من مظهره شرّ وغدر، ومع ذلك فإنّه لم يسئ لأحدٍ في حياته عِلماً أنه لم يتصدّق مرّة على محتاج.

كان يوفّر كلّ ماله وثروته، وكلّ انفعالاته من أجل الكتب. كان مترهّباً، ومن أجل الكتب تخلّى عن الله. ولاحقاً، ضحّى في سبيلها بأغلى ما لدى البشر بعد الله ألا وهو المال. ثمّ أعطاها أغلى ما لدى الإنسان بعد المال أي روحه.

منذ بعض الوقت أخذ يطيل في السهر. كنت تَرى مصباحه مضاء على مكتبه لوقتٍ متأخر. ذلك أنّه امتلك لتوّه كنزاً جديداً: إحدى المخطوطات القديمة.

ذات صباح، دخل إلى متجره طالب شابّ من سَلَمَنْكَة. بدا ثريّاً بقلنسوته المخمليّة الحمراء والخواتم الملتمعة في أصابعه، والخادمَين الراجلَين اللّذين كانا يمسكان بفرسه أمام باب جاكومو.

ومع ذلك لم يكن يتّسم بذلك الرضى الفارغ العقيم الذي نعهده لدى الناس الذين يرتدون الثياب الفاخرة ويقتنون الخدّام المزيّنين بالشرائط. لا، هذا الرجل كان عالِماً ولكنّه عالم من الأثرياء على غرار الباريسي الذي يكتب على طاولة من خشب الأكاجو، ولديه كتب مذهّبة فاخرة، وخِفاف مطرّزة وتحفٌ صينيّة، ومبذَل، وساعة حائط ذهبيّة، وهرّ ينام على السجّادة، وامرأتان أو ثلاث يَستنْشدنَه شعره ونثره وقصصه، ويقلنَ له: «أنت لَمّاح»، فيما يجدنه مدّعياً. كان هذا الرجل النبيل مؤدّباً في تصرّفه. لدى دخوله حيّى الكُتبيّ منحنِياً باحترام وقال له بنبرةٍ مهذّبة:

- أستاذ، أيَصدف أن أجِدَ عندكَ مخطوطات؟

شعر الكُتبيّ بالحرَج وأجاب متلعثِماً: «من قال لك ذلك يا سيّد؟

- لا أحد، افترضت ذلك.

ووضع على طاولة الكُتبيّ صرّة ملأى بالذهب وهو يخشخشها مبتسماً، كما يفعل كلّ رجل لدى ملامسته المال الذي يملكه.

أردف جاكومو قائلاً:

- سيّدي، هذا صحيح لديّ مخطوطات لكنّي لا أبيعها. بل أحتفظ بها لنفسي.

- ولأيّ غرض؟ ماذا تفعل بها؟

- لأي غرضٍ يا سيّدي؟

وهنا احمَرّ وجهه غضباً: ماذا أفعل بها! واضح أنّك تجهل معنى امتلاك مخطوطة!

- عفواً يا أستاذ جاكومو، أنا خبير في هذه الأمور وإثباتاً على كلامي أقول لك إنّ لديك هنا «حوليّات توربان»[1]...
- لا شكّ أنّك مخطئ يا سيّدي.
فأجاب الرجل النبيل:
- لا عليك يا جاكومو، لا أريد إطلاقاً أن أسرِقَها منك بل أن أشتَرِيَها.
- هذا مُحال!
فأجاب التلميذ:
- بل ستبيعني إيّاها لأنّك تملكها هنا. كانت قد بيعَت لدى ريتشيامي يوم وفاته.
- حسناً، كما تشاء، لديّ هذه المخطوطة. إنّها كنزي، وحياتي، لكنّك لنِ تأخذها منّي، اسمع سأقول لك سرّاً. باتيستو تعرفه، باتيستو الكُتبيّ الذي يسكن في الساحة الملكيّة، خصمي وعدوّي، هوَ لا يملكها وأنا أملكها!
- بِكَم تقدّر ثمنها؟
فكّر جاكومو مليّاً وأجاب بفخر: «بمئتي بستول[2] يا سيّدي»، ثمّ نظر إلى الشاب بهيئة ظافرة وكأنّه يقول له: هيّا امضِ في سبيلك. هذا باهظ الثمن إلّا أنّني لن أخفّض السعر.
وكان مُخطِئاً لأنّ الرجل الشريف قال له وهوَ يمدّ له صرّة نقوده:
- هاك ثلاثمئة بستول.
علا الشحوب وجه جاكومو وأوشك أن يُغمى عليه عندما ردّد

(1) كتاب منسوب خطأً لتوربان، أسقُف مدينة رانس Reims الفرنسية، الذي توفّي عام 800، وموضوعه الأساسيّ يدور حول تاريخ حرب إسبانيا. يُقال إنّه كتبه أوّلاً باللاتينيّة الراهب سانت أندريه الفيئتي في القرن الحادي عشر.
(2) بستول: عملة ذهبيّة إسبانيّة أو أوروبيّة تساوي عشرة فرنكات ذهباً.

الشابّ:

- ثلاثمئة بستول.

- لكنّي مجنون يا سيّدي ولن أبيعه حتّى ولَو بأربعمئة بستول.

أخذ الطالب يضحك ثمّ فتّش في جيبه وسحب منه صرّتَيْ نقود أخريَين قائلاً: حسناً يا جاكومو هاكِ خمسمئة بستول. لا تريد بيعه يا جاكومو لكنّي سأحصل عليه، سأحصل عليه اليوم، لا بل الآن، لأنّني أحتاج إليه. حتّى لو اضطررت إلى بَيعِ هذا الخاتم الذي أهْدِيَ لي مع قبلة حبّ طويلة، حتّى لو اضطرّني الأمر بيع سيفي المزيّن بالألماس، ومنازلي وقصوري. حتّى لو اضطرّني الأمر بيع روحي! يجب أن أحصل على هذا الكتاب. نعم يجب الحصول عليه بكلّ قوّة وبأيّ ثمن! في غضون ثمانية أيّام يجب أن أناقش أطروحة في سلمنكة. يجب الحصول على هذا الكتاب لأصبح دكتوراً. وعليّ أن أصبح دكتوراً لأُعيَّنَ مطراناً. يجب أن أضَعَ الأرجوان على كتفي لأزيّن جبيني بالإكليل المثلّث.

اقترب جاكومو منه ونظر إليه بإعجاب واحترام وكأنّه الرجل الوحيد الذي يفهمه.

وأردف الرجل الشريف:

- اسمع يا جاكومو. سأقول لك سرّاً يحقّق ثروتك وسعادتك. هناك رجل يقيم عند مدخل حصن العَرب، ولديه كتاب إنّه «سرّ القدّيس ميخائيل».

قال جاكومو وهوَ يُطلق صيحة فرَح:

- «سرّ القدّيس ميخائيل»! شكراً لك! لقد أنقذت حياتي.

- أعطني إذاً بسرعةٍ «حوليّات توربان».

وهرَعَ جاكومو باتّجاه أحد الرفوف. وهناك توقّف فجأةً. ثمّ قال

بدهشة مصطنعة وقد علا الشحوب وجهه:

- لكنّ الكتاب ليس عندي يا سيّدي.

- جاكومو، حِيَلك لا تنطلي عليّ، ونظراتك تفضح كلماتك.

- سيّدي ماذا تقول! الكتاب غير موجود عندي، أقسم لك.

- كفاك كذِباً! أنت عجوز مجنون يا جاكومو! هاك ستمئة بستول.

أخذ جاكومو المخطوطة وأعطاها للشابّ ثمّ قال:

- خذ هذا هو الكتاب.

ثمّ ابتعد الرجل الشريف وهوَ يضحك ثمّ صعد على فرسه قائلاً لخادمَيه:

- تعرفان أنّ سيّدكما مجنون لكنّه خدع لتوّه غبيّاً. ثمّ كرّر وهوَ يضحك: «العفريت الأبله يعتقد أنّني سأصبح الأب الأقدس».

ومكث جاكومو التعيس حزيناً يائساً مسنداً جبينه الحارق على زجاج دكّانه وهوَ يبكي غضباً، ناظراً بمشقّة وألم إلى مخطوطته، وهيَ موضوع اهتمامه وعاطفته، محمولة بأيدي خادمَيْ الرجل الشريف الفظّين.

- أوّاه! أوّاه! ويحك يا خازن جهنّم! ملعون أنت! ملعون مئة مرّة، أنت يا مَن سَرَقت منّي كلّ ما كنت أحبّه على هذه الأرض التي لا أطيق العيش فيها بعد اليوم. لقد خدعني، المنافق. خدعني! إذا كان الأمر كذلك فسأنتقم. والآن عليّ بالمسارعة للذهاب إلى حصن العرب. لكن ماذا لو طلب منّي ذاك الرجل مبلغاً يفوق قدرتي، فماذا أفعل والحالة هذه؟... آه! هذا سيقضي عليّ!

أخذ المال الذي تركه الطالب على المكتب وخرج راكضاً.

وفيما هوَ يسير في الشوارع، لم يكن يرى شيئاً من حوله. كان كلّ شيءٍ يمرّ من أمامه مثل أخيلة غامضة. لم يعد يسمع عبور المارّة، ولا ضجيج

العجلات في الشارع المبلّط. لم يكن يفكّر ولا يحلم إلّا بشيء أوحد ولا يرى سواه: الكتاب. كان يفكّر بـ «سر القدّيس ميخائيل»، ويتخيّله عريضاً وقليل السُّمك، مصنوعاً من الرقّ النفيس المزيّن بأحرف من ذهب، ويحاول أن يُخمّن عدد صفحاته. أخذ قلبه يخفق بعنفٍ كرجلٍ ينتظر حكم إعدامه. وأخيراً وصل.

أفلم يخدعه الطالب؟

على سجّادة عجميّة قديمةٍ مليئة بالثقوب مفروشة أرضاً، بُسِطت عشرات الكتب القديمة.

ودون أن يتحدّث إلى الرجل النائم قربه متمدّداً كالكتب وهو يشخّر تحت الشمس، جثا جاكومو على ركبتيه وبدأ يتفحّص حوافي الكتب كلّها بِعينٍ يغشاها الاضطراب. ثمّ نهض والخيبة تعلو سحنته المتقعة وأيقظ بائع الكتب ثمّ سأله وهو يصرخ:

- يا صاحِ، أليس لديك هنا كتاب «سرّ القديس ميخائيل»؟

قال البائع وهوَ يفتح عينيه:

- ماذا! هلّا سألتني عن كتاب موجودٍ عندي! انظر بنفسك!

قال جاكومو وهو يضرب الأرض بقدَميه:

- هل لديك كتب أخرى غير هذه؟

- نعم. انظرْ هناك.

وأشار إلى رزمة كرّاسات موثوقة بخيوط.

قطعها جاكومو بغضب وقرأ عناوينها بلمح البصر.

وقال:

- تبّاً! لا يوجد ما أفتّش عنه. ألم تبِعه صدفة؟ إذا كان في حوزَتك أعطِني إيّاه... أعطنيه! أدفع لك: مئة بستول... مئتي بستول...

كلّ ما تريد.

ونظر إليه بائع الكتب مندهشاً:

- ربّما كنت تقصد الحديث عن كتابٍ صغير. بعته البارحة بثمانية مرابطيّات[1] لكاهن كاتدرائيّة أوبييدو؟

- هل تذكر عنوان الكتاب؟

- لا.

- أو يكون «سرّ القديس ميخائيل»؟

- نعم، هذا هوَ.

ابتعد جاكومو بضع خطواتٍ عن المكان، وخرّ ساقطاً على التراب مثل رجلٍ أنهكته رؤى تستبدّ به.

وعندما عاد إلى رشده، كان المساء قد حلّ، والشمس المتوهّجة عند الأفق تأفل. نهض وعاد إلى منزله سقيماً، يائساً.

ثمانية أيّام مضت ولم ينسَ جاكومو خيبته وحزنه. كان جرحه الفاغر لا يزال نازفاً. بيْدَ أنّه منذ ثلاث ليالٍ لم يغمض له جفن لأنّه كان ينتظر بفارغ الصبر مجيء اليوم الذي سيُباع فيه أوّل كتابٍ طُبع في إسبانيا، ولا يوجد منه إلّا نسخة وحيدة في هذه المملكة.

منذ زمنٍ بعيد وهو يحلُم باقتنائها. كم أحسّ بالسعادة يوم أعلِن عن وفاة صاحبها. لكنّ قلقاً أمضّ روحه، فهناك باتيستو، الذي ينتزع منه منذ بعض الوقت، لا الزبائن فحسب، وهذا قلّما يهمّه، بل كلّ كتابٍ نادرٍ وجديد. باتيستو الذي يكره جاكومو شهرته كُرْهَ فنّانٍ لشهرة سواه. أضحى هذا الرجل يُثقل كاهله فهوَ ينتزع منه دوماً المخطوطات المطروحة في المزاد: كان يزيد على الراغبين في شرائها ويكون له ما يريد. آه، كم منَ

---

(1) مرابطيّ: عملة أندلسيّة قديمة تساوي سنتيماً ونصف السنتيم.

المرآت.... استرسل المترقّب المسكين في أحلامه بالمجد والثروة. كم منَ المرّات رأى يدَ باتيستو متطاولة تعبر الحشد، كما في أيّام المزاد، لكي تختطف منه كنزاً حَلمَ بِهِ طويلاً وأراد بكلّ قواه أن يستأثر به وحده.

كم منَ المرّات أيضاً أغوَته فكرة الجريمة، جريمة يعوّض بها عمّا عجز عن تحقيقه بالمال والصبر. لكنّه كان يكتم حقده على هذا الرجل في صدره محاولاً الانشغال عنه بالكتب.

منذ الصباح الباكر رسا أمام القاعة التي سيُقام فيها المزاد العلنيّ. غدا إليها قبل المفوّض المعتمد، وقبل الجمهور، وقبل شروق الشمس.

ما إن فتحت الأبواب حتّى هرع يتسلّق الدرَج صعوداً إلى القاعة ليسأل عن الكتاب. فأُظهِرَ له. وكانت رؤيته بحدّ ذاتها سعادة كبرى.

آه ما أجمله! لم يرَ في حياته شيئاً بهذا الجمال، ما زاد في سعادته. كان نسخة من الكتاب المقدّس باللغة اللاتينيّة مرفقة بشروحٍ باللّغة الإغريقيّة. نظر إلى الكتاب فأعجبه أكثر من الكتب السابقة. قبضَ عليه بين أصابعه وهوَ يضحك بمرارة، أشبه ما يكون برجلٍ يموت جوعاً وهو يرى الذهب أمامه.

أبداً، لم تشتهِ نفسه شيئاً على هذه الشاكلة ولا بهذا الشغف! آه كم يرغب في الحصول على هذا الكتاب، حتّى لو باعَ كلّ ما لديه، كتبه، ومخطوطاته، ودفع الستمئة بستول التي في حوزته، حتّى لو كان الثمن دمه. يرغب في بيع كلّ شيء، كلّ شيء للحصول على هذا الكتاب، الحصول عليه هو بالذات ولا شيء إلّاه، أن يكون له وحده؛ يريد أن يظهره لإسبانيا كلّها وهوَ يُطلق ضحكة إشفاقٍ شامتاً بالملك والأمراء، والعلماء، وأيضاً بباتيستو. أن يقول لهم جميعاً: «إنّه لي! لي وحدي!». أن يمسكه بيدَيه الاثنتين طيلة حياته. أن يتلمّسه كما يتلمّسه ويشمّه الآن،

ويمتلكه كما ينظر إليه في هذه اللحظة.

وأخيراً وافَت الساعة. حضر باتيستو، مشرق الوجه، هادئ الملامح، وقوراً. وبدأ بيع الكتاب بالمزاد. عرض جاكومو أولاً مبلغ عشرين بستولاً. فصمت باتيستو ولم ينظر إلى الكتاب المقدّس. مَدّ الراهب يده ليمسك بهذا الكتاب الذي لم يكلّفه إلّا القليل من المشقّة والقلق، لكنّ باتيستو ذاك زايدَ عليه قائلاً: 40 بستولاً. ارتعد جاكومو لدى رؤيته عدوّه يزداد حماسة كلّما ارتفع المبلغ. صاح جاكومو بكلّ قوّته: خمسون. فردّ عليه باتيستو: ستّون. وأضاف الراهب غاضباً: «مئة! أربعمئة! خمسمئة! وأخذ يضرب الأرض بقدمه وقد عيل صبره واشتعل غضبه. تظاهر باتيستو بهدوء ساخرٍ لئيم. هتف الدلّال بصوته اللّاذع المتهدّج مردّداً ثلاث مرّات: خمسمئة. كان جاكومو يتشبّث بأذيال السعادة إلى أن هبّت نفثة من شفتَي رجلٍ وجعلته يُغمى عليه، لأنّ مكتبيّ الساحة الملكيّة، اخترق الحشد هاتفاً: «ستمئة!» وردّد صوت الدلّال: «ستمئة»، أربع مرّات ولم يجبه أيّ صوت. فقط شوهِدَ على أحد جوانب الطاولة رجلٌ شاحب الجبين مرتجف اليدين، رجل يضحك بمرارة تلك الضحكة الطالعة من ملاعين دانتي. أطرق رأسه واضعاً يده في صدره. عندما سحبها كانت محمومة مدمّاة لأنّه غرز أظافره في لحم صدره.

وتناقلت الأيدي الكتاب حتّى وصل إلى باتيستو. مرّ هذا الكتاب من أمام جاكومو، استطاع للحظة تنشّق رائحته، رآه خطفاً يجول أمام ناظريه ثمّ يحطّ رحاله بين يدَي رجلٍ فيمسكه ويفتحه متهلّلاً. عندئذٍ خفضَ الراهب رأسه لِيُخفِيَ وجهه عن الأبصار لأنّه كان يبكي...

عبَرَ الشوارع لدى عودته بخطىً متباطئة ثقيلة. كانت عيناه شبه مغمضتين وأجفانه حمراء متوهّجة والعرق يسيل على جبهته؛ بدا وجهه

غريباً كَمَنْ به خبلٌ. وراح يتأرجح في مشيته وكأنّه ثمل ويتلعثم في كلامه كرَجلٍ أمعن في الشرب مغتنماً حصّة الأسد في مأدبة العيد.

بدا غافلاً عن أمره، شارد الفكر والجسد، لا يلوي على شيء. أمسى فكره مترنّحاً متردّداً، بليداً غريباً، ورأسه محمومٌ كلهيب النار، وجبينه حارقٌ كمجمرة.

أجل، كان سكران من انفعاله، متعباً من أيّامه، ثملاً من الوجود.

في ذاك اليوم، وكان يوم أحد، والناس يتجوّلون في الشوارع وهم يُغنّون أو يتجاذبون أطراف الحديث. استمع الراهب المسكين إلى الأحاديث والأغاني، وضمّ شتات بعض الجمل، والكلمات، والصرخات، لكنّها اجتمعت كلّها في رأسه رنّة واحدة وصوتاً واحداً، أشبه ما تكون بضوضاء غامضة مشوّشة، بزوبعة غريبة تعجّ في دماغه وتثقل عليه بوطأتها.

سمع جاكومو رجلاً يقول لجاره:

- هل سمعت بقصّة ذاك الكاهن المسكين في أوبييدو الذي وُجِدَ مخنوقاً في سريره؟

ولدى مروره بجماعة نساء يتردّدنَ أمام أبوابِهنّ تناهى إلى سمعه الحديث التالي:

- أتذكرين يا مارتا ذاك الشابّ الثريّ من سلمنكة، دون برناردو، ذاك الذي وصل إلينا منذ بضعة أيّام وكان يمتطي بغلة سوداء جميلة مُزَيّنة بروعة، ويجعلها تنهب بحوافرها أرض الشوارع... تخيّلي! قيل لي هذا الصباح في الكنيسة إنّ هذا الشابّ التعس قد توفّي.

قالت فتاة شابّة:

- توفّي!

فأجابتها المرأة:

- نعم يا صغيرَتي، توفّي هنا في نزل سان- بيار. في البداية شعرَ بألمٍ في رأسه. ثمّ أصابته حمّى، وفي ظرف أربعة أيّام، ووري الثرى.

سمعَ جاكومو أشياء أخرى. كلّ هذه الذكريات جعلته يرتعش وقد ارتسمت على فمه ابتسامة غريبة.

عاد الراهب إلى منزله، منهكاً سقيماً. اضطجع أرضاً تحت مقعد مكتبه ونام. أحسّ بضيقٍ في صدره، وتصاعد من حلقه صوت أجشّ أجوف. استيقظ تحت وطأة الحمّى وقد أنهك قواه كابوس مرعب. كان الليل في أوجه. دقّت الساعة الحاديَة عشرة في الكنيسة المجاورة. وسمعَ جاكومو صراخاً: «حريق! حريق!». فتح نوافذه ثمّ ذهب إلى الشوارع ورأى بأمّ عينه ألسنة النار تشرئبّ عالية فوق السطوح. عاد إلى منزله وأراد أن يأخذ مصباحه من جديد للذهاب إلى مخازنه عندما سَمع أمام نافذته رجالاً يمرّون راكضين وهم يقولون: «حريق في الساحة الملكيّة! حريق في منزل باتيستو!». ارتعش الراهب وانطلقت ضحكة مجلجلة من أعماق كيانه، واتّجه مع الحشد إلى منزل الكُتبيّ. كان المنزل يشتعل وألسنة النار ترتفع متدافعة رهيبة، فتطردها الريح وتتعالى نحو سماء إسبانيا الزرقاء الجميلة المحلّقة فوق برشلونة المضطرِبَة الصاخِبَة مثل حجابٍ يغلّف دموعاً.

شوهِدَ رجلٌ عارٍ نصفُ جسده. بدا في غمرة يأسه: كان ينتف شعره ويتمرّغ أرضاً مجدّفاً على الله مطلقاً صرخات غضبه وقهره. كان باتيستو. راقب الراهب يأسه وصرخاته بهدوءٍ وسعادة، كطفل يسخر من عذاب الفراشة التي انتزع أجنحتها وهو يطلق ضحكة متوحّشة.

شوهدَ في إحدى الشقق المرتفعة ألسنة نار تلتهم بعض حزم الأوراق.

حمل جاكومو سلّماً وأسنده إلى الجدار المسودّ المتداعي. اهتزّ السلّم تحت قدَميه. صعده بسرعة حتّى بلغ نافذة الشقّة. أهيَ لعنة تلاحقه؟ لم يكُ هناك إلّا بعض الكتب القديمة التي لا قيمة لها. ما العمل؟ دخل إلى الغرفة، توجّب عليه إمّا أن يتقدّم وسط هذا الجوّ الملتهب، وإمّا أن يعود أدراجه على السلّم الذي بدأ خشبه يحمى. فما كان منه إلّا أن تقدّم وسط ألسنة النيران.

اجتاز عدّة غرف. كانت الأرضيّة ترتجف تحت قدَميه، والأبواب تسقط لدى اقترابه منها والروافد الخشبيّة تنشقّ فوق رأسه. ركض وسط الحريق، لاهثاً غاضباً. كان يريد ذلك الكتاب، إمّا هو أو الموت: لم يكن يعرف بأيّ اتّجاه عليه أن يركض لكنّه ركض. وأخيراً وصل أمام حاجزٍ كان لا يزال بمنأى عن النار فحطّمه بضربةٍ من قدَمه فاصطدم بغرفة معتِمَة وضيّقة. تلمّس طريقه متحسّساً بعض الكتب بأصابعه. ثمّ أمسك أحدها وحمله خارج القاعة. كان هذا كتاب «سرّ القديس ميخائيل». عاد على أعقابه كرجلٍ تائهٍ هاذٍ. وقفز فوق الحفَر، طار فوق ألسنة النار لكنّه لم يجد السلّم الذي كان أسنده إلى الجدار. تسلّق إحدى النوافذ ثمّ نزل الجدران متشبّثاً إلى التجاويف بيديه وبركبتيه. بدأت ملابسه تشتعل، وعندما وصل إلى الشارع، تمرّغ في الجدول لِيُطفئ اللهيب الذي كان يحرقه.

مرّت بضعة أشهر ولم يعد أحدٌ يتكلّم عن الكُتبيّ جاكومو، إلّا كأحد هؤلاء الغريبي الأطوار الذين يهزأ بهم الناس في الشوارع لعجزهم التامّ عن فهم شغفهم وهَوَسِهم.

كانت إسبانيا منشغلة بهمومٍ أكثر خطورة وجديّة، وكأنّ جنيّاً شرّيراً يتربّص بها. كلّ يومٍ تُقتَرَف جرائم واغتيالات جديدة. لكأنّ

يداً غير مرئيّة ترتكب كلّ ذلك. أو لكأنّ خنجراً مسلّطاً على كلّ منزل وكلّ عائلة. يختفي أناس فجأةً دون أن يكون هناك أيّ أثر للدم الذي خلّفته جراحهم. ويمضي رجل في سفرٍ دون عودة.

واستعصى عليهم لِمَن يَعْزون هذه الكارثة المرعِبَة، لأنّه يجب عزو الشقاء لأحدٍ ما غريب. دعِ الشقاء للغريب والسعادة لنفسك.

وفي الواقع، ثمّة أيّام مشؤومة في الحياة. ثمّة عهود تنبئ بالشر وتبثّ الخوف في قلوب الناس، فيحارون خلالها على مَن يَصبّون وابلَ غضبِهم ولا يتبقّى لهم إلّا أن يناشدوا السماء. في مثل هذه العهود التعيسة تجلّى إيمان الشعوب بالقدر.

آنذاك سعت شرطة نشيطة ومتحمّسة لاكتشاف مقترف هذه الجرائم كلّها، فجنّدت جاسوساً لمراقبة كلّ منزل، والاستماع إلى كلّ حديث فلم يكتشف شيئاً يُذكَر. وفتح مدّعي النيابة كلّ الرسائل، وفضّ جميع الأختام وفتّش أدنى زاوية، ولم يجد شيئاً جديراً بالأهمّيّة.

ومع ذلك، ذات صباح، خلعت إسبانيا ثوب الحداد واحتشد أهلها للجلوس في قاعات المحكمة حيث كانت ستجرى محاكمة ذاك الذي اتُّهم بأنّه مقترف هذه الجرائم الرهيبة كلّها. كان الناس يخفون دموعهم خلف ضحكاتهم المتشنّجة. لأنّه حين يتألّم الإنسان ويبكي فإنّه يتعزّى برؤية عذابات سواه من البشر ودموعهم، وهذا عزاء حقيقيّ وإن يكن أنانيّاً.

اتُّهِم جاكومو المسكين، وكان في غاية الهدوء والوداعة، بأنّه أضرم النار في منزل باتيستو، وسرق كتابه المقدّس. وكذلك وُجِّهَت إليه ألف تهمةٍ أخرى. كان إذنْ جالساً هناك حيث يجلس القتلى واللصوص، هوَ عاشق الكتب الشريف، هوَ جاكومو المسكين الذي لم يكن يفكّر إلّا بقراءة كتبه ألفى نفسه متورّطاً في أحابيل جرائم وعقوبة إعدام.

كانت الصالة تغصّ بالناس. وأخيراً وقف مدّعي النيابة وقرأ تقريره الذي كان طويلاً ومُطنباً. لم نكد نستطيع أن نميّز فيه الحدث الرئيسيّ من الهوامش والتعليقات. كان يقول إنّه وجَدَ في منزل جاكومو نسخة الكتاب المقدّس التي كانت لباتيستو، ثمّ إن هذه النسخة كانت الوحيدة في إسبانيا. كان منَ المحتمَل إذنْ أن يكون جاكومو هوَ من أضرَم النار في منزل باتيستو ليستولي على تلك النسخة النادرة والنفيسة. ثمّ صمت وجلس من جديدٍ وهو يلهث.

أمّا الراهب فمكث هادئاً وادعاً ولم يتوجّه بردٍّ أو بنظرة إلى الجمع الذي كان يُهينه.

نهض محامي الدفاع، وتكلّم طويلاً لوحده. وأخيراً عندما ظنّ أنّه استطاع التأثير في مستمعيه، رفع ثوبه وأخرج من تحته كتاباً. فتحه وأظهره للجمهور: كان نسخة أخرى من هذا الكتاب المقدّس.

أطلق جاكومو صرخة ثمّ انهار على مقعده وراح ينتف شعرَه. كانت لحظة حرِجَة، كان الجميع في انتظار كلمة من المتّهم، لكنّ صوتاً واحداً لم يخرج من فمه. وأخيراً استوى من جديد في جلسته ناظراً إلى قُضاته ومحاميه كمن يستيقظ من نومٍ عميق. سُئِلَ ما إذا كان هو مَن أضرم النار في منزل باتيستو.

فأجاب:

- لا للأسف. لا. ولكن هل ستدينونني؟ ليتكم تفعلون! أتوسّل إليكم بأن تفعلوا. الحياة ثقيلة عليّ، محاميّ كذبَ عليكم لا تُصدّقوه. ليتكم تدينونني! لقد قتلت دون برناردو، وقتلت الكاهن، وسرقت الكتاب، الكتاب الوحيد لأنه ليس هنالك نسختان منه في إسبانيا. يا سادتي اقتلوني، أنا بائس.

تقدّم محاميه نحوه وأظهر له نسخة الكتاب المقدّس تلك: «أستطيع إنقاذك، انظر».

- بئساً لي وقد اعتقدت أنّ تلك كانت هي النسخة الوحيدة في إسبانيا.

أمسك جاكومو الكتاب متفحّصاً إيّاه ثمّ قال للمحامي: «قلْ لي، قلْ لي إنّك خدعتني. لعنة الله عليك». وسقط مغمياً عليه.

عاد القضاة وأعلنوا حكم الإعدام. سمعه جاكومو دون أن يرفّ له جفن وبدا أكثر هدوءاً واطمئناناً. وأخذوا يؤمّلونه بأنّه إنْ طلب العفو من البابا فقد يحصل عليه. لم يشأ ذلك. وطلب فقط أن تُعطى مكتبته للرجل الذي يملك أكبر عددٍ من الكتب في إسبانيا.

ثمّ، عندما غادر الجمهور، طلب من محاميه أن يتفضّل عليه بأن يُعيرَه كتابه، فأعطاه إيّاه.

أمسكه جاكومو بشغف، وذرف بعض الدموع على الأوراق التالفة، ثمّ مزّقه بغضب ورمى القصاصات في وجه المُدافع عنه قائلاً له: «أنت تكذب يا سيّدي المحامي. سبق أن قلت لك إنّها النسخة الوحيدة في إسبانيا».

الغضب والعجز

«ما الربّ إلّا كلمة شوهدت في المنام لتفسير العالم»
ألفونس دو لامارتين

الغضب والعجز

حكاية تخدش الأعصاب الحسّاسة والنفوس التقيّة
(كانون الأوّل/ديسمبر 1836)

غوستاف فلوبير

كان كلّ شيءٍ يرقد بهدوء واطّمئنان في قرية موسين. أُطفئت الأنوار ببطء، وعلى التوالي، خلا نوراً واحداً كان لا يزال يلتمع عند نوافذ ذاك السيّد الفاضل طبيب القرية الذي يُدعى أومْلان[1].

دقّت ساعة الكنيسة الصغيرة معلنةً منتصف الليل. كان المطر ينهمر عيوناً، والثلج المتساقط من جوانب جبل بيلات[2] يتراقص في الفضاء مدفوعاً بعصفات الانهيار الثلجيّ، فيما حبّات البَرَدِ تنقر السطوح.

(1) أومْلان Ohmlyn : الاسم من ابتكار فلوبير، الذي يؤكّد الشرّاح على كونه تقصّد أن يكون في نطقه جناس تصحيفيّ مع المفردة un homme، ومعناها: رجل، رجل ما.

(2) بيلات Pilate : جبل في سويسرا يبلغ ارتفاعه 2132 م. يحيط بمدينة لوسيرن وبحيرة الكانتونات الأربعة.

كان هذا الضوء الوحيد المنعزل ينير غرفة منخفضة حيث كانت تجلس امرأة نيّفت على الستّين. كانت التجاعيد تغزو وجهها وقد احدودب ظهرها. انصرفت إلى الخياطة لكنّ التعب بدأ يغالب جَلَدَها فيُرغمها على إغماض عينيها وحَنْي رأسها. ثمّ، إذا هبّت عصفة ريح أشدّ غضباً وعتوّاً من سابقاتها وجعلت الشبابيك تصطفق، وإذا اشتدّ انهمار المطر، كانت تستيقظ عندئذٍ من غفوتها، وتلتفت بعينيها الصغيرتين المجوّفتين إلى الشمعة التي كانت ذؤابتها الطويلة ترسل نوراً خافتاً حولها، فترتعش وتقرّب أريكتها من الموقد ثمّ ترسم إشارة الصليب.

كانت إحدى الفتيات الطيّبات العفيفات اللّواتي يولدْنَ ويَمُتْنَ في منازل أسيادهنّ، يخدمنهم حتّى آخر رمقٍ، ويعتنين بأطفالهم ويربّينهم.

وهذه الفتاة شَهِدَت ولادة أوملان، كانت مربّيته، وفيما بعد أصبحت خادمته. في تلك الليلة كانت ترتجف خوفاً على سيّدها التعس الذي غادر منذ الصباح إلى الجبال ولمّا يعدْ. أبتْ استئناف عملها، ومكثت جالسة مكتّفة الذراعَين قرب المدفأة وقدماها تصطليان نارها، ورأسها مطرق إلى يديها مصغية بذعرٍ إلى الريح تصفر عبر قفل الباب وتزمجر فوق الجبل.

حزينةً ساهمةً حاولت أن تتذكّر إحدى تلك الخرافات الراعبة الداميَة التي كانت تروى على مسامعها في صغرها، حين كانت العائلة تجتمع كلّها حول الموقد وتستمع بلَذّة إلى حكاية تحفل بالجرائم والأشباح وتدور أحداثها في ليالي الشتاء القارسة الحالكة الظلمة وسط الجبال المكسوّة بالثلوج، وكتل الجليد، والشلّالات.

وهكذا سرَحَ خيالها في ذكريات طفولتها، واسترجعت العجوز بيرث من جديدٍ مسار حياتها كلّه، حياتها التي مرّت رتيبة، على نسق واحد في

قريتها، والتي بالرغم من ضيق أفقها لم تعوزها الأهواء ولا الشجون أو الآلام.

لكنّها ما لبثت أن سمعت في الباحة المجاورة عواء كلبٍ مشؤوم كئيب وكذلك خبب فرس متقطّع. فارتعشت ونهضت عن كرسيّها هاتفة: «إنه هو». ثمّ هرعت إلى الباب وفتحته.

بعد لحظات معدودة، دخل رجل إلى القاعة متدثّراً بمعطفٍ واسعٍ بنيّ بيّضه الثلج، والماء ينساب من ملابسه.

قال لدى دخوله:

- أشعلي النار يا بيرت. أشعلي النار، فأنا أموت برداً.

وخرجت المرأة العانس ثمّ عادت بعد دقائق حاملة بين ذراعيها حزمة حطبٍ أشعلتها بالجمرات شبه المرمّدة التي لا تزال تدّخر شيئاً من وهجها في المدفأة.

وعلى الفور، أضاءت نار ورديّة متوهّجة الصالة. خلع السيّد أوملان معطفه وكشف عن قامة رجل معتدلة، ناحلة ومتينة البنية. كان خدّاه مجوّفين شاحبين، وعندما نزع قبّعته بانت جمجمته عريضة بيضاء تكسوها بعض الشعيرات السوداء. كانت لحيته السوداء تضفي على هيئته الرصينة المتحفّظة حزناً وغموضاً تخفّف منهما ابتسامته اللطيفة التي لا تفارق شفتيه.

جلس واضعاً قدمَيه على منضدة الحطب وراح يُداعب كلباً قابعاً قربه من كلاب جبال الألب الجميلة. كان الحيوان ينظر بحزنٍ إلى صاحبه ويلعق يديه الرّطبتين اللّتين احمّرتا من البرد.

اقتربت بيرت قائلة:

- قلْ لي... كيف الحال؟ كيف حال أسنانك؟

- تؤلمني يا بيرت. تؤلمني كثيراً، وهواء الجبال البارد يزيد الطين بلّة. منذ أربع ليالٍ لم يغمض لي جفن. وبالتأكيد لن أنام هذه الليلة.

وهنا راح فوكس (اسم كلبه المفضّل الذي كان مضطجعاً عند قدمَي الطبيب) يصدر هذا الصوت الغريب المتباطئ المتقطّع الذي سمعته بيرت لدى وصوله مع سيّده.

- اصمت يا فوكس! اصمت!

ما برح الحيوان المسكين ينوح كأحدٍ يتألّم أو يبكي.

وتابعت بيرت تقول:

- اصمت يا فوكس! اصمت!

ودفعته برفسةٍ من قدمها.

فقال السيد أوملان:

- ولماذا تريدين إسكاته؟ إنّه سيّء المزاج، يا سيّدة. الأمر بسيط، إنّه متعب وجائع.

قالت بيرت وهيَ ترمي له بقطعة خبز ذهبت لإحضارها من خزانة موضوعة بالقرب من المدفأة:

- خذْ، خذْ...

نظر فوكس إلى الخبز بعينٍ رطبة كامدة واستدار برأسه الجميل الأسود ناحية سيّده ناظراً إليه بحزن. فقال أوملان:

- يا للحيوان المسكين، قلْ لي ما بك؟

قالت بيرت:

- هذه علامة شؤم. جنّبنا الربّ والقديس موريس كلّ شرّ.

- أيّتها العجوز المجنونة، إنّه مريض.

- هل أنت جائع؟ هل تريد شيئاً؟

- أنا لا، لا شيء، أريد أن أنام إن أمكنني. لديّ بضعة أقراص من الأفيون، سأحاول أن أتناولها وأرى إن كان بمقدوري أنّ أنام. وداعاً يا بيرت. أطفئي النار ونامي جيّداً يا ابنتي الشاطرة. أمّا أنت يا فوكس فاذهبْ إلى مأواك. وفتح الباب الذي كان يُشرف على الباحة. لم يُطع فوكس البتّة بل رقد أرضاً وزحف حتّى قدمَي السيّد أوملان الذي نفد صبره وصعد بسرعةٍ إلى غرفته، وبسرعةٍ أيضاً اندسّ في فراشه وجسده يرتعش من الحمّى فابتلع أقراص الأفيون واستغرق في أحلامٍ ورديّة مشعّة.

أمّا بيرت فكانت غارقة في نَومٍ عميق يقطعه أحياناً أنين الكلب التعيس الشاكي الذي ظلّ قابعاً فيّ حجرة الدرج. خفّ تساقط الثلج واختفت الغيوم وأخذ القمر يصعد خلف قمم جبل بيلات.

عند الصباح، حوالى الساعة التاسعة، استيقظت بيرت العجوز، ثمّ أدّت صلاتها ونزلت إلى القاعة. كان الباب لا يزال موصداً. تعجّبت للأمر. قالت لا بدّ أنّ الرجل المسكين استغرق في النوم هذا الصباح. لا بأس سيخرج عمّا قليل.

ثمّ وصل السيّد برناردو، إنّه طبيب يسكن في الضواحي.

قال لدى دخوله:

- أين هو؟

- في غرفته على ما أعتقد. لا يزال نائماً، اذهب وتفقّده.

وصعد الطبيب ودخل دون كلفة وهو يصرخ:

- هيّا انهضْ، تأخّر الوقت.

لم يُجب السيد أوملان. كان رأسه متدلّياً من السرير وذراعاه ممدودتان خارج فراشه.

اقترب برناردو منه وهزّه بعنف. تبّاً له ما أعمق نومه.

انصاع الجسد لحركة اليد ثمّ عاد إلى وضعيّته الأولى وكأنّه جثّة.

امتقع وجه برناردو، أمسك يدَيْ أوملان فوجدهما باردتين. اقترب من فمه فلم يسمع تنفّسه. وضع يده على صدره، فألفاه هامداً.

مكث شاحباً مذهولاً، ثمّ رفع أجفانه فلم يرَ إلّا تلك العين الكامدَة نصف المغمضة التي هي عين الموتى في رقادهم.

خرج برناردو من غرفة زميله الطبيب مهرولاً. سألته بيرت عمّا به فلم يُجب، كان وجهه شاحباً وكانت شفتاه بيضاوَين.

وما هي إلّا ساعات حتّى تحلّق إثنا عشر طبيباً حول سرير زميلهم صامتين وقد غمر الحزن وجوههم، وكلمة واحدة تهيم على شفاههم: لقد مات.

واقترب كلٌّ بدوره من الجثّة الهامِدَة وقلّبها في جميع الاتجاهات ثمّ نفر مبتعداً وهو يقول: لقد مات.

خلا طبيباً اجترأ على الاعتقاد بأنّ تلك الجثّة لم تكن إلّا مخدّرة، لكنّه لم يستطع أن يدعم تكهّنه بشيء لافتقاره إلى الأدلّة، ولم يكن أمامه إلّا أن ينصاع لآراء زملائه.

كان يوماً من أيّام الشتاء الحزينة الماطرة. تطاير رذاذ خفيف في الهواء، واكتنفت شوارع القرية بالثلج. لم يكن الحزن يعمّ الجوّ فحسب بل القرية أيضاً: توفّي أبو القرية وفاعل الخير فيها. أُغلقت الأبواب، وانقطع الناس عن الكلام، والأطفال عن الضحك في الساحة. ورثى الرجال الطبيب المتوفّى وبكوه.

تقدّم الموكب المتواضع نحو المقبرة المتواضعة المتألّقة بألمها. حمل بعض الرجال المرتدون ملابس سوداء النعش المغطّى ببساط الرحمة الأسود

الذي بيضّه الثلج. وتبعهم الأطفال الشقر في الخلف، صامتين ذاهلين، ورتّل الكهنة بصوتٍ منخفض لأنّ الدموع غلّفت أصواتهم. لكنّ صديقاً لحقَ بالميّت حتّى قبره وكان حزنه عميقاً، وألمه أشدّ مرارة من ألم هؤلاء الناس. فهل كان هذا الصديق امرأة أم طفلاً أم عشيقة أم صاحباً؟ لا، بل كان كلباً.

كان فوكس التعس يسير مطرق الرأس، لاحقاً بسيّده وهو يئنّ ناحباً والدموع تنهمر من عينيه غزيرةً كأنّها دموع إنسان.

كانت المقبرة في منتصف منحدر الجبل والدرب إليها زلِق وموحِل. لم يكن يُسمع إلّا صوت خطى الكهنة والرجال الذين انغرزت أحذيتهم الضخمة المحدّدة في الوحل- ثمّ أُنشِدَت صلاة الموتى على وقْعِ الثلج المتساقط والمطر النازل الجاري في الأخاديد والريح التي جعلت غطاء النعش يتطاير.

وأخيراً أحدثت حُفرة في التراب وأنزل النعش فيها ورافقته بعض الصلوات للأبديّة. ورمى حفّار القبور بضع مجارف على النعش المصنوع من خشب السنديان فرجّعت صداها، صدىً فارغاً أجوف.

ثمّ تفرّق المشيّعون. وأقفلت البوّابة الحديديّة فأحدثت رزّاتها قرقعة. وعاد المدفن إلى هدوئه وسكونه مجدّداً.

ولم يبق إلّا فوكس المضطجع أرضاً ينظر بحزنٍ إلى الشموع المرتعشة التي يحملها الموكب وهو يبتعد في الضباب وهذه الملابس الطويلة السوداء التي تهبط الوادي الغائم وكأنّها أشباح.

ومع ذلك حلّ الليل بهيّاً، وظهر القمر في كبد السماء بضوئه الأبيض الكئيب الذي انهال على المقابر كما ينهال الشكّ على المحتضر.

ما برح السيّد أوملان مستغرقاً في سبات عميق ملؤه أحلام جميلة،

مطعّمة بشهوات الحبّ ومسرّاته.

راح يحلم بالشرق، الشرق بشمسه الحارقة وسمائه الزرقاء، ومآذنه المذهّبة، ومعابده الحجريّة. الشرق بشِعره المفعم حبّاً وبخوراً. الشرق بعطوره وزمرّده وأزهاره وجنائنه بتفّاحها الذهبيّ. الشرق بجنيّاته وقوافله تعبر الصحارى. الشرق بقصور حريمه، موطن الشهوات النديّة. راح يحلم بالمُحال، بأجنحة الملائكة البيضاء تنشد آيات القرآن على مسامع الأنبياء، بشفتَي امرأةٍ نقيّتين ورديّتين، بعينين سوداوين كبيرتَين لا تحبّان سواه، ببشرة نسوة آسيا السمراء الزيتونيّة، الناعمة كالساتان التي غالباً ما يحلم الشاعر بملامستها في لياليه. كان يحلم بكلّ هذا... متناسياً أنّ اليقظة سترتمي عليه معيدةً الواقع بكلّ جهامته الكريهة.

كان يحلم بالحبّ في مقبرة. لكنّ الحلم امّحى وبقيت المقبرة.

فتح عينيه؛ أحسّ بنفسه محاطاً بلفائف طويلة، فتحرّر منها، وتلمّس بيديه المرتعشتين الخشب الذي يُحيط به فوق رأسه وعلى جانبيه وفي كلّ مكان، في كلّ مكان... تلمّس نفسه، كان عارياً. لا بدّ أنّه حلم، حلم مرعب، جهنّميّ، كابوس ثقيل. شتّان ما بينه وبين الأبديّة، هوَ الذي يريد التشبّث بالحياة.

لكنّ الأبديّة هنا، هنا، بجوارك أيّها المجنون التعس، مضطجعة إلى جانبك في عشّها الزوجيّ، تجذبك إليها، ضاحكةً خلف رأسك ضحكتها الشيطانيّة.

اعتراه الخوف، الخوف من هذا الهيكل البغيض، لكأنّه يتحسّس عظامه على صدره.

لا! هذا غير معقول! وأراد النوم من جديد ونسيان كلّ هذا وإغفال الحقيقة. أراد أن يمحو من ذهنه كتلة الرصاص هذه التي تثقل على

صدره، ليسبح في أحلام أخرى.

لكنّه حلمَ طويلاً. والآن وجاء دور أحلام أخرى. احلمْ بالأبديّة إذا شئت. حسناً، احلمْ بالشرق الآن، احلمْ إذنْ بالشرق في قبرك، وطرْ على جناح فكرة مبهجة وأحلام ذهبيّة.

لا ليس هذا الاحتضار الذي يمضي وتعقبه أحلام الجحيم، بل إنّه الاحتضار الذي يجعلكِ تقتلع شعرك وتتلوّى يأساً، منادياً الشيطان ولاعناً السماء.

لكنّ ذعرَه كان أخرس ساكناً، كان ذهولاً غريباً خدراً، انشداه أبله.

قال في نفسه وقد طوّح به الوهم: لا، لا، هذا مستحيل. أن أموت على هذا النحو في قبر، أن أموت يأساً وجوعاً فهذا أمر مريع. ثمّ تحسّس كلّ ما كان يحيط به. لا بدّ أنّ مسّاً من الجنون أصابني، لا بدّ أنّني أحلم. لا بدّ أنّ هذا الخشب فراشي، وهذا الكفن غطائي. ألا سحقاً، فراشي نعش وغطائي كفن! وأطلق ضحكة من تلك الضحكات المريرة التي كانت سترجع صدىً جبّاراً لو لم تنفجر في قبر.

ثمّ أحسّ بالبرد، أحسّ بنفسه عارياً، وبرطوبة المدافن تتسرّب إلى جلده. أخذ يرتعش، وأسنانه تصطكّ والحمّى تخفق في أوردته. شعر بوَخزٍ في إصبعه فحملها إلى مستوى عينيه، ولم يرَ شيئاً، كان الظلام شديد الحلكة- وقرّبها من شفتيه، فانبعثت رائحة الدم لأنّه خدش إصبعه بمسمارٍ في نعشه.

- سأموت، سأموت هكذا، دون أن ينجدني أحد أو يرأف بي. آهٍ! يا ويلي! لن أخرج من هذا الجحيم، لن أخرج من هذا القبر. لم يسبق أن حلّ بأحدٍ قبلي هذا البلاء. سأجنّ وبعدئذٍ سأموت يأساً. نعم سأموت. آهٍ منَ الموت، وما أصعب فقدان الحياة. ماذا! أيُعقل أنّ

كلّ شيء انتهى إلى غير رجعة! وأنني سأفارق كلّ شيء على هذه الأرض: الطبيعة والحقول والسماء والجبال... ستفارقني العناصر كلّها إلى الأبد. وراح يتلوّى في قبره كالأفعى تحت مخالب النمر.

وبكى من غيظه. نتف شعره وهو يصرخ مستغيثاً بالحياة، هوَ الممتلىء قوّة وصحّة.

كم من الدموع انهمرت على يديه. كم منَ الصرخات دوّت في قبره. كم ضربَ نعشه بغضبٍ مجنون. ثمّ أمسك بكفنه وشقّه بأظافره ممزّقاً إيّاه إرَباً بأسنانه. شعر بأمسّ الحاجة لشيء يطحنه ويسحقه بيدَيه، هوَ الذي أحسّ بنفسه مسحوقاً بلا رحمة بيدَي القدر.

وأخيراً توقّف في سعيه، ومن أعماق يأسه تمدّد على خشبة نعشه وأغمض عينيه مفكّراً في الله.

وعندئذٍ انبثق شعاع أمل في ظلمة قبره. فكّر بنفسه التي كان يَشكّ بوجودها منذ وقتٍ طويل. وآمن بالله الذي كان يجدّف به منذ قليل ورجا الحياة بعد أن يئس منها.

ثمّ أصغى فسمع فوق رأسه ضجّة خافتة. بدا له كأنّ أحداً يحفر التراب فوقه. وكلّما أصاخ إلى الضجّة، ازدادت قوّة. ابتسم سعادةً وجمع يديه مصلّياً للربّ.

شكراً لك، شكراً لك يا ربّ، لأنّك أعدتني إلى الحياة ومنحتني إيّاها من جديد. لن أموت في هذا القبر المقرف البارد. سأموت ولكن لاحقاً عندما أصير عجوزاً، بعدما تنقضي سنوات طويلة. سأعيش. وستكون الحياة لي، بملذّاتها وأفراحها. وراح يبكي من السعادة، ويلعن نزوعه للشكّ لأنّه كان رجلاً دنيويّاً، وبسبب أحكامه المسبقة الكافرة.

شكراً لك، شكراً لك يا إلهي لأنّك أعدت لي كلّ ما ظننْتني فقدته.

وسمعَ بوضوحٍ فوق رأسه خطواتٍ بشريّة. أتوا لإنقاذه، هذا أكيد. لا بدّ أنّ نفساً خيّرَة أشفقت على شقائه. ربّما فكّر أحدهم في أنّ في هذا القبر رجلاً بدلاً من جثّة- وجاء يخرجه من القبر، هذا أمر بسيط للغاية، هذا أمر أكيد، محقَّق. آه، طوبى للرجل الذي جاء لِيعيده إلى الحياة. طوبى له.

أخذ قلبه يخفق بقوّة عنيفة- وكان يضحك سعادةً، ولو استطاع لقفز فرحاً.

اقتربت الخطوات ثمّ ابتعدَت. وعاد كلّ شيءٍ هادئاً من جديد.

كان ذلك حفّار القبور. نسي معوله هناك وجاء لأخذه لئلّا يعلوه الصدأ بسبب المطر.

كان رجلاً طيّباً حفّار القبور ذاك. كان يدخّن غليوناً ألمانيّ الصنع ويعتمر قبّعةً من قشّ ريفيّة ويهوى نبيذ المناطق المحيطة بنهر الراين. وكان رؤوفاً لأنّه عندما رأى كلباً متّسخاً ومكسوّاً بالوحل يتلهّى بنبش تراب القبور، اكتفى، بدل أن يعمَد إلى قتله كما يفعل أيّ واحد غيره، بأن يرفسه بقدمه.

أرهف السيّد أوملان سمعه طويلاً، طويلاً، لكن ما من صوتٍ. تابع الإصغاء ولكن لا شيء. آه، كلّ شيء انتهى. ولم يبق إلّا الموت.

الموت كما توقّع، ذاك الموت الفظيع الوحشيّ الذي سيوافيه في أيّ دقيقة لكنّه يتباطأ ليحرقه على نار خفيفة ويتلذّذ بالتهامه. لكن متى سيأتي الموت؟ متى سينتهي هذا العذاب، هذا الاحتضار... متى ستنتهي هذه الحشرجة التي دامت دهوراً؟

وأخذ يضحك هازئاً من معتقداته القديمة. وبما أنّ السماء لم تشأ إنقاذه فقد استنجد بالجحيم، وجاء الجحيم لنجدته، ومنحه الإلحادَ

واليأس والتجديف.

في البدء شكّ بالرّبّ ثمّ أنكرَه وهزئ به ثمّ شتم اسمه.

وقال وهوَ يضحك رغماً عنه:

- عجباً، أين هو خالق العذاب والشقاء؟ إن كان موجوداً فليأتِ ويخلّصني. أنكرك أيّها الاسم الذي ابتدعه ناعمو البال. أنكِرُكَ لأنّك لستَ إلّا جبروتاً مشؤوماً وغاشِماً أشبه ما يكون بالصاعقة التي تنزل بالشجرة وتحرقها.

وأخذ ينتف شعرَه ويُمزّق وجهه بأظافره.

أَوَ تظنّ أنّني سأصلّي لك عند ساعة موتي؟ لا، فأنا في منتهى الكبرياء والتعاسة. لن أتضرّع إليك لأنّني أحتقرك. والأبديّة أُنكرُها، فَجنّتك وَهْم، وسعادتك السماويّة أكرهها، وجحيمك أتحدّاه. الأبديّة جمجمة سيعثرون عليها بعد أشهر قليلة هنا في هذا المكان الذي سأفنى فيه.

كانت أمارات الهزء على وجهه والدموع تخنق صوته.

كيف عساي أن أبارك اليد التي تصرعني، وأن أقبّل الجلاد؟ آه لو أنّك تستطيع أن تتجسّد إنساناً. لو انّك تستطيع المجيء إلى قبري حتّى أحملك معي أنت أيضاً إلى الأبديّة التي ستلتهمك يوماً، وأسلّمك إلى العدم ليمنحك اسمه. هيّا تعال لأسحقك، لأمحقك بين قبري وبيني، لألتهم لحمك. تجسّدْ في هيئة شيءٍ ملموس، لكي يتسنّى لي أن أمزّقك وأنا أضحك.

واصطكّت أسنانه كأسنان الشيطان عندما هزمه المسيح.

وراح يقفز غضباً ويتقلّب في نعشه لاعناً السماء صارخاً بكلّ اليأس المعتمل في نفسه.

أين أنت يا إله السماء؟ تعالَ! إذا كنت موجوداً فلمَ لا تخلّصني؟ إذا

كنت موجوداً حقّاً فلماذا جعلتني تعيساً ذليلاً؟ وأيّ لذّةٍ تجدها في رؤية عذابي؟ إذا كان إيماني بك قد تزعزع فهذا بسبب شقائي وبلائي، أعدْ لي الحياة وسأحبّك. أعدْها لي ما دمت كليّ الجبروت. أعدْ لي الحياة، أعطني الإيمان... لماذا لا تريدني أن أؤمن بك؟ ألا ترى عذابي وبكائي، فارفقْ إذاً بآلامي وجفّفْ دموعي!

ثمّ توقّف مرتعباً من تجديفاته. خاف وارتعشت أوصاله. لكنْ ممّ؟ بإمكان الأرض أن تزول، والثورات أن تحرّك غبار الكوكب. قلّما يهمّه هذا، ما دام لديه في هذا القبر هواء قليل يتنفّسه لبضع دقائق، هواء فاسد، رطب، محموم تنبعث منه رائحة الجثّة.

لكنّه ظلّ خائفاً من الأبديّة التي يتحدّاها، من هذه الكلمة التي يهزأ منها وهوَ راقد على ظهره، متكوّم في قبره ونصب عينيه سماء من خشبتَي نعشٍ. لا حيلة له إلّا الإمعان في الشقاء والاستسلام للشكّ وفقدان كلّ يقين.

لا تُصدّقوا أبداً الناس الذين يدّعون الإلحاد. ليسوا إلّا مرتابين ينكرون الله بدافع الغرور والتباهي.

والمرء في شكّه وعذابه يرغب في أن يمحوَ كلّ أمل، وأن يفرغَ الواقعَ ويجرّده من كلّ معنى... لكنّ الشكّ يتفاقم إذ ذاك ويتآكل روحك.

لم يكن يسمع إلّا نباح كلبه الذي كان يبكي موته أو يستشعر شقاءه.

قال: يا صديقي المسكين. وذرف دمعة حنان. الدمعة الوحيدة التي واسَته.

كان منهكاً، محطّم الأطراف، والجوع ينهش أحشاءه وليس هناك ما يؤكل.

وأخيراً استدار موجّهاً ظهره لغطاء النعش محاوِلاً تحطيمه، وقال

بغضبٍ مسعور: «سأخرج من هنا رغماً عنك. سأعيش رغماً عن إرادتك». ومُتكوّراً داخل النعش، سعى لأن يضربَ بكلّ ما أوتي من قوّة هذا اللّوح القاسي كالحديد وأن يشقّه.

وأخيراً جمّع كلّ ما لديه من غضب ويأس واستطاع تحطيمه.

وحين رأى هذا القبر مفتوحاً، حين أحسّ بنعشه يتداعى وينقصف على ظهره انطلقت من فمه ضحكة ظفرٍ وظنّ أنّ الانعتاق لا بدّ قريب.

لكنّ التراب كان مرتفعاً بعلوّ ستّ أقدام، وسيسحقه بعدما فقد ثباته وسينهار عليه إذا قام بأيّ حركة أو إذا أحدث أدنى تقلقل في ألواح النعش.

ولمّا أدرك السيّد أوملان ذلك ارتاع وكاد أن يُغمى عليه. بقيَ لوقتٍ طويلٍ جامِداً لا يجرؤ على القيام بأدنى حركةٍ، إلى أن قرّر القيام بجهدٍ أخيرٍ فإمّا أن يُقتَل وإمّا أن تُكتَب له النجاة.

وما لبث التراب المقلوب حديثاً أن أذعن؛ فأراد النهوض بقوّة واختراقه برأسه.

لا شكّ أنّ اليأس يَحمل على الجنون.

ولدى نهوضه، انهارت خشبة النعش على رأسه. رآها تنهار بأمّ عينيه.

يقول مثَل قديم إنّ أكثر الناس صبراً أكثرهم سأماً. وهذا صحيح لأنّ حفّار القبور الطيّب، وقد أسأمه عواء هذا الكلب الكئيب الذي سبق أن أشرنا إليه، شعر أنّ هناك خطباً ما فحفر الأرض علّه يجد شيئاً، كنزاً ربّما... مَن يدري.

عجب من رؤيته الصندوق محطّماً. والأغرب من ذلك أنّ ثمة شيئاً يبينُ تحت اللوح الخشبيّ فرفعه، وهاكم ما رأى... هاكم ما سيرويه لاحقاً ساعة يطيب له أن يستعرض شجاعته.

رأى الجثّة منقلِبَة على بطنها وكفنها ممزّقاً. كان رأس الميت وذراعه اليمنى متجمّعَين تحت صدره. «وعندما قلبته برفشي، رأيت أنّه يقبض على حفنة شعرٍ في يده اليسرى وأنّه التهم ساعده. أرعبتني تكشيرة وجهه - وهذا بديهيّ. كانت عيناه جاحظتين خارجتين من محجريها، وشرايين عنقه متصلّبة مشدودة. كنت ترى أسنانه بيضاء كالعاج لأنّ شفتيه الخضراوين المنفرجتين عند طرفيها تكشفان عن لثّته، وكأنّه كان يضحك عند موته».

أمّا فوكس فقد غادر المقبرة وراح يركض في الجبال إلى أن التقى بصيّادين لم يحالفهم الحظّ في الصيد فأردوه بطلقة رصاص على سبيل اللّهو.

أمّا بيرت فقد تركت زاويتها أمام الموقد. أخذ أطفال القرية يسمّونها بيرت المجنونة. وفي المساءات، حين يكون القمر جميلاً، وتعصف الريح فوق الجبال، ويكسو الثلج الأرض بِرِداءٍ أبيض، كنت ترى امرأة عجوزاً تجتاز طريق المقبرة وهيَ تبكي.

وذات يوم رَمَت بنفسها في السيل عند سفح التلّة حيث تنتصب القبور وأشجار السرو.

عبرَة (متخابثة)
في التصرّف الأمثل لحظة الممات

غالباً ما ردّد الأستاذ ميشال دو مونتاني في كتاباته، وهو رجل نبيل حكيم، هادِئ الطباع قائلاً: «وما أدراني؟». أمّا الأستاذ فرانسوا

رابليه[1] وهوَ من شينون في مقاطعة تورين، وكاهن رعيّة مودون، وطبيب محبّ للحياة، يهوى الخمرة، ومشاكسة الفتيات، والارتياب الساخر، فكان يقول مراراً في كتاباته: «ربّما».

أمّا أنت أيها القارئ الدمث المقدام، وأنت أيّتها القارئة اللطيفة التي تهوى السهر، فما قولكما في هذه المسألة: لو أنّ أحد الوقحين سأل صاحبنا الممدّد في النعش عمّا إذا كان لرحمة الله من وجود، فبمَ كان يُفترض به أن يجيبه؟ هل كان سيجيبه: «ربّما» أم: «ما أدراني»؟ أمّا أنا فأظنّ أنّه كان سيقول: أشكّ في رحمته أو أُنكرها.

وإذا ما تابع ذاك الفظّ نفسه أسئلته البلهاء وهوَ يصوّر رأفة الإله الرحيم لصاحبنا المبتلى فإنّه سيصرفه بعيداً قائلاً: «هراء»، كما قال بانتاغرويل حين فوجئ بوصول بانورج[2] وهو يعربد ويقصف. وحسناً فعل صاحبنا لأنّه حين يموت المرء مسلوخ الروح قلّما يهمّه إذا ما جدّف بقصّاب الذبائح.

بَيْدَ أنّني أستخلص من هذا كلّه أنّه يجب ألّا نقلق أبداً المحتضرين في رمقهم الأخير، ولا الموتى في رقادهم، ولا محتسي النبيذ أمام خابية الخمر، ولا الآب الأبديّ في حماقاته.

وأهيب أيضاً، وها هنا العبرة من هذه القصة البلهاء، لا سيّما بعد أن ألفيتُ سلوك الطبيب السالف الذكر جيّداً وحميداً...، أهيب بجميع

---

(1) فرنسوا رابليه François Rabelais (1494– 1553)، كاهن وطبيب وعالم وكاتب فرنسيّ، أحد أعلام المذهب الإنسانويّ. نشر عام عام 1532 روايته «بانتاغرويل» ثم أتبعها بقصّة «الابن غارغنتوا» عام 1534. وفي هاتين الروايتين يعيد رابليه إحياء هاتين الشخصيّتين الشعبيّتين ليعبّر عن أفكاره النقديّة اللاذعة.

(2) بانورج Panurge : شخصيّة يلتقيها بانتاغرويل في باريس وهو من أكثر الشخصيّات التي ابتدعها رابليه فرادة.

الفتيان بأن يرموا الكعكة الفاسدة في وجه صانع الحلوى، وبالمحتضرين بأن يرموا أرواحهم لدى موتهم، وبالناس بأن يرموا حياتهم في وجه الربّ حين تكون مفعمةً مرارة.

غوستاف فلوبير

15 كانون الأوّل/ ديسمبر 1836

عادات من روان[1]

درس في التاريخ الطبيعي

صنف الموظّفين

منذ أرسطو وحتّى كوفييه[2]، ومنذ بلينيوس[3] حتّى السيّد دو بلانفيل[4]، أُحرِزَ تقدّم هائل في علم الطبيعة. وكلّ عالِم ألقى في هذا العلم مخزونه منَ المعاينات والدراسات. حقّق العلماء اكتشافات هامّة خلال أسفارهم، وخاضوا رحلات محفوفة بالمخاطر عادوا منها في أغلب الأحيان بِفِرَاءٍ صغيرة سوداء، أو صفراء، أو ملوّنة. وما كان أعظم سرورهم لمعرفتهم أنّ الدبّ يأكل العسل ويعشق الفطيرة بالقشدة!

إنّها لاكتشافات عظيمة، أعترف بذلك. لكن أحداً لم يفكّر حتّى الآن

(1) روان Rouen: مدينة فرنسيّة، عاصمة النورماندي التاريخيّة والمدينة التي وُلِدَ فيها غوستاف فلوبير.

(2) كوفييه: جورج كوفيه Georges Cuvier (1769–1832) عالم وجيولوجي فرنسي، مؤسّس علمَي التشريح المقارن والحفريّات. قام بدراساتٍ هامّة في علم التشريح الحيواني، كما عارض الرأي القائل بترتيب الأشكال الحيّة في سلسلة واحدة متّصلة. عملَ أستاذاً في الكوليج دوفرانس (1800)، وموظّفاً في حديقة النباتات (1802)، ومديراً لجامعة باريس (1819). من أقطاب العلم في زمانه.

(3) بلينيوس: كايوس بلينيوس سيكوندوس (23–79م)، وُلِدَ في شمالي إيطاليا واشتهر باسم بلينيوس الأكبر أو القديم. قام بوضع موسوعة بعنوان «التاريخ الطبيعيّ» من 37 مجلّداً حول أنواع الحيوانات وحيث تعيش.

(4) هو هنري ماري دو بلانفيل Henri-Marie de Blainville (1777–1850): تلميذ كوفييه وخصمه في آن، درس عالم الحيوانات تبعاً للظروف البيئيّة ووفق مبدأ سلسلة متّصلة للكائنات.

بالتحدّث عن المُوظّف، وهوَ الحيوان الأكثر إثارة للاهتمام في عصرنا.

يبدو أنّ أحداً لم يقيّض له القيام بها يكفي من الدراسات المتخصّصة والتأمّلات المعمّقة والمشاهدات القيّمة والأسفار المتكرّرة ليتيسّر له التحدّث عن الموظّف بالفطنة والمعرفة اللّازمتين.

لكنّ ثمّة عقبة تعترضنا وينبغي تذليلها: كيف يُصنّف هذا الحيوان؟ وفي أيّ فصيلةٍ يجب إدراجه؟... كنّا تردّدنا كثيراً بين الدابّ[1] والزيّاط[2] وابن آوى. وباختصار فإنّ المسألة بقيت غامضة، وغير محسومة، ونأمل اكتشاف حلّ لها في المستقبل وكذلك إيجاد مبدأ لتصنيفِ جنس الكلاب.

وواقع الحال أنّ صعوبة تصنيف هذا الحيوانِ ناشئة عن غرابة هيئته، إذ إنّ قبّعته المصنوعة من فرو ثعلب الماء[3]، بالإضافة إلى رِدَنْغوته[4] بِوَبَرِها البنيّ الطويل تجعلانك ميّالاً لوضعه في رتبة الحيوانات المائيّة. أمّا صُدرَتُه الصوفيّة التي تبلغ سماكتها أربع بُوصاتٍ فتُثبت يقيناً أنّه حيوان من البلدان الشماليّة الباردة. وإذا راقبتَ أظافره المعقوفة ضممْتَه، لو أنّه كان يملك أسناناً، إلى فصيلة اللّواحم. بَيْدَ أنّ أكاديميّة العلوم جزمت بإدراجه في فصيلة الإصبعيّات[5]. إلى أن تحقّقنا، مع الأسف، من أنّه يحمل عصاً من الأرجان[6]، ويذهب أحياناً لزيارة معارفه بمناسبة رأس السنة في عربة حنطور، وإلى عشاءاته الريفيّة في الكوكو[7].

---

(1) الدابّ: قرد بطيء الحركة موطِنه أميركا ويُدعى أيضاً «الكسلان».

(2) الزيّاط: قرد صيّاح، وموطنه أميركا الجنوبيّة أيضاً.

(3) ثعلب الماء: حيوان مائيّ لبون له ذنب مفلطح وتتّخذ منه الفِراء ويشبه القُنذُر.

(4) ردنغوت: سترة رسميّة طويلة.

(5) الإصبعيات: الحيوانات التي تمشي على الأصابع، من ذوات الحافر.

(6) الأرجان: شجرة الحديد.

(7) الكوكو coucou: عربة قديمة تسع لستّة أو ثمانية أشخاص وكانت تقلّ ركّابها إلى نقاط محدّدة حول باريس في قطر لا يتعدّى الثلاثين كيلومتراً.

ومن جِهَتي، أستطيع القول إنّ تجربتي الطويلة خوّلتني دراسة الجنس البشريّ، لذا سأحدّثكم بالثقة المتواضعة التي يتحلّى بها عالِمُ الحيوانات. إنّ جولاتي الكثيرة على المكاتب والإدارات طبعت فيّ ذكرياتٍ جمّة، وهو ما يتيح لي أن أصف الحيوانات التي تَشغلُها، وتشريح بنيان أجسامها، وعاداتها. رأيت جميع أصناف الموظّفين، من الحارس حتّى مساعد الكاتب العدل. وقد تسبّبت هذه الجولات بإفلاسي التامّ، ولا يسعني إلّا أن أتوسّل إلى قرّائي بأن يوقّعوا على اكتتابٍ ماليّ لفائدةِ رجلٍ نذر نفسه لخدمة العِلْم، وأفنى من أجله مِظلّتَين واثنتي عشرة قبّعة (مع بطاناتها المصنوعة منَ القماش المشمّع) وجدّد ستّ نعالٍ لأحذيته.

يتراوح عمر الموظّف بين السادسة والثلاثين والستّين. إنّه قصير القامة، أبجر، بدين، مفعم بالنشاط. يحمل مِنْشَقَةً مكسوّة بقطعة من الجِلد[1]، ويضع لّة شعرٍ مستعارٍ حمراء ونظّارات ذات إطار فضيّ بغية استعمالها في المكتب، ومنديلاً روانيّاً[2] في جيبه. وهو يَتْفَلُ غالباً، وإذا ما عطس أحدكم قال له: «لك العافية والسلامة». كما يتبدّل فَروُه طبقاً لتغيّر الفصول. في الصيف، يلبس قبعة من قشّ وبنطلوناً من النانكين[3] ويتأنّى في حمايته من بقع الحبر باسطاً فوقه منديله، وحذاءً من القُنْدُس[4] وصُدرةً من القِنَّبِ، وياقة مستعارة من المخمل لا تفارقه. وفي الشتاء يرتدي بنطالاً أزرق مع ردنغوت ضخمة تقيه البرد. فالردنغوت هي

(1) قطعة الجلد هذه تساعد على احتفاظ التبغ بطراوته.

(2) روانيّ: نوع من النسيج يصنع خاصة في مدينة روان بفرنسا وهو مزدان بخطوط أو بمربّعات.

(3) النانكين: قماش قطنيّ شائع كان يُصنع في نانكين في الصين. لكنّ هذا القماش كان يُصنع أيضاً في ضواحي روان. وهو معروف بلونه الأصفر الفاتح أو بلون المشمش، ومن هنا خشية حامله عليه من لطخ الحبر.

(4) القندُس: حيوان قارض كثّ الفروة له ذنب قويّ مفلطح.

بالنسبة إلى الموظف بمثابة الماء للأسماك.

يتحدّر أصله من القارة العجوز، وهو منتشر جدّاً، مع الأسف، في بلادنا. لطيف ولا يدافع عن نفسه إلّا لدى مهاجمته.

يبقى في أغلب الأحيان عازباً ويعيش حياة العُزوبة.

أجل، حياة العزوبة!

أي أنّه في المقهى، ينادي السيّدة خلف طاولة الشراب بالآنسة، ويسطو على السكّر المتبقّي في الصينيّة، ويُجيز لنفسه أحياناً إنفاق ثلاثة قروش لتدخين السيجار «الفاخر». لكن! حينئذٍ لا يعود الموظّف يُطاق! ففي اليوم الذي يُدخّن فيه السيجار، يغدو متوتّراً محبّاً للمشاجرة، فيَبري أربع ريشات حتّى يجد الريشة الملائمة للكتابة، ويعنّف خادم المكتب، ويُسقط نظّارتَيه، ويلطّخ سجلّاته ببقع الحبر، ممّا يتسبّب له بإزعاج شديد.

وأحياناً يكون الموظّف متزوّجاً. عندئذٍ يتصرّف كمواطنٍ وديع صالحٍ، ولا يعود نزقاً غضوباً كما في أيّام شبابه. إنّه يقوم بالحراسة، ويخلد للنوم في الساعة التاسعة، ولا يخرج إطلاقاً من دون مظلّة، ويشرب قهوته بالحليب كلّ أحد صباحاً، ويقرأ صحف «الدستوري» و«الصدى» و«المساجلات»[1].

هو منافح لا يكلّ عن شرعة 1830[2] وحريّات يوليو. يُجلُّ شرائع بلاده ويهتف: عاش الملك! أمام المفرقعات النارية، وينظّف حِمّالة طبله مساءَ كلّ سبتٍ. كما أنّه متحمّس غيور للحرس الوطنيّ، ما إن يسمع

(1) – الدستوريّ *Le Constitutionnel*: والصدى *L'Echo*؛ والمساجلات *Les Débats*، صحف كانت رائجة في تلك الفترة.

(2) شرعة 1830 انبثقت عن النظام الملكيّ الجديد الذي نشأ عقب انتفاضات 27 و28 و29 تمّوز/ يوليو 1830. شهدَت ثورة عام 1830 الإطاحة بالملك الفرنسي شارل العاشر وصعود ابن عمّه لويس فيليب الأوّل وفيها استعيض عن مبدأ السيادة الشعبيّة بالحقّ الوراثيّ.

ضرب الطبل حتّى تأخذه الحميّة، ويهرع إلى ساحة العرض العسكريّ وهوَ يُنشد منتفخ الأوداج على شفا الاختناق: «ما أحبّ عيشة الجنديّ!».

أمّا زوجته فتُلازم البيت طيلة النهار ترتق الجوارب، وتخيط لقمصان زوجها أرداناً من الكتّان، وتقرأ القصص العاطفيّة السخيفة، وتغمّس شرائح الخبز في الحساء: ذاك هوَ اختصاصها.

ومع أنّ الموظّف عفيف إلّا أنّه يهوى الكلام البذيء والدعابة، ويقول لكلّ صَبِيّةٍ تدخل إلى المكتب: «يا طفلتي الجميلة». وفوق ذلك، هو مشترك في روايات بول دو كوك[1] وهي أكثر كتبٍ يهوى قراءتها مساءً أمام الموقد، منتعلاً خفّه ومعتمراً قلنسوة الحرير السوداء.

عليكم رؤية هذا الحيوان ذي القدمين في المكتب ينقل السجلات. قبل الشروع في العمل يخلع ردنغوته وياقته مبقياً على القميص فقط، أي الصُّدرة الصوفيّة.

ينحني على مكتبه واضعاً ريشته خلف أذنه اليسرى. ويكتب ببطءٍ مستنشقاً بلذّةٍ رائحة الحبر، مبتهجاً لرؤيته أمامه منبسطاً على الورقة الكبيرة، مرجّعاً ما يكتبه بصوتٍ خفيضٍ دائم الخُنّة. لكنّه إذا كان معجّلاً رشق النقاط والفواصل والعوارض رشقاً، وكذلك اللمسات الأخيرة، والإمضاءات المختصرة. هنا تتجلّى موهبته في أحسن مظاهرها. ثمّ يتحدّث مع زملائه عن ذوبان الثلج، والبزّاق، وإعادة تبليط المرفأ، وجسر الحديد، ومصابيح الغاز. وإذا ما رأى عبر الستائر السميكة التي تحجب عنه الضوء أنّ الطقس ممطر، هتف فجأة متبرّماً: «أفّ من هذا الطقس! سيتدفّق المطر مدراراً» ثمّ يستأنف عمله.

---

(1) بول دو كوك Paul de Kock (1791–1871): كاتب فرنسي ألّف الكثير من الروايات الشعبيّة.

وأكثر شيء يُحبُّه الموظّف هو الدفء. يطيب له أن يعيش في مِحَمٍّ متواصل، ويجد اللذّة كلّ اللذّة في رؤية نار الموقد متوهّجة. عندئذٍ يتهلّل وجهه ابتهاجاً ويسيل عرق فرحه غزيراً فيمسحه بمنديله وهو ينفّخ بفمه طيلة الوقت من شدّة الحرّ. إلى أن يختنق سعادةً تحت وطأة الحرّ ولا يَسعُه كتم دهشته قائلاً: ما أحرّ الجوّ هنا!»، وحين يبلغ أوج اغتباطه يعاود نسخ سجلّاته بحميّة أكبر وبرشاقة في الكتابة تفوق المعتاد، وتتوقّد عيناه وينسى أن يُحكِمَ غطاءَ علبة التبغ. وبينما تغلب عليه نشوة الدفء، ينهض فجأةً من مكانه ثمّ يعود إلى المحراب حاملاً بين ذراعيه حطبة كبيرة. بعد اقترابه من الموقد وابتعاده عنه مراراً يفتح الباب بِمسطرةٍ ويرمي فيه قطعة الحطب هاتفاً: «هاكم عود ثقاب جديد»، ويظلّ لبعض الوقت واقفاً فاغراً فمه مستمعاً بلذّة إلى اللهب يرجّف القسطل مشيعاً هديراً مخنوقاً لطيفاً.

وإذا صدفَ مرّة أن خانك الحظّ ونسيْتَ أن تغلق باب المكتب لدى دخولك سَخَطَ عليك بما فعلْتَ فتتشنّج يداه ويحكّ لِمّة شعره المستعار بأظفاره ثمّ يضرب الأرض بقدمه ويبدأ بالشّتم، وتسمعُ من خلف السجلّات ودفاتر الحسابات العديدة صوتاً عجّاجاً يصرخ بك قائلاً: «سحقاً لك! أقفلِ الباب! ألا تعرف القراءة؟ ألم تلحظ التنبيه على باب المكتب؟ ستتسرّب الحرارة يا حيوان!».

لا يخطرَنَّ على بالكم أن تدعوه مستخدماً، بل قولوا: سيّدي الموظّف.

للموظّف أظفارٌ طويلة، وإحدى هواياته المفضّلة أن يحكّها بمكْشطه.

كلّ صباح، يضع في جيبه قطعة خبز. ولدى وصوله إلى المكتب يفتح منضدته ويأخذ قبّعته ذات الحوافّ الخضراء منتظراً أن يأتيه الخادم بفطوره المؤلّف من زبدة مملّحة أو قطعة الجبن المعتادة.

وعندما يبدأ النهار بالأفول، يُسَرّ الموظّف عظيم السرور إذ يُفتح باب المكتب ويدخل منه المكلّف بإنارة المصابيح.

ذلك أنّ المصباح هو بالنسبة لموظّف المكتب مثارُ حديثٍ طويل، وأخذٍ وَرَدٍّ، ومدعاةٌ لشجارٍ مع زملائه. ما إن يُضاء المصباح حتّى يراقب فتيلته ليرى ما إذا كانت تنير بشكلٍ جيّد، أم أنّها تدخّن، ثمّ يرفعها إلى أعلى حدّ متسبّباً بكسر خمس زجاجاتٍ أو ستّ. ويأخذ في ندب حظّه المنكود مصطنعاً نبرة الحزن العميق، مدّعياً أنّ الضوء يؤذي نظره وعليه تفاديه بارتداء قبّعته العريضة الحوافّ التي ترمي بظلّها على ورقة جاره. وإذا ما اعترض جاره قائلاً إنّه عاجز عن الكتابة لأنّه لا يرى الورقة أمامه بوضوحٍ، وإذا ما سأله أن يخلع قبّعته، خفضَها الموظّف الماكر أكثر على أذنيه متعمّداً شدّ رباطَيها تحت ذقنه.

وكلَّ أحدٍ يذهب الموظّف إلى المسرح، فيجلس في الصفوف الثانويّة أو أرضاً. ويصفّر لدى إزاحة الستارة ويُصفّق للمسرحيّة الهزليّة. وإذا كان لا يزال شاباً يذهب للعب جولة دومينو في فترات الاستراحة. وحين يخسر في اللّعب يقفل عائداً إلى المنزل، ويكسر صحنين ويمتنع عن مناداة امرأته «زوجتي». قليلاً وينسى كلبته التي تتبعه كظلّه وينصرف بِنَهَمٍ إلى تناول طبق اللّحم المسلوق البائت المسخّن مجدّداً، ويملّح بغضبٍ قرون الفاصوليا، ثمّ ينام مسترسلاً في أحلامه عن السجلّات، وذوبانِ الثلج، وإعادة تبليط المرفأ، والعمليّات الحسابيّة.

قلت، على ما أعتقد، كلّ ما يمكن أن يُقال عن الموظّف بشكل عامّ، أو على الأقلّ يخامرني شعور بأنّ صبر القارئ بدأ ينفد. لديّ في أوراقي ملاحظات عديدة عن أجناس كثيرة من هذا الصنف كَمِثْلِ المفتّش،

وموظّف مكتب الروانيّات[1]، وموظّف الجمارك الذي يرتفع أحياناً إلى مصاف المعلّم، ويرتمي في الأدب محرّراً الملصقات والقصص المسلسلة، والوكيل التجاريّ المتجوّل، وموظّف البلديّة، وآلاف الموظّفين الآخرين.

تلك هيَ الثمرة العقيمة لليالي حياتي التي قضيتها ساهراً مُجدّاً في دراساتي. ولكن إذا طالعتنا أزمنة أفضل في المستقبل، وإذا انحسرت العواصف السياسيّة التي لا تني تتزايد، فسيكون بإمكاني حينئذٍ أن أَظهرَ على الحلبة من جديد، وأنشرَ تتمّة هذا المبحث في علم الحيوان الممتدّ على سلم اجتماعيّ هائلٍ بدءاً بالمفتّش وانتهاءً بأمين الصندوق.

غ. ف.

(1) روانيّات: منسوجات تُصنع في مدينة رُوان وقد أُشير إليها سابقاً.

حلم جهنمي

حكاية فنطازية

آذار/مارس 1837

«نرتكب خطأً فادِحاً باعتقادنا أنّ عقول الآخرين تأنف من إشباعها بالحماقات».

(لابروير)[1]

1

كانت الأرض راقدة في سباتٍ عميق. لا يرين على سطح اليابسة إلّا السكون، ولا يُسمع على الغَمْرِ إلّا تكسّر الأمواج المزبدة على الصخور. كان البوم يرسل نعيقه عبر أشجار السرو، والضّبّ يزحف على القبور لاعباً، والصقر ينقضّ على العظام المتعفّنة في ساح المعركة. وكان مطر

(1) ولد الأديب الفرنسي جان دو لابروير **Jean de La Bruyère** (1645–1696) في باريس وتوفّي في فرساي. خالط أهل البلاط ورصد عيوبهم وميولهم. نشر في العام 1688 ترجمة لكتاب «الطبائع» *Les Caractères* للكاتب الاغريقي ثيوفراستوس **Théophraste**، ألحقه في عام 1688 بكتاب «طبائع وعادات هذا القرن» *Caractères et Moeurs de ce Siècle*، وكان تعليقاً على الكتاب اليوناني. يقترب لابروير في آرائه عن البشر من لاروشفوكو **La Rochefoucauld** الذي يستشهد به فلوبير مراراً، وكان يهاجم دائماً نزعة حبّ الذات السائدة. وتجدر الإشارة إلى أنّ فلوبير عدّل القول المذكور أعلاه.

ثقيل وغزير يقتّم نور القمر المريب الذي كانت تغشاه الغيوم الرماديّة السابحة في الأثير.

وكانت ريح العاصفة تُحرّك الأمواج وتهزّ أوراق الأشجار في الغابة مترامياً صفيرها في الأجواء تارة قويّاً وتارة خفيضاً، كما تطغى صرخة حادّة على الهمسات.

ثمّ خرج صوت من الأرض يقول:

- انتهى العالم! لِتكن اليوم ساعة أفوله!

- لا، وإلا فيجب أن تحين ساعات الحساب قاطبةً.

قال الصوت الأوّل:

- سرّغها إذاً. أبِدِ الإنسان في هباء منثور ولا تخلُقْ عوالم أخرى.

- ثمّة عالم آخر أسمى من هذا.

فأجابه الصوت من الأرض:

- تقصد أشدّ بؤساً... هيّا! أنهِ كلّ شيء، من أجل مخلوقاتك. أخفقْتَ حتّى الآن في كلّ ما صنعْته. أقلّه توقّفْ عن القيام بأيّ شيءٍ منَ الآن فصاعِداً.

- فأجابه الصوت من السماء:

- لن أتوقّف. إنّ سائر الناس استاؤوا من ضعفهم وأهوائهم... أمّا ذاك الانسان الذي اخترْتُه فسيكون أقوى ولن تتنازعه الأهواء. أمّا روحه...

وهنا أخذ صوت الأرض يضحك ضحكة مجلجلة ملأت الهاوية بازدراءٍ عظيم.

2

كان الدوق آرتور ألمارويس خيميائيّاً، أو أقلّه عُدّ كذلك. كان خدّامه يلاحظون أنّه لا يعمل إلّا فيما ندر، وأنّ أفرانَه كانت على الدوام رماداً لا جمر فيها، وأنّ كتبه مفتوحة لا تُقلب فيها صفحة. إلّا أنّه كان يمكث أياماً ولياليَ وأشهراً بأكملها لا يخرج فيها من مختبره مستغرقاً في تأمّلاته العميقة، على مثالِ من يعمل ويتأمّل. ظنّوا أنّه كان يبحث عن الذهب، وإكسير الحياة الطويلة، وحجر الفلاسفة. كانت سيماؤه تشي بفتوره وتوحي بالمكر في الظاهر. لم تفترّ شفتاه يوماً عن ابتسامة مشرقة ولم تنبسا بكلمة واحدة يشكو فيها همّاً، ولا خرجت من فمه صرخة، ولا داهمته ليالٍ محمومة سقيمة كتلك التي تداهم الرجال الذين يحلمون بشيءٍ عظيم. يُخيّل للناظر إليه أنّه بجديّته وجفافه أشبه ما يكون بمخلوقٍ آليّ يفكّر كإنسان.

كان الشعب (ويجدر ذكره في كلّ مكان لأنّ الشعب بات اليوم أقوى السلطات وأقدس الأشياء. قد تبدو هاتان الكلمتان أي القوّة والقداسة متباينتين إلّا إذا نُسِبتا إلى الله نفسه الذي فيه وحده اجتمعتا)... كان الشعب إذاً مقتنعاً بأنّ الدّوق هو من السحرة، أو الجنّ، أو أنّه الشيطان متجسّداً. كان هوَ من يَضحك مساءً عند منعطف القبر، ومن يجرّ قدمَيه إلى حافّة الجرف ويطلق من هناك صرخاتٍ أشبه ما تكون بنعيق البوم؛ هوَ من يُرى في الحقول مُراقِصاً الأشهب الناريّة؛ هوَ من يُرى في ليالي الشتاء مشؤوماً قاتم الوجه يحوم حول البرج الإقطاعيّ القديم، كما تحوم هامة مصّاص الدماء حول أنقاض القبر.

وغالباً، في المساء، حين يجلس المزارعون أمام أبواب بيوتهم ليرتاحوا

من عناء النهار منشدين أغاني شعبيّة قديمة، تلك الأغاني القديمة التي توارثها الآباء عن أجدادهم، وتعلّموها في شبابهم وفي شبابهم غنّوها على أعالي الجبال حيث كانوا يسوقون قطعانهم إلى المراعي. عندئذٍ، وفي أوقات استراحتهم هذه حين يهلّ القمر، وتحوم الوطاويط على جرس الكنيسة بطيرانها العبثيّ، حين ينقضّ الغراب على الساحل الرمليّ وترسل الشمس الآفلة آخر إشعاعاتها الشاحبة... حينها، أقول لكم، قد يطيب للدوق آرتور أن يعلن ظهوره.

حينئذٍ يصمت الجميع لدى سماعهم وقع خطواته، ويُسارع الأطفال للاحتماء بأمّهاتهم، وينظر الرجال إليه مندهشين. لكنّ الجميع يرتعبون من هذه النظرة الرصاصيّة الخارقة، وهذه الابتسامة الباردة، وهذا الوجه الشاحب. وإذا ما لامس أحدهم يديه وجدهما متجلّدتين مثل جلد الزواحف.

كان يسير خطْفاً لدى مروره بالمزارعين الصامتين، وسرعان ما يختفي متوارياً بِلَمح البصر كظبيٍ، خفيفاً كحلم غريب، أو كَطَيف. إلى أن يتضاءل وقع خطاه على الغبار ويُمحى كلّ أثرٍ لعبوره، اللّهمّ إلّا الخشية والرعب اللّذين يلقيهما في النفوس، كما يبهت الفلك بعد العاصفة.

وإذا تجاسر أحدهم وتبعَه في عدْوِهِ المجنّح حيث يُفضي هذا التجوال، رآه يعود إلى البرج القديم المتداعي الذي لا يجسر أحد على الاقتراب منه في المساء، لأنّ أصواتاً غريبة تُسمع ثمّ تختفي في كوى الأبراج، ولأنّ شبحاً كبيراً أسود يجول بانتظام عند هبوط الليل، باسطاً ذراعيه العريضتين نحو الغيوم، وبيدَيه العظميّتين يهزّ حجارة القصر، مُصدراً صوتاً أشبه ما يكون بصليل السلاسل وحشرجة المحتضر.

وهكذا فإنّ هذا الرجل الذي كان يبدو شيطانيّاً مرعباً وكأنّه وليد

جهنّم، أو كأنّه طالع من مخيّلة جنيّ، أو صنيعَ خيميائيٍّ ملعون، والذي كانت شفتاه المتقرّحتان تبدوان وكأنّهما لا تتمدّدان إلّا عند ملمس الدم الطازج، وتفوح من أسنانه البيضاء رائحة اللّحم البشريّ؛ هذا الكائن الجهنميّ، مصّاص الدماء المشؤوم هذا لم يكن في الحقيقة إلّا روحاً نقيّةً سامية، جافّة ومكتملة، رحبة وصارمة كتمثالٍ من رخام أُعطِيت له القدرة على التفكير والحركة والإرادة والجبروت، أي النّفْس، سوى أنّه لا تنبض حرارة الدم في عروقه، كما أنّه يمتلك الفهم دون الشعور، والذراع دون القصد، والعينين دون الشغف، والقلب دون الحبّ.

كان بمنأى عن مقتضيات الحياة، وكلّ واقع ماديّ! كان كلّ شيء لديه منذوراً للفكر والنشوة، لكنّها نشوة غامضة غير محدّدة، سابحة في الغيوم، تتمرأى في القمر، مستحكمة في غريزته وبنيته شأنها شأن العطر في الزهرة.

كان جميل الوجه، والنظرة. وكان شعره الطويل بخصلاته الكثيفة الزرقاء ينسدل متموّجاً بروعة على كتفيه، أو على ظهره الممدود عندما ينثني وتلتمع بشرته ببياضها الثلجيّ ناعمة كالحرير سنيّة كالقمر.

سبق للكائنات الأخرى أن امتلكت أهواءً وأجساداً ونفوساً، وتحرّكت جميعها في ثورانها المضطرب منقضّة الواحدة على الأخرى، متضاربة، زاحفة تجرّ أذيال خيبتها. منها مَن ارتفع، ومنها مَن سحقته الأقدام. جميع الناس تدافعوا متلاطمين متشابكين في هذه الزحمة الصاخبة، في صرخة الجزع الطويلة، في هذه الحمأة العسيرة التي تدعى الحياة.

أمّا هو، هو الروح السماويّة التي أُرسلت إلى الأرض وكأنّها كلمةُ الخلقِ الفصلُ، هو الكائن الغريب الفريد الذي أوفد بين البشر دون أن يكون من البشر، لديه جسدهم طبق المرام، وهيئتهم، وكلامهم،

ونظرتهم، لكنّه من طبيعة علويّة، ومن قلب أسمى لا يتطلّب إلّا أهواء ليتزوّد منها، لكنّه عبثاً بحث عنها مدفوعاً بغريزته، إذ لم يجد سوى البشر. فماذا أتى يفعل إذاً ما دامت عاداتنا وغرائزنا تُضيّق على وجوده وتستنزفه وتخزيه؟

ترى هل عرف ملذّاتنا الجسديّة، هوَ الذي لم يكن لديه من الجسد إلّا الهيئة؟ هل عرف العناق المحموم لامرأة، هل ضمّته ذراعاها الرطبتان المتعرّقتان، هل رأى دموع الحب التي تذرفها عيناها، وصدرها العاري، هل خفق قلبه ذات صباح هوَ الذي كانت أعماقه تكتنز بعِلم لا متناهٍ وتنطوي على عالَمٍ هائل؟

وبِمَ قد تفيده شهواتنا التاعسة، وشِعرنا الضحل، وبخورنا، والأرض كلّها بمسرّاتها وملذّاتها... بمَ سيفيده كلّ هذا، هوَ الذي كانت لديه نسمة من روح الملائكة؟ لا بدّ أنّه كان سئماً على هذه الأرض، ذاك السأم الذي يتأكّل الروح مثل سرطان، ويحرقك بناره، ويمزّقك، ويؤزّرك إلى الانتحار... ولكنْ، هل فكّر في الانتحار؟ آه لو تعرفون! كم من المرّات شوهد وهو يتسلّق الجرف الشاهق رامقاً الموت المنتصب أمامه بنظرة تحدٍّ، مطلقاً في وجهه ضحكة مريرة، ساخراً منه ومن فراغ الفضاء المتمنّع عن التهامه.

كم من المرّات تأمّل بإمعانٍ فوهة مسدّس، ثمّ رماه بغضبٍ لأنّه لا يستطيع استخدامه فهو محكوم عليه بالعيش! آه! كم من المرّات أمضى لياليَ باكملها يتنزّه في الغابات مصغياً إلى صخب الأمواج على الشاطئ، ومتنشّقاً رائحة الطحالب القائمة فوق الصخور.

كم من الليالي أمضاها مستنداً على صخرةٍ، محلّقاً بفكره في هذا المدى الشاسع البالغ حدّ السموات!

ولكنّ هذه الطبيعة كلّها ببحارها، وغاباتها، وسمائها، كانت تضيق به. لم تكن الأزهار تفوح بأيّ عطرٍ حين يدنيها من شفتيه. كان يرى المرأة العارية فلا جمال، ويسمع الغناء فلا لحن، وينظر إلى البحر فلا ارتعاد.

لم يكن الهواء كافياً لرئتيه، ولا النور لعينيه، ولا الحبّ لقلبه.

أكان يحدوه مرامٌ؟ أكان يطمح إلى مُلكٍ؟ أو إلى مجد؟ لم يرد ذلك بخاطره قطّ. أكان مهتمّاً بالعلم؟ أو بالأزمنة الغابرة؟ بيدَ أنّه كان يعلم المستقبل، وفي هذا المستقبل لم يكن يجد إلّا شيئاً واحداً يحمله على الابتسام أحياناً لدى مروره بقبر.

هل كان يخشى الله، هوَ الذي كان يشعر أنّه نِدّه، ويعرف أنّ يوماً ما سيأتي أيضاً ويخطف العدم الله كما سيخطفه الله يوماً. هل كان يُحبّ الله هوَ الذي أمضى القرونَ يلعنه؟

يا للقلب المسكين! ما أمرّ عذابك إذ انحدرت من عليائك إلى هذا العالم الذي يضيق بك كما تضيق الروح بالجسد.

وغالباً ما كانت غريزة عابثة تدفع بالكأس إلى شفتيه فكان الخمر يلامسهما دون أن تنفرجا عن ابتسامة، فيفطن أنّه فعل شيئاً تفهاً غير مجدٍ. وأحياناً كان يمسك بوردة وسرعان ما يسقطها من يده وكأنّها شوكة. بَيْدَ أنّه ذات يوم، أراد أن يكون موسيقيّاً؛ ساورته فكرة سامية، غريبة، خياليّة لم يكن لِيدركها البشر، ولكن من أجلها كان موتسارت سيهلك نفسه. كانت فكرة عبقريّة، جهنميّة، شيئاً يسقم الروح، ويغيظها، ويضنيها. بدأ بالعزف، وراح الجمع الهائم يضرب الأرض برجليه ويصرخ حماسةً، ثمّ صمت برهبة ساجداً على الأرض وأصغى. تصاعدت النغمات صافية شاكية في أرجاء الكنيسة معانقةً قببها. لم تكن تلك إلّا مقدّمة موسيقيّة ومع ذلك سحرت الألباب بجمالها. أراد المتابعة لكنّه حطّم الأرغن بين

يديه.

أما الآن فكلّ شيء فقد معناه! باتت كلّ شيء فارغاً أجوف. لا شيء، إلّا سأم لا يُحدّ، إلّا وحدة مريعة. لا شيء إلّا قرون عليه أن يعيشها لاعناً فيها الوجود، هوَ الذي لم تكن لديه حاجات ولا أهواء ولا رغبات! خلا اليأس!

3

استسلم لقدَره. وأمدّته طبيعته العلويّة بالوسائل. ذهب للعيش وحيداً في إحدى قرى ألمانيا المنعزلة، بعيداً عن مقام الناس الذين باتوا عبئاً ثقيلاً عليه.

بدا له قصر متهدّم مشرف على تلّة مرتفعة مكاناً ملائماً لفكره، فحلّ به في المساء نفسه.

وهكذا عاش وحيداً، لاحاشية لديه ولا عربات ولا خدم تقريباً، منطوياً على نفسه، مستغنياً بها. وهذه العزلة أكسبت اسمه وجوداً ازداد التباساً وغموضاً على مرّ الأيّام. كان خدّامه القليلون يجهلون نغمة صوته، ولا يعرفون من عينيه شبه المغمضتين إلّا نظرة كامدَة تجفلهم ويرتعشون لبرودتها. وما عدا ذلك، أُعطيت لهم الحريّة الكاملة في التصرّف إذ لم يكن سيّدهم يوجّه إليهم ملامة، ولا أمراً إلّا بمشقّة.

كان القصر الذي يسكنه الكونت قد انطبع على مرّ الأيّام بحزن ساكنيه. اسودّت جدرانه، وتفتّت الطين عن الحجارة، وأحاطت به الأشواك. كان الصمت يرين على أبراجه ويسمه بطابع سحريّ غريب. أمّا داخل القصر فكان أسوأ من خارجه: ممرّات طويلة قاتمة، وأبواب

متخلخلة عضائدها تصطفق ليلاً بصخبٍ شديد، ونوافذ عالية ضيّقة، وكسوات جدران سوّدها الدخان. وازدانت بعض المواضع في الأروقة بزيَنٍ قديمة متفرّقة: عدّة حربِ بارونٍ سابقٍ، ولوحة تمثّل صورة كاملة لإحدى الأميرات، وقرون أيّلٍ، وسكّين صيد، وخنجر صدئ... وغالباً، ما تجمّعت في زاويةٍ معتمة أنقاض وفضلات من الجبسِ تنهال من سقف الصالون القديم إذا ما ازدادت شراسة الريح المزمجرة في أماسي الشتاء وتغلغلت في الأروقة الممتدّة مرجّعة صدى نحيبها لوقتٍ طويل.

أمّا الناطور (وكان عجوزاً هرِماً على شاكلة القصر) فكان يقوم بجولته كلّ يوم بعد الظهر. بطيئاً يبدأ بصعود الدرج الحجريّ الطويل الذي فقد درابزينه مذ باعه المالك الأخير لقاء فدّان من الأرض[1]. ولدى وصوله إلى الرواق الرئيسيّ، يفتح أبواب الغرف بالتتالي، وجميعها لا تزال تحمل أرقامها القديمة، وجميعها فارغة ومتداعية، بعد أن حُدّدَت مع ذلك وجهة استعمالها. هنا كان الصالون القديم، وهو قاعة مربّعة هائلة لا تزال تحتفظ ببعض خرق مخملها القرمزيّ الذي كان يزيّنها لقرنٍ خلا بأناقته الباذخة ورونقه النضير. قديماً أقيمت في هذه القاعة غرفة المحكمة[2] التي تحوّلت فيما بعد إلى مصلّى، ثمّ إلى الدار التي ازدحمت منذ عشرين سنة تقريباً بحزَم العلف الكثيرة المتعفّنة من جرّاء المطر المتسرّب بسهولة من مربّعات الزجاج حين تدفعه ريح المساء. أمّا باقي القاعة فتحتلّه كنبات قديمة، وطواقم أحصنةٍ، وبعض الأسرِجَة التي نخرتها الديدان، وأكوام الأحطاب والعيدان اليابسة. لم يكن الناطور يفتح بابه إلّا لِيقذف فيها كيفما اتّفق شيئاً قديماً أو مكسّراً قد يسقط على

(1) فدّان أرض: مساحته 5000 متر مربّع.

(2) المحكمة: مجلس قضائيّ كان يُعقد قديماً في قصر الملك ثم اقتدى به الأسياد الإقطاعيّون.

لوحة قديمة، أو تمثال حديقة، أو على الكنبات التي فرغت من قشّها. ثمّ يستأنف جولته البطيئة الساكنة في أرجاء الرواق، مُحدِثاً جلبَة مُدوّيَة بحذائه المحدّى الذي يترك آثاره على مربّعات البلاط العريضة. ثمّ يعود أدراجَه ناظراً إلى السنونو التي تعزّز أعشاشها في القصر يوماً بعد يوم وكأنّه الحقل، وتطير دخولاً وخروجاً عبر نوافذ الرواق الذي كانت جميع ألواحه الزجاجيّة المكسورة ممدّدة أرضاً ومتراكمة عشوائيّاً مع إطاراتها المصنوعة من صفائح رصاصيّة.

كانت أشجار الحور الضخمة تحيط بالقصر وقد احترق لحاء جذوعها من جرّاء الريح العاتية الشديدة الملوحة التي تهبّ من المحيط فتُلوي أغصانها ويمتزج صخب الأمواج بحفيف الأوراق. وعبر الفرجات التي أُحدثت في أغصانها، كان يُرى، من النوافذ العالية، البحر شاسعاً مهولاً ممتدّاً أمام هذا القصر المشؤوم الذي يبدو إذ ذاك مجرّد إقطاعة بائسة.

هنا، كان الجسر المتحرّك الذي استحال مصطبة للعبور. هنا المَرامي لكنّها تهتزّ بحركة يد، وتنهار حجارتها لدى أقلّ صدمَة. وهناك في الأعلى البرج المحصّن. لكنّ الناطور لم يكن يصعد إليه قطّ ولا إلى الطوابق العليا تاركاً إيّاها للوطاويط والبوم التي تحوّم مساء حول السطوح مطلقة صيحاتها الكئيبة ومصفّقة بأجنحتها العريضة.

كانت جدران القصر مشقّقة مكسوّة بالطُّحلُب، وكنت تشعر لدى لمسها برطوبة دبقة تثقل على صدرك وتجعلك ترتجف. لكأنّها الأثر الدبق لأحد الزواحف.

هنا في هذا القصر كان يعيش. كان يهوى القناطر الضخمة حيث لا يُسمع إلّا صوت الطيور الليليّة وريح البحر، ويؤثر الأنقاض المستندة إلى

البلاب، وهذه الأروقة القاتمة وهيئة الموت والخراب المنبعثة منَ المَكان. هوَ الذي انحدر من العالم العلويّ إلى الحضيض، أخذت تستهويه الأشياء المتداعية. هوَ الذي كان منقشع الأوهام، عشق الأنقاض وألفى العدم في الأبديّة، مشتهياً الدمار في قلب الزمن. كان وحيداً وسط البشر! وأراد أن يبتعد عنهم كليّاً، أقلّه ليعيش هذه الحياة التي تحاكي ما حلم به، ما كان ينبغي به أن يكونه.

4

كان الدوق آرتور جالساً على كنبة عريضة من جلد السختيان الأسود، مسنداً مرفقه إلى الطاولة، مطرق الرأس. كانت الغرفة التي يسكنها كبيرة فسيحة الأرجاء وقد سوّد الدخان سقفها، وكُسيَت جدرانها بكميّة وفيرة من القدور الخزفيّة، والأنابيق، والأواني، والكُوْسات(١)، والأدوات الموضوعة على الرفوف.

وفي إحدى زواياها يقبع الفرن بمصهره حيث تُجرى العمليّات السحريّة. وعلى الجمرات التي لم يكتنفها الرماد تماماً تلوح كتبٌ مبعثرة مفتوحةٌ وبعض أوراقها ممزّقة من نصفها. بدَتْ وكأنّ يداً حارقة محمومة قد لمستها، أو كأنّ نظرات متلهّفة جالتها دون أن تقرأ منها شيئاً.

لا ضوء ينير القاعة إلّا جمرات قليلة لم تخبُ تماماً في الفرن وكانت ترسل نوراً خافتاً ينعكس على السقف راسماً حلقة متوهّجة مرتعشة.

ما برح الخيميائيّ جالساً دون حراكٍ منذ وقتٍ طويل. إلى أن نهض أخيراً، ثمّ اتّجه نحو مصهره مراقباً إيّاه بعض الوقت. أنار ضوء الجمرات

(1) مفردها كُوْس: مسطرة أو خشبة مثلّثة الزوايا وتعرف أيضاً بالزاوية.

المتوهّج وجهه فجأةً بألقٍ غريب. بدت جبهة الخيميائيّ الشاحب أشبه ما تكون بجبهات الخيميائيين الشيطانيّين. وأقرّت عيناه المجوّفتان الحمراوان، وبشرته البيضاء المرتخية، ويداه الهزيلتان بأصابعهما الطويلة، بما انتابه من ليالي أرقٍ وأحلامٍ محمومة وبما ساوره من أفكارٍ عبقريّة.

لكنْ مهلاً: أوَ تظنّون أنّ ابتسامته المريرة هذه تشي بغروره، وأنّ هاتين الوجنتين الغائرتين هزلتا من جرّاء قراءة الكتب، أم أنّ لون سحنته ابيضّ من حرارة الجمر، أم أنّ ذاك، الذي كان سيبكي غيظاً لو كان شابّاً، يسعى لتخليد اسمه أو ذكراه؟ أوَ تظنّون أنّ هذه الكتب المرميّة بغضبٍ في النار، وهذه الأوراق الممزّقة، وهذه اليد المتشنّجة دلالة على يأسه الفظيع لأنّه لم يجد شذرة ذهب، أو ترياقاً مُحيياً؟

كان يعود للجلوس في مكانه عندما لمح على الجدار المسودّ خطوطاً برّاقة ترتسم بوضوحٍ وما لبثت أن انجلت عن مسخٍ غريبٍ شنيعٍ شبيهٍ بتلك المسوخ التي نراها محفورة على بوّابات كنائسنا، مسخٍ أحمر الوبر، أجوف الوركين، ينهش الجوع أحشاءه، ويتطاير الشرر من عينيه، له رأس كلب ومخالب ديك، وأثداء تتدلى من بطنه ملامِسةً الأرض.

وفجأة انسلخ المسخ عن الجدار ثمّ قفز على سطح الفرن. كان يسمع احتكاك مخالب قوائمه النحيلة الرفيعة على بلاط المصهر.

قال لآرتور:

– ماذا تريد منّي؟

– أنا؟ لا شيء! لكن، ألست الروح الملعونة التي تضلّل الناس وتعذّب نفوسهم؟

فأجاب المسخ بصرخةٍ مشوبةٍ بالظفر:

– نعم، نعم، أنا الشيطان.

- ماذا تريد منّي؟ ماذا جئت تفعل هنا؟
- جئت أساعدك.
- تساعدني بأيّ شيء؟
- بأن تعثر على ما تبحث عنه، عن الذهب، عن الإكسير.
- أحقّاً؟ ألا تعرف أنّني أستطيع أن أُحيي العوالم، وأنّ فكرة من رأسي بإمكانها أن تجعل الذهب يتدحرج عند قدميّ؟ لا يا شيطان، إذا كنت لا تملك سلطاناً إلّا على الذهب والإكسير فانصرف عنّي وامضِ لأنّك لا تفيدني بشيء.

قال الشيطان مبتسماً ابتسامة ماكرة:

- لا، لن أمضي بل سأبقى.

وفكّر في نفسه:

«الخيلاء ابنتي البكر وهي تمدّني بأرواح كلّ مَن تُغرّر بهم! سأنفذ إلى روحه!».

حينئذٍ أرسلت الجمرات المنطفئة بعض شراراتها فانعكست على وجه آرتور فبدا للشيطان أجمل وأشدّ رهبة من وجوه الهالكين، لا بل أجمل من أبهى الرجال.

قال له آرتور:

- هيّا نخرج من هنا فالريح تعصف بالأشجار وتعبث برمال الشاطئ، والبحر يزمجر. تعال! سنتكلّم أفضل عن الأبديّة والعدم على صخب العاصفة وأمام غضب المحيط.

وخرجا. كان الطريق المؤدّي إلى الشاطئ مرصوفاً بالحجارة ومظلّلاً بالأشجار الكبيرة القائمة المحيطة بالقصر. كان الطقس بارداً، والتراب متشقّقاً، والظلام داكناً: ما من نجوم في السماء، ولا قمر يشعّ.

كان آرتور يمشي ببطء، حاسرَ الرأس، مستمتعاً بملمس خصلات شعره الأزرق الحريريّ على وجهه، ومصغياً بلذّةٍ إلى قرقعة الريح والحفيف المشؤوم للأشجار المنثنية حتّى لتكاد أن تنقصف. وسار الشيطان خلفه قافزاً بخفّة على الحجارة، مطرق الرأس، مصدراً عواءً ناحِباً.

وأخيراً وصلا إلى الشاطئ. كان الرمل بارداً ومبتلّاً، مغموراً بالصدف والطحالب التي تدحرجت والحصى صوب البحر من جديد مع ارتداد الموج. توقّفا كلاهما.

كان آرتور يضحك بوحشيّة لصخب الأمواج.

قال:

- هذا ما أحبّه. أو بالأحرى هذا ما أكرهه أقلّ، لكنّ هذا الغضب ليس عنيفاً ولا إلهيّاً كما ينبغي. لِمَ توقّف الموج وكفّ عن الارتفاع؟ آهِ لو أنّ البحر يمتدّ أبعد من الشاطئ والصخور، لو أنّ أمواجه تندفع شاهقة متقافزة وتغمر كلّ شيء... كم ستكون ممتعة رؤيته، لكنّ هذا...

قال الشيطان:

- تريد الموت إذاً، الموت في كلّ شيء؟

- إنّه العدم الذي أبتهل إليه.

- ولماذا؟ هل تعتقد أنّ لا شيء يبقى بعد فناء الجسد؟ وأنّ العين المغمضة لا يعود البصر اليها ولا الفكر إلى الرأس البارد الشاحب؟

- نعم أظنّ هذا. أقلّه بالنسبة لي.

- وماذا تريد حقّاً؟ في أيّ شيءٍ ترغب؟

- في السعادة!

- السعادة؟ هل خطرت السعادة ببالك؟ السعادة!... ستجدها في العِلم، في المجد، في الحبّ.
- لن أجدها في أيّ مكان. بحثت عنها طويلاً ولم أجدها. هذا العلم محدود جدّاً، وهذا المجد ذروة السخف، وهذا الحبّ منتهى الضحالة.
- أوَ تظنّ نفسك متفوّقاً على سائر البشر؟ هل تظنّ أنّ روحك...
- آه! روحي!... دعك من روحي!...
- ألا تملك روحاً؟ ألا تؤمن بشيء؟... ولا حتّى بالله؟ ويحك! سوف تهلك أيّها الرجل الضعيف المغرور، ستهلك لأنّك رفضت عروضي. ستهلك كما هلك الإنسان الأوّل. كم كانت نظرته فخورة، كم كان وقِحاً ومستقوِياً بسعادته وهو يتنزّه في الجنّة ويتأمّل هزيمتي ودموعي بعينين محملقتين ونظرات مدهوشة! هوَ أيضاً رأيته ساقطاً يزحف عند قدميّ، رأيته يبكي مثلي، ويلعن ويجدّف مثلي. وامتزجت صيحات يأسِنا معاً وأصبحنا منذ ذاك الحين رفاق العذاب والألم. ويحك! ستسقط مثله وسيغويك شيء ما.
- وهل تظنّني إنساناً يا شيطان؟ أو تظنّني من تلك الكائنات العاديّة المبتذلة المستغرقة في موبقات هذا العالم الذي قذفتني إليه ريح شقيّة مجنونة وحيث أموت اختناقاً لضآلة الهواء الذي أتنفّسه، ولانعدام الأشياء التي أحسّها وأفقهها وأحبّها؟ هل تعتقد أنّ هذا الفم يأكل؟ وأنّ هذه الأسنان تطحن وأنّني أعوّل على الحياة كما يركن القناع إلى الوجه؟ إذا كشفت عن هذا الجلد الذي يسترني فسترى أنّني أنا أيضاً يا شيطان كائن ملعون مثلك، وأنّني نظيرك وربّما

كنت سيّدك. قل لي أيّها الشيطان، هل تستطيع أن توقف موجة؟ هل تستطيع أن تسحق الحجارة بين يديك؟

- نعم.

- أيّها الشيطان، لو شئتُ لسحقتك أنت أيضاً بين يديّ. قلْ لي أيّها الشيطان أيّ شيء عندك يجعلك متفوّقاً على كلّ ما عداك؟ ما تُراه يكون؟ هل هوَ جسدك؟ ضع رأسك عند مستوى ركبتي أو قدمي وسأسحنه غباراً. قلْ لي ما الذي يصنع مجدك وكبرياءك، والكبرياء جوهر النفوس العُلويّة؟ ما الذي تملكه؟ أجِبني!

- نفسي.

- وكم من الدقائق منحتك هذه النفس السعادة في الأبديّة؟

- عندما أرى نفوس البشر تتعذّب كما تعذّبت، أجد في ذلك عزاءً لآلامي، وسعادة أبدّد بها يأسي. وأنت أيّ شيء مقدّس فيك؟ أهوَ روحك؟

- لا، لأنّ لا روح لديّ.

- لا روح لديك؟ عجباً! وهل أنت مخلوق آليّ تحييه ومضة عبقريّة؟

- العبقريّة! صدقْتَ... العبقريّة شيء يبعث على الاستهزاء والشفقة! أتبدو عليّ مَخايِلُ عبقريّةٍ؟ دعكَ من هذا!

- أليس لديك روح؟ ومَن قال لك ذلك؟

- من قال لي ذلك؟ أستطيع تخمينه... اسمعْ، وسترَى. عندما أتيت إلى هذه الأرض، كان الوقت ظلاماً، أشبه ما يكون بهذا الظلام البارد الرهيب الذي يسود الآن. أذكر أنّ الأمواج جرفتني إلى الشاطىء... ثمّ نهضت ومشيت. آنذاك شعرت أنّني سعيد، وأنّ صدري متخفّفٌ من كلّ ثقلٍ. كان لديّ في أعماقي شيء نقيّ لم

يُمسّ، شيء يجعلني أحلم ويولّد فيّ أفكاراً مشوّشة غامضة. تبقّت لديّ ذكرى بعيدة عن مكان آخر، عن حالة أكثر سكوناً وعذوبة. بدا لي وأنا أغمض عينيّ مصغياً إلى البحر، أنّني أعود إلى تلك الدوائر العلويّة حيث كان كلّ شيء شِعراً وصمتاً وحبّاً، وخلتني غارقاً في نوم متواصل... كان ذلك النوم غفلاً ثقيلاً ولكنْ ما أعذبه وأعمقه! أذكر، كان ثمّة وقت تلاشى فيه كلّ شيء متبخّراً وكأنّه حلم. وعدت من حالة النشوة والسعادة تلك إلى الحياة والسأم. خلتني سأستعيد هذه الرؤى في وجودي الأرضيّ لكنّها اختفت كأضغاث أحلام. انكمش هذا القلب، وبدَت لي الطبيعة خائبة، جرداء، هرمة مثل طفلٍ مشوّه أحدَب متغضّن الوجه كعجوز. حاولت أن أقلّد الناسَ، أن تكون لي أهواؤهم واهتماماتهم، أن أتصرّف مثلهم، وكان ذلك غير مجدٍ، كان سعيي أشبه ما يكون بسعي النسر الذي يريد أن يلوذ بعشّ الصُرَد[1]. وعندئذٍ، أظلمت الدنيا في عينيّ، وأسدل على كلّ شيء ستار أسود، وأمسى الوجود احتضاراً طويلاً، وباتت الأرض ضريحاً يُدفن فيه الأحياء. ثمّ انقضت قرونٌ وأجيالٌ عديدة، رأيت فيها سلالات من الناس تندثر وإمبراطوريّات تتلاشى، ولم أشعر بشيء يختلج في صدري. وعندما شلّ كلّ شيء في روحي ومات، قلت في نفسي: «عجيب أمرك! تريد السعادة ولا تملك روحاً! عقلك سام وقلبك قمّة النبل، تدرك عدَمك، والأمور كلّها، ولا يستهويكَ شيء»، وتظنّ أنّ الجسد مصدر الانشراح وأنّ المادّة تجلب السعادة!

(1) الصُرَد: طائرٌ أكبرُ من العصفور ضخم الرأس والمنقار، أبيضُ البطن، أخضرُ الظَّهر، يصيد صِغارَ الحشرات، وربّما صاد العصفور.

كانت هذه الروح سامِيَة حقّاً، وكان هذا الجسد جميلاً، وكانت هذه المادّة عظيمة، ولكن ليس هناك روح، ولا إيمان، ولا أمل!

قال له الشيطان وهوَ يجرّ أثداءه على الرمل متمدّداً بكلّ طوله:

- وتشتكي! ألا تخجل من اشتكائك؟ أيّها المغبوط حريّ بك أن تُبارك السماء، فأنت ستموت! ما دمت لا ترغب بشيءٍ يا آرتور، ولا يستهويك شيء فعِشْ سعيداً لأنّك أشبه ما تكون بالحجر، وبالعدم. فممّ تشتكي إذاً؟ ومن ذا الذي يحزنك؟ وما الذي يخزيك؟

- إنّني سئم.

- قلْ لي ألا يستطيع جسدك أن يمنحك اللذّة كسائر البشر؟

- تقصد شهوات البشر أليس كذلك؟ تقصد قبلاتهم المحمومة وعناقاتهم الدافئة؟ لم أذقها قطّ! لا بل أحتقرها وأشمئزّ منها.

- وما قولك بالمرأة؟ بشهوة امرأة؟

- المرأة؟ آهِ من المرأة! قد أخنقها بين ذراعيّ، وأسحقها بقبلاتي، وأقتلها بلهاثي. آه! لا أملك شيئاً، أنت محقّ، لا أريد شيئاً ولا يستهويني شيء ولا أرغب بشيء... وأنت أيّها الشيطان، تريد جسدي، أليس كذلك؟

- جسدك، آه! هذا بالضبط ما أريده. أريد شيئاً ملموساً، يُشمّ ويُرى، فأنا لست إلّا صورة ونفحة وهيئة. آه لو كنت رجلاً، لو كان لديّ صدره العريض وفخذاه الصلبتان... آه! كم أحسده، وأكرهه، وأغار منه... ولكن ليس لديّ إلّا الروح، الروح، وهيَ نفحة حارقة وعقيمة تأكل ذاتها وتمزّقها. الروح! ولكنّي لا أستطيع فعل شيء، كلّ ما أفعله هوَ الشعور والرؤية واستنشاق

القبلات، ولكنّي لا أستطيع اللمس ولا الامتلاك. لا أملك شيئاً، لا شيء إطلاقاً. لا أملك إلّا الروح. آه! كم منَ المرّات تمرّغت على جثث الفتيات اليافعات وهنّ لا يزَلنَ دافئات! كم منَ المرّات عدت يائساً ولعنت خالقي! ليتني كنت بهيمة أو حيواناً أو أحد الزواحف! على الأقلّ للحيوان مسرّاته وسعادته وجماعته. رغباته مكتملة وأهواؤه مشبعة. أتريد روحاً يا آرتور؟ لكن هل فكّرت بالأمر جيّداً؟ هل تريد أن تكون مثل سائر البشر؟ هل تريد أن تبكي موت امرأة أو ثروة ضائعة؟ هل تريد أن يسقمك اليأس، وتنحدر من الأوهام إلى الواقع؟ أتريد روحاً؟ أتريد صراخ اليأس الغبيّ والجنون والبلاهة! أترغب في الإيمان؟ في التذلّل للأمل؟ تريد روحاً! تريد إذاً أن تكون إنساناً أكثر بقليل من شجرة وأقلّ من كلب؟

قال آرتور وهوَ يتقدّم باتجاه البحر:

- لا، لا أريد شيئاً!

صمت هنيهة. ثمّ رآه الشيطان يجري على المياه جرياناً خفيفاً رشيقاً، وكانت الأمواج تلتمع تحت خطواته.

قال الشيطان في غمرة حقده الغيور:

- آه، ما أسعدَك... ما أسعدَك... تسأم على هذه الأرض، لكنّك ستنام لاحقاً. أمّا أنا فسألوذ بيأسي في الأبديّة... وغداً عندما أتأملّ جثّتك...

قال آرتور:

- جثّتي؟ من قال لك إنّي سأموت؟ ألم أخطرك بالأمر؟ لا أرجو شيئاً ولا حتّى الموت.

- الوسائل الأفظع....

فقاطعه آرتور الذي توقّف هنيهة على الموجة التي كانت تؤرجحه بنعومة وكأنّه واقف على لوحة قائلاً:

- حاولْ أن تجدها!

وصمت الشيطان طويلاً وفكّر بالخيميائيّ قائلاً في نفسه: «لقد خدعْتُه. لا يؤمن بروحه... لكنّك ستقع في الحبّ، ستحبّ امرأة، وسأمنح هذه المرأة الكثير من الظرف والجمال والحبّ... نعم سيحبّها... لأنّه رجل بالرغم من كبريائه وعلمه...»

قال له:

- اسمع يا آرتور، غداً ستلتقي فتاة من هذه الجبال وستقع في حبّها.

أخذ آرتور يضحك. وقال له:

- أيّها الأبله المسكين، أريد فعلاً أن أحاول، أو حاول أن تقتلني، إذا كنت تجرؤ!

قال الشيطان:

- لا، لا قدرةَ لي إلّا على الأرواح.

وانصرف.

مكث آرتور على الصخور. وعندما ظهر القمر في كبد السماء، بسط جناحيه الهائلين الأخضرين وجسده الأبيض كالثلج، وطار نحو السماء.

5

كانت الشمس المغراء تنير الوادي والجبال بآخر إشعاعاتها الآفلة.

في أُوَيقات الغسق هذه تُلمَحُ في المروج خيوط العذراء[1] متشبّثةً بشعور النساء وحرير أثوابهنّ وتخريماتها. في مثل هذه الساعة بالذات، ترسل الجنادب صريرها في العشب وتحت سنابل القمح، وتُسمَعُ في الحقول أصوات غامضة، وجوقات موسيقيّة غريبة، ثمّ، على مسافةٍ أبعد، رنين جلاجل يخفت مع ابتعاد القطعان التي تنزل المنحدرات. في مثل هذه الساعة، تسرع الراعية الصغيرة التي تسوق عنزاتها وبقراتها الخطى، وتجري دون أن تلتفت خلفها، متوقّفة بين الفينة والأخرى، لاهثةً مرتعشة خوفاً من ظلام الليل الوشيك، ومن الرجال والشبّان التي قد تصادفهم في طريقها لا سيّما وأنّها لا تزال طفلة في السادسة عشرة من عمرها.

جمعت جوليتا بقراتها متّجهة إلى القرية حيث كانت تبين بعض الأكواخ. ولكنّ جوليتا أمضت ذاك النهار حزينة. لم تركض لتقطف الأزهار وتزيّن بها شعرها. لا، ولم تقفز قفزاتها الطفوليّة لدى رؤيتها أقحوانة جميلة محاذِرةً أن تسحقها بقدميها. ولا أنشدت أغاني فرحة، ولا خطرت لها تلك الألحان المتهدّجة، أو تلك النغمات المتعاقبة السريعة. في ذاك النهار، لا! لم يُخالجها فرح ولا نشوة، ولا مالت بعنقها الغضّ مدندنةً مع الرقص لحناً رشيقاً يتوهّج تناغماً. لم تبدر منها إلّا تنهّدات متكرّرة. كانت الصبيّة تسير حالمة دامعة العينين. وتمادت في نزهتها سابحة في خيالها، مفعمة بالكآبة، متباطئة وسط الأعشاب النديّة، ساهية تماماً عن الندى الذي بلّل ثيابها، وعن بقراتها التي سرحت بعيداً.

كم مرّة، في ذاك النهار، ركضت خلف قطيعها؛ ثمّ عادت لتجلس

(1) خيط العذراء: سلك أبيض دقيق يلمع في الهواء تطرحه العناكب في فصلَي الصيف والخريف، سمّي كذلك لأنّ الناس في العصور القديمة كان يعتقدون أنّه من نسج مريم العذراء.

متعبة ضجِرَة، مستغرقة في التفكير دون أن تتّضح لها فكرة! كانت تشعر بالضّيق، وقلبها المضطرم برغباتٍ غامضة مبهمة لا يتشبّث بشيء إلّا ليعرض عنه ويتنازعه الضجر والرغبة والشكّ. كان السأم، وحلم الماضي، واستقصاء المستقبل... كان كلّ ذلك يعبُر في ذهن الطفلة الممدّدة على العشب متأمّلةً السماء ويداها تحتضنان جبينها. للمرّة الأولى شعرت أنّها وحيدة وسط الحقول التي أمضت فيها طفولتها وهي تلهو في الغابات وتركض في مواسم الحصاد، وكان هذا الشعور يبعث الخوف في نفسها. أجفلها حفيف الأوراق فلم تجرؤ على الالتفات. بدا لها أنّ وجهاً شيطانياً يلاحقها باستمرار ويومئ لها مطلِقاً ضحكة مرعِبة.

نظرت طويلاً إلى أشعّة الشمس الملتهبة التي راحت تخفت تدريجاً راسمةً في غير مكانٍ دوائرَ مشعّة تكبر ثمّ تختفي لتعود ثانية. انتظرت أن ينتهي قرع جرس الكنيسة وأن تغور اهتزازاته الأخيرة في البعيد. عندئذٍ نهضت بمشقّة وسَعت في إثر قطيعها، وجدّت في السير لِتعود إلى منزل أبويها.

وفجأة رأت على مسافة خمسين خطوة ما يقارب عشرين شعلة تنبثق من الأرض. ثمّ اختفى الأُوار، وما مضتْ هنيهات حتّى رأته جولييتا يتدفّق من جديد. كانت الشُعَلُ تتدانى ثمّ تنطفئ الواحدة تلو الأخرى خلا شعلة أخيرة ما برحت تقفز متطاولة مترافصة بحيويّة وجنون. توقّفت البقرات فجأة، وكأنّ غريزة طبيعيّة تملي عليها عدم التقدّم، وأصدرت خواراً شاكياً طويلاً رتيباً ما لبث أن خفت ببطء.

وعندئذٍ انبثقت الشُعَلُ أضعافاً، وسُمِعت بوضوحٍ ضحكات مقهقهة وأصوات أطفالٍ. فَعَلا الشحوبُ وجه جولييتا واستندت إلى قرن عجلة وقد أخرسها الرعب وجمّد أوصالها. سمعت صوت خطىً خلفها،

وشعرت بنفَسٍ حارقٍ يلفح خدّيها.
وفجأة انتصب رجل أمامها واقفاً.

كان يرتدي ثياباً فاخرة من الحرير الأسود، وفي يده قفّاز يلتمع بحبّات الألماس. وعند أقلّ حركة يقوم بها كانت تُسمَعُ أصداء جلاجل فضيّة وكأنّها ممتزجة برنين قطعٍ ذهبيّة. كان وجهه قبيحاً، وشارباه حمراوين، وخدّاه مجوّفين، لكنّ عينيه الفاحتين كانتا تلتمعان مظلّلتين برموشهما الكثيفة الغزيرة وكأنّها حفنة شعر. كان جبينه شاحباً مغضّناً وبارز العظام، وشعره محتجباً بإتقان تحت قلنسوة من المخمل الأحمر. لكأنّه يخاف إظهار رأسه.

قال لجولييتا:

– أيّتها الطفلة! أيّتها الطفلة الجميلة!

واجتذبها نحوه بيَدٍ جبّارة وبابتسامة شاءها عذبة ولم تكن إلّا مرعبة.

– هل تهوين أحداً؟

قالت الصبيّة:

– آه! ذراعاك تؤلمانني! اتركني وإلا كسرت أضلعي!

وأردف الفارس قائلاً:

– عجباً! أليس هناك أحد في حياتك؟ اسمعي: لديّ الجبروت، أمنح الحبّ والحقد، وأقول لك إنّك ستقعين في الحبّ. تعالي نجلس هنا على ظهر البقرة البيضاء.

وانصاعت البقرة مضطجعة على جانبها فجلس المجهول على عنقها، وأمسك أحد قرنيها بيدٍ فيما طوّق باليد الأخرى خصر جولييتا.

خَبَتِ الأشهب الناريّة ومعها خبا نور الشمس ليسود الظلام تقريباً. لكنّ النهار الآفل ما برح يغالب القمر الشاحب الواهن.

نظرت جولييتا إلى الغريب فذُعِرَتْ من نظراته.

قالت له:

- دعني! ناشدتك الله أن تتركني.

فقال بحسرةٍ:

- الله؟

ثمّ أخذ يضحك.

ثمّ أضاف:

- جولييتا هل تعرفين الدوق آرتور دالمارويس؟

- رأيته بعض المرّات، ولكنّي أخاف منه كما أخاف منك... آه! دعني عليّ أن أذهب... آه! لو عرف والدي!...

- حسناً، لو عرف والدك فماذا سيفعل؟

- أقول لك: لو عرف أنّك تحتجزني في المساء... أتعرف... سيقتلك!

- ها إنّني أعتقك يا جولييتا، اذهبي!

وأرخى ذراعه التي كانت تعانقها بقوّة.

لم تستطع النهوض. شيء ما جعلها تتشبّث بخاصرة البهيمة التي كانت ترسل أنيناً حزيناً وترطّب العشب بلسانها الرّائل. كانت البقرة تحشرج وتتململ على التراب وكأنّها على شفا الموت.

- هيّا جولييتا اذهبي... مَن يمنعك؟

سعت مرّة أخرى للنهوض جاهدة. ولكنّها كانت عاجزة تماماً عن القيام بأيّ حركة. تحطّمت إرادتها الحديديّة أمام سطوة هذا الرجل وقدرة سِحره.

قالت له:

- مَن أنت؟ وأيّ سوءٍ فعلت بك؟

- لم تفعلي بي أيّ سوء... لكنْ دعينا نتحدّث عن الدوق آرتور دالماريس، ألا تجدينه ثريّاً وجميلاً؟

ثمّ صمت وضرب جبينه بيديه الاثنتين قائلاً «آه! ليته يأتي! ليأتِ اللحظةَ!».

ثمّ مكثا على هذا النحو لوقت طويلٍ، طويل. كانت الفتاة ترتجف خوفاً فيما راح يحدّق إليها جائلاً فيها بصره بنظرات نهمة.

سألها:

- هل أنت سعيدة؟

- سعيدة؟ بالطبع لا!

- ما الذي ينقصك؟

- لا أعرف. لا أحبّ شيئاً. ولا شيء يعجبني، وخصوصاً في هذا النهار شعرت بحزن شديد، وهذا المساء أيضاً... هيئتك الشريرة ترعبني... آه! سأُجَنّ!

- جوليتا ألا تريدين أن تصبحي ملكة؟

- لا!

- جوليتا ألا تحبّين الكنيسة وبخورها وصحنها[1] العالي، وجدرانها المسودّة، وترانيمها الخاشعة؟

- لا!

- أتحبّين البحر والأصداف على الشاطئ والقمر في السماء وأحلام الليل؟

- آه! نعم. أحبّها جميعاً.

- وبِمَ تحلمين في لياليك يا جوليتا؟

---

(1) الجزء الأوسط من الكنيسة، وحوله الجناحان.

- وما أدراني؟

وبَدَت غارقةً في أفكارها، مهمومة.

- ألا تتمنّين حياةً أخرى، والقيام بأسفارٍ بعيدة؟ ألا تريدين أن تكوني ورقة الورد المتطايرة مع النسيم، والعصفور المحلّق في الفضاء، والأغنية الهائمة، والصرخة المتوثّبة؟ أليس الدوق آرتور جميلاً وثريّاً وجبّاراً! هوَ أيضاً يهوى الأحلام والنشوات الساميَة.

وتابع بصوتٍ خافت:

- عساه أن يأتي! فليأتِ! ليأتِ اللحظة! وستحبّه حبّاً محتدماً، مضطرماً، مطلقاً. وسيهلكان معاً».

كان القمر يسبح عبر الغيوم، ويُنير الجبل، والوادي، والقصر القديم القوطيّ الذي كان طيفه يرتسم في ضياء القمر وكأنّه شبح على جدار المقبرة.

قال المجهول:

- لننهضْ ونمشِ!

أمسك الغريب بيد جولييتا وجذبَها خلفه. تقافزت البقرات وهرولت في الحقول جزعةً متدافعة. ثمّ عادَت بالقرب من جولييتا وهي تقفز متراقصة. لم يكن يُسمع إلّا جلبة خطواتها على الأرض وصوت الفارس ذي المهماز الذهبيّ الذي كان يتحدّث ويتحدّث بصوتٍ فريدٍ رنّان وكأنّه أرغن.

منذ وقتٍ طويل وهما يجريان على الطريق المنبسطة المكتسية بالعشب النديّ المنزلق تحت أقدامها وكأنّه جليد مصقول. كانت جولييتا منهكة، وكانت ساقاها تخوران تحت جسدها.

سألت تكراراً:

- متى سأصل؟

وجالت نظرتها الكئيبة في الأفق حيث كان يرين ظلام عميق. وبعد وقتٍ طويل، لمحت أخيراً مسكن أبيها الخرِب. كان الغريب لا يزال بجواره. توقّف عن الكلام، وحده كان وجهه ينطق بالفرح وترتسم عليه أمارات السعادة. تسرّبت من شفتيه كلماتٌ منتمية إلى لغة مجهولة. ثمّ أصغى بانتباه، صامتاً، فاغر الفم.

سألها مرّة أخرى:

- هل تحبّين الدوق آرتور؟

- بالكاد أعرفه... ثمّ ما همّكَ من الأمر؟

قال:

- انظري ها هوَ!

وبالفعل، مرّ رجل بجوارهما. كان عارياً حتّى الجذع، وجسده أبيض كالثلج وشعره أزرق، وكانت عيناه تلتمعان ببريقٍ سماويّ.

وسرعان ما اختفى المجهول.

أخذت جولييتا تُهرول إلى أن وصلت أمام بابٍ خشبيّ محاطٍ بِسور، قبضت على مطرقة الحديد وقرعت قرعات متتالية. فتح عجوزٌ البابَ، كان والدها.

قال لها:

- يا بنيّتي المسكينة، أين كنتِ؟ ادخلي!

وسرعان ما دخلت الفتاة إلى المنزل. كان أفراد عائلتها بانتظارها منذ عدّة ساعات منشغلي البال. ما إن رأوها حتّى أطلقوا صرخات الابتهاج بعودتها سالمة وعانقوها مستفسرين عن سبب غيابها. ثمّ تحلّقوا حول الطاولة حيث تربّعت قدرٌ حديديّة كبيرة والبخار الكثيف يتصاعد منها.

سألت أمُّها:

- هل اصطحبتِ البقرات؟

وعلى ردّها إيجاباً، أمرَتها بأن تذهبَ لحَلبِها. خرجت جوليتا، ثمّ عادت بعد بضع دقائق حاملة دلواً كبيراً من الصفيح ووضعته بمشقّة على الطاولة... لكنّه كان مليئاً دماً.

فهتفت جوليتا:

- يا إلهي! دم....

وشحب وجهها وخرّت ساجدة عند قدمَي والدتها:

- إنّه هو! هو من فعل ذلك!

- مَن تقصدين؟

- هوَ الذي أخّرَني عن المجيء.

- مَن هو؟

- لا أعرف.

وسُمِعَ صوتٌ من إحدى الزوايا مصحوباً بضحكةٍ مدوّية:

- هذا أنا.

وبان الغريب والدوق آرتور ملتصقين بالجدار.

فهرَع العجوز ليحضر بندقيّته المعلّقة فوق المدفأة ثمّ صوّبها نحوهما.

لكنّ جوليتا ارتمت بكلّ اندفاع وعانقته هاتفةً:

- إرأفْ به!

لكنّ الرصاصة كانت انطلقت. ثمّ ران الصمت. واختفى الشبحان. وما هيَ إلّا دقائق حتّى سُمِعَ صوتُ زجاجٍ يتكسّر ثمّ تدحرجت الرصاصة نفسها على البلاط وقد أرجعها الشيطان عبر النافذة.

6

بدا كلّ ذلك غريباً. لا بدّ أنّه وليد شعوذة أو أحبولة سحريّة. فهذا الحليب المتحوّل إلى دم، وهذا الظهور العجيب، وتأخُّر جوليتا، ونظراتها المرتاعة، وصوتها المتهدّج، وهذه الرصاصة التي عادت لتتدحرج على أرض الغرفة، وضحكة الرجلين المشؤومة خلف الجدار... كلّ ذلك جعل أفراد العائلة يرتعدون خوفاً فجلسوا متلاصقين صامتين. خلا جوليتا التي اتّكأت إلى الطاولة وأسندَت رأسها بيدها اليُسرى، ثمّ حلّت عقدة شعرها وأسدلته على كتفيها، وراحت تشدو بصوتٍ في غاية الخفوت متمتمةً لازمة قديمة، مزعجة، رتيبة. كانت جوليتا تتمايل بخفّة على الكرسيّ وكأنّها تريد أن تغفو على نغمة صوتها. بَدَت نظرتها الناعسة فارغة وهيئتها حالمة متهاونة.

استمع أفراد أسرتها مندهشين إلى هذه النغمات التي ترسلها ناشزة ركيكة، أشبه ما تكون بطنين رتيب راح يخفت تدريجاً ليصير تمتمة متقطّعة إلى حينِ تلاشيه بين أسنانها.

وهكذا انصرم الليل، حزيناً، طويلاً. لم يكن أحدٌ يجرؤ على الحِراك من مكانه، ولا على النطق بكلمة واحدة أو الالتفات خلفه. استسلم العجوز لنوم عميق على كنبته الخشبيّة، وسرعان ما أغمضت زوجته عينيها خوفاً وسأماً. أمّا ابناها فقد أطرقا رأسيهما يغالبان الأرق إلى أن وافاهما النوم متأخّراً منتهَباً بأحلام مشؤومة.

ينبغي أن تروا كلّ هذه الرؤوس نائمة مطأطئة مجتمعة حول نورٍ خافتٍ ينعكس على جبهاتها المتجهّمة ويزيدها شحوباً وكآبة! كان وجه العجوز وقوراً وفمه منفرجاً وجبينه مغطّى بخصلات شعره الأبيض، وقد أسبل

يديه المزيلتين على فخذيه. وكانت زوجته العجوز جالسة قبالته تتململ بين الفينة والأخرى ووجهها يُغضّنه تعبير غريب هوَ مزيج من التعاسة والمرارة. أمّا وجه جولييتا فكان شاحباً وشعرها الطويل الأشقر منثوراً على الطاولة. ما برحت تصفّر لحن أغنيتها الرتيب بين أسنانها البيضاء، وفي نظراتها عذوبة سكرى.

لم يغمض لها جفنٌ. أمضت ساعاتِ الليل مستمعةً إلى خوار بقرتها الشاكي. ربّما كانت بقرتها البيضاء تتألّم داخل حظيرتها هي أيضاً. ربّما كانت البهيمة المسكينة تتلوّى في احتضارها مضطجعة على مزْودها وقد تبلّل من عرقها.

طلع النهار، وخرجت جولييتا لتسوقَ البقرة إلى المرعى في الحقول فوجدت آثار مخالب على رقبتها.

صعدت جولييتا التلّة بخطى سريعة، وحين وصلت إلى أعلاها جلست تستريح لكنّ الماء كان ينساب من أسفل ثوبها وقدميها لأنّها سارت على الأرض المبلّلة بالندى. في ذاك النهار كانت مضطربة مأخوذة، تغالب النعاس. كانت تركض ثمّ تتوقّف فجأة متحسّسةً جبهتها وتجيل بصرها في كلّ ناحيةٍ عسى أن يأتي!

هذا ما تتمنّاه! أن يأتي! ذلك أنّ الفتاة المسكينة كانت مغرمة، مغرمة بسيّدٍ نبيلٍ ثريّ وجبّار، بفارس جميل، في عينيه إباء، وفي ابتسامته ترفُّع. كانت تهوى رجلاً غريباً، مجهولاً، شيطاناً متجسّداً، مخلوقاً سامِياً وشِعريّاً، هكذا فكّرتْ.

أو لا! لا شيء من هذا! كانت بكلّ بساطة تحبّ الدوق آرتور دالماروبس.

أحياناً، تعود لتسترسل في أحلامها، ثمّ تبتسم بمرارة وكأنّها تشكّ

بالمستقبل. ثمّ تعود للتفكير به. تستحضره جالساً هناك قربها على العشب المتلألئ بقطرات الندى يقول لها كلمات رقيقة محدّقاً إليها بنظراته الثاقبة، وكان صوته عذباً، صافياً، يختلج حبّاً، أشبه ما يكون بموسيقى سامية لم يسبق لها أن سمعتها من قبل. مكثت هكذا وقتاً طويلاً وعيناها تحدّقان إلى الأفق، وبدا لها دوماً كئيباً وخاوياً وعقيماً.

وأخيراً نزل المساء، بعد هذا النهار المتثاقل المفعم بالأسى، المتثاقل كالليل الذي سبقه. مكثت جولييتا على قمّة الجبل لوقتٍ طويل بعد غياب الشمس، ثمّ سلكت طريق العودة منحدرةً ببطء من الجبل، متوقّفة عند كلّ خطوة، مصغية بانتباه، ولم تكن تسمع إلّا صفير الجنادب تحت العشب، وزعيق الباشق العائد إلى وكره وهو يطير على جناح السرعة.

ومضت في سبيلها حزينة يائسة مطرقة الرأس مخرجةً من صدرها زفراتٍ حرّى، تجرّ بيدها اليسرى بقرتها البيضاء من رسنها الرطب. لكنّ البهيمة المسكينة كانت تشكع لألمٍ أصابها في الكتف التي جلس عليها الشيطان.

وحين وصلت إلى المكان حيث افترق عنها الشيطان بالأمس، وحيث ظهر الدوق آرتور، توقّفت من تلقائها. وأمسكت بقوّةٍ عِجْلَتَها التي تمنّعت تلقائيّاً عن الانصياع لها وجذبتها بضع خطوات.

وعندئذٍ ظهر آرتور فأرخت الحبل وراحت البقرة تقفز وتعدو نحو حظيرتها.

نظرت إليه جولييتا بحبّ ورغبة وغيرة. مرّ ناظراً إليها كما ينظر إلى الغابات والسماء والحقول.

نادته باسمه فكان أصمّ أمام ندائها وكأنّه يسمع ثغاء خروف أو تغريد عصفور أو عواء كلب.

قالت له بيأس:

- آرتور أتوسّل إليك اسمعني! آرتور!

وهرولت في أثره متشبّثة بثيابه وتمتمت كلمات وهي تشهق بالبكاء. كانت تبكي حبّاً وقهراً. كان هناك شغف جارف في هذه الصرخات والدموع، في هذا الصدر المختلج بشهقاته الكثيرة، في هذا الكائن المشّ الأثيريّ الزاحف أرضاً عند قدميه. وكلّ ذلك كان أبعد من أن يمسّه. لكأنّ صراخ تلك المرأة لا يعدو كونه خزفاً يتكسّر أو خروفاً يثغو أو عصفوراً يغنّي أو كلباً يعوي. توقّف آرتور هنيهةً وحدجها بنظرة... ثمّ تابع طريقه.

- آرتور! آهِ لو تسمعني! لو تسمعني لحظةً واحدة! أنا أحبّك، أحبّك! آه لو تأتي معي ونذهب لنعيش معاً عند شاطئ البحر، بعيداً من هنا، أو اسمعْ! ما رأيك لو نموت معاً؟

وكان آرتور يتابع سيره وكأنّ شيئاً لم يكن.

- اسمعني يا آرتور! أرجوك، انظر إليّ! هل أنا قبيحة مقيتة إلى هذا الحدّ؟ لا يعقل أن تكون رجلاً، لك قلب بارد كالرخام، قاسٍ كالحجر.

وخرّت ساجدة عند قدميه، وهيَ تُرجع رأسها إلى الخلف وكأنّها على شفا أن تموت. وكانت تموت حقّاً، تموت إنهاكاً وضنى، وتتلوّى يأساً حتّى لتكاد تقتلع شعر رأسها، ثمّ كانت في نحيبها يتولّاها الضحك رغماً عنها، والدموع تخنق صوتها. وكانت ركبتاها متمزّقتين وداميتين لِفرط ما زحفت على الحصى. كانت تحبّه ذاك الحبّ الجارح المطلق الشيطانيّ. وكان هذا الحبّ لا يني ينهشها. كان حبّاً مسعوراً، متوثّباً، هاذياً.

كان حبّاً ألهمه الجحيم بصرخاته المشوّشة وناره الحارقة التي تمزّق

الروح وتُتلف القلب. كان هوىً شيطانياً، متشنّجاً وشقيّاً، غريباً وجارفاً، يبعث على الجنون.

- إلى الغد آرتور أليس كذلك؟ أشفق عليّ أرجوك! امنحني هذا اللقاء وسأعطيك كلّ شيء بعده، دمي وحياتي وروحي والأبديّة لو كانت ملكي! اقتلني إن شئت لكن عذّني باللقاء غداً! غداً على الجرف... من فضلك أتوسّل إليك... على الجرف... أليس كذلك... على ضوء القمر... ما أجملها ليلة الحبّ فوق الصخور، على إيقاع صخب الأمواج أليس كذلك يا آرتور؟ أغداً نلتقي؟...

وأفلت من شفتيه بتهاون محتقر كلمتين:

- إلى الغد!

7

إلى الغد! آهِ من الغد! وهرولت كالمجنونة نحو الجرف ولم يعد يراها أحد في القرية. اختفت من البلاد.

اختطفها الشيطان.

8

كان الوقت ليلاً. انعتق القمر من غيومه والتمع أبيض نقيّاً، منيراً بضيائه مكتب آرتور الذي ترك نافذته مفتوحة. كان يتكئ إلى الحاجز الحديديّ متنشّقاً بلذّةٍ هواءَ الليل المنعش. ثمّ سمع هذا الوقع الذي يعرفه جيّداً، وقع القوائم الرهيفة الخفيفة على بلاط فرنه فالتفت. إنّه الشيطان

لكنّه كان هذه المرّة أشدّ قبحاً وشحوباً من سابقتها. ازدادت خاصرتاه ضموراً وأبان شدقه المائل عن أسنان مخضرّة مثل عشب القبور.

قال له آرتور:

- حسناً أيّها الشيطان ما رأيك؟ أتظنّ آنّني أُغرمتُ بها؟ أوَ تظنّ آنّني تأثّرت بهذه الصرخات والدموع وهذه الشهقات المتكلّفة؟

فأجابه الشيطان وهو يرتجف على قوائمه الأربع:

- أنت حقّاً عديم الشعور! أيعقل أن تتركها تموت؟

قال آرتور وهو ينظر إليه ببرودة:

- وهل ماتت؟

- لا، لكنّها تنتظرك.

- تنتظرني؟

- نعم، على الجرف. ألم تعدها بذلك؟ منذ وقت طويل وهي هناك في انتظارك.

- حسناً سأذهب.

- ستذهب؟ حسناً يا آرتور لا أطلب منك إلّا هذا المعروف. وبعدئذٍ تفعل بي كلّ ما تشاء، أنا ملكك.

- وماذا تريدني أن أفعل؟

- هل تظنّ أنني متمسّك كثيراً بروحك إلى هذا الحدّ؟ أقول لك إنّك ستحبّها... آرتور ألم تقل لي إنّك تريد أهواء وحبّاً جارفاً حارقاً مختلفاً عن كلّ ما عداه؟ حسناً ستحصل عليه هذا الحبّ... لكنْ، ألن تعطيني روحك بعد ذلك؟

- لا روح لديّ.

- هذا ما تظنّه. لك روحٌ لأنّك إنسان، لأنّك ستُحِبّ.

لم يعتد الشيطان إلّا رؤية الكبرياء والغرور يعتملان في نفوس البشر فازدرى كلّ ما عداهما. فالشقاء لا يرى إلّا الرذيلة والجائع لا يشعر إلّا بالجوع.

- تقول عنّي إنّي إنسان أيّها الشيطان! قلْ لي هل رأيت بشراً بمقدورهم أن يُحلّقوا في الهواء وصولاً إلى الغيوم؟ - وبَسَط جَناحيه الأخضرين- هل رأيت شَعراً كهذا؟- وأظهر له شَعره الأزرق. هل رأيت لدى أحدهم جسداً بهذا البياض الثلجيّ، ويداً قويّة كهذه أيّها الشيطان؟ وأغرز أظافره في جلده قائلاً: والآن قلْ لي هل صادفت أحداً تجرّأ على إهانتك مثلي؟ إذا كنت ترغب في روحي، فاقتلني فوراً، اسحق رأسي بأسنانك، مزّقني بمخالبك، حاولْ وسَتَرى إذا كنت انساناً.

وعندئذٍ قفز الشيطان على الأرضيّة يرغي ويزبد غضباً وأثناء قفزاته المتشنّجة كان يضرب حقويه بالسقف. فيما ظلّ آرتور على هدوئه.

قال له:

- أيّها الشيطان، أنت قويّ جبّار حقّاً. أشعر أنّك تستطيع أن تبدّدني بضربةٍ واحدة. من فضلك، حاولْ أن تقتلني!... نعمْ لي روح وأعطيك إيّاها، أعطيك روحي، فاقتلْني... هذا سهل عليك جداً لأنّني مجرّد إنسان.

وانقضّ الشيطان على عنقه بصرخة جهنّميّة تصاعدَتْ من أعماقه. أراد أن يعضّه فانزلق الجلد تحت أسنانه. كشف آرتور عن صدره فارتمى الشيطان بقفزةٍ مسعورةٍ ناشباً فيه مخالبه لكنّه عاد وسقط دون أن يقدر على لمس الجلد الذي ظلّ سليماً صقيلاً. راح يقفز بجنون مسعور ومن شفتيه الداميتين يتصاعد عواء أجشّ. كان الشرر يتطاير من عينيه، وطفق

يضرب الأرض بقوائمه. اضطجع آرتور على الأرض باسطاً جناحيه فانزلق الشيطان عنهما وراح يزحف ويتمرّغ ويفتح شدقه ليمزّقه لكنّ مخالبه تلفت وكأنّها تمزّق صخراً. كان يلهث واللعاب يسيل من فمه وقد احمرّ وجهه من شدّة الغضب. للمرّة الأولى وجد نفسه منهزماً. أمّا آرتور... فكان يضحك مسترخياً، وكانت ضحكته الهائلة صاخبة، رنّانة كأنّها امتزجت بصليل حديد. وكان النفس الصاخب الطالع من حنجرته يعد الشيطان كما يهتزّ جرس إنذار في صحن الكنيسة غاضباً فتتزلزل الأعمدة لغضبه وتنهار القبّة.

كان يجب رؤية هذين المخلوقين الغريبين الاستثنائيّين، الأوّل روحٌ خالصٌ، والثاني جسدٌ إلهيّ في ماديّته. يجب رؤية الروح والجسد يتصارعان، ذاك الروح النقيّ الأثيريّ وهو يزحف عاجزاً موهناً أمام العجرفة المتعالية للمادّة الخام الرعناء.

وُجِدَ مسخا الخليقة هذان ليَكرَه واحدهما الآخر ويتصارعا. كانت حرباً طاحنة حتّى يبيد أحدهما الآخر، حرباً فظيعة... وعليها أن تنتهي بينهما كما لدى البشر... بالشكّ والضجر.

كانا عنصرين متنافرين يتصارعان مواجهة. الروح يسقط منهكاً متداعياً أمام صبر الجسد.

وما أعظم هذين الكائنين وما أسماهما! لو اجتمعا معاً لانبثق منهما إله، روح الشر وقوّة القدرة! ما أرهبه هذا الصراع وما أشدّ جبروته بصرخاته الجهنّميّة .وضحكاته المسعورة. ارتجف البناء المتهدّم تحت أقدامهما وتموّجت الحجارة كما لو أنّها في حلم!

وأخيراً، وبعد أن قفز الشيطان مراراً على الأرض خرّ عليها لاهثاً متعباً، كامد النظرات متصبّباً بعرَقٍ جليديّ، مكسور المخالب. وبعد

أن تأمّله آرتور طويلاً في غضبه وتعبه، ورآه زاحفاً بحزنٍ عند قدَمَيه؛ بعدما استمع طويلاً إلى الحشرجة الخارجة من صدره وأحصى شهقات الاحتضار التي لم يستطع تمالكها والتي كانت تمزّق صدره...؛ أخيراً وبعد أن صحا الشيطان من هزيمته المتوحّشة، رفع رأسه الخفيض نحو هازمه فاصطدم بنظرته الباردة، نظرة هازئة مستخفّة لمخلوق آليّ لا إحساس لديه.

قال له آرتور:

- أنت أيضاً تركت نفسك تُهزَم وكأنّك إنسان... وبِدافع الكبرياء أيضاً! أتظنّ الآن أنّني أتكلّم صواباً؟

قال الشيطان:

- ربّما لست من البشر، لكنّ لديك روحاً...

- حسناً أيّها الشيطان، سأذهب غداً إلى الجرف.

وفي اليوم التالي، عندما كان الناطور يقوم بجولته في الأروقة، وجد مربّعات البلاط منزوعة ومخرومة كلّها في غير مكان وكأنّها بمخلب حديديّ. جُنّ الرجل الطيّب لهذا المنظر.

9

كانت جوليتا تنتظر الدوق، تنتظره ليلَ نهارَ باكية مهرولة على الصخور. تنتظره منذ أربع سنوات.

فالسنون تمرّ سراعاً في القصص وفي الفكر. وتنطوي سراعاً في الذكرى لكنّها بطيئة متلكّئة حين تُعاش على الرجاء.

نهاراً، كانت جوليتا تجول الشاطئ مستمعةً إلى هدير البحر ملتفتةً

إلى الجهات كلّها عساه يأتي. وعندما تتشرّب الصخور حرارة الشمس، عندئذ تنهار منهكة تعِبة، وتغفو على الرمل، ثمّ تنهض وتذهب لقطف الثمار وجلْب الخبز الذي كان المحسِنون يضعونه في نخاريب الصخور...

وليلاً، كانت تطوف الجروف هائمةً بثيابها الطويلة البيضاء وشعرها المشعّث وصرخاتها الأليمة. وتبقى جالسة لساعاتٍ طِوالٍ على صخرةٍ مسننة متأمّلةً في ضوء القمر الأمواج تتكسّر على الشاطئ الرمليّ وترغي مزبدةً بيضاء بين الصخور والحصى.

كان العابرون يقولون:

- جُنَّتِ المسكينة! وهي لا تزال في أوج شبابها وجمالها! بلغت العشرين للتوّ... وما من أمل في شفائها!... لكنّ الذَّنْب ذنبها أيضاً، لقد جُنّت حبّاً، وقعت في هوى أمير. إنّها الكبرياء التي أهلكتها، سلّمت نفسها للشيطان.

نعم، إنّها مجنونة فعلاً، لأنّها تحبّ الدوق آرتور، مجنونة لأنّها لم تئد حبّها في مهده، ومجنونة تماماً لأنّها لم تنتحر يأساً. بَيْدَ أنّها كانت مؤمنة بالله ولم تقتل نفسها.

صحيح أنّها كانت في أغلب الأحيان تتأمّل البحر، والجرف البالغ ارتفاعه مئة قدم، وهي تبتسم في سرّها ابتسامة تلقي الذعر في قلوب الأطفال. ذهب عقلها تماماً وما يزيد الأمر خطورة أنّها تتشبّث بفكرة الإيمان بالله وتهابه، تتألّم من أجل فرحه، وتبكي من أجل مسرّاته. لكنّ الإيمان بالله يا جوليتا هوَ مصدر السعادة. أنت تؤمنين بالله لكنّك تتعذّبين! أيُعقل هذا! أنت حقّاً مجنونة!

هذا ما كان يتندّر به الناس.

لكنّ اليأس أعقبه الإحباط والصرخات المجنونة أغرقتها الدموع.

اختفى البريق في صوتها وغارت تنهّداتها عميقة في صدرها. أخذت تتمتم أصواتاً خفيضة تتداركها شفتاها لئلا تموت إن هيَ صرخت بها.

اشتعل رأسها شيباً فالشقاء يُعجّل في الكبر. الشقاء كالزمن، يجري بسرعة لكنّ حمله ثقيل وضربته قاضية. تلزم اليأسَ دموعٌ قليلة لُيوهنَ امْرَأً؛ دموعٌ أقلّ بكثيرٍ ممّا تقتضيه العاصفة من زخّاتِ مطرٍ لتحفرَ حجرَ ضريح.

ابيضّ شعرها، وتمزّقت ملابسها، وبات أسفل قدميها قاسِياً لكثرة ما مشت حافية وجرّحتها نباتات العوسج والأشواك. وتشقّقت يداها منَ البرد وهواء المحيط اللّاذع الذي يُجفّف الجلد ويحرقه مثل ريح الشمال الجليديّة. باتت شاحبة، هزيلة، مجوّفة العينين كامدتها وإن كانتا لا تزالان تلتمعان ببريق حبٌّ تُحييه شرارة من جهنّم. كان فمها منفرجاً متشنّجاً من دون إرادتها. لكنّ الشمس لوّحت بشرتها بلونٍ ذهبيّ، وظلّت نظرتها الغريبة غاوية جذّابة. ما برحت تملك هذه الروح السامية الشغوفة التي اختارها الشيطان لكي يغوي المادّة الراقدة، الجسد الخالي منَ الحواسّ، البدن الذي لا تحرّكه شهوة.

كانت ما إن ترى رجلاً حتّى تهرع إليه مرتمية عند قدمَيه وتدعوه آرتور ثمّ تعود من لهفتها حزينة، يائسة وهي تقول: «لا ليس هو! إنّه لا يرغب في لقائي!».

فيقولون: «يا للمجنونة المسكينة! إنّها تستحقّ الشفقة! هي في أوج شبابها وجمالها، بلغت العشرين للتوّ... وليس هناك من أمل في شفائها!

وذات ليلة جميلة مضيئة مشعّة بالنجوم، والسماء لازوردية، وكلّ شيء هادئ كالبحر الذي كان ساكناً رقراقاً يرتطم بخفّة بصخور الجرف.

كانت جوليتا هناك، حالمة ووحيدة على الدوام، ثمّ فجأة، لا أعرف

إذا كان الأمر حلماً، ظهر آرتور لها.

آرتور! أجل! لكنّه لا يزال على برودته وهدوئه.

قالت له جولييتا بصوتٍ مرتعش:

- أنتظرك على الموعد...أنتظرك منذ وقتٍ طويل. اجلس بالقرب منّي على هذه الصخرة يا عزيزي آرتور. اجلس لو سمحت! أرأيت القمر جميل والنجوم تلمع والبحر هادئ فما الذي تحتاجه أكثر؟. ما أجمل الجوّ هنا يا آرتور... آه! اجلس لنتحدّث.

تمدّد آرتور قربها.

قال لها:

- ماذا تريدين منّي يا جولييتا؟ لماذا أنت أشدّ حزناً منَ النساء الأخريات؟ لمَ طلبتِ منّي المجيء إلى هنا؟

- وتسأل؟... لأنّي... لأنّي أحبّك يا آرتور!

- ماذا تقصدين؟

- أيّ سؤالٍ هذا؟ عندما أنظر إليك بهذه الابتسامة -وأحاطت بذراعها خصره-، عندما تشعر بأنفاسي، عندما يلامس شعري فمك، قل لي ألا تشعر بشيء يخفق في صدرك ويختلج؟

- لا! لا أشعر بشيء! أنت امرأة ولديك روح. أتفهّم الأمر. لكنْ أنا ليس لديّ. ثمّ نظر إليها بفخرٍ قائلاً: وما هيَ الروح يا جولييتا؟

- وما أدراني؟... أعرف أنّني أُحبّك! آه لو تدري ما هو الحبّ يا آرتور! انظر إلى شَعري كيف ابيضّ حبّاً؟ انظر إلى شَعري.

نظرت إليه مليّاً ثمّ مرّغت رأسها في صدره وراحت تمطره بقبلاتها ولمساتها. أمّا هو فبَقِيَ دوماً ساكناً رغم العناق، وبارداً رغم القُبَل.

حسْبُكم أن تروا هذه المرأة واحتدام غلوائها، أن تروا كيف تفيض

شغفاً وحبّاً وشاعريّة، وكم تتوق لتُحيي بنارها المضطرمة الحميمة جسدَ آرتور الغارقَ في سباته. لكنّه بقي عديم الإحساس أمام هاتين الشفتين الحارقتين وهاتين الذراعين المتشنّجتين كما حين تتحسّس العظاءةُ البهيمةَ. كانت جولييتا تتوثّب حبّاً، كما توثّب الشيطان غضباً وسخطاً.

وأمضت ساعاتٍ طوالاً ملتصقة بخدّي آرتور الذي كان ينظر إلى السماء اللّازورديّة، مسترسلاً على الأرجح في أحلام علويّة مفعمة بالحبّ، دون أن يخطر بباله ولو للحظة أنّه كان يعانق هناك بين ذراعيه كنهاً سماويّاً، حبّاً استثنائيّاً لامرأة تذيبها ناره وتسكرها بنشواته.

جولييتا! وتركها منهكة. ثمّ قامت بجهدٍ أخير... هروَلت نحو الصخور الشاهقة، وبقفزة واحدة ارتمت في البحر. ساد صمت لثوانٍ قليلة ثمّ سمع آرتور صوت ارتطام جسمٍ ثقيل في الماء. كان الليل جميلاً، ساكناً، لازورديّاً رقراقاً ساكناً كالبحر الذي كانت أمواجه تخبو واهنة عند الشاطئ.

كانت الأمواج تعلو ثمّ تهبط جارفةً معها إلى الشاطئ أصدافاً وطحالب وحطام سفن.

وعلت موجة متمدّدة في البعيد ثمّ ارتدّت حاملةً في جوفها شيئاً ضخماً ثقيلاً.

كانت جثّة امرأة.

- والآن ما رأيك؟

قال آرتور وهو ينظر إلى الشيطان.

وعندما رأى الشيطان أنّ جبين آرتور ظلّ على شحوبه وهدوئه وأنّ عينيه لم تدمعا، قال له:

- أنت بِلا روح. هذا أكيد! هذا أكيد!

ثمّ تابع وهوَ ينظر إليه بحسدٍ:
- لكنّ تلك الروح سأمتلكها.
وأغرز قائمته المعقوفة في صدر الجثّة.

9

ومرّت عدّة قرون.

كانت الأرض ترقد في سباتٍ عميق. لا يرين على اليابسة إلّا السكون، ولا يُسمع إلّا هدير أمواج المحيط تتكسّر مزبدة، ثمّ تعلو في الهواء مسعورةً مدوّمةً فيهتزّ الشاطئ لارتجاجها وكأنّه في قبضة عملاق. وكان مطر ناعم وكثيف يُقتّم نور القمر المريب، فيما الريح تهصر أشجار الغابة، والسموات تنثني لهبوبها كما يلتوي قصب البحيرة أمام النسيم.

كان الفضاء يضجّ بِرَغدِ أصواتٍ غريبٍ تمتزج فيه الدموع بالشّهقات وكأنّ عالماً بأكمله يردّد حشرجة احتضاره.

وتصاعد صوت من الأرض قائلاً:

- كفى! كفى! حسبي ما قاسيتُ من عذابٍ لا يحدّ ومن تذلّل! كفاكَ! أتوسّل إليك! لا تخلق عالماً آخر!

وعندئذٍ انحدر صوت من السماء إلى الأرض عذباً صافياً رخيماً كصوت الملائكة يقول:

- قطعاً لا! لن يكون هناك عالم آخر، منَ الآن وإلى أبد الآبدين.

....

....

21 آذار/ مارس 1837

كلّ ما تشاؤون[1]

دراسات نفسانيّة

أيلول/سبتمبر 1837

غوستاف فلوبير

1

تعالي إليّ يا ذكرياتِ أَرَقِي، تعالي إليّ يا أحلامي، أحلامَ مجنونٍ تعسٍ. تعالوا إليّ، تعالوا إليّ جميعاً يا أصدقائي العفاريت الطيّبين، أنتم يا من تقفزون ليلاً على قدمَيّ، وتَرْتَقُون نوافذي، وتدبّون على سقفي. أنتم بألوانكم المتبدّلة من البنفسجيّ إلى الأخضر والأصفر والأسود والأبيض، وبأجنحتكم الضخمة ولحاكم الطويلة، يا من تهزّون جدران غرفتي، وحدائد بابي العتيقة، وبشفاهكم المخضرّة تنفخون على مصباحي فيخبو نوره من أنفاسكم.

غالباً ما رأيتكم في ليالي الشتاء المكفهّرة تسيرون الهوينى متدثّرين بمعاطفكم البنيّة المتنافرة قطعاً مع ثلج السطوح، بجماجمكم الصغيرة العظميّة كجماجم الموتى، ثمّ تتسلّلون جميعاً من ثقب القفل إلى غرفتي، وكلّ منكم يذهب ليدفئ أظفاره الطويلة أمام المدفأة التي لا يزال فيها بقيّة من جمر.

(1) وضع العنوان باللّاتينيّة: Quidquid volueris.

تعالوا جميعاً يا أبناء مخيّلتي، امنحوني الآن بعضاً من ألوان جنونكم، ومن ضحكاتكم الغريبة فتوفّروا عليّ الاستهلال بمقدّمةٍ اقتداءً بالمعاصرين، أو الابتهال إلى ربّة الإلهام على غرار الأقدمين.

2

ذات ليلة من ليالي الصيف الجميلة، قالت السيّدة دو لانساك لابن أخيها بول:

– أخبرْنا يا عزيزي عن رحلتك إلى البرازيل. فهكذا تسلّي آديل.

كانت آديل الفتاة الجميلة الشقراء تتهادى متأبّطة ذراعه في ممرّات الحديقة المكسوّة بالرمل.

فأجاب السيّد بول:

– قمْتُ يا عمّتي برحلة رائعة، صدّقيني.

– سبق أن قلت لي ذلك.

– صحيح، تذكرْتُ.

وصَمَتَ.

دام صمتُ المتنزّهين طويلاً. وسار كلّ واحدٍ منهم بجوار مرافقه شارد الذّهن. منهم من انتزع بتلات وردة، أو قلّب رمل الممرّات بقدميه، أو نظر إلى القمر الذي بدا صافياً هادئاً عبر فرجة في أغصان شجرات الدردار الكبيرة.

القمر مرّةً أُخرى! لا بدّ للقمر أن يلعب دوراً مهمّاً فهو شرط لازم الوجود لكلّ قصة مشؤومة تماماً مثل اصطكاك الأسنان والشعورِ المشرئبة. على كلّ حالٍ كانت تلك ليلةً مقمرة.

ثمّ لماذا تريدون أن تحرموني من قمري المسكين؟ آه يا قمري، كم أحبّك. حين تلتمع بروعة على سطح القصر المنحدر، وتصيّر البحيرة صفحة من لُجين. وفي ضوئك الشاحب، كلّ نقطة مطر، أقول، كلّ قطرة ماء على وريقة الورد تبدو كاللؤلؤ على صدر امرأة جميل. ربّما كان هذا الوصف من الزمن الغابر. لكن لننسَ ذلك ونعدْ إلى موضوع حديثنا كما يقول بانورج[1].

انثنى خصر الفتاة الطويلة القامة لدناً رائعاً على ذراع قريبها. كان ثمّة شيء في هدوئها المتكاسل، وفي تهاونها الحالم الناعس الهادِل، وفي أسنانها الجميلة البيضاء التي لا تبين إلّا لتبتسم، وفي خصلات شعرها المنسدلة كثيفةً حول وجهها المليح الشاحب... ثمة عطر حبّ ينبعث من هذا كلّه ويلقي في النفس إحساساً لذيذاً.

لم يكن جمالها ملتهباً كجمال فتيات الجنوب ذوات النظرات الحارقة كالبركان والشهوات المحتدمة. لم تكن عيناها سوداوين ولا بشرتها مخمليّة كبشرة الأندلسيّات. كان جمالها أثيريّاً روحانيّاً أشبه ما يكون بجمال تلك الساحرات الاسكندنافيات اللّواتي أعناقهنّ كالمرمر الأبيض يعبرن بخفّة على ثلج الجبال، ويتراءين على حافة شلّالٍ للشاعرِ الذي يتغنّى بأناشيد الحبّ ذاتَ ليلة جميلة مرصّعة بالنجوم.

كانت عيناها زرقاوين، ونظرتها نديّة، وبشرتها شاحبة. كانت من تلك الفتيات الواهنات اللواتي يعانين من آلام المعدة منذ ولادتهنّ، ويشربن الماء، ويعزِفْن كيفما اتّفق على البيانو موسيقى لِسْت[2]، ويهوين الشعر، والأحلام الحزينة، والصبوات الكئيبة.

(1) بانورج Panurge (سبق ذكره): من شخصيات رابليه الذي استخدم التعبير نفسه لِيَعودَ إلى حديثه عن زواجه المقبل بعدما تشعّب الحديث إلى سرد طرائف متنوّعة.

(2) لِسْت Lizt: فرانز لِسْت (1811–1886) مؤلّف موسيقيّ وعازف بيانو من أصل مجريّ.

كانت تحبّ... لكن من يا تُرى؟... تحبّ بجعاتها المنسابة على صفحة البحيرة، وقرودَها التي تقرقش الجوز حين تمرّره لها يدُها الجميلة البيضاء عبر قضبان الأقفاص، وعصافيرَها، وسنجابَها، وأزهارَ الحديقة، وكتبَها المجلدّة بأغلفة ذهبيّة جميلة، وأيضاً... قريبَها، صديقَ طفولتِها السيّد بول الذي كان طويل القامة، قويّ البنيّة، ويُرخي سالفَيه الكثيفَين السوداوَين. كان يُفترض به أن يتزوّجها في غضون خمسة عشر يوماً.

كونوا على ثقة بأنّها ستكون سعيدة مع زوجٍ مثله فهو رجل عاقل بامتياز؛ وإنّي لأتفهّمّ هذه الفئة من الناس التي تَضمّ في عدادها من لا يحبّون الشعر البتّة ويملكون معدة سليمة وقلباً غليظاً، وتلك مزايا ضروريّة ليجني المرء ثروة ويضمن عيشه حتّى سنّ المئة. الرجل الفطن هو الذي يعرف كيف يعيش دون استدانة، ويتذوّق الخمرة الجيّدة، ويستفيد من حبّ امرأة وكأنّه ثوب يتدثّر به لبعض الوقت ثمّ يرميه مع أسمال المشاعر القديمة التي بطلت موضتها.

وإذا سألته عن الحبّ أجاب: الحبّ؟ إنّه مجرّد بلاهة يمكن الانتفاع بها.

والحنان؟

– إنّه حماقة، حسبما يقول علماء الجبر، ولا أملك ذرّة منه.

والشعر؟

– معاذ الله! أيّ قيمةٍ له؟

وعن الدين؟ والوطن؟ والفنّ؟

– تلك ترّهات لا طائل منها.

أمّا الروح فقد أثبت لنا كابانيس[1] وبيشا[2] منذ زمن بعيد أنّ الشرايين هي التي تغذّي القلب، ولا شيء أكثر.

ذاك هوَ الرجل الحكيم، الجدير بالاحترام والتكريم، يقوم بنوبة الحراسة، ويلبس على غرار الجميع، ويتكلّم في الأخلاق ومحبّة البشر ويقترع تأييداً لسكك الحديد، وإلغاء ملاهي القمار. ويملك، قصراً، وزوجة، وابناً معدّاً ليكون في المستقبل كاتباً عدلاً، وابنة ستقترن بعالم كيمياء. وإذا التقيتم به في دار الأوبرا رأيتموه يرتدي نظّارات ذهبيّة الإطار ولباساً أسود، ويحمل عصا، ويمصّ أقراصاً بالنعنع ليطرد رائحة السيجار لأنّ الغليون يروّعه، كما أنّ هذا مخالف للياقة.

لم يكن لدى بول زوجة لكنّه على وشك الاقتران بواحدة، وإن لم يكن يحبّها، فهذا الزواج سيضاعف ثروته، وقد استطاع بعمليّة حسابيّة بسيطة أن يتحقّق من أنّ إيراداته ستزيد بنسبة ٥٠ ألف ليرة سنويّاً.

في المدرسة، كان بارعاً في الرياضيّات.

أمّا الأدب فكان يجده تافهاً على الدوام.

دامت النزهة طويلاً، وسط الصمت وتأمّل الظلام الأزرق الجميل يغمر الأشجار والغابة الصغيرة والبحيرة بضباب لازورديّ تخترقه أشعّة القمر وكأنّه غلالة شفّافة.

لم يعودوا إلى الدار إلّا حوالى الساعة الحادية عشرة. كانت الشموع

---

(1) بيار جان جورج كابانيس Pierre Jean Georges Cabanis (1757–1808)، طبيب وعالم فيزيولوجي وفيلسوف فرنسي، معروف خصوصاً بأبحاثه في تاريخ الطبّ وفي العلاقة بين جانبَي الإنسان، الفيزيائيّ والمعنويّ.

(2) ماري فرانسوا بيشا Marie François Bichat (1771–1802) طبيب وعالم أحياء وفيزيولوجي فرنسي مؤلف «أبحاث فيزيولوجيّة عن الحياة والموت» *Recherches physiologiques sur la vie et la mort*.

تزفر، وبعض الوردات سقطت من الحوض الأكاجو[1] على الأرضيّة الملمّعة منثورة الوريقات مسحوقة تحت الأقدام.

- وما همّ فهناك الكثير غيرها.

شعرت آدَيل بأن حذاءها الساتان ترطّب منَ الندى. شعرت بألمٍ في رأسها فاستلقت على الديوان وذراعها تتدلّى أرضاً.

ذهبت السيدة دو لانساك لِتعطي بعض الأوامر تحسّباً ليوم الغد وكذلك بإغلاق جميع الأبواب وسدّها بالأقفال. ولم يبق في الدار إلّا بول وجاليو. كان الأوّل ينظر إلى الشماعد المذهبّة، وساعة الحائط البرونزيّة التي كان صوتها الرنّان يشير إلى منتصف اللّيل، والبيانو «باب»[2]، واللوحات، والكنبات، وطاولة الرخام الأبيض، والديوان المنجّد، ثمّ يتّجه إلى النافذة وينظر إلى الأيكة الجميلة في الحديقة: غداً عند الساعة الرابعة، سيكون هناك أرانب.

أمّا جاليو فكان ينظر إلى الصبيّة النائمة. أراد أن يهمس لها بكلمة، لكنّ كلمته لُفِظَتْ في غاية الخفوت والوجل. حتّى لكأنّها تنهيدة.

سواء كانت كلمة أم تنهيدة، قلّما يهمّ، إلّا أنّها كانت تحمل في طيّاتها روحاً بأسرها.

3

وبالفعل، في اليوم التالي، مع شروق الشمس، انطلق صيّادنا وبرفقته

---

(1) أكاجو: نوع من الخشب الناعم الفاخر.

(2) باب Pape: نسبة إلى جان هنري باب Jean-Henri Pape (1787–1875)، من حرفيّي آلة البيانو الماهرين، أسّس مشغلاً خاصّاً به بعدما كان مديراً في بلاييل Pleyel، أقدم وأعرق شركات صناعة البيانو في فرنسا.

كلبته السلوقيّة الضخمة الأثيرة، وقد اصطحب أيضاً كلبيه الزئنيّين المعوّجين[1] والمرافق الشخصيّ الذي كان يحمل البارود في كيس واسع، والرصاصات، وجميع أدوات الصيد، وعصيدة من لحم البطّ أوصى عليها خطيبنا منذ يومين. وعلى أوامره نفخ قائد الكلاب في بوقه، وتقدّم الموكب بخطى سريعة نحو السهل.

عندئذٍ فُتحَتْ نافذة خضراء في الطابق الثاني، وظهرت منها امرأة شقراء طويلة الشعر ومن حولها الياسمين المعرّش على طول الحائط وأغصانه المورّقة تفترش قراميد القصر الحمراء والبيضاء.

كانت في قميص النوم، أو على الأقلّ هذا ما افترضتموه لدى رؤيتكم شعرها المهمل، واتّكاءتها المتهاونة، وانفراج فتحة قميصها المزدان بالموسلين المكشوف حتّى الكتفين، وأكمامه القصيرة. كانت ذراعها بيضاء مستديرة مكتنزة ولكنّها انخدشت قليلاً، لسوء الحظّ، بالجدار عندما فتحَتِ النافذة بسرعة لِتَرى بول قبل رحيله. أشارت إليه بيدها وأرسلت له قبلة.

التفت بول إليها. وبعد أن نظر مليّاً إلى هذا الوجه الطفولي النضر النقيّ وسط الأزهار؛ بعد أن فكّر أنّ كلّ هذا سيكون مِلْكَهُ عمّا قريبٍ، أي الأزهار والصَبِيَّة والحبّ... قال في نفسه...لا بأس إنّها لطيفة.

وعندئذٍ أغلقت يد بيضاء مصاريع النافذة. دقّت الساعة الرابعة، أخذ الديك يصيح، واخترق شعاعُ الأجمةَ رامياً بسهمه أردواز السطح.

عاد كلّ شيء ساكِناً هادئاً.

دقّت الساعة العاشرة، ولمّا يعد السيّد بول.

قُرِعَ جرس الغذاء، وجلسوا أمام الطاولة.

---

(1) زئنيّ مُعْوَجّ: كلب صيد قصير القوائم معوجّها.

كانت القاعة عالية فسيحة مفروشة بأثاثٍ على طراز لويس الخامس عشر. تعلو المدفأة لوحة كساها الغبار وحجب نصفَها تمثّل مشهداً ريفيّاً حيث تُرى راعِيَة نثرَتِ الذرورَ والشاماتِ على خدّيها، وتحمل السلال وسط خرافها البيضاء وملاك الحبّ يحلّق فوقها فيما كان كلب جميل من نوع الكرلان[1] ممدّداً عند قدميها فوق سجّادة موشاة بباقة وردٍ معقودة بشريطٍ ذهبيّ. ومن الإفريز يتدلّى شريط منظوم من بيض الحمام ملوّناً بالأبيض ومنقّطاً بالأخضر. كانت الجدران مطليّةً بلونٍ أبيض شاحب كامد، وتزيّنها في غير مكان صورٌ عائليّة أو لوحات زاهية الألوان تمثّل مناظر من النروج أو روسيا: جبال من الثلج، أو مشاهد حصاد أو قطاف. وعلى مسافة أبعد، رسوم مؤطّرة بالأسود. هنا بورتريه بالكامل لأحد الرؤساء في البرلمان مرتدياً فروته البيضاء وشعره المستعار بخصلاته الثلاث الملتفّة، وهنالك فارس ألمانيّ يدور بفرسه ويبدو ذيلها الطويل الكثيف منثنياً متموّجاً في الهواء مثل حلقات أفعى. وأخيراً بضع لوحاتٍ من المدرسة الفلامنكيّة تمثّل حاناتٍ مفعمة بالبهجة وبدخان التبغ تزيّنها وجوه متعافية منتفخة من البيرة، وصدور عارمة مكشوفة وضحكات عريضة ترتسم على شفاهٍ مكتنزة. ثمة لمسة حسيّة جليّة تسود هذه الرّسوم، من الطفل الذي يغطس شعر رأسه الأجعد في قدرٍ منَ النبيذ إلى العذراء مريم باستداراتها الممتلئة جالسة في مشكاتها المسودّة التي سوّدها الدخان.

ومن النوافذ العالية الرحبة ينفذ نور متوثّب إلى القاعة التي، بالرغم من قِدَمِ مفروشاتها، لم تكن تفتقر إلى مسحةٍ منَ النضارة، لا سيّما النافورتان الرخاميّتان على جانبَي القاعة، والبلاط الأسود والأبيض

---

(1) كرلان: كلب أفطس الأنف قصير الوبر.

الذي يفترش أرضيّتها. لكنّ قطعة الأثاث الرئيسة، تلك التي تبعث على التفكير والإحساس، كانت كنبة هائلة في غاية القدم، والنعومة، واللّدانة، مزيّنة بالأخضر والأصفر الفاقعَين، وبطيور الفردوس، وباقات الزهر، والكل منثور ببذخ على خلفيّة من الساتان الأبيض الناعم. لا بدّ أنّ سيّدة القصر كانت تجلس هناك مراراً على الوسائد الزاهية من الساتان، بعد أن ينظّف الخدّام الطاولة بعد العشاء. لا بدّ أن المرأة التعسة كانت تنتظر هناك سيّدها الفارس الذي آثر المجيء دون أن يزعج أحداً وتناول شراباً منعشاً، لأنّه صادف أن كان عطِشاً. وكم من مركيزة جميلة، وكم من كونتيسة هيفاء، متورّدة الخدين، ناعمة اليدين، تمدّدت في صدريّتها الضيّقة وتنّورتها التحتيّة القصيرة، استمعن إلى كلماتٍ عذبة همس لهنّ بها أكثر من رئيس ديرٍ لطيف وفيلسوف وملحد إبّان حديث عن الحواس ومتطلّبات النفس. نعم، على تلك الكنبة بالذات أطلقت تأوّهات خافتة، وذُرِفَتْ دموعٌ، واختُلِسَتْ قبلات.

....

وكلّ ذلك ولّى، المركيزات، ورؤساء الأديرة، والفرسان. كلّ شيء: كلمات النبلاء، والقبلات، والصبوات، وانثيالات الحنان، وإغواءات النبالة الأنيقة المدّعية... كلّه تلاشى وسقط وانطوى. أمّا الكنبة فظلّت في مكانها راسخة على قوائمها الأربع المصنوعة من الأكاجو، لكنّ خشبها نخره السوس، وزخارفها الذهبيّة كمد لونها، وخيوطها وهنت.

كان جاليو جالساً بالقرب من آديل التي أرخت شفتيها استياءً واحمرّ خدّاها. أرجعت كرسيّها ثمّ سارعت إلى صبّ الخمر. وفي الواقع لم يكن لدى جارها ذرّة من الظرف؛ شهر مضى على مرافقته للسيّد بول في القصر ولم ينبس بكلمة. خالَه البعضُ غريبَ الأطوار، وبدا للبعض الآخر كئيباً

وغبيّاً ومجنوناً، فيما افترض الأكثر ترويّاً أنّه أخرس.

كانوا ينظرون إليه لدى السيّدة دو لانساك على أنّه صديق بول. لكنّه، والحقّ يُقال، صديقٌ غريب، هكذا فكّر كلّ من رآه.

كان قصير القامة، ونحيلاً أعجف. فقط يداه كانتا تشِيان ببعض القوّة في شخصه بأصابعهما القصيرة المفلطحة، وأظافرهما الغليظة شبه المعقوفة. أمّا باقي جسده الكامد السقيم فَغارقٌ في الهزال والضمور، ويجعل الناظر إليه يرثي لحاله فهو يبدو، على الرغم من يفاعة سنّه، وكأنّه وُلِدَ من أجل الموت أشبه ما يكون بتلك الأشجار التي تعيش منقصفةً جرداء.

كان لباسه الأسود بالكامل يزيد في إبراز لون سحنته الداكنة المائلة إلى الأصفر النحاسيّ. كانت شفتاه غليظتين وتكشفان عن أسنان طويلة بيضاء كأسنان القرود، أو الزنوج.

أمّا رأسه فكان من الأمام ضئيلاً وضيّقاً، لكنّه من الخلف متنامٍ بشكلٍ مدهش. وهذا يمكن ملاحظته دون مشقّة بسبب شعره الخفيفَ الذي يكشف عن جمجمته العارية المجعّدة.

كان ينبعث من هيئته توحّش بهيميّ غريب يجعله أقرب إلى حيوانٍ خرافيّ منه إلى كائنٍ بشريّ.

كانت عيناه مستديرتين، واسعتين، وسوادهما منفّر. حين يخفض هذا الرجل نظراته الثقيلة كالرصاص نحوك تشعر وكأنّك تحت وطأة انجذاب غريب. ومع ذلك لم تكن ملامحه تتّسم بقسوة أو توحّش بل كان يبتسم لكلّ النظرات، لكنّها ابتسامة بلهاء وباردة.

وإذا فتح قميصه الملتصق ببشرته السميكة الداكنة رأيتم صدراً عريضاً مشعراً كصدر لاعبي القوى يوحي بقوّة رئتيه وعافيتهما.

ولَكَمْ كان قلبه واسعاً أيضاً وهائلاً، ولكنّه واسع كالبحر، وهائل فارغ كالوحدة.

وغالباً، أمام الغابات والجبال العالية والمحيط، كانت أسارير وجهه تنفرج فجأة فيزول تغضّن جبينه، ويتّسع منخراه على مداهما، وتتمدّد كلّ روحه أمام هذه الطبيعة كوردة تتفتّح في الشمس، وترتجف أوصاله كلّها مغتلماً بشهوة حميمة، ثمّ يُطرِق رأسه بين يديه، مستغرقاً في كآبة خدرة. عندئذٍ يحلو لي أن أقول إنّ روحه كانت تلتمع عبر جسده كعينَي امرأة جميلتين خلف برقعها الأسود.

ذلك أنّ سعادة وحماسة غريبتين تسريان في هذه الهيئة الشنيعة، وهذه السحنة الشاحبة السقيمة، وهذه الجمجمة الضئيلة، وهذه الأطراف الكسحاء... وتتّقد هاتان العينان الماكرتان، عينا القرد، بنار الشِّعْرِ الخفيّة فيبدو لوهلةٍ وكأنّ روحه أصيبت بصعقةٍ كهربائيّة عنيفة.

لا بدّ أنّ الشغف لديه كان سُعاراً، والحبّ ثورة وهيجاناً. كانت ألياف قلبه أرقّ وأشدّ واختلاجاً من قلوب الآخرين. إذ يتحوّل الألم إلى اختلاجات متشنّجة، والمُتَع إلى شهوات غير مسبوقة.

كان في ريعان شبابه. كان في السابعة عشرة من عمره، ولكنّه بدا وكأنّه بلغ الستّين، أو المئة، أو قروناً بأكملها، بدا عجوزاً ومنكسراً ومهلهلاً لفرطِ ما كانت تنتهبه رياح القلب وعواصف النفس.

سلوا المحيط كم يحمل من التجاعيد على صفحته، سلوا العاصفة كم تتقاذف من الأمواج.

عَمَرَ جاليو وعاش زماناً طويلاً، لكن ليس بالفكر. لم تشغل التأمّلات في معنى العالم، أو الأحلام، لحظة واحدة في حياته كلّها. لكنّه عاش ونما بالروح، وكان عجوزاً في قلبه.

لم تكن عواطفه تتوجّه لأحدٍ بل كانت تتخبّط في داخله فوضى المشاعر الأكثر غرابة. حلّ الشِعْرُ محلّ المنطق، واحتلّت الأهواء مكان العلم. أحياناً كان يبدو له أنّه يسمع أصواتاً تكلّمه من خلف شجرة وردٍ، وألحاناً منحدرة من السموات. كانت الطبيعة تمتلكه عبر كلّ هذه القوى، عبر ملذّات النفس، والأهواء الحارقة، والشهوات النهمَة.

كان جملة ضعفٍ أخلاقيّ وجسديّ خطير، ونزقٍ يستبدّ بالقلب، لكنّه قلبٌ هشّ، لذا ينكسر فورانه من تلقاء ذاته أمام أيّ عائقٍ كالصاعقة الهوجاء تدحر القصور، وتحرق التيجان، وتحطّم الأكواخ، ثمّ تتلاشى في بركة ماء.

ها هوَ مسخ الطبيعة إذا يُعاشر السيّد بول ذاك المسخ الآخر أو بالأحرى رائعة هذه الحضارة التي تحمل جميع رموزها، أي حدّة الذكاء وجفاف القلب. على قدر ما كان بول يهوى المجاهرة بإظهار مشاعر النفس- وأحاديث القلب العذبة- كان جاليو يهوى أحلام الليل ورؤى أفكاره.

وكانت روحه تتعلّق بكلّ ما هوَ جميلٌ وسامٍ كما يتشبّث اللبلاب بالأنقاض، والزهر بالربيع، والقبر بالجثّة، والشقاءُ بالإنسان حين يُمسكُ به ويفني بفنائه.

حيث ينتهي الذكاء، يرسّخ القلب سلطانه. كان قلبه رحباً لا متناهياً، لأنّه كان يفهم العالم عبر حبّه. كان يحبّ آديل، ولكن كما يحبّ الطبيعة كلّها، بتناغم عذبٍ كونيّ، وشيئاً فشيئاً كلّما كان هذا الحبّ يتزايد تضاءل عطفه على الكائنات الأخرى.

وفي النهاية، نولد جميعاً وفي داخلنا قَدْرٌ معيّن من الحنان والحبّ نُسقطه برضىً على أُولى الأشياء التي نصادفها وفي كلّ اتّجاه ومدارٍ، على

الأحصنة، الأمكنة، الأمجاد، العروش، النساء، الشهوات... وماذا بعد؟
لكن إذا جمعنا مقادير الحنان والحبّ هذه فإنّنا نحظى بكنزٍ هائل.

ارموا أطناناً منَ الذهب في الصحراء، لن يلبث الرمل أن يلتهمها. ولكن إذا راكمْتُموها بعضاً فوق بعضٍ تعالَتْ أهراماً.

وهكذا فإنّه سكب خلاصة روحه لاحقاً في فكرة واحدة، ومن هذه الفكرة استمدّ حياته.

4

مرّ الأسبوعان الحاسمان اللّذان يسبقان الزواج على شكل انتظار طويل بالنسبة إلى الصبيّة، وفي عدم مبالاة وبرودة بالنسبة إلى زوجها العتيد.

كانت الفتاة ترى في الزواج زوجاً ومعه معاطف الكشمير، ومقصورة في الأوبرا، وسباقات الخيلِ في غابة بولونيا، والحفلات الراقصة طيلة الشتاء- قدْرَ ما تشاء- وكلّ ما يتراءى لفتاةٍ في الثامنة عشرة من أحلام ذهبيّة في غرفتها المقفلة.

وبخلاف ذلك، كان الزوج يرى في الزّواج امرأة ومعها معاطف كشمير يجب دفع ثمنها- دمية صغيرة يجب إلباسها- وكلّ ما كان يحلم به زوج تعس لدى اصطحابه زوجته إلى الحفلات الراقصة، لا سيّما زوج مزهوّ مختال بنفسه يظنّ جميعَ النساء مغرمات به.

تلك مسألة أخذت تخطر بباله كلّما نظر إلى المرآة مسرّحاً سالفَيه السوداوين بإتقانٍ.

لقد اتّخذ زوجة له لأنّ الوحدة باتت تضجره، ولأنّه لم يعد يريد

عشيقة منذ أن اكتشف أنّ لدى خادِمه واحدة. ثمّ إنّ الزواج سيرغمه على ملازمة البيت وهذا مفيدٌ لصحّته. وسيوفّر له ذريعة تجنّبه الذهاب إلى الصيد، فالصيد يضجره. وأخيراً، وهذه أفضل حجّة، سيلقى نفسه محاطاً بالحبّ والإخلاص والسعادة الزوجيّة والطمأنينة والأولاد... لكنّ الأهمّ من ذلك كلّه، أي من الطمأنينة والسعادة والحبّ، إيراداتٌ سنويّة بقيمة خمسين ألف فرنك، أوراق نقديّة جميلة يودِعها سندات في صندوق إسبانيا[1].

اشترى لدى مروره بباريس هديّة إلى خطيبته بعشرة آلاف فرنك، وأرسل مئة وعشرين بطاقةَ دعوةٍ للحفلة الراقصة، وقفل عائداً إلى قصر حماته. وقد أنجز كلّ ذلك في ثمانية أيّام. إنّه حقّاً رجلٌ مدهِش.

وذات نهار أحدٍ في شهر سبتمبر أقيم حفل الزفاف. في ذلك اليوم كان الطقس رطباً بارداً، وغَمَرَ الوادي ضبابٌ كثيفٌ، فَعَلِقَ رمل الحديقة بأحذية السيّدات الجديدة.

وأقيمت رتبة القدّاس في الساعة العاشرة، وكان الحضور فيها قليلاً. استطاع جاليو الدخول إلى الكنيسة أخيراً بعدما تقاذفه سيل القرويّين المتدفّق على الطرقات.

أُحرِقَ البخور على المذبح وفاح عطره دافئاً زكيّاً في أرجاء الكنيسة القديمة. كانت صغيرة، منخفضة السقف، ومطليّة بدهان أبيض رديء. ويستحقّ حافظها الذكيّ الشكرَ لأنّه جنّب واجهاتها الزجاجيّة الطّلاء. ومن حول المذبح، تحلّق المدعوّون: العُمدة، وأعضاء مجلس البلدية، وأصدقاء، وكاتب عدل، وطبيب، وأيضاً المرتّلون بقمصانهم

(1) إشارة إلى معاملات وقروض ماليّة بين فرنسا وإسبانيا تمّت عام 1833 وأسفرت عن مضاربات ماليّة عديدة.

البيضاء المثنيّة. كان الجميع يرتدون قفّازات بيضاء، واكتست سحناتهم بهيئة مشرقة. وأخرج كلّ منهم خمسة فرنكات من صرّة نقوده ورماها في الصينيّة فسُمع رنينها الفضيّ قاطعاً رتابة التراتيل الكنسيّة. ثمّ قُرِعَ الجرس.

عندئذٍ تذكّر جاليو أنّه سمع الجرس ذات يوم يُقرع في جنازة. ورأى كذلك أناساً يلبسون الأسود وهم يصلّون على جثّة. ثمّ رنا إلى العروس في ثوب زفافها الأبيض منحنيةً فوق المذبح والأزهار تطوّق جبينها، وعلى صدرها المكشوف الأسيل عقدٌ من اللؤلؤ يلتفّ إلى ثلاثة أطواق. وفجأةً جمّدته فكرة راعبة فترنّح واتّكأ إلى مشكاة قديس فارغة إلّا من صورة غريبة تلقي الخوف والذعر في النفوس.

وإلى جوار العروس، كان، هوَ... كان حبيبها هناك... وكانت تمعن النظر فيه بعينيها الزرقاوين اللتين بدوَتا وفوقهما حاجباها الأسودَان العريضان وكأنّهما ألماستان منزّلتان في سَيفَين من أبنوس[1].

كان العريس يرتدي نظّارة مطعّمة بالذهب، وكان يختلس النظر إلى جميع النساء وهوَ يتمايل على كنبته المخمليّة الحمراء.

كان جاليو هناك واقفاً، جامداً وأخرس دون أن يلاحظ أحدٌ شحوب وجهه أو مرارة ابتسامته لأنّهم حسبوه غير مكترث وبارداً كالمسخ الحجريّ المتجهّم فوق رأسه، ومع ذلك فإنّ العاصفة كانت تعتمل في نفسه والغضب يكمن في قلبه كالحمم في براكين إيسلندا التي يغطّي الثلج الأبيض فوهاتها. لم يكن غضبه صريحاً بل انطوى في داخله، دون صراخ أو بكاء ولا شتم أو مشقّة. كان أخرس ونظرته لا تنطق بشيء مثل شفتيه، نظرة ثقيلة كالرصاص في وجهِ أبله.

(1) أبنوس: خشب أسود يؤخذ من شجر الأبنوس.

غالباً ما نرى نساء شابّات حسناوات يحافظن طويلاً على سحنة نضرَة، وبشرة بيضاء ناعمة كالحرير. ثمّ فجأة يصبن باعتلال فيذهب ألَق نظرتهن، ويخبو، لينطفئ في النهاية. وتلك المرأة الظريفة الرشيقة تجول الصالونات فيها الأزهار تزيّن شعرها، وتفوح من بياضِ يديها الباهر رائحة مسكٍ وورد... إلى أن يخبرك طبيب من أحد أصدقائك بأنّها أصيبت تحت تقويرة فستانها بسرطان وأنّها توفّيت من جرّاء ذلك. كانت نضارة جلدها تحجب إذاً شحوب جثّة. تلك هي قصّة جميع الأهواء الحميمة وكلّ تلك الابتسامات المصطنعة.

السخط اللعين مرعبٌ حين يضحك، وعذابٌ يُضاف إلى التحامل على الألم.

لا تأمنوا بعد اليوم لابتسامة أو فرح أو غبطة. بمَ الوثوق إذاً؟

ثقوا بالقبر.

ملاذه لا يُنتهك ونومه لا يُنتهَب.

أيّ هاوية تنشقّ تحت أقدامنا لدى سماع هذه الكلمة: الأبديّة. لنفكّر لحظة في ما تعنيه هذه الكلمات: الحياة، الموت، اليأس، الفرح، السعادة... سلوا أنفسكم غداً يوم تبكون عزيزاً وتنتحبون ليلاً على مضجع الأرق، سلوا أنفسكم ما الهدف من حياتنا ومن موتنا؟ وأيّ لفحة شقاء، أيّ ريح يأسٍ، تقذفنا هكذا، نحن حبّات الرمل، في مهبّ العاصفة؟ من تكون هذه الهِذْرةُ[1] التي ترتوي من دموعنا وتتسلّى بشهقاتنا؟ لِمَ كلّ هذا؟... وعندئذٍ يأخذنا الدوار ونشعر أنّنا منجذبون إلى هاوية لا قرار لها ونسمع في أغوارها السحيقة ارتجاج ضحكة مرعبة رجيمة.

---

(1) الهِذْرةُ: أفعوان خرافي مائيّ ذو تسعة رؤوس في الأساطير اليونانيّة القديمة وتنمو رؤوسه ثانيةً إذا قطِعت.

ثمّة أشياء في الحياة وأفكار في النفس تجتذبك حتماً إلى المناطق الشيطانيّة كأنّ كيانك من حديد والشقاء مغنطيس يجذبك إليها. هل رأيت جمجمة! آه لو ترى عينيها المجوّفتين الجامدتين، ومسحة الاصفرار التي تعلوها وفكّها المثلوم... أوَ تكون هذه هي الحقيقة، أو يكون اليقين هو العدم؟

في هذه الهاوية التي لا قرار لها، هاوية الشكّ الذي يكوي كيّاً، هاوية الألم الأمرّ، سقط جاليو. رأى هذه الاحتفالات، وهذه الوجوه الضاحكة، وتأمّل آديل حبيبته وحياته، سحر ملامحها، وعذوبة نظراتها فتساءل حينئذ لماذا يمتنع عليه كلّ هذا. كان كمثْلِ سجينٍ يموت جوعاً فيما الطعام أمامه، والحياة تفصله عنها بضع قضبانٍ حديديّة.

كان يجهل أيضاً ما الذي يجعل هذا الشعور مختلفاً عن المشاعر الأخرى. فيما مضى، حين كان يأتي أحد إلى أميركا الاستوائيّة ويسأله أن يستفيء تحت نخلاته، أو ثمرة من بساتينه، كان يمنحه ذلك طوعاً. «لكنْ لِمَ الحب الذي أكنّه لها حكرٌ عليها وحدها، لم هو كليٌّ إلى هذا الحدّ؟».

ذاك أنّ الحبّ عالم بذاته، وحدته غير قابلة للقسمة.

ثمّ أطرق رأسه إلى صدره وبكى طويلاً بصمتٍ وكأنّه طفل صغير.

مرّة واحدة فقط، أفلتت منه صرخة مبحوحة حادّة مثل نعيق بومٍ لكنّها امتزجت بصوت الأرغن العذب الرخيم الذي كان ينشد «المجدُ لله في العُلى».

صدحت الموسيقى بأنغام صافية شجيّة وامتزجت بالبخور مالئةً صحن الكنيسة...

عندئذٍ انتبه إلى ضجّة كبيرة وسط الحشد، ورأى الكراسيّ تهتزّ والجموع تخرج. اخترق شعاع من الشمس زجاجيّات الكنيسة وانعكس على مشط العروس الذهبيّ ثمّ التمع بضع لحظات على قضبان المقبرة

المذهبّة، وهيَ الفسحة الوحيدة التي تفصل البلديّة عن الكنيسة. ارتفع عشب القبور أخضر كثيفاً، غضّاً. ابتلّت أقدام المدعوّين، واتّسخت جواربهم البيضاء وأحذيتهم الخفيفة. وأخذوا يلعنون الموتى في قبورهم.

كان العُمدة ينتظر العريسين واقفاً على رأس طاولة مربّعة مكسوّة بسجّادة خضراء.

وعندما وافت اللحظة الحاسمة التي يقول فيها العريسان «نعم»، ابتسم السيّد بول، وشحب وجه آديل، وأخرجت السيّدة دو لانساك قارورة الملح.

عندئذٍ فكّرت آديل. لم تفق من ذهولها بعد، هيَ التي كانت لفترة قصيرة خلت في غاية الاضطراب والشرود؛ تهرول في الحقول، وتقرأ الروايات، والأشعار، والحكايا، وتعدو على فرسها الرماديّة عبر ممرّات الغابة، تهوى كثيراً سماع حفيف الأوراق، وهمس السواقي... وها قد ألفت نفسها فجأةً سيّدة متزوّجة.

أي أصبحت امرأة ترتدي وشاحاً طويلاً وتسير وحيدة في الشوارع.

فكّرت أنّ كل هذه التوجّسات الغامضة، وانفعالات القلب الحميمة، وهذا التعطّش للشعر وهذه الأحاسيس المبهمة التي تحملها على أجنحة المستقبل المجهول، كلّ ذلك ستنجلي لها معانيه كما لو أنّها ستستفيق من حلم.

للأسف، كلّ بنات العاطفة والخيال أولئك سيوأدن في مهدهنّ بين الأعمال المنزليّة والمداعبات التي يتوجّب عليها أن تسخو بها على كائن فظّ يعاني من الروماتيزم والتصلّب في جلد القدم، ويُدعى: الزوج.

وعندما ابتعد الحشد إفساحاً للموكب، شعرت آديل بوخزٍ في يدها وكأنّ مخلباً من حديد خدشها. كان هذا جاليو الذي لدى مرورها جلفها

بأظافره. تمزّق قفّازها وأصبح مدمّى كلّه. فلفّت يدها بمنديلها الرقيق. وعندما التفتت لدى صعودها إلى العربة، رأت جاليو متكّئاً إلى المرقاة- فتملّكتها ارتعاشة وسارعت للارتماء في العربة.

كان شاحباً مثل ثوب العروس. كانت شفتاه الغليظتان المتشقّقتان من جرّاء الحمّى والمكسوّتان ببثور تتحرّكان بحيويّة كمن يتكلّم بسرعة. كانت أجفانه ترفّ وحدقتاه تتحرّكان ببطءٍ في محجريهما كمثْل المعتوهين.

5

وفي المساء، أقيم حفل في القصر. وأضيئت سُرُجٌ عند كلّ النوافذ وقدِمت مواكب عديدة من عربات وأحصنة وخدم.

من وقتٍ لآخر، يُلمح نورٌ عبر شجرات الدردار، ثمّ يدنو مقترباً بعد انعطافه في ممّرات كثيرة متعرّجة ليتوقّف أخيراً أمام درج المدخل. عندئذٍ يُفتَحُ بابُ العربة التي تجرّها الأحصنة المتصبّبة عرقاً، وتنزل امرأةٌ - ربما كانَتْ يافعة أو عجوزاً، قبيحة أو جميلة، مرتدية الورديّ أو الأبيض، كما تشاؤون. ثمّ بعد أن تسوّي تسريحتها بضرباتٍ سريعة من يدها في البهو، على ضوء المصابيح، وسط الأشجار والنبتات الخضراء والأزهار التي تحجب الجدران، تترك معطفها وشال الفرو للخدم وتدخل. عندئذٍ يُفتَحُ الباب على مصراعَيه ويُعلن عن قدومها فينهض المدعوّون ويحيّونها مُحْدثين جلبة صاخبة؛ ويتبع ذلك ألف حديثٍ وحديث، دردشات بسيطة، تلك التفاهات الممتعة التي تهدر في الصالونات وتحلّق في كلّ جهة مثل أبخرة خفيفة في دَفيئاتٍ زجاجيّة.

بدأ الحفل الراقص في الساعة العاشرة.

في الداخل كنت تسمع انزلاق الأحذية على الأرضيّة وحفيف الأثواب وصخب الموسيقى والراقصين.

وفي الخارج، حفيف الأوراق، والعربات السائرة في البعيد على الأرض الرطبة، والبجعات المرفرفة بأجنحتها على البحيرة، ونباح كلبٍ في القرية تعقيباً على الأصوات المنبعثة من القصر، ثمّ بضعة أحاديث ساذجة ساخرة يتندّر بها المرزارعون الذين أطلّوا برؤوسهم عبر نوافذ الصالون.

وفي إحدى الزوايا اجتمعتْ ثلّة من الشبّان، أصدقاء بول، رفاق الملذّات القدامى الذين ارتدوا قفّازات صفراء أو لازورديّة، ونظّارات تتكئ على الأنف، وسترات رسميّة سوداء ضيّقة يشبه ذيلها ذنب سمك المورة، وسرّحوا شعورهم مستلهمين القرون الوسطى، وأرسلوا لحاهم على طريقة رمبرانت[1]، لحى لم يسبق للمدرسة الهولنديّة في الرسم أن رأت مثلها أو حلمت بنظيرها.

قال أحدهم، وهوَ عضو في نادي سباق الخيل[2]:

- قلْ لي يا صاحِ من يكون صاحب هذه السحنة المتجهّمة المتغضّنة كعجوز، الذي يجلس خلف الكنبة حيث تجلس زوجتك؟

- هذا؟ هذا جاليو.

- ومن يكون جاليو؟

- آه! تلك قصّة شرحها يطول.

فقال أحد هؤلاء الشبّان وكان شعره مملّساً على الأذنَين ويشكو من ضعفٍ في نظره:

---

(1) رمبرانت (1606–1669): رسّام ولِدَ في أمستردام، من كبار أساتذة فنّ الرسم الغربي.

(2) نادي سباق الخيل أو Jockey-Club، نادٍ تأسّس في إنجلترا في القرن الثامن عشر، ثم في باريس عام 1833 وكان يضمّ أربعة عشر عضواً.

- خبّرْنا بها! ليس لدينا ما نتسلّى به.

وقال أحد السادة وكان طويل القامة شاحب الوجه بارز الوجنتين:

- على الأقلّ قدِّموا لنا البانش[1].

فقال العضو في نادي سباق الخيل:

- أمّا أنا فلن أشرب منه ولديّ أسبابي. إنّه قويّ جدّاً. أعطونا سيجاراً.

- دعْكَ من السيجار يا إرنست! إنّه يزعج النساء!

- على العكس، إنهنّ مولعات به. لديّ عشر عشيقات يُدخنّ كالخراتيت، واثنتان منهنّ سوّدتا جميع غلاييني.

- وأنا لديّ عشيقة تشرب الكيرش بطريقةٍ لا تُصدّق.

وقال صديقٌ لا يحبّ السيجار، ولا البانش، ولا الرقص، أو الموسيقى:

- لنشربْ إذاً.

- لا. ليروِ لنا بول قصّته.

- يا أصدقائي الأعزّاء. قصّتي ليست طويلة ومفادها أنّني عقدت رهاناً مع السيد باترويل، أحد أصدقائي وهو مالك مزرعة في البرازيل، على أن أعطيه رزمة من تبغ فيرجينيا الفاخر لقاء ميرسا، إحدى إمائه. راهنت معه على أنّ القرود يمكن... يمكن تربيتها، نعم... أي أنّه تحدّاني مدّعياً أنّه لا يمكن للقرد أن يُحسَب كإنسان.

- وهل جاليو قرد؟

- لا، لا تتحامق!

- وما هو إذاً؟

-عليّ أن أشرح لكم أنّني خلال رحلتي إلى البرازيل، استمتعت بوقتي كثيراً. كان لباترويل أمَة زنجيّة كانت استُقدمت حديثاً على مركب

---

(1) بانش Punch: شراب كحوليّ.

في قناة باهاما القديمة[1]، لم أعد أذكر اسمها تباً لي! المهمّ أنّ تلك المرأة لم يكن لديها زوج. كانت جميلة جدّاً. اشتريتها من باترويل، لم تكن البلهاء ترغب فيّ قطّ، ربّما كانت تجدني أقبح من متوحّش.

ويبدأ الجميع يضحكون. احمرّت سحنة بول.

– وفي يوم وقد استبدّ بي السأم اشتريْتُ من زنجيّ أجمل أوران أوتان[2] تسنّتْ لإنسانٍ رؤيته. منذ زمنٍ طويل شغلت مسألةٌ أكاديميّةَ العلوم وهي معرفة ما إذا كانَ هنالك وجود لِهَجينٍ من القرد والإنسان. أردت أن أنتقم من الزنجيّة البلهاء الصغيرة. وذات يوم عدت منَ الصيد فوجدت أنّ قردي بيل، الذي كنت احتبسته في غرفتي مع الزنجيّة، ولّى هاربا؛ ووجدت الأمة باكية وآثار مخالب بيل على جسدها المدمّى. بعد بضعة أسابيع، أحسّت بآلام في بطنها وبغثيانٍ. وبعد خمسة أشهر، تقيّأت عدّة أيّام متتالية. كنت في الحال واثقاً من نتيجة ما فعلته. لكنّ الأمَة أصيبت ذات مرّة بنوبة عصبيّة كانت منَ القوّة بحيث توجّب إخراج الدم من أطرافها الأربعة وإلا لكنْتُ أُصبتُ بخيبة عظيمة في حال موتها. وباختصار، بعد مرور سبعة أشهر وضعت طفلها على كومة السماد، وتوفيت بعد ساعات قليلة، لكنّ الطفل كان في أحسن حال. وكنت، ولعمري، مسروراً لأنّ المسألة حُلّت.

وأرسلت في الحال المحضر إلى المعهد، وأُرسِل لي وسام الشرف بناءً على طلب الوزير.

---

(1) باهاما: كان يطلق اسم قناة باهاما القديمة على المدى البحريّ الذي يفصل جزر الباهاماس عن الساحل الشرقي لفلوريدا وشمالي جزيرة كوبا، وكانت هذه القناة في مطلع القرن التاسع عشر مفترقَ طرق للاتّجار بالسود.

(2) أوران أوتان: ضرب من القِرَدة الكبيرة، شبيه بالإنسان، ويسمّى أيضاً إنسان الغاب.

- بئس الأمر يا بول العزيز، إنّه حثالةٌ الآن.
- ما تقوله يفتقر إلى الخبرة. إنّه يعجب النساء، فهنّ ينظرنَ إليه مبتسمات فيما نتحدّث إليهنّ. وأخيراً ربّيتُ الطفل وأحببته وكأنّه ابن لي.
قال أحد السادة وكان يضحك باستمرارٍ كاشفاً عن أسنانه البيضاء:
- لكن لماذا لم تصطحبه معك خلال زياراتك المتكرّرة إلى فرنسا؟
- فضّلت أن أبقيه في وطنه حتّى عودتي النهائيّة. لا سيّما وأنّ العمر حسبما حُدّد في عقد الرهان كان ستّ عشرة سنة، وقد أُنجز العقد في السنة الأولى من وصولي إلى جانيرو. وباختصار فزْتُ بميرسا، ونلت صليب الشرف في سنّ العشرين، وفوق ذلك أوجدت طفلاً بوسائل غير مسبوقة.
قال صديق يعلو وجهه الشحوب:
- ما صنعْتَه مرعب، شيطانيّ.
قال شابّ منتفخ الخدين متورّدهما:
- شيء مضحك فعلاً.
و قال الفارس:
- عافاك الله.
قال رجل وهو يتلوّى لذّةً على كنبة مطّاطة:
- شيء يميت منَ الضحك.
ثمّ قفز وهو يختلج مثل سمكة شبوط، وكان نحيلاً، قصير القامة، مسطّح الجبين، صغير العينين، أفطس الأنف، رقيق الشفتين مستديراً مثل تفّاحة ووجهه متبقّر مثل شمّام أخضر.
لم يكن ذلك صنيعَ رجلٍ عاديّ بل كان صادراً عن حاذق.

- حسناً ماذا يفعل جاليو؟ هل يحبّ السيجار؟

قال المدخّن وهو يعرض السيجارات ملء يديه وتعمّد إسقاطها على ركبتي امرأة.

- لا أبداً يا عزيزي، هو يشمئزّ منها.
- هل يصطاد؟
- لا إطلاقاً، طلقات البندقيّة ترعبه.
- لا بدّ أنّه يعمل ويقرأ ويكتب طيلة النهار.
- لكن لكي يفعل ذلك، عليه أن يُحسن القراءة والكتابة.

قال الصديق الواهن:

- هل يهوى الأحصنة؟
- لا إطلاقاً.
- إذاً هوَ حيوان جامد ومجرّد من الذكاء. هل يحبّ الجنس؟
- ذات يوم اصطحبته لدى الفتيات وولّى مذبراً حاملاً معه زهرة ومرآة.

وقال الجميع:

- إنّه أبله فعلاً.

وتفرّق أفراد الثلّة، وأقبلوا يبتسمون وينحنون أمام الراقصات اللواتي كنّ يتثاءبنَ ويتظارفنَ بانتظار من يراقصهنّ. مرّ الوقت بسرعة على أنغام الموسيقى التي كانت تتوثّب على السجّادة بين الرقص والنساء. ودقّت الساعة منتصف الليل فيما الراقصون يؤدّون رقصتهم الأخيرة.

كان جاليو جالساً منذ بداية الحفل الراقص على كنبة بجوار العازفين. بين الحين والآخر، يترك مكانه ويُبدّل مجلسه. إذا لمحه أحد من الحفل وكان فرِحاً لا مبالياً، مسروراً بالضجّة، منتشياً بالخمور وبكلّ هذا السرب

من النساء العاريات الصدور، والشفاه المبتسمة والنظرات العذبة، تعكّر صفو مزاجه في الحال وشحب وجهه. كان حضوره مزعجاً، جاثماً مثل شبح أو شيطان.

ثمّ تعبَ الراقصون فجلسوا.

وهدأ الجوّ أكثر، فمُرّر شراب اللوز، وكانت ضجّة الأقداح على الصواني وحدها تقطع هدير الأحاديث.

كان البيانو مفتوحاً، وفوقه الكمان والقوس مستلقٍ بجواره.

أمسك جاليو الآلة، وأخذ يقلّبها بين يديه كطفلٍ يلهو بِلعبتِه. لامس القوس ولواها بشدّة لدرجة أنّه أوشك أن يحطّمها مرّاتٍ عدّة.

وأخيراً أدنى الكمان من ذقنه. وأخذ الجميع في الضحك لنشاز الموسيقى وغرابتها وتشتّتها. نظر إلى أولئك الرجال والنساء الجالسين، المنحنين، الملتوين ضحكاً، المتمدّدين على مقاعدَ وكراسيّ وكنبات، بعينين مندهشتين.

لم يكن يفهم سبب كلّ تلك الضحكات وذلك الهرج المفاجئ.

تابع العزف:

طلعت الأصوات بطيئة، متلاشية، وكانت القوس تلامس الأوتار وتجولها بدءاً من حاملة الكمان حتّى ملْواه دون أن يصدر عنها أيّ صوت تقريباً، مال برأسه، منحنياً شيئاً فشيئاً على خشبة الكمان، مقطّب الوجه مغمض العينين. ثمّ قفزت القوس على الأوتار مثل كرة مطاطيّة قفزاتٍ متسارعة.

كانت الموسيقى متقطّعة، مفعمة بالنوتات الحادّة، والصرخات الأليمة. يشعر المرء إذ يسمعه أنّه تحت وطأة ضِيق رهيب وكأنّ كلّ نوتاته كانت من رصاص أو كأنّها تثقل على الصدر.

ثمّ كانت تواقيع متعاقبة سريعة جسورة، وتصاعدت الأوكتافات[1]، وتسارعت النوتات وفيرة لتتطاير متوثّبة متلاحقة متناغمة مشحونة.

وكلّ تلك الأصوات، كلّ ضجّة الأوتار والنوتات المعدومة اللّحن تلك، التي كانت تصفر دون وزن ولا شدو ولا إيقاع، تلك الأفكار الغامضة العادية المتعاقبة مثل حلقة شياطين- أو أحلام تعبر وتولّي هاربة تطردها أحلام أخرى في زوبعةٍ لا قرار لها، وفي سباقٍ لا يكلّ.

كان جاليو يمسك بقوّة مقبض الآلة، وفي كلّ مرّة يرتفع فيها إصبعه عن الملمس، كان ظفره يجعل الوتر يهتزّ فيصفر وهوَ يتلاشى.

أحياناً كان يتوقّف مذعوراً من الضجّة- فيبتسم ببلاهةٍ ويُعاودُ بشغفٍ أكبرَ عزفَ حلمه. وأخيراً تعب فتوقّف ثمّ أصغى طويلاً لِيَرى ما إذا كان ذلك سيتوالى من جديد، ولكن لا شيء. تلاشى الاهتزاز الأخير للنوتة الأخيرة منهَكاً. وعندئذٍ نظر كلّ من المدعوّين إلى الآخر مندهشاً لأنّه سمح بإدامة هذه الضجّة الغريبة طويلاً. واستؤنف الرقص مجدّداً. وبما أنّ الساعة كانت تُقارب الثالثة صباحاً فقد أدّوا رقصة «الكوتيون»[2]. وحدهنّ النساء الشابّات بقيْن ساهرات. أمّا المسنّات فقد رحلْنَ وكذلك رحل الرجال المتزوّجون أو الذين يشكون مرضاً في صدورهم.

ولتسهيل رقصة الفالس أمام الراقصين، فُتحَتْ تباعاً أبواب الصالون، وصالة البليارد، وقاعة الطعام. وأمسك كلّ راقص بشريكته، وسُمِعَ صوت القوس الرنّان يضرب على المقرأة، فاندفع العازفون في عزفهم.

وقف جاليو مستنداً إلى أحد مصراعي الباب. مرّ الراقصون من أمامه

---

(1) ثمانية ألحان أو درجات في اللّحن.

(2) الكوتيون: رقصة فرنسيّة مع ألعاب ولهو وتنتهي بها بعض الحفلات الراقصة.

وهم يدورون ويضجّون مبتهجين مطلقين الضحكات.

وفي كلّ مرّة كان يرى آديل تدور أمامه ثمّ تختفي ثمّ تعود لتختفي من جديد.

وكلّما رآها تستند إلى ذراعٍ تحيط بخصرها والتعب بادٍ عليها من الرقص ومن فرط السعادة، شعر بشيطان يرتعش في داخله وبغريزة متوحّشة تزأر في نفسه زئيرَ أسدٍ في قفصه.

وكلّ مرّة، عندما يحين الإيقاع المتكرّر نفسه، وضربة القوس نفسها، والنغمة ذاتها، والمدّة الزمنيّة ذاتها، كان يرى أسفل فستانٍ أبيضَ يمرّ أمامه مطرّزاً بأزهار ورديّة، وكذلك حذاءين من الساتان ينفتحان قليلاً. كانت الرقصة تدوم طويلاً، حوالى العشرين دقيقة. ولدى توقّفها تمسح آديل جبهتها مبهورة الأنفاس، ثمّ لا تلبث أن تنطلق من جديد أكثر رشاقة وتوثّباً وجنوناً وتورّداً من أيّ وقتٍ مضى.

كان ذلك عذاباً واصِباً، ألماً كذلك الألم الذي يُبرّح المحكومين بالإعدام. أيُعقل هذا؟ أن تحسّ في صدرك بكلّ القوى التي تخوّلك للحبّ، أن تشعر بنار تحرّق روحك لكنّك عاجز عن إخماد البركان الذي يستنزفك، أو تحطيم القيد الذي يُكبّلك. أن تكون هنا موثوقاً إلى صخرة وعرة، وحلقك متعطّش إلى قطرة ماء، كمثل بروميثيوس[1]، وترى عُقَاباً يلتهم كبدك، ثمّ لا تقتدر في غمرة غضبك على الإمساك به وسحقه بيديك الاثنتين.

وبينا رقصة الفالس تدور مدوّمة ببهجةٍ تبعث على الدوار، والنساء يرقصن والموسيقى تصدح شجيّة، تساءل جاليو مطرق الرأس وقد

(1) بروميثيوس (Prométhée): في الميتولوجيا اليونانيّة سارق النار من الآلهة ومعلّم البشريّة استعمالها. وقد زعموا أنّ كبير الآلهة زفس عاقبه بأن قيّده بالسلاسل وأرسل إليه نسراً أو عُقاباً ينهش كبده. ولكنّ هذه الكبد كانت تتجدّد على نحوٍ موصول.

أمضّه مرير الألم: لماذا لست سعيداً؟ لِمَ لا أشارك في الرقص على غرار الجميع؟ لماذا أنا قبيح هكذا ولِمَ كلّ هؤلاء النساء لسنَ كذلك؟ لماذا ينفرْنَ منّي عندما أبتسم لهنّ؟ لماذا أشعر بهذا العذاب المضني، والضجر القاتل، وبهذه الكراهية لنفسي؟ آه لو كان بإمكاني أن أمسك بها- هي دون غيرها- فأشقّ جميع الثياب التي تكسو جسدها، وأمزّق الحُجُبَ التي تسترها إرباً إرباً، ثمّ آخذها بين ذراعيّ وأهرب بها إلى أبعد مكانٍ عبر الغابات والحقول والمروج مجتازين البحار- ونصل أخيراً، إلى نخلةٍ نستظلّ بها، وهناكَ أنظر إليها طويلاً وتنظر إليّ هي أيضاً، وتعانقني بذراعيها العاريتين، ثمّ... آه...

وبكى غضباً وغيظاً.

انطفأت المصابيح... دقّت الساعة الخامسة صباحاً، وسُمعت ضجّة عرباتٍ تتأهّبُ للانطلاق، ثمّ أخذ الراقصون والراقصات ملابسهم وانصرفوا.

كذلك أقفل الخدّام مصاريع الأبواب وخرجوا.

مكث جاليو في مكانه، وعندما رفع رأسه، كان كلّ شيء قد اختفى، النساء والرقص والأصوات. كلّ شيء تطاير وكان المصباح الأخير يزفر ضوء زيته المتبقّي.

وفي تلك اللحظة لاح الفجر عند الأفق خلف أشجار الزيزفون.

6

أخذ جاليو شمعة ثمّ صعد إلى غرفته.

بعد أن خلع ثيابه وحذاءه قفز على سريره، ودسّ رأسه في الوسادة

محاولاً النوم.

لكنّه ظلّ مستيقظاً.

سمع طنيناً يتردّد في رأسه، وقرقعة غريبة، وموسيقى محيّرة. كانت الحمّى تخفق في أوردته وشرايين جبهته نافرة ممتقعة. كان دمه يغلي في شرايينه ويصعد إلى دماغه ويخنقه.

نهض وفتح نافذته. هدّأ هواء الصبح المنعش حواسّه الملتهبة. انقشعت الغيوم واختفى معها القمر مع انبلاج أولى أنوار الفجر. في الليل نظر مليّاً إلى آلاف الأشكال الغريبة التي ترسمها الغيوم، ثمّ التفت إلى الشمعة متأمّلاً نورها المنعكس على الستائر الحريريّة الخضراء.

استغرق على هذ النّحو مدّة ساعة ثمّ قرّر الخروج أخيراً.

كانت الظلمة لا تزال مهيمنة، وقطرات الندى الكثيفة تتلألأ على أوراق الأشجار. كانت السماء قد أمطرت طويلاً، وباتت الممرّات التي تجتازها عجلات السيّارات قذرة موحلة. وتوغّل جاليو في الممرّات الأكثر تعرّجاً وقتامة.

تنزّه طويلاً في الحديقة واطئاً بقدميه أولى أوراق الخريف المصفرّة التي قذفتها الرياح. سار عبر الأيكة على العشب الرطب، مستمعاً إلى وشوشة النسيم الذي يهزّ الأشجار، وباكورة الأصواتِ النائية للطبيعة المستيقظة من رقادها. ما أعذب أن تحلم هكذا، مصغياً بمتعةٍ إلى طقطقة الأوراق وتكسُّر الأعواد اليابسة تحت قدميك، وأن تنساق إثر طرقاتٍ لا حواجز فيها كتيّار حلم يجرف روحك... ثمّ تستولي على كيانك فكرة حزينة ممضّة وأنت تتأمّل طويلاً هذه الأوراق المتساقطة، والأشجار المنتحبة، وهذه الطبيعة التي تنوح عند نهوضها وكأنّها خارجة من قبر. عندئذٍ يتراءى لك في العتمة وجه حبيب، وجه أمّ أو صديقة، وتعبر جميع الأشباح

على طول الجدار الأسود متجهّمة مرتدية قمصاناً بيضاء بثنيات طويلة. ويعود الماضي أيضاً وكأنّه شبح آخر. الماضي بأحزانه وآلامه ودموعه وضحكاته القليلة. وأخيراً يلوح المستقبل بدوره- أكثر تبايناً وغموضاً، مُكتنَفاً بنسيج رقيق كالذي تتسربل به حوريّات الأحلام حين ينبثقن من إحدى الجنبات ويُحلّقن مع العصافير. يلذّ لك سماع الريح تتغلغل في الأشجار وهيَ تُميل رؤوسها منتحبةً كموكبِ أموات، متغلغلةً في شعرك منعشةً جبهتك الحارقة.

وفي أفكار أشدّ رعباً من تلك هامَ جاليو.

كانت كآبته حالة منمّقة مليئة نزقاً منبعثة من ألمٍ كامنٍ طويل. لكنّ اليأس ماديّ ملموس.

لكنّ الواقع هو الذي يسحقه.

نعَم، الواقع الجاثم كشبحٍ ثقيل، أو كمثل كابوس مع أنّه ليس إلّا مدّة زمنيّة كما هي الروح.

بِمَ يفيده الماضي الضائع، أو المستقبل المُجمَلُ في كلمة تافهة، ألا وهي الموت؟ كلّ ما يملكه هو الحاضر، هذه الدقيقة، هذه اللحظة، ولا شيء سواها. كان يودّ إلغاء هذا الحاضر بالذّات، تحطيمه، سحقه بقدمه، وذبحه بيديه. فكّر بنفسه، هو التعيس اليائس، الفارغ اليدين، فكّر بالحفل والأزهار وهؤلاء النساء، بآديل ونهديها العاريين، بكتفيها ويديها البيضاوين، فكّر بكلّ هذا، وانفجرت من فمه ضحكة متوحّشة مدوّية بين أسنانه مثل نمر ينهشه الجوع ويكاد يميته. رأى في خياله ابتسامة بول وقبلات زوجته. رآهما كليهما ممدّدين على فراش حريريّ متعانقين وهما يطلقان تنهّداتٍ وتأوّهاتٍ شَبِقَة. كان يرى حتّى الشراشف المدعوكة في احتدام عناقهما، حتّى الأزهار الموضوعة على الطاولات، والسجاجيد،

والمفروشات... كلُّ شيء مَثَلَ هناك في ذهنه. ثمّ رأى نفسه وحيداً محاطاً بالأشجار، سائراً على العشب والأغصان المكسورة فارتعش. كان يدرك أيضاً المسافة الهائلة التي تفصله عن هذا العالم. وحين تساءل أخيراً عن السبب الذي حدا بحياته لتكون على هذا النحو، انتصب أمامه حاجز لا يمكنه عبوره - وأُسدِلَ على تفكيره ستارٌ أسود.

لماذا آديل لم تكن له؟ آه، لو كانت هناك برفقته لكان في منتهى السعادة! لو أنّه يعانقها ملقياً برأسه على صدرها ويغمرها بالقبلات الحارّة. وشهق باكياً بكاءً مرّاً.

آهِ! ليته أدرك مثلنا نحن سائر الناس كيف يمكن الحياة، عندما تثقل عليك بهواجسها، أن تتلاشى وتتبدّد سريعاً بطلقة مسدّس... ليته عرف كيف أنّ للإنسان أن يغنم السعادة بستّة قروش فقط، وأنّ النهر يبتلع الأموات!... لكنّ الشقاء هوَ في نسق الطبيعة وقد منحتْنا الشعور بالوجود لكي نحتفظ بالشقاء وقتاً أطول.

وسرعان ما وصل جاليو إلى ضفاف المستنقع. كانت البجعات تلاعب صغارها هناك وتنزلق على المياه البلّوريّة باسطةً أجنحتها مُدخِلةً أعناقها في ظهورها. كان الطائران الأضخم حجماً، وهما ذكر وأنثى، يسبحان معاً في التيّار السريع الذي يحدثه الجدول حين يجتاز المستنقع. من وقتٍ لآخر كان أحدهما يقرّب عنقه الطويل الأبيض من الآخر ويتبادلان نظرات مستديمة وهما يسبحان، ثمّ يغوصان مصفّقين بأجنحتهما على صفحة الماء التي تموّجت للهوهما، وصدراهما يحرثان الماء مثل محرّك قارب.

تأمّل جاليو رشاقة حركاتهما وجمال جسديهما- وتساءل لماذا لم يُخلق بجعةً جميلةً كهذه الطيور. كان محتقَراً بين البشر؛ ما إن يقترب من أحدهم، حتّى ينفر منه. لماذا لم يكن جميلاً كالبجع؟ لماذا لم تخلقه السماء بجعة أو طائراً

أو شيئاً خفيفاً محبّباً مغرّداً؟ أو ليته ظلّ عدماً... ثمّ قال وهو يرفس حجراً بقدمه: ليتني مثل هذا الحجر، أضربه فيفرّ بعيداً ولا يتعذّب. وعندئذٍ قفز في القارب وفكّ رباطه ثمّ أمسك المجذافين وجذّف بهما مجتازاً البحيرة حتّى بلغ الضفّة الأخرى من الحقل حيث بدأت تنتشر البهائم.

وبعد بضع لحظات عاد إلى القصر. كان الخدم قد فتحوا النوافذ ورتّبوا الصالون.

أُعدّت المائدة لأنّ الساعة كانت تقارب التاسعة. طويلة كانت نزهة جاليو وبطيئة.

الوقت يمرّ سريعاً في الفرح، وسريعاً في الحزن، إنّه هذا العجوز الذي يجري دوماً ولا يكلّ أبداً.

اجرِ بسرعة أيّها الوقت، سر دون توقّف، اضربْ بمنجلك واحصد الأرواح دون رحمة، أيّها العجوز الأشيَب. اجرِ واركض دوماً، وجرَّ أذيال بؤسِك، أنت المحكوم عليك بالعيش، وخذنا بعيداً وسريعاً إلى المقبرة الجماعيّة حيث ترمي هناك كلّ ما يعترض طريقك.

7

بعد تناول الفطور، خرجوا إلى النزهة، فالشمس ظهرت بعد احتجابها خلف الغيوم.

أرادت النساء التنزّه في القارب لأنّ نداوة الماء تزيل عنهنّ تعبَ الليل.

تفرّق الجمع إلى ثلاثة أسراب. الأوّل فيه بول وجاليو وآديل التي بدت تعبة شاحبة ولكن أجمل من أيّ وقتٍ مضى في ثوبها الموسلين الأزرق المزدان بأزهار بيضاء.

انضمّت آديل إلى زوجها بدافع اللياقة.

لم يفهم جاليو تصرّفها هذا. كانت نفسه تعانق كلّ ما هوَ حبّ ومودّة، لكنّ روحه كانت تأنف بالقدر نفسه كلّ ما ندعوه رهافة وعُرفاً وشرفاً وحياءً ولياقة. جلس في مقدّمِ القارب وأخذ يجذّف.

في وسط المستنقع، أقيمتَ جزيرة صغيرة كيما تلوذ إليها طيور البجع، وكانت مزروعة بأشجار الورد التي أمالت أغصانها منعكسة في المياه تاركة على صفحتها بضع أزهار ذابلة. جعلت آديل قطعة خبز فتاتاً ورمتها للبجعات فأسرعت هذه نحوها جاذبة أعناقها لتلتقط الفتات قبل أن يجرفها التيّار.

وحين كانت آديل تنحني لتمدّ يدها البيضاء، كان جاليو يشعر بأنفاسها تتغلغل في شعره، ووجنتيها تلامسان رأسه الذي شعر به حارقاً.

كانت مياه البحيرة رقراقة صافية لكنّ العاصفة كانت تعتمل في قلبه. لعدّة مرّات خال أنّه سيُجَنّ فيحمل يديه إلى جبينه كرجل يهذي أو يظنّ نفسه في حلم.

راح يجذّف بسرعة ومع ذلك تقدّم قاربه أبطأ من القوارب الأخرى لأنّ حركاته كانت متقطّعة ومتشنّجة. من وقتٍ لآخر، كان يرنو إلى آديل بنظرته الرماديّة الكامدة ثمّ ينتقل إلى بول. بدا جاليو هادئاً لكنّه هدوء الرماد الذي يكتنف الجمر. ولم يعد يُسمع إلّا صوت اصطفاق المجذاف في الماء، ووشوشة الماء البطيئة على جانبَي القارب، وبعض الكلمات المتبادلة بين الزوجين، مصحوبة بالنظرات والابتسامات، والبجعات التي تجري سابحة في البحيرة. نثرت الريح بعض الأوراق على المتنزّهين، وسطعت الشمس في البعيد فوق المروج الخضراء، حيث ينساب مجرى الماء ملتوياً كأفعى، وانزلق القارب وسط هذا المشهد سريعاً ساكِناً.

أبطأ جاليو قليلاً واضعاً يده على عينيه ثمّ ما لبث أن انتزعها حارّة ورطبة. استأنف تجذيفه والدموع تنهمر على يديه ثمّ تسقط في الجدول متوارية. وإذ رأى السيّد بول أنّه ابتعد عن الأصحاب، أمسك بيد آديل وطبع على قفّازها الساتان قبلة طويلة ملؤها السعادة، قبلة دوّت في مسمعَي جاليو طويلاً.

8

كان لدى السيّدة دو لانساك عدد كبير من القرود- ذاك شغف يتملّك النساء العجائز، وهي، بالإضافة إلى الكلاب، المخلوقات الوحيدة التي لا تهرب من حبّهنّ.

أقول هذا دون نيّة سيّئة. وإذا كان ثمّة نيّة سيّئة فذلك بالأحرى إرضاءً منّي للشبّان الذين يكرهون القرود شديد الكره. كان اللّورد بايرون يقول إنّه لا يستطيع أن يحتمل رؤية امرأة جميلة وهي تأكل. كيف لو رأى إذاً محيط هذه المرأة بعد أربعين عاماً مختزَلاً إلى كلبتها وقردتها. ذلك أنّ من عوائد النساء اللّواتي تروضهنّ في غاية الجمال والنضارة أن يبدّلن بعد بلوغهنّ الستين، شرط ألا توافيهنّ المنيّة، الرجالَ بالكلاب والعشيقَ بالقرد.

هذا أمرٌ حزين مع الأسف لكنّه حقيقيّ. ثمّ ما تنقضي اثنتا عشرة سنة إلّا ويكون وجهها قد اصفرّ وجسدها انكمش مثل رِقّ قديم فتنزوي في ركنها قرب الموقد بصحبة خادمتها، وهرّ أو كتاب، وأمامها وجبة طعامها. إلى أن يوافي المَوتُ ملاكَ الجمالِ هذا، ويُرديه جثّة، أي جيفة نتِنَة الرائحة، ثمّ حفنة من تراب وعدماً... أي هباءً فاسداً محتبساً في قبر.

أرى على الدوام أناساً في هيئة أموات وتتراءى لي سحناتهم الشاحبة مكتنفة بالتراب الذي سيحتويهم.

لا أحبّ القرود البتّة. إلّا أنّني مخطئ لأنّها تبدو لي محاكاة مكتملة للطبيعة البشرية. عندما أرى أحد هذه الحيوانات (لا أتكلّم هنا عن البشر)، يبدو لي وكأنّني أرى نفسي في مرايا مكبِّرة، المشاعر نفسها، الشهوات البهيميّة نفسها، مع كبرياء أقلّ، وهذا كلّ شيء.

كان جاليو يشعر بانجذاب غريب تلقائيّ نحو القرود، ويبقى غالباً ساعاتٍ بأكملها وهو يتأمّلها غارقاً في تفكير عميق أو مراقباً إيّاها بإمعانٍ واهتمام كبيرين.

اقتربت آديل من الأقفاص المشتركة (لأنّ النساء الشابّات يهوين أحياناً القرود. ربّما لأنهن يُقِمن تماثلاً بين القرود وأزواجهن) ورَمَت لها بندقاً وحلوى. وفي الحال انقضّت القرود للاستيلاء عليها متشاجرةً فيما بينها، متخاطفةً القطَع كما يتخاطف النوّاب الفتات التي تسقط من كنبة الوزير، ومتصايحةً على غرار المحامين.

استأثر أحد القرود بأكبر قطعة حلوى والتهمها بسرعة ثمّ أخذ حبّة البندق الأضخم وكسرها بأظافره وقشّرها ثمّ رمى القشرة إلى أقرانه بكرم واضح. كان تاجٌ خفيفٌ من الشعر يطوّق جمجمته الضيّقة، ما يجعله شبيهاً إلى حدٍّ ما بملكٍ.

وجلس قردٌ آخر باحتشام في ركنٍ منَ القفص ورأسه مطرق بخشوعٍ مثل كاهنٍ فيما كان يتلقّف منْ وراء ظهره كلّ ما لم يستطع سرقته مواجهةً.

وكانت قردة ثالثة متهدّلة الجسد، طويلة الوبر، منتفخة العينين، تذرع القفص جيئة وذهاباً وهي تقوم بإيماءات ماجنة قد تحمرّ منها الآنسات خجلاً، فتعضّ الذكورَ وتقرصهم وتصفر في آذانهم. وهذه القردة تشبه

بائعات هوى كثيرات ممّن أعرفهنّ.

أخذ الجميع يضحكون من مداعبات القردة وحركاتها. واسترسلوا في ضحكهم. وحده جاليو ظلّ عابساً، جالساً أرضاً واضعاً ركبتيه بمستوى رأسه وذراعيه على فخذيه، وعيناه شبه مغمضتين تصوّبان إلى نقطة واحدة.

بعد الظهر، انطلق الجميع إلى باريس. جلس جاليو أيضاً قبالة آديل وكأنّه يطيب للقدَر باستمرار أن يهزأ من آلامه.

كان الكلّ منهكين فناموا يهدهدهم الاهتزاز الناعم للأربطة الجلديّة الضخمة التي تمسك بالعربة، وأزيزُ العجلات السائرة على مهل في الأخاديد الموحلة التي حفرتها الأمطار وانزلقت فيها حوافر الأحصنة.

كان الزجاج مفتوحاً خلف جاليو لتهوية العربة، وأخذت الريح تصفر في كتفيه ورقبته.

أرخى الجميع رؤوسهم مستسلمين لغفوة على إيقاع تمايل العربة. وحده جاليو لم يغمض له جفن وظلّ مطرقاً رأسه إلى صدره.

9

كان شهر أيّار لا يزال في بدايته. وكانت الساعة حينذاك تقارب السابعة صباحاً على ما أعتقد. أشرقت الشمس بهيّة تغمر بنورها أرجاء باريس المستيقظة على نهارٍ ربيعيّ جميل.

استيقظت زوجة بول دو مونفيل في ساعة مبكّرة وانسحبت إلى أحد الصالونات لكي تنهي فيه، قبل حلول ساعة الاستحمام والفطور والنزهة، رواية لبلزاك.

كان الشارع الذي يقطن فيه الزوجان في ضواحي سان جيرمان، مقفراً وعريضاً ومغموراً بالظلّ الذي ترميه الجدران العالية، والفنادق الشاهقة، والحدائق الفسيحة المزدانة بأشجار الأكاسيا والزيزفون التي كانت أغصانها الكثيفة المختلجة تتدلّى فوق الجدران حيث نبت العشب بين شقوق الحجارة.

نادراً ما كانت تُسمع ضجّة اللّهم إلّا ضجّة مركبة ما تسير على بلاط الشارع يقودها حصانان أشهبان، أو أيضاً ليلاً جلبة بعض الشبّان العائدين من حفل عربدة أو من عرضٍ مسرحيّ برفقة متهتّكات عاريات الصدور، أعينهنّ محمرّة، وثيابهنّ ممزّقة.

حدث ذلك في أحد الفنادق التي كان ينزل فيها جاليو مع السيد بول وزوجته.

ومنذ ما يُقارب الستين، وأشياء كثيرة تعتمل في نفسه، والدموع المكتومة ما برحت تحفر فيها أخاديد عميقة.

وذات صباحٍ، ذاك الصباح عينه الذي كنت أحدّثكم عنه، نهض جاليو وخرج إلى الحديقة حيث كان طفل في السنة الأولى من عمره تقريباً ينام في سريره الهزّاز محاطاً بالموسلين والأقمشة الشفّافة المطرّزة والأوشحة الملوّنة، وسهم قبّة السرير يلتمع في الشمس.

كانت خادمة آديل غائبة. نظر جاليو إلى كلّ الجهات واقترب، اقترب جدّاً منَ المهد، وانتزع بسرعةٍ الغطاءَ ثمّ بقي بعض الوقت يتأمّل ذلك المخلوق المسكين النائم، بيديه المكتنزتين، وخدّيه المستديرين، وعنقه الأبيض، وأظفاره الصغيرة. ثمّ أمسكه بيديه الاثنتين ودار به في الهواء، ثمّ قذفه بكلّ قواه فأحدث سقوطه جلبة على العشب الأخضر. أطلق الطفل صرخة قبل أن ينسحق دماغه على بعد عشر خطوات بجوار نبتة قرنفل.

فتح جاليو شفتيه الشاحبتين وأطلق ضحكة مكرهة باردة، ومرعبة كنظرة الموتى. ثمّ تقدّم نحو المنزل على وجه السرعة فصعد الدرج، وفتح باب غرفة الطعام ثمّ أغلقه، محتفظاً بالمفتاح، وأغلق باب الرواق، ولدى وصوله إلى مدخل الصالون سار على رؤوس أصابعه وأقفل الباب مرّتين بالمفتاح.

كان الصالون شبه معتم لأنّ الشبابيك المغلقة بعناية لم تكن تسمح إلّا بنفاذ ضوء خجول.

توقّف جاليو، وأصغى فلم يسمع إلّا ضجّة الأوراق التي كانت تقلّبها يد آديل البيضاء المستلقية برخاوة على أريكة من المخمل الأحمر، وزقزقة الطيور على الشرفة واصطفاق أجنحتها على شبّاك المطيرة الحديديّ الذي يتناهى عبر المشربيّة الخضراء.

في أحد أركان الصالون، بالقرب من المدفأة حوض من الأكاجو مليء بأزهار عطرة ورديّة وبيضاء وزرقاء، عالية أو عبيّة، خضراء الأوراق صقيلة السيقان، منعكسة في مرآة كبيرة.

وأخيراً اقترب من المرأة الشابّة وجلس قربها فارتعشت لمرآه ونظرت إليه بعينيها الزرقاوين نظرةً شاردة. كان مبذلها من الموسلين الأبيض الشفّاف مفتوحاً من الأمام وكانت ساقاها المتصالبتان ترسمان بالرغم من ملابسها استدارة فخذيها.

كان يطفو من حولها عطر مُسكر، وكان قفّازاها الأبيضان مرميّين على الكنبة مع حزامها ومنديلها ولفاعها. كلّ ذلك انبعثت منه رائحة في غاية العذوبة والخصوصيّة حتّى إنّ منخرَي جاليو الواسعين انفرجا لسيتنشقا الأريج.

آهِ ما أعذبه ذلك الجوّ العطر الذي يشيع حول المرأة التي نحبّها،

يشكرنا ضوعه.

ما إن عرفته حتّى قالت مذعورة:

- ماذا تريد منّي؟

وتبع ذلك صمت طويل. لم يُجب بل حدّق إليها بنظراتٍ نهمة، ثمّ اقترب منها أكثر فأكثر محتضناً خصرها بيديه الاثنتين وطبع على عنقها قبلة حارقة لدغت آديل وكأنّها لسعة أفعى. رأى لحمها يحمرّ ويخفق.

وهتفت بذعر:

- سأنادي كي يأتوا لنجدتي. النجدة! النجدة!

وأضافت وهيَ تنظر إليه:

- آه أنجدوني من الوحش!

لم يُجب جاليو، فقط تأتأ ضارباً رأسه بغضب.

عجباً! كيف لا يستطيع أن يقول لها كلمة- لا يستطيع تعداد عذاباته وآلامه. كيف لا يستطيع أن يقدّم لها إلّا دموع حيوانٍ وتنهّدات مسخ.

شعر أنّها تُبعِده وكأنّه من الزواحف، أنّه مكروه ممّن يحبّها، وشعر أمام نفسه باستِحالة قول أيّ شيء، أنّه ملعون وعاجز عن التجديف.

- اتركني أرجوك! اتركني كرمى للسّماء. وأرادت أن تنهض لكنّ جاليو ردعها ممسِكاً إيّاها بذَيل ثوبها الذي تمزّق تحت أظافره.

- يجب أن أخرج... عليّ أن أرى طفلي. دعني أرى طفلي.

وراحت ترتعش بكلّ أوصالها عندما وردت في ذهنها فكرة فظيعة. قالت شاحِبة:

- أريد أن أرى طفلي. عليّ أن أراه الآن في الحال.

التفتت إليه ورأت وجه الشيطان مكشّراً عن أنيابه أمامها. وانطلق بضحكة طويلة مجلجلة مدويّة متواصلة لِدرجة أنّ آديل تجمّدت رعباً

وخرّت عند قدميه ساجدة.

وكذلك جثا هو أرضاً. ثمّ أخذها وأجلسها بالقوّة على ركبتيه وبيديه الاثنتين مزّق كلّ ملابسها وقطّع إرباً إرباً الأوشحة التي تغطّيها. رآها بلا قميصها ترتعش كالورقة فحضن بذراعيه نهدَيها العاريين وهوَ يبكي، وقد احمرّ خدّاه وازرقّت شفتاه، وعندئذٍ أحسّ أنّه تحت وطأة ضيق لا يُحتمل، فاقتلع الأزهار وبعثرها على الأرض وأسدل الستائر الورديّة الحريريّة. ثمّ خلع كلّ ملابسه.

رأته آديل عارياً فارتعدت وأشاحت برأسها. اقترب جاليو منها وضمّها إلى صدره طويلاً. فأحسّت عندئذٍ بجلدها الساخن والحريريّ ملتصقاً بجلد الوحش البارد المُشعر.

قفز على الأريكة ورمى الوسائد وهو يتأرجح طويلاً على المسند محرّكاً فقراته الليّنة بشكلٍ آليّ منتظم، وكان يطلق من وقتٍ لآخر صيحة حادّة ثمّ يبتسم وهو يكزّ على أسنانه.

أيّ شيء أشهى من امرأةٍ ممنوحة له؟ ماذا يطلب أكثر؟ ثمّ إنّ الأزهار تحت قدميه، والإضاءة ورديّة من حوله، والطيور في الأقفاص ترسل تغريدها، وشعاع الشمس الشاحب ينفذ إلى الغرفة.

وما لبث أن توقّف عن حركاته البهلوانيّة، وهرَع إلى آديل فجذبها نحوه غارزاً مخالبه في لحمها، منتزعاً قميصها.

وإذ رأت نفسها عارية في المرآة بين ذراعي جاليو أطلقت صرخة مذعورة وتضرّعت لله. أرادت أن تستغيث ولكن استحال عليها التفوّه بكلمة واحدة.

وإذ رآها جاليو عارية وشعرها مبعثر على كتفيها، توقّف جامداً مذهولاً وكأنّه أوّل رجلٍ يرى امرأة. راعاها هنيهة ثمّ انتزع شعرها

الأشقر وبعد أن وضعه في فمه وعضّه وقبّله، تدحرج أرضاً متمرّغاً بالأزهار، وبثياب آديل بين الأرائك، فرحاً، مجنوناً، منتشياً حيّاً.

كانت آديل تبكي وخيط من الدم يسيل على نهديها الأبيضين كالمرمر.

وأخيراً لم يعد لقوّته العاتية من حدود. انقضّ عليها فمدّدها أرضاً مبعداً يديها ثمّ غمرها بالقبلات وهيَ منزوعة الشعر.

راح يطلق من وقتٍ لآخر صرخات متوحّشة رافعاً ذراعيه كأبلَه، ثمّ يجمد قليلاً ليستأنف تأوّهاته الشبيهة بأنّات رجلٍ يُحتضر.

وفجأةً شعر بآديل تختلج تحته فتصلّبت عضلاته كأنّها من حديد. ندت عنها صرخة وتنهيدة شاكية خنقتها القبلات.

ثمّ أحسّ بها باردة. كانت مغمضة العينين متجمّعة على نفسها، وقد انفرج فمها.

وعندما شعر أنّ وقتاً طويلاً مرّ وهي لا تزال جامدة باردة، نهض عنها وقلّبها من جميع الجهات ثمّ قبّل قدميها ويديها وفمها.

وانطلق يقفز على الجدران كالمجنون.

عاود توثّبه مرّات عدّة إلى أن ضرب المدفأة الرخاميّة برأسه وسقط هامداً فوق جثّة آديل.

10

حين عُثِرَ على آديل، كان هناك آثار مخالب عميقة تكسو جلدها. أمّا جاليو فكانت جمجمته محطّمة بشكلٍ مرعب. ظنّ الجميع أنّ المرأة الشابة بدِفاعها عن شرفها قتلته بسكّين.

وأشيع الخبر في الصحف. تخيّلوا: ظلّ القرّاء لمدّة ثمانية أيّام يتأسّفون

قائلين: لا! لا! هذا غير معقول!

وفي اليوم التالي دُفنَ الموتى. كان الموكب رائعاً مهيباً تزيّنه الشرائط السوداء والشموع الضخمة. وخلف نعشَي الأمّ وابنها، سار الكهنة وهم يرتّلون، والرجال بملابسهم السوداء وقفّازاتهم البيضاء، والحشد الغفير المتدافع.

11

وبعد بضعة أيّام كانت عائلة من السمّانين مجتمعة حول فخذ ضخمة من لحم الضأن تدغدغ رائحتها الشهيّة الأنوف.

هتفوا جميعهم قائلين:

- ما حصل مرعب حقّاً.

وقالت زوجة السمّان:

- يا للطفل المسكين... بمَ قد يفيده قتل طفل؟

أمّا السمّان، وهو رجل رفيع الأخلاق مُقلّدٌ بوسام الشرف استحقاقاً لحسن خدمته في الحرس الوطنيّ، ومشترك في جريدة «الدستوريّ»، فقال في معرض استنكاره لما حدث:

- مسكينة هذه المرأة الشابّة! كيف قتلها! جريمة نكراء.

- تلك هي مغبّة الشغف.

قال صبيّ ضخم منتفخ الخدّين، وهو ابن صاحب المحلّ، وقد أنهى صفّ الرابع المتوسّط في سنّ السابعة عشرة بسبب إصرار والده الذي كان ممّن يهمّهم أن «تتسكّف»[1] الشبيبة.

(1) بدلاً من «تتثقّف» لأنّ الوالد في النصّ لا يعرف كيف تُلفظ الكلمة لِجَهله.

وأردف الصبيّ السمّان، وهو يطلب للمرّة الثالثة من أمّه أن تسكب له الفاصوليا، بقوله:

- حريّ بالناس أن يتحلّوا بشيء من ضبط النفس.

قرع أحدهم جرس الدكّان فنهض ليبيعه شموعاً بقرشين.

12

تريدون نهاية مهما كلّف الأمر، أليس كذلك؟ وتجدون أنّني أتباطأ في تقديمها. ليكن لكم ما تريدون.

آديل دُفِنَت. ولكنّها في ظرف سنتين فقدَت جمالها لأنّها نُقِلَت من قبرها إلى مقبرة «بيرلاشيز» وكانت رائحة نتنة تنبعث منها إلى حدّ أنّ حفّار القبور شعر بالغثيان.

- وجاليو؟

آه لو رأيتموه: إنّه رائع! جرى معالجته، وتلميعه، والاحتفاظ به... بديع فعلاً. فالمكتب المختصّ بعلم الحيوان، كما تعلمون، استأثر به وجعل منه هيكلاً عظميّاً رائعاً.

- والسيّد بول؟

- أرأيتم كدت أن أنساه! لقد تزوّج من جديد. أحياناً ألمحه في غابة بولونيا، وهذا المساء ستلقونه في جادّة «الإيطاليّين»[1].

8 تشرين الأوّل/ أكتوبر 1837

غوستاف فلوبير

---

(1) Boulevard des Italiens: إحدى الجادّات الكبرى الأربع في باريس، وتدين باسمها لمسرح الايطاليّين الذي بُنِيَ فيها عام 1783، أي قبل الثورة الفرنسيّة ببضع سنوات.

الشغف والفضيلة

حكاية فلسفية

«أبإمكانك أن تتحدّث عمّا لا تشعر به مطلقاً؟»
شكسبير، «روميو وجولييت»
الفصل الثالث، المشهد الخامس

تشرين الثاني/نوفمبر-كانون الأوّل/ديسمبر 1837
غوستاف فلوبير

1

سبق لها أن رأته مرّتين، على ما أظنّ.
المرّة الأولى في حفلٍ عند الوزير.
والمرّة الثانية في درس الفرنسيّة.

ومع أنّه لم يكن رجلاً متفوّقاً ولا جميلاً إلّا أنّها غالباً ما كانت تفكّر به مساءً، عندما تطفئ مصباحها وتبقى حالمة هنيهات قليلة، وشعرها مبعثر على ثدييها العاريين، ورأسها مستدير ناحية النافذة حيث كان الليل يُرسل نوراً شاحباً. أو حين ترقد في سريرها وذراعاها متدليّتان خارج الفراش وروحها تسبح وسط انفعالات حائرة غامضة كمثل هذه الأصوات المشوّشة المتصاعدة من الحقول في سهرات الخريف.

ولم يكن إطلاقاً شخصيّة إستثنائيّة كتلك التي نجدها في الكتب والمسرحيّات، لا بل كان قلبه على شيء من الجفاف.

ورغم أنّه كان عالماً بالكيمياء إلّا أنّه كان يتقن أصول الإغواء، ومبادئه وقواعده، وكان يمتلك أيضاً هذه اللباقة في استخدام الكلمة المناسبة، أو المبتذلة، التي من خلالها يصل رجل حاذق إلى مبتغاه.

وليس منهجه مشابهاً للمنهج الغزليّ الريفيّ، على طريقة لويس الخامس عشر، حيث الدرس الأوّل يبدأ بالتنهّدات، والثاني بكلمات الغزل ويتواصل هكذا حتّى النهاية، وهذا علم عرض له فوبلاس[1] في روايته، وفي النصوص الكوميديّة الثانويّة لمارمونتيل[2] وحكاياته الأخلاقيّة.

ولكم أن تتخيّلوا ما يحصل عادة في مثل هذه الحالات... يتقدّم رجل باتّجاه امرأة. يرنو إليها فيجدها جميلة، ويراهن مع أصدقائه على أنّها ستقع في حبائله. أهيَ متزوّجة؟ وما همّ!، ستكون القصّة أكثر تشويقاً. عندئذٍ يزورها في منزلها. ويُعيرها روايات ويصطحبها إلى المسرح ويتقصّد إدهاشها متكلّفاً الظرف والغرابة، إنْ شئتم. ثمّ، يوماً بعد يوم، يذهب إلى منزلها بحريّة أكبر، متصرّفاً على أنّه صديق العائلة، والزوج والأطفال

---

(1) «صبوات الفارس فوبلاس» *Les Amours du chevalier de Faublas*: رواية- مذكّرات نُشرَت في ثلاثة أجزاء (1787–1790)، كتبها جان باتيست لوفيه دو كوفريه Jean-baptiste Louvet de Couvray (1760–1797). الرواية إباحيّة وتسرد سلسلة من المغامرات المتأنّقة والمضحكة.

(2) جان فرانسوا مارمونتيل: Jean-François Marmontel: عالم موسوعيّ فرنسيّ ومؤرّخ وقاصّ وشاعر وكاتب مسرحيّ وفيلسوف وصحافيّ، وُلِدَ في عام 1723 وتوفّي في 1799. كان مقرّباً من فولتير، ومعادياً لروسو وقد عرف شهرة كبيرة في فرنسا وأوروبا كلّها. ألّف حكايات أخلاقية بدءاً من 1761 وفيها يلعب على التباس كلمة «أخلاقيّ» والعديد من حكاياته تصف حالات ومواقف عاطفيّة تتطرّق إلى الهوّة بين الزواج والحبّ.

والخدم. وأخيراً تتنبّه المرأة المسكينة إلى الفخّ الذي نصبه لها، وتريد أن تطرده كما تطرد خادماً. وهنا يغضب عليها ويُهدّدها بنشر رسالةٍ موجزة لكنّه تعمّد تفسيرها بخبثٍ، أيّاً يكن الشخص الذي أُرسلت إليه. وسيسرّ هو نفسه لزوجها بعبارة ما تفوّهَتْ بها ربّما في لحظة غرور أو دلع أو انجذاب. يتصرّف ذاك الرجل بقسوة عالِم تشريح. لكن ما بالكم؟ أُحرزَ تقدّم متنامٍ في ميدان العلوم، وبات هناك من يُشرّحون قلباً كما تُشرَّحُ جثّة.

وعندئذٍ تتوسّل تلك المرأة المسكينة الضائعة إليه باكية. لكن ليس هناك من يصفح عنها، كرمى لأطفالها وزوجها ووالدتها. ويتصلّب الرجل في موقفه لأنّه رجل، مستخدماً حقارته وبطشه، فيشيع في كلّ مكان قائلاً إنّها عشيقته، وينشر ذلك في الجرائد، ويكتبه مطوّلاً في مذكّراته، أو يقدّم عند الحاجة براهين. فلا يتبقّى إلّا أن تستسلم له فاقدة الروح. بإمكانه آنئذٍ أن يبيح لها المرور أمام خدّامه الذين يتهامسون هازئين منها إبّان زيارتها لسيّدهم في الصباح الباكر. ثمّ بعد أن يكون حطّمها ودفعها إلى الإحباط، تمسي وحيدة مع حسراتها، وخيالات الماضي، وخيبات الحبّ. فيتخلّى عنها متنكّراً لها، ويتركها لحظّها العاثر. وقد يمقتها أحياناً. المهمّ أنّه في النهاية يكسب رهانه، هوَ الرجل ذو الحظّ السعيد.

وبالطبع لا يمكن اعتباره «لافلايس»[1] كما كان متعارفاً عليه لستّين عاماً خلت، بل هوَ أقرب لأن يكون «دون جوان»، وهذا أروع.

ففي أيّامنا هذه، لم يعد نادراً الرجل الذي يتقن هذا الفنّ، ويعرف

(1) روبرت لافلايس Robert Lovelace شخصيّة من شخصيّات «كلاريسا هارلو» *Clarissa Harlowe* الرواية التي اشتهر بها الكاتب الإنجليزي صامويل ريتشاردسون ونشرها عام 1748، وهي رمز للروايات العاطفيّة. ولافلايس غاوٍ خبيث عنيف لا يتورّع عن فعل أيّ شيء أو استعمال أيّ وسيلة حتّى المخدرات لكي يُبقي كلاريسا تحتَ سطوته.

حيله وأسراره. إنّه لَمِن السهل جدّاً إغواء امرأة تحبّك، ثمّ التخلّي عنها، كما عن الأخريات، ما دمت عديم النبل والشفقة.

وهناك وسائل عدّة قد تجعلك محبوباً- والغيرة إحداها- ومنها الغرور، أو عراقة النسب، أو الموهبة، أو الكبرياء، أو الاستبداد، أو القسوة أيضاً. أو ربّما تصرفاتك المتبخترة، أو ربطة عنق متهاونة، أو تصنّع اليأس، أو أناقة لباسك، أحياناً، أو جودة حذائك.

وما أكثر مَن يَدينون بانتصاراتهم العاطفيّة لمهارة خيّاطهم أو إسكافيّهم!

منذ اللقاء الأوّل أدرك إرنست أنّ ماتزا تبتسم لنظراته. فكان يتبعها أينما ذهبت. إذا غاب عن الحفل الراقص مثلاً، شعرت بالسأم يغالبها. ولا تظنّوا أنّه كان ساذجاً غرّاً ليمدح بياض يديها أو جمال خواتمها، كما كان سيفعل هواة العبارات المنمّقة. لكنّه كان يطيب له في حضورها أن يفتري على جميع النساء الأخريات اللواتي يرقصن، ويروي عنهنّ المغامرات الأكثر غموضاً وغرابة. وكان كلّ ذلك يضحكها ويرضي غرورها خفيةً لا سيّما ظنُّها أنّه لا يستطيع أن يغتابها بشيء. فلم تألُ جهداً في استقباله، وتقصّدت ألّا تدعوه بحضور امرأة أخرى وخصوصاً إذا كانت شابّة.

أحياناً كانت تضبطه يحدّق النظر إلى عنقها، أو نَحْرِها، أو استدارة خصرها.

لاحظ إرنست أيضاً أنّها كانت تسرّ بالتحدّث إليه جالساً على كرسيّ سهل الطيّ عند قدميها فيما هي شبه مضطجعة على الأريكة، وباقي الأصحاب المتحلّقين حول المدفأة يتحدّثون في السياسة أو الصناعة. كما انتبه بشيء من اللذّة والغرور إلى أنّها تتعمّد ارتداء ثوب مكشوف الصدر

حين تكون في انتظاره، وأنّها غالباً ما يحمرّ خدّاها تحت سطوة نظراته فتشيح برأسها عنه تلقائيّاً.

ومع ذلك، يوماً بعد يوم، أحسّت ماتزا بنفسها منجذبة إلى منحنىً من الأفكار المجهولة، إلى هدفٍ غامض، غير محدّد، فتأخذها الرعدة أحياناً وتريد التوقّف عند حافة الهاوية متّخذةً قرارات حازمة بالتخلي عن إرنست وعدم رؤيته مجدّداً.

لكنّ الفضيلة سرعان ما تتبخّر لَدُنَ ابتسامة من ثغرِ محبوب. لاحظ أيضاً أنّها كانت تهوى الشعر، والبحر، والمسرح، وبايرون[1]، فأجملَ كلَّ هذه الملاحظات في واحدة قائلاً: «إنّها بلهاء، وسأوقع بها». أما هيَ فغالباً ما كانت تقول لدى رؤيته يرحل واصطفاق باب الدار خلفه: آه كم أحبّك! يُزاد إلى ذلك أنّ إرنست جعلها تصدّق علميْ قيافة الدماغ[2]، والتنويم المغنطيسيّ، وأنّ ماتزا كانت في الثلاثين من عمرها، وكانت وفيّة لِزوجها المصرفيّ، وتطرد في كلّ يوم الشهوات المتولّدة في نفسها، وأنّ الشغف بالنسبة لها بين ذراعي ذاك الرجل أشبه ما يكون بواجبٍ عليها القيام به- ولا شيء أكثر- يوازي واجب الإشراف على خدّامها وإلباس أطفالها.

2

وطويلاً أنِست ماتزا إلى هذه الحالة من العشق الحالم المشوب بالورع. راقت لها هذه الرغبة غير المسبوقة، وآلفت هذا الحبّ طويلاً، أطالت في

(1) بايرون: George Gordon Byron (1788–1824) شاعر انكليزي ويُعدّ أنموذجاً عالميّاً للشعر الرومنطيقيّ.

(2) دراسة شكل الجمجمة بوصفة دليلاً على الشخصيّة العقليّة.

مؤالفته أكثر من أحلام الحبّ الأخرى وتشبّثت به بقوّة، بدافع العادة أوّلاً، ثمّ الحاجة ثانياً.

من الخطير التلاعب بالشغف لأنّه أشبه ما يكون بسلاح ناريّ ينطلق على حين غفلة ويرديك قتيلاً.

ذات يوم جاء إرنست في ساعة مبكرة جدّاً عند السيدة فيلر. وتسنّى له الانفراد بها لأنّ زوجها كان في البورصة، وأطفالها خارج المنزل.

لازمها طيلة النهار ولم يغادرها إلّا عند الساعة الخامسة مساءً، فمكثت ماتزا حالمة حزينة لرحيله ولم يغمض لها جفن طيلة الليل.

كانا قد استغرقا طويلاً في أحاديثهما وأعربا عن انجذابهما المتبادل، متطرّقَين إلى الشعر، والصبوات العميقة والجارفة كتلك التي تحدّث عنها بايرون، ثمّ تظلّما من القيود الاجتماعيّة التي تكبّلهما وتفرّقهما إلى الأبد.

كذلك كانا تطرّقا إلى آلام القلب، وشجون الحياة والموت والطبيعة وبحرها المزمجر في الليالي. شعرا أخيراً أنّهما أدركا معاني الوجود. ونطق شغفهما ونظراتهما بمكنونات قلبيهما أكثر من شفاههما التي تلامست غالباً.

وذات يوم من شهر مارس، من تلك الأيّام القاتمة الكئيبة التي تبثّ في النفس مرارة غامضة، كان لكلماتهما وقع حزين. لا سيّما كلمات ماتزا التي اكتُنفت بكآبة عذبة شجيّة.

كلّما همّ إرنست بأن يقول لها إنّه يحبّها حبّاً أبديّاً، أو بدرت منه ابتسامة أو نظرة، أو صرخة حبّ، تمنّعت ماتزا عن الاستجابة إليه خلا نظراتٍ من عينيها الواسعتين السوداوين، وكانت هناك شاحبة الجبين، فاغرة الفم.

طيلة النهار أحسّت بضيق، وكأنّ يداً من رصاص كانت رابضة على

صدرها. استولى عليها الخوف- دون أن تعرف سبباً له- وأنست إليه في آنٍ لغرابته الحالمة وامتزاجه بالحبّ والخشوع.

ثمّ أرجعت أريكتها إلى الخلف مرتعبة من ابتسامة إرنست البهيميّة المتوحّشة. لكنّه اقترب منها على الفور، وأمسك بيديها وقبّلهما. فاحمرّ وجهها وقالت له بنبرة هادئة مصطنعة:

- أتراكَ ترغبُ في التغزّل بي؟

- التغزّل بكِ يا ماتزا؟ أنت؟

وكان ذاك الجواب محمّلاً بالمعاني.

- هل تحبّني؟

نظر إليها مبتسماً.

- إرنست لا يليق بك أن تفعل ذلك.

- لماذا؟

- لديّ زوج. هل فكّرت بالأمر؟

- لديك زوج.... وإن يكن؟

- عليّ أن أخلص له الحبّ.

- هذا أسهل قولاً منه فعلاً. إذا أمرتك الشريعة بأن تحبّيه أطاع قلبك كما يأتمر الجندِ بقائدهم، أو كما يلتوي قضيب حديد بين يَدَينا. وإذا قلت لك أنا إنّني أحبّك...

- اصمت يا إرنست، فكّر بما يمليه عليك الواجب حيال امرأة تستقبلك في بيتها كما أفعل، منفردة بك منذ الصباح في غياب زوجي، لا مُعين لي سوى تفهّمك.

- تقصدين أنّه يفترض بي أن أكفّ عن حبّك لأنّ هذا ما يمليه عليّ الواجب، ولا شيء غير ذلك. ولكن هل هذا تصرّف حكيم

وعادل برأيك؟

- آه، ليست الحجج هي ما ينقصك يا صديقي العزيز.

قالت ماتزا وهيَ تميل برأسها على كتفه اليسرى وتقلّب في أصابعها علبة من العاج.

أفلتت خصلة من شعرها وسقطت على خدّيها فأرجعتها إلى الوراء بحركة من رأسها مليئة ظرفاً وجرأة.

نهض إرنست مراراً ليأخذ قبّعته وكأنّه يهمّ بالخروج ثمّ يعود للجلوس من جديد مستأنفاً حديثه.

وغالباً ما كان كلاهما يصمتان ويتبادلان النظرات طويلاً صامتين حابسَين أنفاسهما، منتشيَين مأخوذين بنظراتهما وتنهّداتهما. وفي لحظةٍ ما، رأت ماتزا إرنست جالساً على سجّادة غرفتها، مسنداً رأسه إلى ركبتيها، شعره مردود إلى الخلف، وعيناه قريبتان من صدرها، وجبينه الأبيض الأسيل هناك أمام فمها... رأت كلّ هذا وشعرت أنّها على شفا الانهيار من السعادة والحبّ. شعرت بميل قويّ إلى احتضان رأسه بذراعيها وضمّه إلى صدرها وغمْره بالقبلات.

قال لها إرنست:

- غداً أكتب لكِ. وداعاً.

وخرج.

مكثت ماتزا طويلاً تتجاذبها أشجان غريبة، وأحاسيس غامضة، وأحلام خفيّة. استيقظت في الليل. كان مصباحها مشتعلاً؛ ارتسمت على السقف حلقة نيّرة مرتعشة وامضة كعين شرّيرٍ تحدّق بها. وظلّت ماتزا ساهرة حتّى الصبح تستمع إلى طنين ساعة الكنيسة المتكرّر، وتصغي إلى كلّ جلبات الليل: المطر ينقر الجدران، والرياح تهبّ وتعصف في

الظلمات، والمصاريع تهتزّ، وخشب السرير يئزّ لكلّ حركة تقوم بها وهي تتقلّب في فراشها مشتملةً بأغطيتها فيما تصطرع في داخلها أفكار مضنية وخيالات مرعبة.

من ذا الذي لم يشعر في ساعات الحمّى والهذيان بهذه الأشواق الدفينة التي تتنازع القلب، واختلاجات النفس حين تنتهبها أفكار مبهمة ومفعمة بالآلام والشهوات، أفكار تلوح غامضة في البداية، حائرة كشبح ثمّ لا تلبث أن تترسّخ وتثبت متّخذة شكلاً وجسداً، تغدو صورة، صورة مكتملة لصبابتك تجعلك في بكاء ونحيب؟

مَن ذا الذي لم يرَ في لياليه الملتاعة، حين يشتعل جسدك ويتأكّل الأرق روحك، طيفاً شاحباً حالماً جالساً عند أسفل سريرك ينظر إليك بحزن؟ أو ربّما ظهر في حلّة العيد... إذا رأيته يرقص في حفل متدثّراً بأوشحة سوداء، باكِياً فتذكّرْ كلماته ونبرة صوته وشجن عينيه.

مسكينة ماتزا، إنّها المرّة الأولى التي تشعر فيها بالحبّ. غدا ذلك بالنسبه إليها حاجة ملحّة، وهذيانَ قلب، وولهاً. لكنّها لسذاجتها وجهلها، رسمَت لنفسها سريعاً مستقبلاً مكلّلاً بالسعادة، وحياة هنيئة حيث تنهل من الشغف فرحاً، ومن الشهوة سعادة.

أفلا يسعها أن تعيش سعيدة بين ذراعي من تحبّ حتّى لو خانت زوجها؟ ولكن أيّ أهميّة للخيانة قياساً إلى الحبّ؟، كانت تتساءل في سرّها. يعذّبها هذيان القلب هذا لكنّها لا تني تغرف من معينه كمن يجد لذّة عارمة في السكْرِ والشراب يلهب أحشاءه. آهٍ كم هي مضنية ومريرة اختلاجاتُ القلب وأشجانُ النفس حين يتنازعها عالم الفضيلة المدبر ومستقبل الحبّ الآتي!

في اليوم التالي تلقّت ماتزا رسالة. كانت مكتوبة على ورق صقيلٍ

معطّرة بالورد والمسك ومهورة بحرف «إ». لا أعرف ما كان فيها. لكنّ ماتزا أعادت قراءتها عدّة مرّاتٍ مقلّبةً الورقتين متفحّصةً ثنيتهما منتشيةً برائحتهما العطرة. ثمّ دعكت الرسالة بين يديها كرةً صغيرةً ورمتها في النار. تطاير الورق المشتعل لبعض الوقت ثمّ عاد ليحطّ بهدوء على منصب الحطب المشتعل كنسيج رقيق أبيض متموّج.

- إرنست يحبّها. قال لها ذلك. آهٍ ما أسعدها! أنجزت الخطوة الأولى. أمّا الخطى الأخرى فلم تعد تكلّفها الكثير. بإمكانها الآن أن تنظر إليه دون أن تحمرّ خجلاً، لن تعود بحاجة إلى الكثير من المداراة، ولا إلى حركاتٍ نسويّة صغيرة لتجتذب ودّه إليها. جاء إليها ومنحها نفسه. راعى حياءها، والحياء هو ما يتبقّى دوماً للنساء، هو ما يحتفظنَ به حتّى خلال غرامياتهنّ الأكثر ولهاً وشهواتهنّ الحرّى بصفته آخر محرابٍ للحبّ والشغف، آخر حجابٍ يُخفينَ خلفه كلّ ما فيهنّ من جموحٍ ونزق.

بعد بضعة أيّام عبرت امرأة ترتدي وشاحاً شبه مهرولة على «جسر الفنون»[1]. كانت الساعة تقارب السابعة صباحاً.

وبعد أن سارت طويلاً توقّفت أمام بوّابة عريضة وسألت عن السيّد إرنست. لم يكن قد خرج فصعدت. بدا لها الدرج لا متناهياً وعندما وصلت إلى الطابق الثاني اتكأت إلى الدرابزين وشعرت بنفسها متداعية واهنة. خالت آنذاك أنّ كلّ شيء يدور من حولها وأنّ أصواتاً خفيضة تهمس في أذنها وهي تصفر. وأخيراً وضعت يدها المرتجفة على الجرس. وعندما سمعت خفقانه الحادّ المتكرّر، شعرت برَجعِ صداه في قلبها. وكأنّها بفعل تنافر كهربائيّ.

(1) جسر الفنون: Pont des Arts، جسر يعبر نهر السين في وسط باريس.

وأخيراً فُتح الباب. كان إرنست نفسه.

- آه هذه أنتِ ماتزا!

لم تُجب. كانت شاحبة متصبّبة عرقاً. نظر إليها إرنست ببرودة وهو يفتل في الهواء شريط مبْذله الحريريّ. كان خائفاً من التورّط في هذه العلاقة.

وأخيراً قال:

- ادخلي. وأمسكها من ذراعها ثمّ أجلسها عُنوَة على إحدى الكنبات.

وبعد صمتٍ قالت له:

- جئت إرنست لأقول لك شيئاً. إنّها المرّة الأخيرة التي أكلّمك فيها. يجب أن تتركني، وألا أعود لرؤيتك أبداً.

- لأنّ...

- لأنّ وجودك يعذّبني ويرهقني، ولأنّك ستسبّب بموتي.

- أنا! غير معقول! كيف تقولين هذا يا ماتزا؟

ثمّ نهض ليسدل الستارة ويغلق الباب.

فهتفت مذعورة:

- ماذا تفعل بي؟

- ما الذي أفعله بك؟

- نعم.

- أنتِ في بيتي يا ماتزا، جئتِ إليّ من تلقاء نفسك. آهِ لا تنكري ذلك. أعرف النساء. قالها وهوَ يبتسم.

فأجابته بامتعاض:

- وماذا بعد... أكملْ...

- وما الفائدة يا ماتزا؟... هذا يكفي.

- ولديك ما يكفي منَ الوقاحة لتقول ذلك في وجه امرأة تدّعي أنّك تحبّها!

- آه سامحيني، سامحيني، وخرّ على ركبتيه ساجداً عند قدميها وهو يمعن النظر فيها.

- إرنست، أنا أيضاً أحبّك، أحبّك أكثر من حياتي. أرأيت؟، أمنحك نفسي.

وهناك على هذه الكنبة، بين أربعة جدران، تحت ستائر الحرير، أُهرقَ منَ الحب والقبلات واللمسات المثيرة والشهوات الحارقة أكثر ممّا ينبغي ليجعل المرء صريع الجنون أو الموت.

ثمّ بعد أن أفقدها كلّ عزم واستنفد قواها وأوسعها عناقاً وقبلات، وجعلها منهوكة متداعية مبهورة الأنفاس، وضمّها إليه مراراً معتصراً صدرها، ورآها متأوّهة تزهق أنفاسها بين ذراعيه... عندئذٍ تركها وحيدة ورحل.

وفي المساء في مطعم «فيفور» أقام عشاءً رائعاً حيث دارت الشمبانيا المبرّدة بغزارة على الساهرين. سمعوه يقول بصوتٍ عالٍ لدى تقديم التحلية:

- يا أصدقائي الأعزّاء، أضفت إلى لائحتي عشيقة جديدة.

أمّا المرأة فعادت إلى منزلها حزينة النفس، دامعة العينين، لا بسبب شرفها الضائع لأنّ هذه الفكرة لم تكن تعذّبها إطلاقاً. سبق لها أن تساءلت عن معنى الشرف وإذ لم تجد فيه إلّا مجرّد كلمة تافهة فقد صرفت النظر عنه. بل لأنّها كانت تفكّر بالمشاعر التي انتابتها ولم تلقَ لدى التفكير بها إلّا خيبة ومرارة. وقالت: لا، لم يكن هذا ما حلمت به.

بدا لها حين تحرّرت من ذراعَي حبيبها وكأنّ شيئاً في داخلها كان

مدعوكاً مثل ملابسها، ومنهكاً ومحبطاً مثل نظرتها، أو كأنّها سقطت من مكانٍ شاهق. لا يُعقل أنّ يتوقّف الحبّ عند هذا الحدّ. وتساءلت أخيراً عمّا إذا كان خلف الشهوة شهوة تتخطّاها وخلف اللذة متعة تفوقها. لا شيء كان يوازي عطّشها إلى الصبوات اللّامتناهية، وإلى الشغف المسعور.

ولمّا أدركت أنّ الحبّ مجرّد قبلات ومداعبات ولحظة هذيانٍ يحتدم فيها عناق العاشقين إلى حين بلوغ النشوة، وأنّ كلّ شيء ينتهي هنا، فينهض الرجل وترحل المرأة، وأنّ شغفها يحتاج إلى قليلٍ من العناق والاختلاج ليرتوي وينتشي... عندئذٍ انتهب السأم روحها كهؤلاء الجوعى الذين لا يجدون ما يقتاتون به.

لكنّها آثرت تناسي الماضي معرضةً عن التفكير إلّا في الحاضر الذي يبتسم لها. أغمضت عينيها عن كلّ ما هوَ غير موجود، وأبعدَت بحركة من رأسها الأحلام القديمة المتهادية وكآباتها الغامضة الحائرة مانحةً نفسها بكلّيّتها إلى التيّار الذي يجرفها إلى أن رست على هذه الحالة من الحزن المتهاون، هذه الفسحة بين النعاس والنوم حيث تشعر أنّك تغفو- وأنّك سكران- فيما العالم ينأى وتبقى بمفردك على قارب يتقاذفه البحر وتهدهده الأمواج. لم تعد ماتزا تفكّر لا بزوجها ولا بأولادها ولا بسمعتها التي أخذت النسوة الأخريات يتهافتن على الطعن بها في المجالس، ويتندّر بها الشبّان، أصدقاء إرنست، قدرَ ما يحلو لهم في المقاهي والخمّارات ممعنين في تلطيخها.

لكنّها فَطِنَتْ فجأةً إلى لحنٍ مجهولٍ لم يسبق لها أن سمعته من قبل في الطبيعة، أو في نفسها. واكتشفت في الطبيعة وفي نفسها عوالم جديدة، مسافات شاسعة وآفاقاً لا حدّ لها. بدا لها أنّ كلّ شيء وُجِدَ من أجل الحبّ، وأنّ الرجال مخلوقات من نسق علويّ قادرة على الشغف

والمشاعر، ولا تصلح إلّا لتعيش من أجل القلب. أمّا زوجها فكانت تحبّه على الدوام وتحترمه، ويبدا لها أطفالها ظرفاء لكنّها كانت تحبّهم كمن يحبّ أطفالَ سواه.

وفي كلّ يوم كانت تشعر بحبّها لإرنست يزداد، وأنّه علّة وجودها وأنّها لا تستطيع أن تعيش من دونه. لكنّ هذا الهوى الذي استخفّت به في البداية غدا أمراً جدّياً وراعباً ما إن تسرّب إلى قلبها، أصبح حبّاً عنيفاً ثمّ جنوناً مسعوراً.

مَلَكَ داخلَها شغفٌ ونزقٌ، ورغبات شاسعة جمّة، وتعطُّش لا يُحَدّ للملذّات والشهوات التي كانت تغلي في دمها، وتسري في عروقها، وتتغلغل تحت جلدها، وتربو تحت أظافرها. باتت مجنونة وسكرى وهائمة؛ أرادت أن تُخرِج حبّها من الحدود التي رسمتها له الطبيعة. وشعرت أنّها كلّما جادت باللمسات وأطالت المُتَع، وأهرقت حياتها في ليالٍ لاهبة وتمرّغت في مرابع الشغف معانقةً جنونه وسموّه، انفتحت أمامها عوالم جديدة تتّصل فيها شهوات أكبر بملذّات أرحب.

وغالباً ما كانت تشعر وهي في غمرة انخطافها وهذيانها أنّ الحياة ليست إلّا الشغف، وأنّ الحبّ يختصر الوجود، فتنثر شعرها على كتفيها وتتوقّد نظرتها ويلهث قلبها بالشهقات. كانت تسأل عشيقها عمّا إذا كان يتمنّى مثلها العيش لقرونٍ معاً وحيدين على قمّة جبلٍ عالٍ، أو على صخرةٍ مسنّنة، تتكسّر عند أسفلها الأمواج، حيث يتّحد كلاهما بالطبيعة والسماء ويمزجان تنهّداتهما بصخب العاصفة. ثمّ تنظر إليه طويلاً وتستزيد منه القبل والعناق، إلى أن تسقط بين ذراعيه خرساء فاقدةً وَعيها.

لكنْ عندما يعود زوجها إلى البيت في المساء هادئاً، منشرح الأسارير، ويخبرها أنّه زاد في ذلك اليوم أرباحه عقبَ مراهنة جيّدة عقدها في

الصباح واشترى مزرعة وباع قطعة أرضٍ، وأنّه يستطيع أن يضيف خادماً إلى حاشيته، ويشتري حصانَين إضافيَّين لحظائره، ثمّ يهمّ بتقبيلها ويناديها قائلاً إنّها حبّه وحياته... عندئذٍ يتملّكها غضب مسعور فتلعنه في قلبها وتنفر مرتعدةً من لمساته وقبلاته التي كانت باردة مرعبة وكأنّ قرداً لمسها وقبّلها. كان حبّها مكتنَفاً بألم ومرارة، مثل حثالة النبيذ التي تجعله أكثر حدّة وحرقة.

وعندما تغادر منزلها وأسرتها وخدّامها، وتذهب لتختلي بإرنست وتجلس بجواره، عندئذٍ كانت تقول له إنّها تفضّل الموت على يده، مخنوقة بذراعيه، وإنّها لم تعد تحبّ شيئاً، وباتت تمقت كلّ شيء. لا تحبّ إلّاه. من أجله تخلّت عن الله وضحّت به على مذبح حبّه، من أجله تخلّت عن زوجها وحوّلته هزأة، من أجله تخلّت عن أولادها. يخامرها احتقار جارف لكلّ ما عداه، وازدراء للدّين والفضائل كلّها. لقد باعت سمعتها بلمسةٍ منه، وأطاحت راضية مسرورة بكلّ هذه المعتقدات والأوهام، وبذلت عفّتها، وكلّ ما تحبّه في سبيل أن تنال إعجابه، لتحظى منه بنظرة أو بقبلة. كان يبدو لها أنّها أجملُ خارجةً من ذراعيه، راويةً غليل شفتيها من قبلاته، كالبنفسج حين يشيع بذبوله أريجاً أعذب وأطيب.

من ذا الذي يقدر على سبر أغوار الشهوة والجنون اللّذين يخفق بهما نهدا امرأة؟

إلا أنّ إرنست أخذ يحبّها أكثر بقليلٍ من تعلّقه بعاملة شابّة غنجة أو بممثّلة مسرح ثانويّة. وذهب إلى حدّ نظم الأشعار لها واهدائها إيّاها.

وفضلاً عن ذلك، رأيْتُه ذات يومٍ محمرّ العينين فتسنّى لي الاستنتاج أنّه بكى أو... نام بشكلٍ سيّء.

3

وذات صباح، فكّر في ماتزا... كان جالساً على كنبة مطّاطيّة فسيحة، واضعاً قدميه على المنصب، مخفياً أنفه في مبذله مطرقاً، شاخصاً إلى ألسنة النار تفرقع وتشرئبّ. خطرَت له إذ ذاك فكرة مفاجئة أرعبته أشدّ الرعب.

خطر له أنّ امرأة من صنف ماتزا تحبّه وتبذل في سبيله، غير آبهة، مفاتنَها وعواطفَها السخيّة، فخاف وارتعش أمام انشغافها كخوف الأطفال حين يتراجعون أمام البحر ويهربون بعيداً إذ يروعهم اتّساعه. أقول لكم إنّ فكرة أخلاقيّة جاءته، وتلك عادة درَجَ عليها ما إن اشترك في «صحيفة المعارف المفيدة[1]»، وفي «متحف العائلة[2]». رأى أنّه ليس أخلاقيّاً إغواء امرأة متزوّجة، وصرفها عن واجباتها الزوجيّة، وعن حبّ أولادها، وأنّه ليس مسوّغاً له أن يستقبل منها كلّ هذه التقدمات وكأنّه إله تُرفَع على مذبحه القرابين.

كان يشعر بالسأم من هذه المرأة التي تأخذ اللذّة على محمل الجدّ ولا

---

(1) «جريدة المعارف المفيدة» *Le Journal des connaissances utiles*: نشرة شهريّة أنشأها إميل دو جيراردان Emile de Gérardin عام 1831، وهو صحافي وسياسي فرنسي لم يكن لا مع الديمقراطيّة ولا مع الحكم الملكيّ، ولكنّه دافع عن حريّة الصحافة. كانت الجريدة بخمسة الثمن (أربعة فرنكات في السنة) وظلت تصدر حتّى عام 1848. أعدادها مقسّمة إلى الأبواب التالية: «تربية» (أخلاق وسياسة وثقافة)، «عمل»، «اقتصاد»، بالإضافة إلى مقالات كثيرة عن التعليم والزراعة، وكذلك عن فنّ السعادة وإشغال وقت الفراغ.

(2) «متحف العائلة» *Musée des Familles*: نشرة كانت تصدر في أوقات محدّدة أنشأها أيضاً إميل دو جيراردان عام 1833 وأراد أن يجعل منها «متحف لوفر شعبياً»، وأن تطال الطبقات الفقيرة وقليلة الثقافة. نجد فيها الكثير من الأخبار التاريخيّة، ومقالات عن التاريخ الطبيعيّ، والعادات في البلدان الأخرى، وسيَر أعلام.

تتصوّر الحبّ إلّا مستحوِذاً لا يمكن تقاسمه مع امرأة أخرى، ولا يمكن التحدّث معها عن الروايات أو الموضة أو الأوبرا.

أراد أوّل الأمر أن ينفصل عنها ويهجرها، أن ينبذها لتنضمّ إلى قافلة النساء الأخريات الذاويات مثلها. لاحظت ماتزا لا مبالاته وفتوره ونسبت ذلك إلى رهافته مّما زاد من حبّها له.

غالباً ما كان إرنست يتجنّبها ويفرّ منها لكنّها كانت تعرف دوماً أين تلتقيه، في الحفل الراقص، والجادّات، والحدائق العامّة، والمتاحف. وتعرف كيف تتغلغل إلى مجالسه فتقول له كلمتين وتربكه أمام كل هؤلاء الناس الذين ينظرون إليهما باستغراب. وفي مرّات أخرى كان هوَ من يُبادر بالمجيء إلى منزلها فيدخل مقطّب الجبين متجهّماً، وكانت المرأة العاشقة تهرول لعناقه وتغمره بالقبلات لكنّه يبعدها عنه ببرودة قائلاً لها إنّهما يجب أن يفترقا، وإنّ لحظات الهذيان والجنون ولّت إلى غير رجعة، وبات ملحّاً أن ينتهي كلّ شيء بينهما. حريّ بها أن تحترم زوجها، وتحبّ أولادها، وتسهر على أسرتها. ثمّ يختم بقوله إنّه رأى ودرس كثيراً في حياته وخلص إلى الاقتناع بحكمة العناية الإلهيّة، وبأنّ الطبيعة تُحفة بديعة، والمجتمع خلقٌ مثير للإعجاب، وبأنّه يحسن بالإنسان محبّة البشر والعمل من أجل الخير العامّ.

وعندئذٍ كانت ماتزا تبكي غضباً وكبرياء وحبّاً. وتسأله، والابتسامة على ثغرها، والمرارة في قلبها، عمّا إذا لم تعد جميلة في نظره، وماذا يجدر بها أن تفعل لكي تروق له. ثمّ تبتسم له عارِضة أمام ناظريه جبينها الشاحب، وشعرها الأسود، وصدرها، وكتفيها، ونهدَيها العاريين.

كان إرنست يبقى عديم الإحساس حِيالَ هذه الإغراءات لأنّه أقلع عن حبّها. وإذا خرج من عندها منفعلاً بعض الشيء فإنّه كالانفعال

الذي تتركه في النفس زيارة المجانين. وإذا ما نفذ إلى قلبه قبسُ شغفٍ أو شعاعُ حبٍّ سارع إلى إخمادهما بحجّة أو برهان.

طوبى لمن يقدر على محاربة العواطف بالكلمات، وتدمير الشغف المتجذّر في النفس بعبارة أخلاقيّة تلتصق بالكتب كما يلتصق بها برنيق الكُتبيّ أو رسوم الفنّان على الغلاف.

وذات يوم، وفي حميّا غضبها وهذيانها، عضّته ماتزا في صدره وأغرزت أظافرها في عنقه. حين رأى إرنست أنّ شيئاً من الدم بات يشوب غراميّاتها، أيقن أنّ شغف هذه المرأة متوحّش رهيب. وشعر أنّ جوّاً مسموماً يشيع من حولها ليخنقه ويميته في نهاية المطاف، وأنّ هذا الحبّ بركان ثائر يجب إلقامه باستمرار لئلّا يلتهمه ويطحنه في هياجه، وأنّ شهواتها حمم حارقة لن تلبث أن تُذيب قلبه. يجب الرحيل إذاً، والافتراق عنها إلى الأبد، أو الارتماء معها في هذه الدوّامة التي تجرفه مثل دوار، أو السير على ذاك الدرب المهول للشغف الذي يبدأ بابتسامة ولا ينتهي إلّا في قبر.

آثر الرحيل.

وذات مساء، عند الساعة العاشرة، استلمت ماتزا رسالة، وكلّ ما فهمته منها هذه الكلمات:

«وداعاً ماتزا.

لن أراكِ بعد اليوم. انتدبني وزير الداخلية ضمن لجنة علميّة أوكلتْ إليها مهمّة دراسة منتوجات المكسيك وتربتها. وداعاً، سأنطلق من مرفأ الهافر. إذا أردتِ أن تكوني سعيدة فكفّي عن حبّي. أحبّي فقط الفضيلة وواجباتك. إنّها وصيّة أخيرة. مرّة أخرى الوداع. أقبّلك.

إرنست»

قرأت الرسالة عدّة مرّاتٍ وقد أثقلت عليها كلمة «الوداع» هذه. مكثت جامدة محدّقة إلى الرسالة التي كانت تحوي في طيّاتها كلّ تعاستها ويأسها. رأت سعادتها وحياتها تفرّان منها وتختفيان بعيداً. لم تذرف دمعة ولم تطلق صرخة، بل قرعت جرس الخادم وأمرَته بأن يذهب للإتيان بأحصنةٍ من المحطة وتجهيز عربة صغيرة لها.

كان زوجها مسافراً إلى ألمانيا، ولا أحد يمكنه إذاً أن يعترضها في مسعاها.

وفي منتصف الليل انطلقت. أخذت تحثّ الأحصنة على أن تجدّ السير لكلّ سرعتها. توقّفت في إحدى القرى لتروي عطشها. ثمّ انطلقت وهي تحسب أنّها وراء كلّ ساحل، وكلّ تلّة، وكلّ منعطف طريق، سترى البحر. وكانت ترتوي من رغباتها وغيرتها من البحر لأنّه سيخطف منها محبوباً غالياً.

وأخيراً حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، وصلت إلى المرفأ.

وما إن نزلت حتّى هرولت إلى آخر الرصيف مستطلعة البحر... رأت شراعاً أبيض يتوغّل عند الأفق.

4

رحل... رحل إلى الأبد... رفعت وجهها الذي تغشاه الدموع وما عادت ترى شيئاً... إلّا اتّساع المحيط الهائل.

كان أحد أيّام الصيف الحارّة. وكانت تنبعث من الأرض أبخرة حارّة كالهواء المتأجّج المتصاعد من فرن. عندما وصلت مائزا إلى رصيف الميناء، أنعشتها نداوة البحر المالحة بعض الشيء. كان نسيم جنوبيّ ينفخ الأمواج

ويقذفها لتتكسّر برخاوة على الشاطئ محشرجة على الحصى.

كانت الشمس الغاربة تلتمع متوهّجة فوق البحر، لكنّ الغيوم السوداء أخذت تتراكم كثيفة إلى جهة اليسار حتّى لكأنّها ستنفجر باكية.

والبحر يتقاذف أمواجه من غير هياجٍ منشداً أغانيَ حزينة، متدفّقاً يتكسّر على حجارة الرصيف، والأمواج تقفز في الهواء لترتدّ ثانيةً رماداً فضيّاً.

انبعثت من المشهد سمفونيّة متوحّشة. أصغت ماتزا إليها طويلاً مسحورة بجبروتها. سمعت في هدير الأمواج لغة وصوتاً. مثلما كان البحر حزيناً مفعماً بالأسى. مثلما كانت أمواجه تأتي لتتلاشى متكسّرة على الحجارة ولا تترك على الرمل المبتلّ إلّا آثار عبورها.

رأت نبتة طالعة من شقّي الصخرة تحني ساقها المليئة بالرذاذ. كان الموج يسفعها في كلّ مرّة محاولاً اقتلاعها من أصولها إلى أن تمكّن منها أخيراً وواراها عن النظر. ومع ذلك كانت نبتة فتيّة مزهرة. ابتسمت ماتزا بمرارة. هي أيضاً كمثل هذه الزهرة اقتلعتها الأمواج ولمّا تزل في ريعان ربيعها.

عاد بعض البحّارة راقدين في قواربهم جاذبين خلفهم حبال شباكهم. وكانت أصواتهم تهتزّ في البعيد ممتزجة بزعيق الطيور الليليّة التي راحت تحلّق بأجنحتها السوداء فوق رأس ماتزا ثمّ تتّجه إلى الشاطئ الرمليّ منقضّة على الفضلات التي جرفتها المياه لدى انحسارها.

وعندئذٍ سمعت من عمق الهاوية صوتاً يُناديها. أحنت رأسها فوق الهاوية وأخذت تحسب كم يلزمها منَ الدقائق والثواني لتزهق أنفاسها وتموت. كان كلّ شيء في الطبيعة يحاكي حزنها. بدا لها أنّ الأمواج تتنهّد وأنّ البحر يبكي.

بَيْدَ أنّني لا أعرف أيّ قدرٍ بائسٍ أملى عليها أن تستمرّ في الحياة مصوّراً لها أنّ السعادة والحبّ لا يزالان ينتظرانها على هذه الأرض، وأنّها ما عليها سوى الترقّب والرجاء، وأنّها سترَى الحبيب ثانية.

ثمّ هبط الليل وظهر القمر وسط محظيّاته النجوم مثل سلطان بين حريمه، ولم يعد يُرى إلّا الزبد الملتمع على رؤوس الأمواج، كالزبد يسيل من أفواه الجياد. وبينا أخذ صخب المدينة يتلاشى في الضباب مع انطفاء أنوارها، قفلت ماتزا عائدة.

وفي الليل المتأخّر، ربّما كانت الساعة تقارب الثانية – فتحت زجاج النوافذ ونظرت إلى الخارج... امتدّ أمامها سهل وكانت الطريق محفوفة بالأشجار. تسرّبت أنوار الليل عبر أغصانها وبدَت وكأنّها أشباح هائلة الأحجام تهرول أمامها وتحرّك على هوى الريح التي تصفر بين الأوراق شعورها المشعثّة.

إلى أن توقّفت العربة وسط الريف لأنّ أحزمتها انقطعت. كان الظلام لا يزال مخيّماً. ولم يكن يُسمع إلّا حفيف الأشجار ولهاث الأحصنة المتصبّبة عرقاً، وشهقات امرأة وحيدة تبكي.

وعند الصباح، رأت أناساً يذهبون إلى المدينة القريبة حاملين إلى السوق الثمار المغطّاة بالطحالب والأوراق الخضراء. كانوا ينشدون الأغاني. وبما أنّ الطريق كانت صاعدة والأحصنة تسير الهوينى، استمعت إليهم طويلاً. وقالت: «آهٍ كم أنّ هناك أناساً سعداء!».

طلع النهار مشرقاً. ألفت نفسها في ساحة كنيسةٍ في قريةٍ تبعد مسافة قصيرة عن باريس. كان يومَ أحدٍ وقد خرج الناس من منازلهم. كانت الشمس مشعّة تنعكس على ديك دوّارة الريح في أعلى قبّة الكنيسة، وتنير نجيمتها المتواضعة. لمحت ماتزا من عمق عربتها، عبر الأبواب

المفتوحة، صحن الكنيسة من الداخل والشموع النحيلة المتلألئة في الظلّ على المذبح. رأت القبّة الخشبيّة المطليّة باللّون الأزرق والأعمدة الحجريّة القديمة البسيطة الشاحبة، فسلسلة المقاعد حيث جلس جمعٌ غفير يرتدي ملابسَ مرقّشة وملوّنة. سمعت الأرغن يصدح بأنغامه، ثمّ تدفّق الجمهور المصلّي خارج الكنيسة. كان بعضهم يحملون باقات من الأزهار الاصطناعيّة ويرتدون جوارب بيضاء. فأيقنت أنّه يجري الاحتفال بعرس.

زغردت طلقات رصاص من البنادق في الساحة وخرج العريسان.

كانت العروس ترتدي قلنسوَة بيضاء، وتنظر مبتسمة إلى عرى حزامها المشغولة بالدانتيل المطرّز. وكان العريس سائراً إلى جانبها، وهو ينظر إلى الحشد مبتهجاً، وتقدّم يصافح الكثيرين.

كان عمدة القرية، وهو صاحب نزل، يزوّج ابنته إلى مساعده، معلّم المدرسة.

توقّف حشد من الأطفال والنساء أمام ماتزا يتفحّصون العربة الجميلة، والمعطف الأحمر المتدلّي من الباب، كانوا كلّهم يبتسمون ويتحدّثون بصوتٍ عالٍ.

وعندما جرى تبديل العربة، صادفت في آخر القرية الموكب الداخل إلى دار البلديّة وارتسمت على ثغرها ابتسامة عندما رأت زبد أحصنتها يتساقط على العروسين والغبار المتصاعد من حوافرها يلطّخ ملابسهما البيضاء. مدّت رأسها ورمقتهما بنظرة إشفاق مشوب بالحسد.

ذلك أنّها تحوّلت من امرأة تعيسة إلى امرأة شرّيرة وغيورة. والشعب الكاره آنذاك للأغنياء ردّ عليها بشتائم مهينة وأخذ يرمي الحجارة على رموز النبالة التي تزيّن عربتها.

أثناء المسير الطويل، تطاير الغبار على شعرها الأسود، واسترسلت في نُوامٍ خفيفٍ على إيقاع حركة النوابض، ورنين الجلاجل. راحت تفكّر بعرسِ القرية وعزف الكهان متقدّماً الموكب، وأنغام الأرغن، وثرثرة الأطفال بالقرب من عربتها. اصطخب كلّ ذلك في أذنيها كطنين نحلٍ أو فحيح أفعى.

كانت متعبة ويزيد من إرهاقها الحرّ الذي يلهب جلود العربة، والشمس التي تلفحها مباشرةً. خفضت رأسها على وسائد من القماش الأزرق وغفت.

ولم تصحُ من غفوتها إلّا عند مداخل باريس.

ما إن نغادر القرية والحقول إلى شوارع المدينة، حتّى يبدو النهار قاتماً مسدلة ستائره كما في المسارح الشعبيّة الكئيبة المضاءة بشكلٍ سيّئ. توغّلت ماتزا بلذّة في الشوارع الأكثر التواءً وانتشت بالصخب والدمدمة التي انتشلتها من غفلتها وأحالتها إلى العالم الخارجيّ. كانت ترى جميع الرؤوس التي توالت سريعاً بمحاذاة بابها كمثل أطياف مسرح الظلّ، وبدت لها باردة، شاحبة، عديمة الإحساس. نظرت بدهشة للمرّة الأولى إلى البائس الذي يمشي حافي القدمين على الأرصفة، الحقد في قلبه والابتسامة على شفتيه كيما يخفي ثقوب أسماله. نظرت إلى الحشد الذي كان يتوغّل في المسارح والمقاهي، وإلى عالم الخدم والأسياد الكبار منبسطاً أمامها بكليّته كمعطف ملوّن في حفل استعراض.

بدا لها كلّ ذلك مشهداً هائلاً، أو مسرحاً فسيحاً بقصوره الحجريّة، ومخازنه المضاءة، وثيابه البرّاقة، ومشاهده الخرقاء، وصولجاناته الكرتونيّة وممالكه الواهية التي تدوم يوماً. هنا عربة الراقصة تلطّخ الشعب، وهنالك يموت الرجل جوعاً وهوَ يرى أكواماً من الذهب خلف الواجهات. وفي

كلّ مكان ضحكات ودموع، غنىً وبؤس، في كلّ مكانٍ الرذيلة التي تشتم الفضيلة وتبصق في وجهها، كوشاح بائعة الهوى البالي يلامس لدى عبوره بذلة الكاهن السوداء.

آهٍ من المدن الكبيرة، من جوّها الفاسد المسموم الذي يُسكِر ويبعث على الدوار. ثمّة شيء ثقيل وموبوء يجثم فوقها كمثل أبخرة الضباب القاتمة التي تغمر مساءً قببَها.

تنشّقت ماتزا هذا الهواء الموبوء ملء رئتيها وكأنّه عطر، وللمرّة الأولى أدركت رحابة الرذيلة وغُلمة الجريمة.

وحين عادت إلى منزلها بدا لها أنّ زمناً طويلاً مرّ على غيابها وكأنّ العذاب الذي قاسته في ساعات قليلة عُمرٌ بأكمله. أمضت الليل تبكي وتتذكّر باستمرارٍ فصولَ رحيلها وعودتها. استرجعت في ذهنها القرى التي اجتازتها والطرقات التي عبرتها. شعرت أيضاً أنّها لا تزال هناك على رصيف الميناء تنظر إلى البحر والشراع المسافر. تذكّرت أيضاً العرس وثياب الاحتفال وابتسامات السعادة. ما برحت تسمع أزيز عربتها على بلاط الطرقات، والأمواج المزمجرة والمتواثبة عند قدميها. ثمّ ذعرت من بطء الوقت. بدا لها أنّها باتت عجوزاً شائبة، وأنّ دهراً أهرمَها، فالألم يبرّح النفس ويُخمد ألقها، والكآبة تنهش القلب نهشاً، والأفكار السوداء تحفر في الوجه التجاعيد أثلاماً.

وتذكّرت بابتسامة متحسّرة أيّام سعادتها، وعطلاتها الهانئة على ضفاف نهر اللوار حيث كانت تجري في الممرّات بين الغابات وتداعب الأزهار وتبكي لدى مرور المتسوّلين. تذكّرت حفلاتها الراقصة الأولى وإتقانها الرقص، وكم كانت تهوى الابتسامات الظريفة والكلمات الودودة. واستحضرت أيضاً ساعات اضطرابها المحموم وهذيانها بين

ذراعَي عشيقها، ولحظات انخطافها وغضبها حين أرادت أن تدوم كلّ نظرة قروناً وأن تُختصَرَ الأبديّة في قبلة. تساءلت حينئذٍ هل تلاشى كلّ ذلك وامّحى إلى الأبد... كغبار الطريق وثلم السفينة على أمواج البحر.

5

وأخيراً ها هيَ تعود، ولكنْ وحيدة. لا أحد ليسندها، ولا شيء لتحبّه. ما العمل إذاً وأيّ قرارٍ عليها اتّخاذه؟ آهٍ كم تشتهي الموت والقبر لو لم تكن تملك بالرغم من قرفها وسأمها قبساً من رجاء في قلبها!

لكنْ ما الذي كانت ترجوه؟

كانت هي نفسها تجهل الجواب. كلّ ما تعرفه أنّها لا يزال لديها إيمان بالحياة. كانت على ظنّها أنّ إرنست يحبّها إلى أن استلمت منه رسالة ذات يوم، وكانت خيبة أضيفت إلى سابقاتها.

كانت الرسالة طويلة مكتوبة بإتقانٍ، ومليئة بالاستعارات المنمّقة، والكلمات الرنّانة حيث يوصيها إرنست بأن تقلع عن حبّه، وتقوم بواجباتها الزوجيّة والدينيّة. ثمّ يُجزل إلى ذلك النصائح المتعلّقة بالعائلة وعاطفة الأمومة، وينهي الرسالة بمشاعر متحفّظة على طريقة السيّد دوبويي أو السيّدة كوتان[1].

(1) السيد دوبويي: جان- نيكولا دوبويي Jean- Nicolas de Bouilly (1736–1842) كاتب فرنسي عُرِف بمؤلّفاته التعليميّة الشعبيّة: «حكايا إلى ابنتي»، و«نصائح لابنتي»، و«حكايا مهداة إلى أطفال فرنسا» . أمّا السيّدة صوفي كوتان Sophie Cottin (1773–1807) فكاتبة فرنسيّة انتشرت أعمالها بنجاح في القرن التاسع عشر وحقّقت أرقاماً في المبيعات، منها «كلير دالب» و«مالفينا»، و«آميلي مانسفيلد»، «وماتيلد»، وهي روايات تخوض بطلاتها العديد من المغامرات العاطفيّة وبحثين على الحبّ والكآبة.

مسكينة ماتزا، منحت حبيبها الكثير من الحبّ والعاطفة والحنان، فجازاها بجفاء شديد البرودة، وتنصّل شديد التعقّل. فما كان منها إلّا أن تهاوَتْ من الخمود والقرف، وفكّرتْ يوماً: «أظن أنّ بإمكان المرء أن يموت حزناً».

وناب عن الشعور بالقرف شعور بالمرارة والحسد.

عندئذٍ بدا لها صخب العالم موسيقى ناشزة لعينة، والطبيعة هزأة الله. واعتملت الضغينة في قلبها ولم تترك مكاناً لسواها، وهانت في عينها كلّ أشياء هذا العالم. خلا رجلاً. وحين ترى في الحدائق العامة أمّهات برفقة أطفالهنّ يلاعبنهم ويبتسمن لمداعباتهم، أو ترى نساء مع أزواجهنّ، وعشّاقاً مع عشيقاتهم، حين كانت ترى أنّ كلّ هؤلاء الناس سعداء يبتسمون للحياة ويعشقونها، كانت تحسدهم وتلعنهم في آن. وودّت لو تستطيع سحقهم كلّهم تحت قدَمَيها. وحين تمرّ بهم تتعمّد رميهم بكلمة احتقار أو تفترّ شفتاها عن ابتسامةِ غرور متهكّم.

وإذا صدف وقيل لها إنّها سعيدة، أو إنّ لا شيء ينقصها لكي تكون سعيدة في حياتها إذ لديها الثروة والجاه، والصحة الجيّدة، والشباب النضر، ردّت بابتسامة فيها الغضب يعتمل في قلبها قائلة في نفسها: «يا لهم من أغبياء! يظنّون الهدوء سعادة ولا يعرفون أنّ خلف هذا الوجه المطمئنّ عذاباً ينتهب الضحكات».

ومنذ ذلك الحين أدركتِ الحياةَ على أنّها صرخة ألمٍ طويلة. إذا رأت نساء يتزيّن بفضائلهنّ، وأخريات بحبّهنّ، سخرت من الفضائل، ومن الحبّ. وإذا التقت أناساً سعداء مؤمنين بالله، سخرت منهم ضاحكة أو متهكّمة. وكان يحلو لها أن تغيظ الكهنة وتُحرجهم، لدى مرورها بهم، بنظرة داعرة أو ضحكة مستهزئة. أمّا الفتيات الشابّات والعذارى

فكانت تُخجلهنّ بقصصها عن الحبّ وحكاياها المليئة شغفاً. أنّى ذهبت كانت تثير التساؤلات عنها: مَن تكون هذه المرأة الشاحبة الناحلة، هذا الطيف الهائم بعينيه المتوقّدتين وهيئتها المرعبة وإذا شاؤوا التعرّف إليها لم يكونوا يجدون في حياتها إلّا ألماً وفي سلوكها إلّا قهراً.

والنساء، ما أمقتهنّ عندها، لا سيّما اليافعات والجميلات منهنّ. حين تراهن في إحدى المسرحيّات أو الحفلات الراقصة، على ضوء الثريّات والشموع، عارضاتٍ صدورهنّ المترقرقة المزيّنة بالدانتيل والألماس، وترى الرجال يُسارعون للردّ على ابتساماتهنّ ويمتدحونهنّ ويتغنّون بجمالهنّ، كانت ترغب لو أنّها تدعك تلك الملابس، وتلك الأنسجة الشفّافة المطرّزة، وأن تمرّغ في الوحل تلك الوجوه الظريفة والجبهات الهادئة الأبيّة. لم تعد تؤمن بشيءٍ إلّا بالشقاء والموت. كانت ترى الفضيلة كلمة تافهة، والدين شبحاً، والسمعة قناعاً مخادعاً كحجابٍ يستر التجاعيد. أخذت تجد مسرّة في الغرور، ولذّة في التهكّم والاحتقار، ومتعة في الشتم واللّعن لدى مرورها أمام الكنائس.

وعندما تفكّر بإرنست، بصوته وكلماته وذراعيه اللتين احتضنتاها طويلاً وهي هائمة تختلج حبّاً، ثمّ ترى أمامها زوجها وهو يغمرها بالقبلات - آهِ لو تعرفون كيف كانت تلتوي ألماً وحزناً متجمّعة على نفسها كمن يكابد حشرجته الأخيرة وهو ينادي اسماً ويبكي على ذكرى. كان لديها ولدان من زوجها: فتاة في الثالثة من عمرها، وفتىً في الخامسة؛ وكانا يشبهان والدهما. وغالباً ما كانت ضحكاتهما وهما يلهوان تطال مسمعَيها. وكانا في الصباح يأتيان لتقبيلها ضاحكَين فيما تكون هي - هي والدتهما- أمضت الليل ساهرة تقاسي أمرّ أنواع العذاب، وآثار الدموع لا تزال بادية على خدّيها. أحياناً كانت تتخيّل حبيبها هائماً وسط البحر في

مهبّ العاصفة وهو يصارع الأمواج وحيداً متشبثاً بالحياة بكلّ ما أوتي من قوّة؛ ثمّ تتراءى لها جثّة يتقاذفها الموج وينقضّ عليها أحد العقبان... حينئذٍ كانت تسمع صيحات ابتهاج وأصوات طفليها يهرولان ليدلّاها على شجرةٍ مزهرةٍ، أو على الندى المتلألئ بنور الشمس فوق الأزهار.

كان ذلك أشبه ما يكون بألمِ امرىء يسقط أرضاً ثمّ يرى الحشد يهزأ منه مُصفّقاً بيديه.

أمّا إرنست فهاذا تراه يفكّر بعيداً عنها؟ أحياناً، في أوقات عطلاته وفراغه، كان يفكّر فيها، هذا صحيح، في ضمّاتها الحارقة، وعجيزتها المكتنزة، ونهديها الأبيضين، وشعرها الطويل الأسود متحسّراً على فقدانها لكنّه لا يلبث أن يُطفىء شعلة الحبّ الجارف المقدّسة... بين ذراعي إحدى الإماء. وقد سهل عليه تقبّل العزاء لاقتناعه بأنّه قام بعملٍ حميدٍ، متصرّفاً كمواطنٍ صالح، وبأنّ فرانكلين أو لافاييت لم يكونا ليتصرّفا بأحسن منه. ثمّ إنّه كان متواجداً على الأرض القوميّة للوطنيّة، والاستعباد، والقهوة، والاعتدال، أعني أميركا. كان من هؤلاء الناس الذين يحتلّ عندهم الرأي الراجح والتعقّل حيّزاً كبيراً بحيث أقصيا القلب بعيداً كما يُقصى جارٌ مزعج.

إنّ عالماً بأسره يفصل بينهما... كانت ماتزا غارقة في هذيانها وكربتها، فيما كان عشيقها يتمرّغ قدر ما يطيب له بين أذرع الزنجيّات والخلاسيّات. كانت تموت سأماً معتقدة أنّ إرنست لا يعيش إلّا من أجلها وتكابد أمرّ الآلام فيما هو يسخر منها بضحكته البهيميّة المتوحّشة مانحاً نفسه لامرأة أخرى.

كانت هذه المرأة المسكينة تبكي وتجدّف، مستغيثة بالجحيم والشيطان لنجدتها. وربّما كان إرنست في تلك اللحظة يتنزّه متكلّفاً الوقار في

ساحة عامّة لإحدى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، مرتدياً سترة وبنطالاً أبيض وكأنّه صاحب مزرعة، أو يذهب إلى السوق ليشتري أمَة سوداء قويّة الذراعين، مفتولة العضلات، متدلية الثديين، ولديها شهوة عارمة للذهب.

وفي الواقع، كان مهتمّاً أيضاً بأبحاثه في الكيمياء. ملأ صندوقين هائلَي الحجم بالملاحظات التي توصّل إليها بخصوص طبقات الغرانيت والتحاليل المتعلّقة بعلم المعادن. وعلى أيّة حال، كان مناخ البلاد يلائمه تماماً، لا بل كان في أحسن حالاته في ذلك الجوّ المعطّر بالأكاديميّات العلميّة، وسكك الحديد، والمراكب البخاريّة، وقصب السكر، والنيلة.

وفي أيّ جوّ كانت تعيش ماتزا؟ لم تكن دائرة عالمها متّسعة إلى هذا الحدّ. لكنّه عالم يدور على حدة في وسط الدموع واليأس ليغوص أخيراً في هاوية الجريمة.

6

أُسدِلَتْ ستارة سوداء على باب الفندق العريض. كانت منحسرة في الوسط مشكّلة قوساً غُوطيّاً حادّاً يكشف عن نعش ومشعلَين يرتجف ضوؤهما موهناً على شفا الانطفاء أمام هبوب ريح الشتاء الباردة التي عصفت بالستارة السوداء المزدانة بدموع فضيّة.

من وقتٍ لآخر كان حفّارا القبور، المهتمّان بشؤون الجنازة، يتنحّيان جانباً ليفسحا المجال أمام المعزّين الذين توالوا مرتدين جميعهم ملابس سوداء، وربطات عنق بيضاء، وصُدرات بِثَنِيَات تزيّن قمصانهم، وكانت شعورهم مجعدّة. كانوا ينزعون قبّعاتهم وهم يمرّون أمام الميْت ويغمسون

طرف قفّازاتهم السوداء في الماء المقدّس.

كان الطقس شتاءً والثلج يتساقط. بعد أن غادر الموكب نزلت امرأة شابّة متدثّرة بعباءة طويلة سوداء إلى الباحة وهي تسير على أطراف أصابعها على بساط الثلج الذي يفترش الطرقات. كان وجهها شاحباً ورأسها مغطّىً بوشاح أسود. وإذ تأكّدت من ابتعاد عربة الموتى، أطفأت الشمعتين اللتين كانتا لا تزالان مشتعلتين ثمّ صعدت إلى المنزل. خلعت معطفها وجفّفت خفّيها الأبيضين أمام نار المدفأة، والتفتت مرّة أخرى برأسها ناحية النافذة، لكنّها لم تعد ترى إلّا الظهر الأسود لآخر المشيّعين الذي كان ينعطف عند زاوية الشارع.

وعندما لم تعد تسمع القعقعة الرتيبة لعجلات العربة على بلاط الشارع، وعندما انتهى كلّ شيء وغادر الجميع، وتلاشت تراتيل الكهنة، وتوارى موكب الجنازة، ارتمت على سرير الميْت متمرّغة بلذّة وراحت تصرخ وقد أصابتها رعدة من فرح: «تعال الآن، لك أنت، لك أنت فعلتُ كلّ هذا. أنا في انتظارك هلمّ، لك أنت يا حبيبي مضجعُ العرس ومُتَعه، لك أنت وحدك، لنا وحدنا عالم الحبّ والملذات. تعال إليّ، سأتمدّد هنا تحت لمساتك، وأتمرّغ في قبلاتك».

رأت على منضدتها علبة صغيرة من خشب بنفسجيّ اللون كان إرنست أهداها إيّاها.

كان ذلك في مثل هذا النهار الشتائيّ. جاء إليها متدثّراً بمعطفه وكانت قبّعته مكتنفة بالثلج، وعندما قبّلها، كان لجلده نداوة الشباب العطرة التي تجعل القبلات ناعمة كمن يتنشّق وردة.

في وسط هذه العلبة أوّل حرفين من اسميهما «م» و«إ». كان خشبها طيّب الرائحة. قرّبته من أنفها، ومكثت طويلاً متأمّلة حالمة.

ثمّ أتوا لها بطفليها. كانا يبكيان ويطلبان أباهما. أرادا تقبيل ماتزا وأن تواسيَهم بحنانها. فما كان منها إلّا أن طردتهما مع الخادمة دون كلمة أو ابتسامة.

كانت تفكّر به... هو الذي كان بعيداً جدّاً، ولم يكن ليعود.

7

عاشت عدّة أشهر وحيدة مع مستقبلها الذي كان يأخذها إليه. وفي كلّ يوم كانت تشعر أنّ سعادتها وحريّتها في ازديادٍ لأنّ كلّ ثقلٍ انزاح عن قلبها وأخلى المكان للحبّ وحده. فكلّ الأهواء والمشاعر، وما تحفل به النفس من شجون وروادع تلاشى كما تتلاشى مخاوف الطفولة. كانت تخلّت تباعاً عن الحشمة ثمّ الدين فالفضيلة وما يتفرّع منها ورمَته كما تُنثر شظايا قدح مكسور.

لم يعد لديها شيء ممّا قد تملكه امرأة سوى الحبّ، إلّا أنّه حبٌّ مطلق راعب يتلوّى على ذاته ويحرق بناره سواه كبركان فيزوف المستعر حين ينفجر قاذفاً سيول حممه على أزهار الوادي. كان لديها طفلان، وطفلاها توفّيا كوالدهما. في كلّ يوم كانا يزدادان شحوباً وهزالاً، ويستيقظان في الليل هاذيين يتلوّيان ألماً على سرير احتضارهما وكأنّ أفعى تنهش أحشاءهما أو كأنّ ناراً تكويهما كيّاً. أمّا ماتزا فكانت تتأمّل احتضارهما وعلى شفتيها ابتسامة، ابتسامة مليئة بغيظ الانتقام والتشفّي.

وتوفّيا معا في اليوم نفسه. رأتهم يدقّون المسامير في نعشيهما، فلم تذرف دمعة، ولم تطلق تنهيدة واحدة. ولم تشعر بحسرة، ولا ندت عنها صرخة ألم واحدة. رأتهما مكفّنَينِ فلم تدمع عينها ولم يرفّ لها جفنٌ.

وعندما اختلت بنفسها أمضت الليلة سعيدة، واثقة، مطمئنّة النفس لأنّها قرّرت الرحيل في الغد. في الغد تغادر فرنسا بعد أن انتقمت للحبّ المتهَن، ومن قدرها المشؤوم الذي تلاعبَ بها ردحاً من الزمن، فأرادت أن تلهو هي أيضاً بالحياة والموت، والدموع والأحزان هازئة بالربّ والناس والحياة، مواجهةً السماء الظالمة المتنكّرة لآلامها بالجريمة النكراء.

وداعاً يا أرض أوروبا، المليئة بالضباب وجبال الجليد، حيث القلوب فاترة كالجوّ، والصبوات رخوة ومائعة كالغيوم الرماديّة. ومرحى لأميركا وأرضها الدافئة، وشمسها المتوهّجة، وسمائها الصافية ولياليها الجميلة بين أجمات النخيل والدلب.

وداعاً أيّها العالم. بفضلك أنا راحلة، سأرتمي على إحدى السفن. اجري أيّتها السفينة الجميلة، هرولي سريعاً، لتنتفخ أشرعتك مع هبوب الريح ولتمخر مقدّمتك عباب الأمواج. ثِبي على العاصفة وتسلّقي الأمواج وما همّ إذا تحطّمْتِ، اطرحيني وحطامَك على الأرض التي يتنفّس عليها حبيبي.

أمضت تلك الليلة هذياناً واضطراباً لكنّه هذيان الفرح والرجاء.

وعندما فكّرت به، وبأنّها ستقبّله وتعيش معه إلى الأبد، ابتسمت وبكت منَ السعادة.

كان تراب القبر حيث يرقد طفلاها لا يزال نديّاً ومبلّلاً بالماء المقدّس.

8

وفي الصباح استلمت رسالة يعود تأريخها إلى سبعة أشهر. كانت من إرنست. فضّت الختم وهيَ ترتجف من شدّة اللهفة لقراءتها. لم تصدّق ما

رأته عيناها فأعادت قراءتها وهي شاحبة منذهلة لهول ما ورد فيها:

«لماذا تفتقر رسائلك يا سيّدتي إلى الاحتشام؟ وخصوصاً الأخيرة منها. لقد أحرقتُها. لَكنت أحمرّ خجلاً لو ألقى أحدهم نظرة عليها. ألا يمكنك أن تضعي في نهاية المطاف حدّاً لأهوائك؟ لماذا تريدين باستمرار أن تكدّري بذكرياتك حياتي، وتنغّصي عليّ أعمالي ومشاغلي؟ ما الذي فعلته لك لتحبّيني إلى هذا الحدّ؟

مرّة أخرى يا سيّدتي أريد أن يكون حبّك حكيماً. غادرتُ فرنسا لأنساك. انسيني إذاً كما نسيتك، أحبّي زوجك، واعلمي أنّ السعادة موجودة على الدروب المطروقة التي مرّ منها سائر الناس، وأنّ مسالك الجبال ملأى بالحصى والأشواك ومن شأنها أن تمزّق قدميك وتهدّ قواك هدّاً.

الآن أعيش سعيداً. لديّ بيت رائع على ضفّة نهر، وفي السهل الذي يعبره النهر أصطاد الحشرات وأقطف الأعشاب، وعندما أعود إلى بيتي يلقي زنجيّ عليّ التحيّة منحنياً حتّى الأرض، ويقبّل حذائي إذا أراد أن يسألني خدمة. لقد أوجدت لنفسي حياة سعيدة، هادئة وهانئة في رحاب الطبيعة والعلم. لمَ لا تحذين حذوي؟ ما الذي يمنعك؟ من أراد استطاع.

من أجلك، من أجل سعادتك نفسها، أنصحك بعدم التفكير بي، وعدم الكتابة لي مجدّداً. فما نفع هذه الرسائل؟ وماذا يفيدك أن تقولي مئة مرّة أنّك تحبّينني وتملئين الهوامش بكلمة «أحبّك»؟

عليك أن تنسي كلّ شيء يا سيّدتي، وألا تعاودي التفكير بعلاقتنا وبما كان يمثّله أحدنا للآخر. ألم ينل كلّ منّا في النهاية ما كان يتمنّاه؟

جعلتُ لنفسي مركزاً مرموقاً. أصبحت المدير العامّ للجنة الأبحاث المتعلّقة بالمناجم. وابنة الرئيس فتاة ساحرة في السابعة عشرة من عمرها،

وتصل مداخيل والدها إلى ستّين ألف ليرة سنويّاً، وهي ابنته الوحيدة. إنّها رقيقة وطيّبة وفي منتهى التعقّل، وتستطيع أن تُدير أسرة بامتياز وتكون ربّة منزل صالحة...

سأتزوّج خلال شهر. إذا كنت تحبّينني كما تقولين دائماً، فحريّ بك إذاً أن تفرحي لي ما دمت أقوم بذلك من أجل سعادتي.

«وداعاً يا سيّدة فيلر... لا تعاودي التفكير برجلٍ امتلك لطف الإقلاع عن حبّك. وإذا كنت تريدين أن تؤدّي لي خدمةً أخيرة، فأرسلي لي بأسرع وقتٍ نصف ليتر من حَمْضِ السيّانيدر. أحضريه من أمين سرّ أكاديميّة العلوم بناء على طلبي. وسيعطيك إيّاه بكلّ طيبة خاطرٍ، وهو كيميائيّ بارع.

وداعاً، أعتمد عليك ولا تنسي إرسال ما طلبته منك.

إرنست فومون».

عندما قرأت ماتزا هذه الرسالة أطلقت صرخة مجمجمة كما لو أنّ كمّاشة متوهّجة تقضم جلدها.

مكثت طويلاً حائرة مذهولة.

قالت أخيراً:

- ما أجْبَنَهُ! أغواني وها هو يتخلّى عنّي من أجل امرأة أخرى. أعطيته كلّ شيء ولم أحصل على شيء. رميت بكلّ شيء في البحر ولم يتبقَّ لي إلّا خشبة أتشبّث بها لكنّها تنزلق من بين يديّ. وأشعر أنّ الأمواج تغلبني وأنّني أغرق.

كانت تحبّه كثيراً تلك المرأة المسكينة. تخلّت عن شرفها من أجله، وأغدقت عليه حبّها، وأنكرَت من أجله ربّها، ثمّ فعلت ما هوَ أسوأ، قتلت زوجها وطفليْها وشهدت احتضارهم وموتهم باسمة لأنّها كانت

تفكّر به. ما العمل؟ ماذا سيصير بحالها؟ في حياته امرأة أخرى! سيقول لامرأة أخرى «أحبّك»، وسيُقبّل عينيها ونهديها ويناديها حياته وغرامه. امرأة أخرى! وهيَ هل حظيَت بعشّاق غيره؟ ألم تحرم من أجله زوجها لذّة الفراش؟ ألم تَبعه بشفتيها الخائنتين؟ ألم تسمّم له ودموع الفرح تنسكب من عينيها؟

كان إرنست معبودها وحياتها. وها هوَ يتخلّى عنها بعد أن استغلّها وتمتّع بها ورماها وقذفها بعيداً. آهٍ من تلك الهاوية التي لا قرار لها سوى الجريمة واليأس!

وأعادت قراءة هذه الرسالة المشؤومة مراراً ولم تكن تصدّق عينيها، وغمرتها بدموعها.

وقالت في نفسها بعد أن أخلى الإحباط المكان للغضب والجنون:

«ولكن كيف، كيف تتركني وأنا وحيدة في هذا العالم لا عائلة لي ولا أهل، لأنّني منحتك عائلتي وأهلي. وحيدة لا شرف لي لأنّي دمّرته من أجلك، وحيدة سيّئة السمعة فقد ضحّيت بسمعتي من أجل قبلاتك على مرأى من العالم كلّه الذي سمّاني عشيقتك... هذه العشيقة التي تُخجلك الآن. يا لك من جبان!

والموتى كيف أردّهم؟

ما العمل؟ ماذا سيصير بحالي؟ كنت أهجس بفكرة وحيدة، وكان القلب يخفق برغبة واحدة. هل أذهب للقائك؟ لكنّك ستطردني مثل أمَة، وإذا رميت بنفسي وسط النساء الأخريات فإنّهن سيتخلّين عنّي ضاحكات وسيُشرن إليّ بالبنان متباهيات بأنفسهنّ لأنّهن لم يحببن أحداً... هنّ لم يعرفن الدموع. آهٍ عجباً كيف أنّني ما زلت أريد الحبّ والشغف والحياة! سينصحني الناس على الأرجح بالذهاب إلى حيث تباع الشهوة

والمجامعة بسعرٍ محدّد؛ وعند المساء سأنادي المارّة عبر النوافذ مع صاحباتي في الفجور، وإذا استجابوا لندائي وجب عليّ أن أمتّعهم بكلّ ما يلزم من فسقٍ مقابل المال فيرحلوا راضين- وعليّ ألّا أتذمّر من شيء، وأن أظلّ مبتهجة، وأضحك لكلّ زبون. وهكذا أصبح جديرة بقدري.

وأيّ ذنبٍ فعلته؟ أحببتك أكثر من أيّ شخصٍ آخر. آه ارأفْ بي يا إرنست... لو كنت تسمع صراخي لأشفقت عليّ ربّما، أنا الذي لم أشفق عليهم. ألعنُني الآن، وأتمرّغ في عاري ودموعي تنهلّ غزيرة وتبلّل ثيابي».

وراحت تركض كالمجنونة ثمّ تعثّرت وتدحرجت أرضاً وهي تلعن السّماء والرجال والحياة ونفسها وكلّ ما هوَ حيّ وكلّ ما يفكّر في هذا الوجود.

كانت تنتزع من رأسها حفنات من شعرها الأسود وأظافرها مليئة دماً.

لا! لم تعد قادرة على تحمّل الحياة، كم تودّ الارتماء بين ذراعي الموت الأموميّتين، لكنّ الشك يعاودها في اللحظة الأخيرة: هل صحيح أنّ القبر لا عذاب فيه وأنّ العدم دون آلام. تشعر بالقرف من كلّ شيء، بأنّها فقدت الإيمان حتّى بالحبّ وهو دين القلب الأول. لكنّها في الوقت ذاته عاجزة عن الانعتاق من هذا الكدر السقيم الممضّ كرجل سكران يُجبَرُ على مواصلة الشرب.

لماذا جئتَ إليّ واستوطنتَ وحدتي وانتزعتَني من الهناءة؟ كنتُ في غاية الطمأنينة والنقاء وأتيت إليّ كي تحبّني وأحببتك. ما أجمل الرجال حين ينظرون إلى المرأة بعين الرغبة! أعطيتني الحبّ، وها أنت تحجبه الآن عنّي وأنا غذّيته بالقتل، وها هو يقتلني أيضاً.

كنت طيّبة آنذاك، أوّل عهدي بك، وها قد أصبحت متوحّشة قاسية،

أريد شيئاً ما أسحقه بين يديّ وأمزّقه ثمّ أرميه بعيداً كما سأرمي نفسي... آهِ! أكره كلّ شيء، البشر والسّماء، وأنت أيضاً أكرهك ومع ذلك أشعر أنّني من أجلك أهب حياتي.

وكلّما أحببتك، أحببتك أكثر، كمن يرتوي من مياه البحر المالحة فيشتدّ به الظمأ. أمّا الآن فأشتهي الموت... أيعقل أنّه لم يتبقَّ لي إلّا الموت! إلّا ظلمات القبر ثمّ... هول العدم!

آه، ومع ذلك أشعر أنّني أرغب في الحياة وتعذيبِ مُعذّبي كما أتعذّب.

والسعادة، أين هي؟ هي حلم فحسب، والفضيلة كلمة تافهة، والحبّ خيبة، والقبر ما أدراني؟

...إلا أنّني سأعرفه...

9

ثمّ نهضت ومسحت دموعها محاولةً أن تهدّئ الشهقات التي كانت تمزّق صدرها وتخنقها. نظرت إلى المرآة لِترى ما إذا كانت عيناها لا تزالان محمرّتين من الدموع، ورفعت شعرها من جديد ثمّ خرجت لتحقّق رغبة إرنست الأخيرة.

وصلت ماتزا إلى مكتب الكيميائي. قيل لها إنّه سيصل بعد قليل. وطلبوا منها الانتظار في قاعة صغيرة في الطابق الأوّل. كان الأثاث مغطّى بأقمشة حمراء وخضراء، وفي الوسط طاولة مستديرة من خشب الأكاجو، وعلى الجدران بعض الصور التي تمثّل معارك نابوليون، وفوق المدفأة الرخاميّة الرماديّة ساعة حائط من ذهب يستند إلى مينائها ملاك الحبّ بيد ويحمل سهامه باليد الأخرى.

عندما دقّت الساعة الثانية فُتح الباب. دخل الكيميائيّ. كان رجلاً قصير القامة نحيفاً، ضامراً، مؤدّباً في تصرّفه.

كانت عيناه الصغيرتان متوقّدتين خلف نظّارتيه، وشفتاه رقيقتين.

عندما أوضحت له ماتزا الدافع من زيارتها بدأ يُشِيد بالسيّد إرنست فومون، بشخصه الكريم وشجاعته ومواهبه. وأخيراً أعطاها القارورة التي تحوي حمض السيّانيدر ورافقها حتّى آخر الدرج ممسكاً بيدها. حتّى أنّه بلّل قدميه في الباحة وهو يقودها إلى الباب المطلّ على الشارع.

كانت ماتزا تترنّح في مشيتها لأنّها أحسّت برأسها مشتعلاً. كان خدّاها متوهّجين، وشعرت مراراً أنّ الدم سينفجر متدفّقاً من مسامها.

مرّت في شوارع كان البؤس بادياً على منازلها كمثْلِ رواسب العفن الأخضر على الجدران المطليّة بالكلس. ولدى رؤيتها البؤس قالت: أريد أن أشفى من شقائك». مرّت أمام قصور الملوك فقبضت على السمّ بكلّ قواها قائلة: «وداعاً أيّتها الحياة، أريد أن أشفى من همومك».

ولدى عودتها إلى منزلها، قبل أن توصد الباب، حانت منها التفاتة أخيرة إلى العالم الذي ستفارقه، إلى المدينة المليئة ضوضاء ودمدمة وصراخاً، ثمّ قالت: «أودّعكم جميعاً».

10

فتحت طاولة المكتب ووضعت القارورة في ظرف ختمتْه كاتبةً العنوان، ثمّ كتبت رسالة أخرى وكانت موجّهة إلى المفوّض المركزيّ. قرعت الجرس ليأتي الخادم وسلّمتها له. وكتبت على ورقة ثالثة هذه الكلمات: «كنت أحبّ رجلاً، ومن أجله قتلتُ زوجي، وقتلتُ طفليّ.

أموت دون ندم، ودون أمل. لا شيء معي إلّا حسرات». ثمّ وضعتها على المدفأة. قالت:

«ما تنقضي نصف ساعة إلّا ويأتي لاصطحابي... إلى القبر».

خلعت ملابسها وبقيت بضع لحظات تتأمّل جسدها الجميل العاري مستعيدة كلّ الملذّات التي وهبها إيّاها، والمتع الهائلة التي أسبغتها على عشيقها. أيّ كنزٍ نفيس حبُّ امرأة مثلها!

راحت تبكي وهي تفكّر في أيّامها التي ولّت هاربة، وسعادتها وأحلامها ونزوات شبابها، ثمّ فكّرت في حبيبها طويلاً، متسائلةً عن كنه الموت، تائهةً في هذه الهاوية التي لا قرار لها من الأفكار المضنية المتمادية غضباً وعجزاً. وفجأةً نهضت كمن ينهض من حلم، وسكبت بضع قطرات من السمّ في كوب قرمزيّ اللون، وتجرّعتها بِنهم، ثمّ تمدّدت للمرّة الأخيرة على الأريكة حيث احتضنها إرنست بين ذراعيه في لحظات النشوة والانخطاف التي يمنحها الحبّ.

11

عندما دخل المفتّش، كانت ماتزا تلفظ أنفاسها الأخيرة وهي تتلوّى ألماً. وبعد اختلاجات متكرّرة تصلّبت جميع أطرافها معاً وأطلقت صرخة أليمة.

عندما اقترب منها، كانت ميتة.

غوستاف فلوبير

10 كانون الأوّل/ ديسمبر 1837

نَزْعٌ وكُروب[1]
(مقتطفات)

نزع
أفكار شكّاكة
مهداة إلى صديقي العزيز
ألفريد لو بواتفان[2]
غوستاف فلوبير

إلى صديقي
ألفريد لو بواتفان
يهدي الكاتب هذه الأوراق التاعسة،
غريبةً مثل أفكاره،
خاطئةً مثل النّفس،
مُبينةً عن قلبه وعقله.

رأيتَها تتفتح يا عزيزي ألفريد، وها قد أينعت على مجموعِ أوراقٍ. لتبعثرِ الريحُ الأوراقَ، ولتنسَها الذاكرة. ما أشقاها هديّةً تذكّرك بأحاديثنا القديمة في العام الفائت. لا بدّ أنّ قلبك سينشرح وأنت تتذكّر

(1) الشذرات التالية وضعها فلوبير في سلسلتين متاليتين في المخطوطة ذاتها، فنحن إزاء نصّ مركّب أو مزدوج.

(2) ألفريد لو بواتفان Alfred Le Poittevin: (1816–1848) أحد أقرب أصدقاء فلوبير، كاتب ومحامٍ فرنسي. وقد ربطت عائلتيهما صداقة حميمة.

عبق الشباب اللّذيذ الذي يواسي أفكاراً أسيانة جمّة. وإذا كنت لا تستطيع قراءة الكلمات التي خطّتها يدي، فستدركها بيُسرٍ في القلب الذي سكبها.

الآن أرسلها إليك بمثابة تنهيدة، أو كإشارة نومئ بها إلى صديق نأمل رؤيته.

ربّما ستضحك منها غداً حين تصبح رجلاً ناضجاً ومتزوّجاً ومتعقّلاً ولائقاً، غداً حين تلقي من جديد نظرة على أفكار صبيٍّ تعِسٍ في السادسة عشرة من عمره كان يجتبك رغماً عن كلّ شيء، وكانت روحه منذ ذلك الحين فريسة بلاهات لا تُحصى.

غوستافَ فلوبير

20 نيسان/ أبريل 1838

إنّه لَعنوان غريب، أليس كذلك؟

ولدى رؤية هذا الترتيب السخيف العقيم للأحرف، سترتابون في جديّة فحواه.

نَزْعٌ: ربّما قلتم إنّه عنوان روايةٍ مرعبةٍ سوداء. لكنّكم مخطئون. إنّها أكثر من ذلك، إنّها خلاصة أخلاقيّة هائلة لحياة ممعنة في القبح والسواد.

إنّها شيء غامض وحائر، من صنف الكوابيس. إنّها ضحكةُ الازدراء، والبكاءُ، وحلمُ الشاعر الطويل. أقول الشاعر... لكنْ، هل بإمكاني أن أصف بالشاعر ذاك الذي يُجدّف بعقلٍ باردٍ ويتهكّم بقسوة وسخرية؟ ذاك الذي حين يتكلّم عن النفس يتملّكه الضحك؟ لا، ليس شعراً فما كتبه أقلّ من الشعر. إنّه نثر. لا، إنّه أقلّ من النثر، قلْ إنّه صرخات، ومنها ما هو ناشز، حادّ، ثاقب، أصمّ، وحقيقيّ دوماً، وصائب نادراً. إنّ ما كتبه عمل غريب ومتعذّر تعريفه، أشبه ما يكون بتلك الأقنعة الهزليّة المخيفة.

ستمرّ سنة على كتابته الصفحة الأولى. ومنذ ذلك الحين، أُلغيَ هذا العمل الشاقّ مراراً ثمّ استؤنف. كَتَبَ هذه الأوراق في أيّام شكّه وفي لحظات سأمه، وأحياناً في ليالٍ محمومة، وأحياناً أخرى وسط حفلٍ راقص، أو في حديقة تحت أشجار الدفلى، أو على صخور البحر.

وكلّما اعتمل موتٌ في نفسه، وسقط من شاهق أوهامه المتلاشية كقصورٍ من رمل؛ أقول، كلّما سرى ألم واضطراب في حياته التي تظلّ هادئة ساكنة في المظهر، ندت عنه صرخات وبضعُ دموع.

كتب دون تنميق، ولا رغبة في المجد، كمن يبكي ويتألّم من ذات نفسه.

لم يكتب قطّ ابتغاءَ النشر. كان إيمانه باللّاشيء من الحقيقة والصدق بحيث امتنع عليه قوله للبشر.

أراد أن يبوح بمكنونات نفسه لشخصٍ واحد، أو لاثنين على الأكثر يعمدان إلى مصافحته بعد سماعهما صوته قائلين: «هذا حقيقيّ»، عوضَ أن يقولا: «أحسنت».

وأخيراً، إذا اكتشفت يد تعيسة هذه الأسطر صدفةً فلتتجنّب لمسها لأنّها تُحرق وتيبّس اليدَ التي تلمسها، وتتلف عينَي من يقرأها وتميت نفس من يفهمها.

حذارِ! إذا اكتشف أحدهم هذه الكتابات فليتجنّب قراءتها، أو إذا دفعه شقاؤه إلى ذلك فليمتنع عن القول بعدها: إنّها صنيعُ أحمقَ أو مجنون. ليقلْ بالأحرى: كان معذّباً رغم هدوء أساريره، ورغم الابتسامة المرتسمة على شفتيه، والسعادة الملتمعة في عينيه. وإذا اكتشف أحد أقاربه أنّه أخفى عليه كلّ هذا الألم فليمتنّ له لأنّه لم ينتحر يأساً قبل كتابتها، ولأنّه حفر في هذه الصفحات القليلة هاوية سحيقة من الارتياب واليأس.

يوم الجمعة 20 نيسان/ أبريل 1838

1

أستأنفُ إذاً هذا العمل الذي بدأته منذ سنتين. عمل حزين وطويل، رمز الحياة والحزن والزمن.

لماذا توقّفتُ عنه هذه الفترة الطويلة؟ لماذا يتولّاني هذا القرف الكبير من القيام به؟ ما أدراني؟

2

لماذا كلّ شيء إذاً يُضجِرني على هذه البسيطة؟ لماذا النهار، والليل، والمطر والطقس الجميل...، لماذا يبدو لي هذا كلّه على الدوام غسقاً حزيناً تغيب فيه شمس حمراء خلف أوقيانوس لا حدّ له؟

آهٍ من الفكر، ذاك المحيط الآخر الذي لا حدّ له، إنّه طوفان أوفيديوس[1]، بحْرٌ لا حدّ له حيث العاصفة هيَ الحياة وهي الوجود.

3

غالباً ما تساءلت ما الهدف من حياتي. أتيت إلى هذا العالم ولم أجد فيه إلّا هاوية خلفي وهاوية أمامي، ولم يكن على يميني ويساري، وفي الأعلى وفي الأسفل إلّا الظلمات.

---

(1) هو الطوفان الذي تحدّث عنه الشاعر اللاتيني بوبليوس أوفيديوس ناسو (يُدعى تقليداً للّغات الأوروبية الحديثة أوفيد) (43ق.م– 17م.) في كتابه «التحوّلات» وهو من أهمّ الأعمال الأدبيّة عبر العصور. وقد جاء في فصل الطوفان في الجزء الأول: «صار كلّ شيء ماءً، محيطاً من الماء ولم يعد لهذا المحيط نفسه من شواطئ».

4

حياة الإنسان أشبه ما تكون بلعنة انطلقت من صدر عملاق وراحت تتهشّم من صخرة إلى صخرة لتتبدّد مع كلّ اهتزازة تُدوّي في الفضاء.

5

لطالما تحدّثوا عن النعمة الإلهيّة والرحمة السماويّة. لا أرى البتّة سبباً يدعوني للإيمان بهذه المفاهيم. إنّ إلهاً يتلهّى بإدخال الإنسان في التجربة كيما يرى إلى أيّ حدّ يستطيع التألّم أفلا يكون بمثِل قسوة الطفل الذي يعرف أنّ الخنفساء ستموت ومع ذلك يستمتع بانتزاع جناحيها أوّلاً ثمّ قوائمها فرأسِها؟

6

إنّ الغرور بالنسبة لي هو ما تتوخّاه جميع أفعال الإنسان. حين كنت أتكلّم وأتحرّك وأقوم بأيّ عملٍ في حياتي وأحلّل أقوالي وأفعالي، كنت دائماً أجد هذا العجوز الأبله معشّشاً في قلبي أو في روحي. كثير من الناس هم مثلي، لكنّ قلّة منهم يملكون صراحتي.

وهذه الفكرة الأخيرة يمكنها أن تكون حقيقيّة لأنّ الغرور هوَ الذي أملاها عليّ. وقد يكون الغرور بألّا أبدو مغروراً هوَ الذي جعلني أقولها. والمجد نفسه الذي أتعقّبه ليس إلّا كذبة. إنّ البشر لجنسٌ أحمق؛ ما أشبهني برجلٍ عثر على امرأة قبيحة فأغرِمَ بها.

7

في نظري، ستكون الكلمة الأخيرة السامية في الفنّ هي الفكر، أي تجلّي الفكر السريع الروحانيّ كمثلِ خاطرةٍ.

من ذا الذي لم يشعر بفكره رازحاً تحت وطأة الأحاسيس والأفكار المتنافرة والراعبة والحارقة؟ ليس بوسع التحليل أن يصفها، لكنّها ربّما اجتمعت في كتابٍ يُدعى السليقة. إذ ما الشعر إن لم يكن السليقة المرهفة، والقلب والفكر مجتمعَين.

آه، لو كنت شاعراً لأنجزت الكثير من الأشياء الجميلة.

أشعر في قلبي بقوّة خفيّة لا يستطيع أحد أن يراها. ولكنْ، هل حُكم عليّ كلّ حياتي أن أكون أخرس يريد الكلام ويرغي غضباً بسببٍ من عجزه؟

قليلة هي الأحوال المتّسمة بهذه القسوة.

8

أضجر. بودّي لو أموت، أو أسكر، أو أكون الربّ... لأدبّر مقالب. وتبّاً.

20 نيسان/ أبريل 1838

كُروب

1

وماذا يُجدي نفعاً فِعلُ ذلك؟ لا جدوى. ماذا يجدي نفعاً تعلُّم الحقيقة عندما تكون محزنة؟ ماذا يُجدي نفعاً البكاء وسط الضحكات، والنحيب في وليمة عامرة، وإلقاء كفن الموتى على ثوب العروس؟

2

لا جدوى.. ومع ذلك، دعوني أقول لكم كم من الجروح النازفة تدمي نفسي. دعوني أقول لكم كم من الدموع حفرت أثلاماً في خديّ.

3

- عجيبٌ أمرك: ألا تؤمن بشيء؟
- لا.
- ولا بالمجد؟
-انظرْ إلى الحسد.
- ولا بالسخاء؟
- وماذا عن البخل؟
- ولا بالحريّة؟
- ألا تلاحظ أبداً العبوديّة تلوي رقاب الشعب؟

- ولا بالحبّ؟
- وما قولك في الدعارة؟
- ولا بالخلود؟
- بأقلّ من عامٍ تنهش الديدان الجثّة، ثمّ تصبح تراباً، فهباءً.. وبعد الهباء... العدَم وهو كلّ الوجود.

4

في يوم ليس ببعيدٍ كانوا يخرجون جثّة رجلٍ شهير لينقلوا رفاته إلى مثوىً آخر. جرى ذلك في احتفالٍ كسابقهِ مهيبٍ، جليل، منمّق كجنازة، عدا أنّه في جنازة يكون اللّحم طازجاً فيما يمسي مهترئاً عند نقل الرفات. مكث الجميع ينتظرون حفّار القبور. وبعد عشر دقائق وصل أخيراً، وكان يُغنّي. إنّه حقّاً لرجلٌ شجاعٌ حفّار القبور ذاك، لا يكترث بالحاضر وغير مهتمّ بالمستقبل. كان يرتدي قبّعة من الجلد المشمّع ويضع غليوناً في فمه. ثمّ باشر بالحفر. بعد بضع مجارف من التراب، بان النعش- خشبه من السنديان وكان شبه مُتَداعٍ لأنّ ضربة واحدة حطّمته، وبشكلٍ أرعن. وعندئذٍ رأينا الإنسانَ، الإنسانَ بكلّ رعبه المهول. (...)

ماذا صارت إذاً حال ذاك الرجل الشهير، أين مجده وفضائله واسمه؟ بات ذلك الرجل الشهير شيئاً موبوءاً، مبهماً، قبيحاً، نتناً، مظهراً يبعث على الأسى.

وماذا صار بمجده؟ رأيتم كيف عومل كأنجس كلب. وجميع من جاؤوا إلى قبره إنّما أتوا بدافع الفضول- نعمْ بدافع الفضول- وبهذا الشعور الذي يجعلك تشتفي من رؤية عذابات غيرك، ويشبه الإثارة

التي تعتري النساء حين يُظهرن رؤوسهنّ الشقراء الجميلة من النوافذ مسترقاتٍ النظر إلى مشهد الإعدام. إنّها الغريزة نفسها التي تجعل الإنسان بطبعه شغوفاً بكلّ ما هو شنيع ومشوّه ومؤلم.

أمّا فضائله فلم يعد أحد يتذكّرها لأنّه خلّف بعد موته ديوناً، وكان ورثته مجبرين على تسديدها بدلاً منه.

واسمه؟ انطفأ اسمه لأنّه لم ينجب أطفالاً. كان لديه فقط أولادُ إخوة يرجون موته منذ وقتٍ طويل.

قيل إنّ هذا الرجل كان لِعام خلا متنفّذاً وثريّاً وسعيداً وساكنَ قصرٍ، وكان يُدعى «المونسنيور». والآن لم يعد شيئاً وبات يُدعى جثّة مهترئة في نعشٍ... بئس المصير! وإذْ نفكّر بأنّنا، نحن الأحياء، نحن من نتنشّق نسيم المساء ورائحة الأزهار، سنواجه نحن أيضاً المصير نفسه، فإنّ هذا يبعث على الجنون صراحةً.

وأن نفكّر بأنْ لا وجود لشيء بعد هذه اللحظة بالذات، إن لم يكن العدم دوماً وأبداً، فهذا يتخطّى فكر الإنسان. عجباً! هل صحيح أنّ كلّ شيء ينتهي بعد الحياة، ينتهي إلى الأبد؟ بربّكم قولوا ألن يبقى شيء؟.......

أيّها الغبيّ ألا فانظر إلى جمجمة.

5

والرّوح؟ ماذا عن الرّوح؟

– أجل الرّوح، ويحٌ لك... لو أنّك رأيت في ذاك اليوم حفّار القبور بقبّعته الجلديّة المشمّعة الموضوعة على جانب رأسه وغليونه

الوقح، لو أنّك رأيت كيف أمسك تلك الفخذ المهترئة، وكيف أنّ ذلك كلّه لم يكن يمنعه من الغناء هازئاً:

«أيّتها الصبايا هل ترغَبنَ في الرقص؟»، لو رأيت ذلك لضحكت إشفاقاً، ولقلت: ربّما كانت الرّوح تلك الرائحة النتنة المنبعثة من جثّة.

- لا ينبغي على المرء أن يكون فيلسوفاً لِيُدرك ذلك.

6

ومع ذلك إنّه لمن المحزن جدّاً التفكير بأنّ كلّ شيء يضمحلّ بعد الموت. بربّكم، لا تقولوا هذا. هلّا أسرعتم بإحضار كاهنٍ، كاهنٍ يقول لي إنّ النفس موجودة في جسد الإنسان، ويثبت لي ذلك ويُقنعني به.

- أيّ كاهن تريد الإتيان به؟

- فهذا يتغدّى عند الأسقف.

- وذاك يمارس التعليم الدينيّ.

- وثالث لا يملك الوقت.

ولكن ماذا دهاهم، هل سيدَعونني أموت في حيرة من أمري؟ أنا الذي أتلوّى يأساً وأستنجد بنعمة أو بلعنة، وأضرع إلى الحقد أو الحبّ، إلى الله أو الشيطان (آه! الشيطان سيأتي، قلبي ينبئني بذلك).

النجدة.

لكنّ لا أحد يُجيب.

ما عليّ سوى مواصلة البحث.

لكنّني بحثت ولم أجد، قرعت ولم يفتح لي أحدٌ وتُركْتُ فريسةَ البرد والبؤس بحيث أوشكت أن أموت.

ولدى مروري في شارع قاتم، متعرّج وضيّق، سمعت كلمات معسولة داعرة. سمعت تنهّدات تقطعها القبلات. سمعت كلماتٍ شبقة ورأيت كاهناً وعاهرة يجدّفان على الله ويرقصان بفجور. أشحت بنظري عنهما، وبكيت، فاصطدمتْ قدَمِي بشيءٍ ما. وكان صليباً من البرونز. كان المصلوب في الوحل.

7

منَ الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، أينما ذهبت، لن تستطيع أن تقوم بخطوة واحدة دون أن تصطدم بأنانيّة الطغيان والظلم والبخل والجشع. اسمع: أينما ذهبت فستجد أناساً يقولون لك: «أغربْ عنّي فأنت تعترض نور شمسي، تراجعْ فأنت تمشي على الرمل الذي بسطْتُه على الأرض، ابتعدْ فأنت تسير على أملاكي. تنحّ جانباً، فأنت تتنشّق الهواء الذي هوَ لي».

أجَلْ، إنّ الإنسان مسافرٌ عطشان، يطلب الماء لِيشرب فيُمنَع عنه ويموت.

8

أجَل، الطغيان يُثقل على الشعوب وأشعر أنّ من الجميل إعتاقهم منه. أشعر بقلبي ينشرح ارتياحاً لدى سماعي كلمة الحريّة كقلبِ طفلٍ يخفق رعباً أمام كلمة شبح. ولا الحريّة ولا الشبح هما حقيقيّان. وهْم آخر يتلاشى، زهرة أخرى تذبل.

9

لا شكّ أنّ أناساً كثيرين يحاولون امتلاك تلك الحريّة الجميلة، ابنة أحلامهم ومعبودة الجماهير. كثيرون يحاولون لكنّهم سيسقطون تحت ثقل حلمهم.

10

يُحكى أنّ مسافراً كان يعبر صحارى أفريقيا الواسعة، وأنّه تجرّأ على ولوج درب يختصر طريقه مسافة خمسة عشر ميلاً لكنّه محفوف بالمخاطر، يعجّ بالأفاعي والبهائم المتوحّشة وتتخلّله الصخور الوعرة الصلدة.

تأخّر الوقت فشعر بالجوع وكان متعباً ومريضاً فأخذ يسرع الخطى ليُبكر في الوصول.

ولكن عند كلّ خطوة كان يصطدم بحواجز. ومع ذلك حافظ على شجاعته وسار مرفوع الرأس واثق الخطى.

وفي منتصف الطريق، اعترضته صخرة هائلة منتصبة في مسلكٍ وعرٍ مليء بالأشواك ونبات العلّيق.

وكان يتوجّب عليه إمّا دحرجة هذه الصخرة حتّى أعلى الجبل أو تسلّقها. أو الانتظار حتّى الصباح ليرى ما إذا كان يمرّ من هناك مسافرون آخرون لمساعدته.

لكنّ الجوع بدأ ينهش أحشاءه واستبدّ به العطش فقرّر بذل قصارى جهوده للوصول إلى الكوخ الأقرب الذي يبعد أربعة أميالٍ عن المكان. فأخذ يستعين بقدميه ويديه ليتسلّق أعلى الصخرة.

تصبّب العرق من جبينه غزيراً، وراحت ذراعاه تنقبضان ويداه تتشبّثان بكلّ نبتة في الصخرة إلى أن أصبحت جرداء فانحدر من جديدٍ مثبّط العزيمة. ثمّ بذل كلّ ما في وسعه مراراً، ولكن عبثاً.

نزل من الصخرة أشدّ ضعفاً وتعباً ويأساً، نزلَها مجدّفاً. ثمّ بعد أن عقد العزم على استجماع كامل قواه للمرّة الأخيرة صلّى لله، وتسلّق الصخرة من جديد.

وكم كانت تلك الصلاة الصغيرة متواضعة وصادقة ورقيقة! لا تظنّوا أنّه تلا صلاة لقّنته إيّاها مربّيته في طفولته. لا إطلاقاً، كانت كلماته دموعاً ورسمت تنهّداته إشارات الصليب. وتسلّق الصخرة مصمّماً على أن ينجح في مسعاه أو يموت جوعاً.

ها هوَ يصعد إلى الصخرة ويتسلّقها برشاقة شاعراً أنّ يداً حامية تُعِينه وتجذبه إلى القمة، وأنّ وجه ملاكٍ يتراءى له مبتسماً ويحثّه على مواصلة التقدّم. ثمّ فجأةً تبدّل كلّ المشهد أمامه. لكأنّ رؤيا مرعبة استحوذت على حواسّه فسمع فحيح أفعى تزحف على الصخرة وتدنو منه. خارت ركبتاه وخانته أظافره التي كانت متشبّثة بنتوءات الصخر فتهاوى أرضاً وسقط على رأسه.

ما العمل آنئذٍ؟

شعر بالجوع والبرد والعطش، والريح تصفر في الصحراء المغراء الهائلة، والقمر يتجهّم وسط الغيوم.

وراح يبكي خوفاً مثل طفلٍ صغير.

بكى على أهله الذين سيموتون ألماً لموته. وخاف من الحيوانات المفترسة.

– هبط الليل وخارت قواي. ستجيء النمور وتفترسني.

وانتظر طويلاً أن يأتي أحد لنجدته. لكنّ النمور هي التي أتت ومزّقته وشربت من دمه.

حسناً، أقول لكم، هكذا سيصير بحالكم أنتم الذين تريدون الفوز بالحريّة.

بعد أن تخونكم جهودكم ستنتظرون أن يأتي أحدٌ لمساعدتكم.

لكنّ أحداً لن يأتي. لا أحد...

وستأتي النمور، وتمزّقكم بأنيابها، وتشرب من دمائكم كما شربت من دم المسافر المسكين.

11

أجل، البؤس والشقاء يسودان على الانسان.

آهٍ من البؤس... ربّما لم يسبق لكم أن شعرتم بالبؤس أنتم الذين تتحدّثون عن رذائل الفقراء. البؤس يسلبكم رجلاً فيضعفه ويذبحه ويخنقه ويُشرّحه ثمّ يرمي بعظامه إلى القمامة.

البؤس قباحة، وصفرة يبوسةٍ، ونتانة تختبئ في كوخ، أو ماخور، أو خلف ثياب الشاعر، وأسهال المتسوّل. البؤس هو الرجل ذو الأسنان الطويلة البيضاء الذي يظهر عند زاوية الشارع ذات مساء شتائيّ ويقول لك بصوته الأبحّ كالخارج من قبرٍ: «يا سيّد أعطني خبزاً»، ثمّ يشهر مسدّسه في وجهك. البؤس هو الجاسوس الذي يتسلّل خلف ستارك، ويستمع لأقوالك ثمّ يذهب ليقول للوزير: «هنا تدور مؤامرة، هنا يُعَدّ البارود للتفجير». البؤس هو المرأة التي تصفّر على الجادّات بين الأشجار. تقترب منها فتجد أنّ معطفها قديم بالٍ، تفتح معطفها فترى

فستاناً أبيض، لكنّ هذا الفستان الأبيض مليء بالثقوب، تفتح ثوبها فترى صدرها لكنّ صدرها هزيل. نعم، ترى عضّة الجوع في كل مكان: في كلماتها الملفوظة بضنىً حين تقول: تعال! تعال! في معطفها الذي باعت أزرارَه الفضيّة، وفي ثوبها الذي باعت دانتيلَ حاشيته، وفي نهديها اللّذين جعلت من تقبيلهما بضاعة.

آهٍ من الجوع... الجوع مَن غيره صانع الثورات السابقة وسيصنع الثورات المقبلة؟

12

آهٍ من الشقاء، الشقاء كلمة تهيمن على الإنسان كما تهيمن الأقدار على العصور والثورات على الحضارة.

13

وهل الثورة إلّا هبّة هواءٍ يتموّج لها المحيط، ثمّ تمضي وتترك البحر مضطرباً؟

14

وهل الدّهر إلّا دقيقة وسطَ الليل؟

15

وهل الشقاء إلّا الحياة؟

16

وما عسى تكون الكلمة؟ لا شيء، إنّها كالواقع! أي أَمَدٌ منَ الزمن.

سكرة الموت

1

هناك في بلدة شاسعة من بلدات تورين أو شمبانيا، على ضفاف تلك الأنهار التي تروي العديد من كروم العنب، أطفئت الأنوار كلّها في تلك الأمسية الماطرة الباردة. وحدها خمّارة الـ «غرانْ فانكور» التمعت وحيدةً وسط الصمت والضباب. كان العابرون على الطريق يرون أشكالاً غامضة تتحرّك مترنّحة خلف الزجاج والستائر الحمراء. أحياناً، حين يُفتح الباب ويصدح الجرس الصغير برنينه المتكرّر، كنت تسمع أغاني مجنونة وخافتة، وصرخات، وصيحات تشجيع وكلمات صاخبة مثل تكسّر أقداحٍ، وكنت ترى أبخرة دافئة من دخان وكحول ترتمي إلى الخارج في هبّات متتالية.

قلْ لي هل من ملاذ أجمل من هذا المكان في الشتاء تحتمي به منَ البرد، وفي الصيف من الحرّ، فالبعض يلجأ إليه طلباً للدفء، والبعض الآخر للانتعاش، لكنّ الجميع يؤول بهم الأمر إلى طلب الدفء وسط الانتعاش!

لا ليس مقهىً أنيقاً بأضواء ساطعة وثريّات ذهبيّة ومرايا وأزهار، حيث يتواعد المصرفيّ الأحمق، وبائع القار، وذوو الكياسة، وحاملو السراويل ذات الأطمقة[1]. ألا فأبعدوا عنّي مثْلَ هذا المكان المحتشم والمطيّب بالمسك، حيث الأمّ بوسعها أن تصطحب ابنتها، وحيث متسكّع

(1) الطماق: غطاء من القماش يغطّي أعلى الحذاء ويصل إلى ما فوق الكعبين بقليل وأحياناً حتّى الركبتين.

الريف ينتشي أمام الآداب الباريسيّة فيما تُنشَل ساعته منه! تجنّبوا هذا المكتب المكسوّ بالبلّور، وهذه الجدران التي تنوء بكسواتها المذهّبة، وهذه المرأة الخمسينيّة ذات اللباس البسيط والهيئة المتواضعة، التي تبدو وكأنّها تمثال يجسّد الضجر، والمنشغلة في أوقات فراغها بتكسير قطع السكّر. ابتعدوا عن مصابيح الغاز هذه المتأجّجة المترنّحة، وعن الصحف الكبيرة الماجعة أو المطويّة على طاولات الرخام، وعن هؤلاء الرجال المتفخين رضىً، المتبجّحين وذهبهم يتدلّى من جيوب صُدراتهم المزدانة برسوم الأزهار. وتحاشوا أخيراً صرخات الثراء المضجر وكلّ ضوضاء المال هذه.

على هذا كلّه أفضّل خمّارة بسيطة كهذه، ببهجتها الحرّة وتصرّفاتها الصريحة ووجوه روّادها الناعسة المتورّدة وهي تستند، والابتسامة العريضة ترتسم على شفاهها، إلى الجدران المطليّة بالأحمر الخمريّ. ما أحبَّ جوّها الدافئ الرماديّ العطر وسقفها الذي سوّده الدخان، ومصابيحها المتواضعة الراشحة، ومقاعدها المخمليّة الحمراء البالية، حيث، لسنواتٍ طويلة، ارتوَت عليها أهواء، وخبَتْ رغبات حارقة. وأحبّ أيضاً مراياها المتشقّقة الملطّخة بالذباب، وطاولاتها السوداء الرخاميّة بقوائمها المنخورة بالعثّ، ومقاعدها المحبوكة بالقشّ الرماديّ، وجوّها المكتنف بهدير السكارى وصراخهم القويّ المرح، والصدور العاريَة، والأيادي المتوتّرة وهي تحتضن الكؤوس، والشفاه المكتنزة التي حمّرها النبيذ وهي تمتصّ برهافة أنبوبَ غليون كفم حبيب!

هل يوجد شيء أجمل من هذا المكان لسبر أغوار الطبيعة البشريّة؟ وهل هناك ملاذ ألطف منه وأجدر بأن تمارس فيه الفضائل المسيحيّة ويكون مقصداً لُمحسنٍ أميركيّ أو صرّاف لندنيّ محبٍّ للبشر؟ أيُعقل

أن يوجد أحدٌ، كائناً من كان، يتمتّع بحاسّةِ ذوقٍ، وبروحٍ خُلقت على صورة الله، سواء المبراطور أو المتسوّل، الأميرة أو السيّدة المحترمة أم بائعة الهوى، لم يدرك عذوبة الشراب، ولو شراب كأس صغيرة؟

بَيْدَ أنّ خمّارة الـ «غرانْ فانكور» هي أكثر خمّارة يمكن أن يحبّها المرء.

يرتادها الجميع بانتظام في السرّاء والضرّاء، في العوز واليسر، وتوزّع هداياها عليهم كما تغدق الطبيعة عطاياها مروّحةً عن همومهم مخفّفةً من وطأة الحقائق الأليمة.

كنت ترى فيها باستمرارٍ سيّدة المكان جالسة بشكلٍ لا يتغيّر على مقعد من المخمل الأحمر المزدان بمسامير ذهبيّة، وخلفها تمثال برونزيّ لنابوليون، وأمامها على طاولة الشراب صفّ طويل من قدور القصدير الموزّعة وفقاً لأحجامها.

ولم يكن يعرف عمرها إلّا من تغضّنات جلد عنقها الذي يبدو أشبه ما يكون ببطّة لم تُطْهَ جيّداً، ومن الوبرات الرماديّة القاسية المنتصبة في ذقنها المثلّثة. كانت قلنسوة بيضاء مزيّنة بثنيات أنبوبيّة منتصبة ومنشّاة كأشعة الشمس تحيط بوجهها الناعس المتورّد ذي الأجفان الثقيلة والأنف الأفطس والمرفوع، وشفتيها اللّتين سوّدهما الدخان حتّى اللثّة. وكانت قامتها المتغضّنة بتلافيف الشحم مسجونة في ثوبٍ أزرق مزدانٍ ببقع بيضاء ورباطه متعرّج على طول ظهرها.

طيلة النهار كانت ترتق جوارب أو سروالاً عتيقاً أزرق بخيط أبيض وهي متّكئة إلى طاولة الشراب القديمة التي اكتست قوائمها، المذهّبة فيما مضى، بالبقع والخدوش الرماديّة وبصمات الأصابع الضخمة. كانت تحافظ دوماً على هدوئها ولطفها وسط الضجيج، حاميةً فقط ودون تذمّرٍ أباريقَ الخمر الصغيرة السريعة العطب بباطن يدها أو بحركة مدروسة.

كان الموقد الصغير من الصفيح موضوعاً وسط الصالة. وكان القسطل يهتزّ لناره المتوهّجة الهادرة. تحلّقَ حواليه بحّارة بقمصانهم الحمراء ولحاهم الطويلة المستقيمة وخدودهم المتورّدة، وفلّاحون بشعورهم الطويلة وظهورهم المتقوّسة وجباههم الهادئة الحكيمة وأطمقتهم البيضاء التي تصل حتّى الركبتين، وصُدراتهم الحمراء المخطّطة، وفتيان من الريف وجوههم بشوشة وعيونهم واسعة فاتحة اللون وشعورهم قصيرة منتصبة، يرتدون قمصاناً زرقاء وياقات جامدة منشّاة تصل حتّى الأذنين وربطات عنق ملوّنة معقودة.

وفي وسط هذا الجمع رجلان لا يمكن إدراجهما في أيّ من هذه الطبقات. وكان يبدو أنّ مرتادي المقهى جميعاً يحترمونهما وينظرون إليهما بإعجابٍ وكأنّهما من الشخصيّات المجيدة الشهيرة المعروفة. كانا واجمَين كئيبينِ متواجهين وكأنّهما عدوّان يغار الواحد منهما من قوّة الآخر وشهرته مولياً إيّاه نظرات مستخفّة وابتسامات هازئة محتقرة.

كان الأطول بينهما ضامر الجسم رقيق الحاشية، ضخم الأنف طويله وأسود اللّحية والشعر. كان ينبعث من شخصه كلّه توتّر مشوب بالمكر. أما الآخر فكان بخلافه قصير القامة مربوعها، قويّ الأطراف بدينها، لحيته حمراء وعيناه كبيرتان جاحظتان، وفي مظهره قوّة وغباء. كانا يرأسان بلا منازعٍ قائمة السكّيرين في الناحية كلّها، وكانا قادرَين على البقاء ليالي في المعركة والخروج منها ظافرين. كان الأوّل على حذرٍ دائم ويستخدم تكتيكاً حكيماً ومعتدلاً، والثاني مليئاً نزقاً وغضباً، يتجرّع زجاجات بأكملها تغور في معدته الهائلة.

كانا فخورَين كلاهما بأمجادهما، ويمرّ كلٌّ منهما في القرية، واثق الخطى فخوراً كإله وسط عباده. وفي الواقع لم يسبق لهزيمة أن دنّست مآثرهما،

وعندما يتمدّد رفاقهما في العربدة على أرض القاعة، كانا يخرجان وهما يهزّان أكتافهما إشفاقاً على هذه الطبيعة البشريّة التعيسة التي تسكر بهذه السهولة من زجاجة نبيذ، أو من عزٍّ قليل، أو من سعادة هزيلة، ومن أشياء تافهة جمّة.

بَيْدَ أنّ مجدهما كان يستحق الاعتبار كأيّ مجدٍ آخر: مجد العبقرية، ومجد الثروات، ومجد المُلك، ومجد السّكْر. لكلّ مجدٍ ملاذه وأحقاده وخيباته. وهذا المجد كان مثار حسدٍ لكلّ شبّان البلدة، ولصاحب القصر الشابّ الذي كان يؤتى له من باريس بخمرٍ ونساءٍ وأصدقاء، لكنّه سرعان ما يستنفد كلّ هذا سئماً. كانت زجاجة شمبانيا تسكره وتجعله يتهاوى على أريكته المصنوعة من الحرير الدمشقيّ. كان يستعين بثروته ليظهر بمظهر المتهتّك فيما لم يكن سوى تافه غبيّ.

شكّلت قدرتهما على تحمّل الشراب بالنسبة إليهما مهمّة يضطلعان بها برحابة صدرٍ. وعلى غرار كلّ العظماء المضطلعين بدعوة على هذه البسيطة ويجري التنكّر لهم، كانا هما أيضاً يلقيان التجاهل من الطبقات العليا التي لا تَفهم، والحقّ يقال، إلّا الأهواء التي تحطّ من قدر الإنسان ولكن ليست تلك التي تتلفه. لنفرض أنّهما خاطرا بالمجيء إلى باريس ليستعرضا قوّتهما الخارقة، وأنّ امرأة مؤدّبة مرّت في الجانب الآخر من الرصيف فإنّها ستحمرّ خجلاً هاتفةً بامتعاضٍ: يا للهول!... وربّما ذهبت تخطب ودّ صديقتها البارونة التي كان زوجها في البداية موظّفاً ثمّ رئيس مكتب، فمصرفيّاً، ثمّ حصل على لقب بارون ومن بعده على لقب ماركيز، ثمّ صار عضواً في مجلس الأعيان، ولا فضل له في ذلك إلّا لأنّه قليل الضمير ولديه خيّاط جيّد وساعة بسلسلة جميلة، وامرأة ماهرة استخدمها كما يستخدم المتسوّلون جراحاتهم، معتاشاً من احتقارٍ

كان بالنسبة له مدخولاً ومزرعة وفوائد مستحقّة.

أمّا رجل الدولة المستلقي في مركبته الفاخرة، التي تجرّها أحصنة أربعة بيضاء، على الوسائد المخمليّة الزرقاء فكان سيلطّخ غير آبهٍ هذين الفظّين اللّذين يرتديان قميصين أحمرين ويتمايلان في الشارع كسفينة في عرض البحر، أو يصدمهما بعارضة عربته. ثمّ ينظر بعد حينٍ إلى نفسه في مرآته العريضة مردّداً: «نعم هذا أنا»، معجباً بجماله وعبقريّته لا بل بأدنى ثنية في مبذله المرقّش المنسدل بجلال على الأرضيّة الملمّعة. وهذا الرجل لا ينام، ولا يأكل، ولا يشرب. لم يرَ قطّ سماء زرقاء أخرى إلّا قبّة سريره، ولا كان له من أصحاب إلّا هؤلاء الذين يخدمونه والذين يدوسهم بقدميه. إنّه طَموحٌ مثل الإسكندر الكبير، متذلّل مثل أفعى متخاذلة، ليس إلّا مجرّد خادم للوزير الذي يدفع له مكافآته مناصبَ وأوسمةَ شرف وحفلاتِ عشاء يقطع عليه شهوةَ الطعام فيها سرورُه لوجوده فيها، وذات يومٍ سينطفئ الوزير أو الملك اللذين كان هو في خدمتهما، كشمعة احترقت لبعض الوقت ثمّ ذابت فاستُبدلت بواحدة أخرى لا تلبث أن تذوب بدورها. وبعد أن تتبدّد سكرة المجد والطموح سيصحو من هذا الحلم، وأيّ صحو!

أمّا المحسن الذي يتستّر بقبّعته ويرتدي ثياباً سوداء وأحذية عريضة، ذاك الرجل المحبّ للبشر محبّة عالم طبيعيّات لمتحف الحيوانات، فلا بدّ، وهو الذي تنتابه آلام في المعدة، والمنتسب إلى جمعيّة مكافحة الكحول، أنّه يبكي ألماً لدى رؤيته هذين الرجلين يدخلان بفرحٍ إلى الخمّارة. وهذا المحسن نفسه، بعد أربعين عاماً من توزيع كلّ ماله على الفقراء، وبعد أن أمر بوضع اسمه في الجرائد واشترى أسهماً في سكك الحديد، وراسل جميع الأكاديميّات العلميّة التي شرّفه كثيراً أن يكون عضواً فيها؛

يكتشف ذات يوم أنّ كلّ شيء كان خدعة، وأنّ الأسهم في سكّة الحديد انخفضت قيمتها، وأنّ الجرائد كذبت، وأنّ الأكاديميّات بلهاء، وأنّ الرجال منافقون، وأنّه هو نفسه ساذج؛ فيستيقظ من هذا الحلم. وأيّ استيقاظ! عندئذٍ يقتات من تأمّلاته ومن أفكاره المريرة، ويرمي تهكّماته على الطبيعة البشريّة، وطبيعة الله، والفصول والحرّ والبرد. لكن كلّ ذلك لن يوفّر له معطفاً ولا زوج أحذية، ولن يردّ له سعادته المفقودة.

وجميعهم سيقولون لك إنّهم متفوّقون، وإنّ من الأفضل أن يبيع المرء ضميره وجسده ليخدم الدسائس والجرائم، ولكي يُوطأ رأسه كمرقاة، وإنّ ذلك في النهاية أنبل من أن ينام متعتعاً من السّكر على أرض الخمّارة، وهي مكان، حسبما يقولون، يقدر أوّل زبون أن يدخل إليه ويشتري. كما لو أنّ العالم لم يكن هو أيضاً مكاناً كلّ شيءٍ يُشرى فيه ويُباع، حيث مالكو الذهب يدخلون ويغرفون قدر ما يشاؤون من الحبّ والشهوات والثروات والتكريم والإمبراطوريّات والأمجاد والانتصارات. إنّ بائعة الهوى التي تتبرّج وتمكث طيلة النهار على عتبة بابها مثل قطعة لحم على خشبة الجزّار، والوزير الخليّ البال الذي يرقص وينطنط وينحني مثل كلب البلاط كيما يسلّي سيّده الصرّاف المضطجع على أكوام الذهب كما اعتلى أيّوب قاذورات فساده، والمحسن البارد كطاولة التشريح في مستشفى، والشاعر ذا الأفكار الجوفاء، الممتلئ بذاك الغرور والجنون المكابر الذي ندعوه العبقريّة، وإنّ ما يُشرى ويُباع، والثراء، والدعارة، والفجور، أي كلّ ما ندعوه الدّنيا في النهاية سيقول لك على الأرجح إنّه هو الذي يجسّد النبل. كلّهم سيقولون لك إنّ لديهم روحاً، روحاً طاهرة، روحاً تنزلق على أرضيّات الغرف، وتنساب على كسوات الجدران المذهّبة للقصور، وتسبح في فضاء المدن الكبيرة، روحاً يسيرون عليها،

ويدوسونها بأقدامهم، ويبيعونها في الدكاكين، روحاً للبيع، روح امرأة وشاعر تباع من أجل الغرور، روح عاهل من أجل الطغيان، روح وزيرٍ من أجل الطموح، روح فقيرٍ من أجل الذهب فالذهب عريق وعراقته قديمة قدم العالم. قد يحسبونَ من الأفضل تدمير شعوب بأكملها بدلاً من أقبية خمّارة! ويعدّون من الأفضل الانتشاء بالدم بدلاً من النبيذ، والوصول أخيراً سكارى من الحياة بدلاً من زجاجة نبيذ!

لا، وألف لا!

المجد للشغف الأعذب والأنبل والأبرّ والأكثر حكمة بين الأهواء جميعها. المجد لشغف الحكماء والآلهة، لأنّ آلهة هوميروس يثملون كخدم، ويذهب آلهة الأولمب للرقص عند مداخل المدينة يوم الأحد ويثملون جذلين مرّة في الأسبوع. إنّ هذا الشغف عابر على الأقلّ وغير مصحوب بخيبة، وهو شغف يمكن إشباعه دوماً. أحقّاً إنّ أجمل تصنيف في النفس يُساوي بالنسبة إليك الرفوف المتناسقة في قبوٍ مجهّز كما ينبغي؟ أهناك شغف ونزقٌ يدومان أكثر من جرعة نبيذٍ جيّد؟ أسأل الناس الذين عاشوا حياتهم عمّا إذا كانت ذكرى صبوتهم تُساوي مذاق شراب في الفم. إنّ عشيقتك أو زوجتك ستهرمان. وإذا كان لديك القليل من الفضيلة فلن تغيّرهما، بل ستحتفظ بهما، أليس كذلك؟ وفي كلّ يوم، تذبل نضارة زوجتك أو عشيقتك، ولا يتبقّى لك إلّا ثفل ملذّاتك القديمة. أمّا النبيذ، بخلاف ذلك، فيزداد جودة كلّ يوم، وتطيب نكهته، فتُضاف شهوة على شهوة، وتزداد حلقة في هذه السلسلة من المسرّات والنشوات الرقيقة والأحاسيس العذبة.

آهٍ أيّتها الزجاجة الساكتة! لو كان لديّ المقدار ذاته من العبقريّة والحبّ لوددت أن أكتب لكِ قصيدة أو أشيّد لك تمثالاً! وا أسفاه! ولكنّك أيّتها

النشوة المحتقرة الشائعة، أنت كالفضيلة، تجدين اكتفاءك في ذاتك.

ومع ذلك فإنّهم يرفعون لك المذابح حيث يأتي عبادك ليغرفوا منك في عمق كؤوسهم، كما تغرف الحقيقة من عمق البئر. والويل للفيلسوف الفرِح الذي يُخرجها إلى الشارع!

الأطفال يركضون خلف الرجل الثمل. وجماعة البشر يندفعون بضراوة في أثر الحقيقة فيُمزّقونها إرَباً.

2

أمّا بعد! ذات يوم، التقى هذان الرجلان فدفعهما الغرور وحبّ المجد لكي يدعو أحدهما الآخر للتباري الأفظع والأكثر دمويّة الذي لم يسبق للفارس الأكثر مروءة وبسالة في أزمنة المباريات أن دعا إليه خصمه. كانت مبارزة حتّى الموت، حتّى النهاية، معركة يتواجه فيها اثنان في حلبة ضيّقة، وبأسلحة متساوية، حيث المهزوم عليه أن يبقى في مكانه ليعلن انتصار هازِمه. كان تحدّياً اندلع من غضب مسعور. وسيكون الصراع ضارياً، طويلاً ومليئاً دمدمة وصراخاً، لا هدنة فيه ولا راحة مستوجباً الموت في المكان نفسه. وسيكون شرف النصر ولذّته هما كلّ شيء فالنصر بحدّ ذاته سيغمر الفائز به بالإكرام ويكلّله بمجدٍ لا يزول.

لأنّ المبارزة كانت متعلّقة بمن سيشرب أكثر!!!

3

حصلت المبارزة عند هوغ.

في غرفة منخفضة في الطابق الأرضيّ، مفتوحة على فناء مزروع أشجاراً. في آخر الغرفة مدفأة عالية مزوّدة بأثافي حطبٍ صدئة، وصفيحة كبيرة من الحديد الصدئ، حيث نسجت العناكب خيوطها وكانت الريح المتغلغلة تهزّها بين الفينة والأخرى وتخترقها محدثة فيها ثقوباً، وعارضة خشبيّة مسودّة تزيّنها بندقيّة وبعض العصيّ والمسدّسات. ثمّ، على الجدران المبيّضة بالكلس عُلّق صوان من الخشب الأبيض يحمل على رفوفه أكداساً من الصحون الملوّنة. وفي الجهة المقابلة من الغرفة واجهة مربّعة من الزجاج الأخضر السميك، المتحرّك بواسطة لولب خشبيّ، تضفي على المكان مسحة خضراء غسقيّة كئيبة.

وإلى جانب هذه النافذة المُخفضة حتّى نصفها، طاولة صغيرة سوداء مع كرسيَّين من القشّ حيث وضع «السير» هوغ لتوّه كأسين وعدداً من الزجاجات مختلفة الأحجام. وخلفها في إحدى الزوايا، امتدّ حشد من أعناق الزجاجات بسدّاداتها الفلّين البيضاء.

كان يفتحها عندما وصل رامبو. آن الأوان لبدء التحدّي، سوف يهبط الليل عمّا قليل، وسيدوم ذلك حتّى الصباح.

ها قد اجتمعا وجلسا كلاهما صامتين واجمَين. وأخذا يشربان ويشربان لساعات طويلة.

من وقتٍ لآخر، كانا يمجّان بنهم مجّات من غليونيهما الخزفيّين الطويلين ويلفظانها نفحاتٍ رماديّة تنطلّق من أسفل خدودهما متوسّعة ملتفّة برخاوة على نفسها ثمّ مرتقية إلى السقف غيمة أثيريّة.

كان يُسمع أيضاً ارتطام عنق الزجاجة بالكأس لدى صبّ النبيذ فيه، وكذلك اصطكاك الأقداح بالأسنان المتقبّضة من نشوة السُكْر. في الخارج اللّيل صيفيّ وهادئ ووادع. وعند الأفق، خلف التلّة المكسوّة بالأشجار

المشذّبة، ارتفع نور أزرق من الأرض وانثال على نواحي الريف مرسلاً ضياءه الشاحب اللّازورديّ عبر زجاج النوافذ الضخمة الخضراء.

لم تعد تتسرّب إلّا همسات اللّيل الغامضة المنبعثة من الحقول، وكأنّ الطبيعة الهاجعة تطلق تنهيداتٍ في أحلامها: سُمِعَ صراخ في البعيد، ووقع خطىً نائية منسلّة، وارتجاف سياج الشوك، ونداء مشوّش، ورَفّات أجنحة العصافير في الأفنان، ونباح كلبٍ متكرّر ناحبٍ في ضوء القمر، وغطيط البقرات المسترسلة في نومها الثقيل تحت الأشجار على عشب الباحة أو صوت تقلّبها على مزود حظائرها.

عبرت أيضاً ريح مفعمة انتعاشاً بين الأوراق مخترقةً السياج بين أشجار التفاح حاملةً في ثناياها الخفيّة أريج الكلأ المجزوز وأزهار الغابات.

تلاشت الكبرياء المشؤومة التي كان يعتصم بها السكّيران مخليةً المكان لفرحٍ عذبٍ هانئ. انفرجت أساريرهما شيئاً فشيئاً وارتسمت على ثغريهما ابتسامة غامرة. وأخذا يتحدّثان بغبطةٍ وأعينهما شبه مغمضة ورأساهما ثقيلان جذِلان، على شفا الاستسلام للنوم المضمّخ بأحلامٍ سكرى.

كان مشعل نحاسيّ ينير وجهيهما بنورٍ عذبٍ راسماً على السقف المسودّ حلقاتٍ مشعّة مرتعشة. كانا إذاً على أهبة النوم. فارقت أيديهما الكأس وتهاوت على أفخاذهما، ثمّ أسندا رأسيهما إلى الجدار وعنقهما مشدود إلى الأمام. أغمضا أعينهما. كانت غمامة من العذوبة والحنان تحلّق فوقهما. كنت ترى على وجهيهما المنشرحين رشحَ إحساس لذيذ حميم طالع من النفس. نأى العالم بآلامه وأحزانه، وبات كل شيءٍ يتوالى أمامهما في صورٍ عارضة هائمة متّصلة كحلقة جنيّات يرتدين أثواباً من جميع الألوان ويعبُرنَ مسرعاتٍ مرتقياتٍ السماء في دوائر حلزونيّة تكبر

وتشيع ثمّ تتلاشى مثل نثار الذهب المذرور في الريح. وفجأةً انبثقت أنوار مجهولة، وشرارات، وأيّام على الجدران متهادية على سخام المدفأة متصاعدة ضفائر وحزَماً من نارٍ. كانت نشوات لا متناهية تتغلغل مشِبعةً في الحواسّ كلّها حلاوتها، رقدات تنبعث منها أحلام مشوّشة متّصلة بأحلامٍ أخرى في تسلسل لا نهاية له، كاهتزاز أرجوحة أثناء نومنا، أو كمثل عطور ورود تجعلك تحلم بالحبّ، أو تغريد كلماتٍ عذبة عطرة تشنّف الآذان، أو انبعاث مسرّات، أو ريفٍ تلتمع فيه الأزهار كالنجوم ولكلّ زهرةٍ طيبها المميّز وكلّ الطيوب تغمرك وتسكرك فتغيب في نومٍ أوحد وسعادة لا نظير لها.

كمن يفارق الحياة بابتسامة، ويفنى تحت وابل القبلات، كمن يُحمَلُ على أجنحة النوم إلى عالم لا حدّ له، عالم اللّانهاية والأحلام. هنا تكمن السعادة، والرغبة في كلّ شيء، الرغبة الغامضة المبهمة، شهوة الموت، شهوة الوسن، شهوة الأحلام، إنّها خفّة الورقة المتطايرة في الهواء، والغيوم الراكضة في الفضاء، المتمدّدة والمتلاشية فيه، إنّها العصفور يطير نحو السموات ويحلّق فوق العالم، بهجة الأزهار ترسل عطورها للرياح، سعادة الشاعر في هذيانه حين تنبعث روحه مع صوته وتَشيع كما ترسل الزهرة عطورها للرياح، والنسيان، ليحملها وتصير بدداً.

لكنّ هوغ نهض فجأةً بقفزة واحدة وملأ الكأسين. لمعت عيناه شرراً. وانقبضت يداه. ثمّ جعل يقهقه كمجنون. كان يحسّ بالظمأ وأراد أن يروي ظمأه. حلقه مضطرم، وما يشربه يزيده احتراقاً .

قال لرامبو وقد اشتدّ غضبه:

- هل تراجعت؟

فغسل الآخر عار هذه الشتيمة بقنّينة روم.

عاد الغضب يستولي عليهما فتحمّسا من جديد واقتربا من الطاولة، ثمّ استويا في جلستهما متمركزين الواحد قبالة الآخر، وأخذا يعبّان من الشراب قدر ما يستطيعان، طوع لذّتهما. لكنّ الأقداح لم تعد تكفي، فأمسك كلّ منهما بالزجاجة بيديه الاثنتين وارتشف الشراب من عنقها غير متوقّف إلّا لينظر إلى الآخر. كان كلّ منهما شاحباً صامتاً يحدّق بالآخر بنظرة مندهشة بلهاء.

لكأنّ الشيطان يحثّهما والرذيلة تمدّهما بقوى تفوق قدرة البشر. ثمّ أخذهما الهذيان. بعد الشغف تملّكهما شطط متوحّش مرعب بعتوّه وتبجّحه.

واقترب كلّ منهما من الآخر متحدّياً والعين على ما تبقّى من شراب. إنّه الفجور، الفجور القاتم، الذي لا صراخ فيه، ولا نساء، ولا أضواء. انساب النبيذ غزيراً وتمدّدت النشوة بكلّ عريها، وراحا يغوصان في بحرها حتّى العنق مسترسلَين في هذيان لا انقطاع فيه. كانا يشربان مدفوعين بغريزة جهنّميّة. كلّ شيء اختفى، السّكْرُ السقيم وغفواته اليَقِظة وموشوراته الساحرة. كان ظمأ حيوانيّ يدفعهما للاستزادة من الخمر بقوّة لا تقهر.

اضطرم صدرهما بلهائه، واصطبغ جلدهما بحمرةٍ قانيةٍ كالدم في عروقهما، وبدا وكأنّ عضلاتهما حديديّة قادرة على طحن الطاولة التي يتّكئان إليها بضربةٍ واحدة. تصبّب عرَقٌ بارد من شعرهما، ووجهيهما الشاحبَين، وأجفانهما الثقيلة التي كانا يرفعانها بمشقّة.

ثمّ احتدم في داخلهما سعار مجنون. فتنازعا بشراسة على الزجاجات الأخيرة المتبقّية لهما، واقترب أحدهما من الآخر، متواجهَين كوحشَين وهما يكشّران عن أنيابهما ويتبادلان نظرات نمور سكرى، والريق يسيل

من فم كلٍّ منهما مليئاً بالخمر، ومعه الشتائم والصرخات وحشرجات السُكر.

في تلك الليلة الفائقة العذوبة والصفاء كانت رؤية هذين الرجلين على ضوء المشعل الخافت، والقمر الصافي المشرق، تثير الرعب، وهما يتصارعان، ويمزّقان ملابسهما إرباً، وينتزعان بأصابعهما الخرْقة الأخيرة للفجور. إلى أن انكسرت القنّينة بين أيديهما.

انتشل هوغ واحدة أخرى من ورائه. كانت قنينة كيرش[1]، فتجرّعها دفعة واحدة ثمّ نهض بكلّ قامته الشاهقة وحطّم الطاولة برفسةٍ من قدمه ورمى الدورق على رأس رامبو وقال بعنجهيّة:

- فلتأكلْها!

وانبجس الدم وسال على ثيابها مثل النبيذ. سقط رامبو أرضاً مطلقاً حشرجات فظيعة وهوَ يحتضر.

أردف هوغ:

- والآن اشربْ.

اقترب منه ووضع ركبته على صدره وفتح فكّيه بيديه مجبراً المحتضر على مواصلة الشرب. فتدحرج مرّاتٍ عدّة على الأرض وسط الأقداح المحطّمة والخمر والدم. تكوّر جسده مثل أفعى ثمّ تشنّجت عضلاته فجأةً فنهض مرّة أخرى مترنّحاً ثمّ تداعى من جديد مهمهماً ببضع صرخات وانطرح أرضاً في نزعه الثمِل اليائس.

كان هوغ نائماً.

ثمّ توقّفت الحشرجات المتأوّهة، وتلاشى القمر خلف الغيوم، وعندما أطلّ الفجر مجلياً الظلمة عن الأفق، تسربّت آخر إشعاعاته مضيئةً هذين

(1) كتبها بالألمانية: Kirschenwasser، والكيرش مشروب كحوليّ من الكرز.

الرجلين اللّذين كانا مستغرقين كليهما في النوم، ولكنّ أحدهما انتقل من السُكرِ إلى النوم فيما الآخر من السُكْرِ إلى القبر وهو أيضاً رقاد آخر ولكنّه أشدّ أمناً وعمقاً.

4

في اليوم التالي، حوالى الساعة الرابعة مساءً، كان مطر ناعم وغزير ينهمر على الطريق الرئيسة مبلّلاً أوراق الأشجار المغبرة التي تحفّ بها. كان منزل هوغ أحد آخر منازل القرية، وتفصل بينه وبين الطريق باحة صغيرة مسوّرة بسياج من الأشجار يلمح عبر أفيائها وأفنانها المتشابكة بيت أبيض بشبابيك خضراء وعريشة تفترش جدار الجصّ. في هذه الباحة كان يرقد هوغ مواصلاً حلمه وقد حرصت زوجته على نقله تحت شجرةٍ غضّة، فيما كان خدّام الكنيسة قد أتوا لأخذ الميّت ونقلوه مكسوّاً بأسماله حتّى بيت الكاهن وهناك غسلوه واعتنوا به وأقاموا له قدّاساً على عجلٍ لإعانته على الانتقال إلى العالم الآخر متمّماً واجباته الدينيّة، والموت كما يلّيق بالمرء أن يموت.

كان لهذا الرجل أصدقاء تبعوه حتّى مثواه الحجريّ.

في القرى لا يوجد مركبات ولا أحصنة. فوُضِعَ النعش على محملٍ، وحُمل رامبو ملتفّاً بغطاء أسود بسيط من شأنه أن يستر دوماً الجثّة بقبحها وجمالها، وأيضاً ابتسامة الخدم التي تُشرى شراءً، وكلّ النجاسات التي تشوبها. وخلفه، سار أهل البلدة في صفوفٍ عديدة. كانت رؤوس الذين في المقدّمة عارية لأنّ الطقس حارّ، فيما الآخرون ارتدوا القبّعات لإخفاء صلعاتهم، وكانوا جميعهم يتحدّثون بصوتٍ منخفضٍ عن أعمالهم

وبهائمهم وغلالهم، ويُجرون الصفقات، وقلّة منهم كانت تصلّي لأنّ ليس لديهم ما يقولونه.

على جانبَي النعش، امرأتان مسنّتان ترتدي كلٌّ منهما قلنسوة سوداء وملابس حداد وتتأبّط رغيف خبزٍ كبيراً وتحمل باليد الأخرى شمعة مضاءة.

وأمام الجميع سار الكاهن وهو يتلو صلوات الموتى مراراً. وإلى جانبه القندلفت بلباسه الأسود وعصاه المرصّعة أطرفها بالفضّة، وهو يغنّي بصوتٍ أكثر انخفاضاً من سيّده، ثمّ بضعة أطفال من الكورس شعورهم الشقراء تنفر من قلانسهم الحمراء وكانوا يرتدون أحذية ضخمة، وجوارب حمراء، وثياباً بيضاء. كان أكبرهم يحمل صليباً فضيّاً عليه المصلوب في أعلى عصا قرمزيّة اللون، ويرتّل بانشراحٍ فخوراً بحمله الإله الرحيم. توقّف المطر وتقدّم الموكب بهدوء على الطريق المغبرّة التي بلّلها المطر.

ولدى مرور عربة نقلٍ، كانوا يخفضون الأغاني، فيرسم الفلّاح إشارة الصليب بخشوع، ويتوقّف الأطفال مندهشين ثمّ يسجدون ناظرين إلى النعش والشموع البيضاء المضاءة، والنساء اللّابسات الأسود، ورايات الجنازة، مستمعين إلى التراتيل الرتيبة التي تعبر الطريق وتخفت مع جلبة الخطى.

كانت المقبرة بعيدة. سار الموكب طويلاً. توقّفوا مرّتين لأنّ الرجال كانوا من الإعياء بحيث كادوا يعجزون عن حمل الميّت إلى مثواه. انعطفوا يميناً ليسلكوا طريقاً مختصرة عبر الأسيجة المزهرة والجِينَ ممرّاتٍ عديدة بين الحقول. كانوا يصعدون على مهل وحصباء الطريق تتدحرج تحت أقدامهم ثمّ تسقط في الوهاد ويتلاشى صداها في المهاوي المكسوّة بنبات

الخلنج.

وفجأةً سُمع صراخ فتوقّف الموكب. كان رجل يركض: إنّه هوغ.

استيقظ لدى مرورهم أمام بيته. فنهض، وكم شعر بالبرد آنذاك! راح يرتجف وخارت ساقاه عندما أراد المسير. شعر بقواه وهنتْ وبعزيمته اختفت كما طارت سدّادات الزجاجات.

أيّها العقل البشريّ الثابت الذي لا يتغيّر، أنت الذي شيّدنا لك المعابد، لأنّك كنت الألوهة الوحيدة التي ليست جديرة بالعبادة! أيّها العقل الذي يطير مع سدّادة إبريق الخمر، حتّى دون أن تحفظ كالإبريق طعماً في داخلك.

قتله السُكر. ما من لذّة لا تُستنفَد، وحيثما مرّت النار كان الرماد.

نهض، فرأى النعش، وسمع اسم رامبو على لسان أحد المشيّعين. سار دون أن يعرف السبب، هكذا بطريقة آليّة، كما نفعل جميعاً، وتعقّب، وهو ساهم، أشكالاً غامضة تسير أمامه. شعر فقط أنّه يواصل حلماً مضنياً يحاول عبثاً الخروج منه. ثمّ انطلقت أصوات من بين شفتيه وغمغماتُ صرخاتٍ وشتائم. لوقتٍ طويل شوهِدَ ذلك الرجل شبه العاري بقميصه الممزّق المدمّى بالنبيذ، ملاحقاً النعش متهكّماً متبجّحاً مترنّحاً على الطريق التي عبرَها كلّ أولئك الذين قضوا نحبهم.

سُمع صوت الكاهن الخافت الذي كان يصعد الطريق الحجريّة، وفي الأسفل صوتٌ أكثر انخفاضاً ينشد مقطعاً بهيجاً من أغنية سكر وفجور، لحناً قويّاً ذا إيقاعٍ صاخب وكلمات غير مفهومة ولكن بنبرةٍ تثير الخوف وكأنّ الميّت نهضَ من جديد وأخذ يغنّي هوَ أيضاً.

وبعد جهودٍ عديدة، بلغ هوغ الموكب وأوقفه مرّة أخرى مبعداً الأطفال الذين اقتربوا من النعش.

قال للميّت:

- أتنام؟ أتنام؟

ثمّ متلمّساً الشرشف الأسود الذي كان يغطّيه قال:

- «أنت تشعر بالبرد أيّها الجبان! وأنا أيضاً». تابع وهوَ يضرب صدره العاري بقوّة: «انظر!».

أزاح الشرشف عن الجثّة وأراد تحطيم النعش. وأخذ يشتم ويجدّف ويتهكّم على الميّت والكاهن والصليب. ويبصق على كلّ ذلك. كان يريد أن ينام مكانه في النعش ويتابع نومه.

ثمّ سقط مرّة أخرى منهكاً ونام على كومة حشائش.

والتأم الموكب ووصل أخيراً إلى المقبرة المحاطة بجدارٍ أبيض وأشجار السرو الخضراء والأسيجة السوداء المحاطة بحجارة يكسوها العشب.

حفروا قبر رامبو بالقرب من قبر معلّم المدرسة. وفيما كان يُنزَل النعش ويُرَشّ الماء المقدّس، شوهِد وجه هوغ الشاحب بشعره الأحمر وإيماءاته المرعبة عبر القضبان السوداء لبوّابة المدفن. جعلَ يشتم من جديدِ الجثّة ويرافق كلّ رفش ترابٍ يرمى عليها بشتيمة وتهكّم غامض. بقيَ طويلاً على هذه الحال ثمّ انحدر الطريق نزولاً مع الموكب.

دُفِن رامبو كما رأيتم في أرضٍ مقدّسة، أمّا هوغ الذي عاش بعده ردحاً من الزمن فاعتُبر مذ ذاك شيطاناً وساحراً.

15 حزيران/ يونيو 1838

مذكّرات مجنون
1838

في زماننا هذا درجت العادة على تبادل الهدايا، والذهب والتحيّات. أمّا أنا فأرسل لك أفكاري... هديّة محزنة أليس كذلك! ومع ذلك اقبلْها منّي فهي ملكك مثل قلبي.

غوستاف فلوبير
الرابع من يناير 1839

إليك أنت يا عزيزي ألفريد
أرفع هذه الصفحات وأهديها.

صفحات تشتمل على روح بأكملها... أتراها روحي؟ أم روح شخصٍ آخرٍ؟ أردت بادئ الأمر أن أجعل منها رواية حميمة حيث الشكّ طافح حتّى أبعد حدود اليأس. لكنْ، شيئاً فشيئاً، لدى كتابتي إيّاها، غلبت الانطباعات الشخصيّة على القصّة فحرّكت النّفس الريشة وسحقتها.

آثرت أن أترك ذلك نهب التأويلات وغموضها. أمّا أنت فلا تخفى عليك خافية.

ربّما سيتبادر إلى ذهنك الاعتقاد في غير مكانٍ أنّ التعبير متكلّف وأنّ المشهد يكفهرّ بلا داعٍ. تذكّرْ أنّ مجنوناً كتب هذه الصفحات. وإذا بدَت

الكلمة غالباً وكأنّها تتخطّى الشعور الذي تعبّر عنه فهذا لأنّها رزحت تحت ثقل القلب.

*

وداعاً، فكّرْ بي ومن أجلي.

1

لِمَ كتابة هذه الصفحات؟ وما جَدواها؟ وما أدراني؟ يبدو لي حقّاً أنّه من البلاهة بمكانٍ أن يُسأل الناس عن دوافع أفعالهم وكتاباتهم. هل تعرفون أنتم أنفسكم لماذا تصفّحتم الأوراق البائسة التي خطّتها يدُ مجنون؟

خطّتها يد مجنون. هي شيء مرعب إذاً. وأنت ما أنت أيّها القارئ؟ في أيّ فئة تدرج نفسك؟ في فئة البلهاء أم المجانين؟ لو قُدّر لك أن تختار بينهما فلربّما كان غرورك سيُملي عليك الخيار الثاني. أجل، ومرّة أخرى، أسأل ما جدوى ذلك؟ ما جدوى كتابٍ ليس بتعليميّ أو فلسفيّ، ولا بزراعيّ أو رثائيّ، ولا يعطي وصفة للتخلّص من البثور[1] أو البراغيث، ولا يتحدّث عن سكك الحديد أو البورصة، ولا عن خفايا القلب البشريّ أو الملابس في القرون الوسطى، ولا عن الله أو الشيطان، بل عن مجنون، أي عن العالَم، هذا الأبله الجبّار الذي يدور منذ قرون عدّة في الفضاء دون أن يتقدّم خطوة واحدة، وهو يرغي ويزبد ويتمزّق؟

لا أعرف بأحسن منكم ماذا ستقرأون لأنّه ليس رواية البتّة ولا قصّة

(1) في النصّ الفرنسي الأصليّ وردت كلمة «moutons» وتعني «خراف»، لكنّ الشرّاح يعتقدون أنّ هناك خطأً في مخطوطة فلوبير وأنّ الكلمة الصحيحة هي «boutons»، أي «بثور».

أُحكِمت حبكتها، ولا خواطر استقصى الفكر دقائقها سالكاً ممرّاتها المتناسقة.

إلا أنّني أريد أن أخطّ على الورق كلّ ما يخطر ببالي: أفكاري، وذكرياتي، وانطباعاتي، وأحلامي، ونزواتي، كلّ ما يعبر في الفكر والوجدان، من ضحك وبكاء، من إشراقٍ وقتامة، وشهقات تعانق عبارات مفخّمة مقدودة من أديم القلب، ودموع مذابة في استعارات حالمة. ومع ذلك، يزعجني التفكير بأنّني سأستهلك أقلاماً، وأستنفد زجاجة حبرٍ لأضجر قارئي وأضجر أنا نفسي. اعتدت على الضحك والشكّ، وسيجد القارئ في هذه الصفحات من بدايتها إلى نهايتها دعاباتٍ كثيرة قادرة على إضحاك هواة الهزْل حتّى أنّهم يضحكون في النهاية من الكاتب ومن أنفسهم.

وسترون ما هو السبيل للإيمان بخطّة الكون العادلة، وواجبات الإنسان الأخلاقيّة، والفضيلة، والإحسان، وهذه العبارة الأخيرة أرغب في أن أكتبها على حذائي، في حال استطعت الحصول على حذاء، كي يقرأها الجميع ويحفظوها عن ظهر قلب، حتّى قاصرو النظر بينهم، والكائنات المتناهية الصغر، الزاحفة، الأقرب من الوحل.

سيخطئ ظنّكم إذا رأيتم في ذلك شيئاً آخر غير عبثٍ مجنونٍ تعِس. أقول وأردّد: «مجنون!»

وأنت أيّها القارئ، هل تزوّجت للتوّ أو سدّدت ديونك؟

2

أريد إذاً أن أكتب قصّة حياتي. وأيّ حياة! هل عشت فعلاً؟ أنا في ريعان الشباب، لا تجاعيد في وجهي وقلبي دون هوى. آه! كم كانت

هادئة حياتي! وكم تبدو عذبة وسعيدة، وادعة وصافية! آه! نعم إنّها وادعة وساكنة مثل قبر جثّته الروح.

لم أكد أعش. لم أعرف العالم البتّة أي آنّني لم أحظَ بعشيقات ولا بمدّاحين، ولا خدم ولا حشم. لم أندمج في المجتمع - كما يُقال- لأنّه بدا لي دوماً صاخباً ومبهرجاً ببريقٍ خدّاع، مضجراً ومتصنّعاً.

بَيْدَ أنّ حياتي ليست وقائع. حياتي هي فكري.

ما يكون إذاً هذا الفكر الذي يقودني، الآن في العمر الذي يبتسم فيه الجميع، ويسعد، ويتزوّج، ويحبّ؛ في العمر حيث أغلب الناس يسكرون حبّاً ومجداً حتّى الثمالة، وحيث الأنوار مشعشعة والكؤوس ملِئت إيذاناً بالوليمة. ما الذي يقودني إذاً لأجدني وحيداً وعارياً، وبارداً حيال كلّ إلهام وشعرٍ؟ أحسّ آنّني أموت وأنا أضحك بوحشيّة من احتضاري الطويل، كمثل ذلك الأبيقوريّ[1] الذي فصد عروقه واستحمّ في مياهٍ معطّرة وتوفّي ضاحكاً كرجل يخرج ثملاً منهكاً من عربدة؟

آه كم مديدة كانت هذه الفكرة، وكم أكولة كانت، التهمتني بكلّ وجوهها وكأنّها هِذرة[2]، فكرة الموت والمرارة، فكرة المهرّج، فكرة الفيلسوف الذي يتأمّل...

آه! كم من الساعات مرّت في حياتي، طويلة ورتيبة، وأنا متفكّر مرتاب! كم منَ النهارات في الشتاء كنت مطرق الرأس أمام جمراتي التي احتضنها الرماد والتمعت بالانعكاسات الشاحبة للشمس الغاربة؛ كم

(1) يقصد فلوبير الفيلسوف والكاتب المسرحيّ اللاتيني سنيكا Seneca (4 ق.م.– 65 ب.م.) الذي ولد في قرطبة الحاليّة وتوفّي في روما. عيّن مربّياً لنيرون لكنّ هذا الأخير بعد أن أصبح إمبراطوراً اتّهمه بالتآمر وأمره بأن يُعدم نفسه. وسيأتي فلوبير على ذكر سنيكا أيضاً في القصّة التالية «جنازة الدكتور ماتوران».

(2) هِذرة: أفعوان خرافيّ ذو تسعة رؤوس (سبقت الإشارة إليه).

منَ الأصائل نظرت في الصيف، وأنا أعبر الحقول، إلى الغيوم تهرب وتتشكّل، وإلى القمح ينحني تحت النسيم، وكم أصغيت إلى الغابات ترتجف وإلى الطبيعة تتنهّد في الليالي!

آهٍ كم كانت طفولتي حالمة! أيّ مجنونٍ تعسٍ كنت! لا أفكار ثابتة لديه ولا يقين! كنت أنظر إلى الماء يسيل بين أجمات الأشجار التي تحني أوراقها الكثّة كشعورٍ، مسقطةً أزهارها. وأتأمّل من سريري القمرَ في سمائه اللّازورديّة يضيء غرفتي ويرسم ظلالاً غريبة على الجدران. كانت نشوة كبرى تعتريني حيال إشراقة شمس جميلة، أو صبيحة ربيعيّة متّشحة بضبابٍ شفيف، وأزهار الأشجار والأقحوان المتفتّحة.

كنتُ أحبّ أيضاً، وهذه إحدى ذكرياتي الأعذب والألذّ، أن أنظر إلى البحر والأمواج المزبدة المتلاحقة والمتكسّرة على الشاطئ تنبسط لترتدّ مهسهسةً على الحصى والأصداف.

كنت أركض على الصخور ثمّ أمسك قبضة من رمل المحيط وأذرّيها في الريح بين أصابعي، وأبلّل الطحالب متنشّقاً ملء صدري هواء البحر المالح المنعش الذي يشحن الروح بطاقة محيية وبأفكار شاعريّة رحبة. وأنظر إلى المدى الهائل، وإلى الفضاء واللّانهاية فتتوه روحي في هذا الأفق الذي لا حدّ لرحابته.

ولكن إزاء هذا الأفق الذي لا حدّ له، وتلك اللجج السحيقة انفتحت أمامي هاوية أكثر اتّساعاً وعمقاً. لم تكن هذه الدوّامة تصطخب بأيّ عاصفة. لو كان هناك عاصفة لكانت ملأى لكنّها فارغة.

كنت فرحاً وضحوكاً، أحبّ الحياة ووالدتي، والدتي المسكينة!

لا أزال أذكر مسرّاتي الصغيرة وأنا أرى الأحصنة تعدو على الطريق، وأرى لهب لهاثها والعرق يغمر سروجها، وأحبّ خببها الرتيب المنتظم

الذي كان يهزهز أحزمة العربة. ثمّ، عندما كان الحوذي يتوقّف، كلّ شيء يغدو في الحقول صامتاً. كنت ترى البخار يتصاعد من مناخير الأحصنة، والعربة المترنّحة تعود للثبات على نوابضها، والريح تعصف خلف الزجاج، وهذا كلّ شيء...

آه! كم كنت أنظر بدهشة وإعجاب إلى الحشد حين يرتدي ثياب العيد، ويبدو سعيداً، في صخبٍ وصياح، يموج مثل بحرٍ هائجٍ، محدثاً جلبة تفوق جلبة العاصفة وبلاهةَ غضبِها المسعور.

كنت أحبّ العربات، والأحصنة، والجيوش، وأزياء الحرب، والطبول القارعة، والصخب، والبارود والمدافع تعبر شوارع المدن.

في طفولتي كنت أحبّ كلّ ما يُرى، وفي مراهقتي كلّ ما يُشَمّ، ولمّا بلغت لم أعد أحبّ شيئاً.

ومع ذلك، كم كانت نفسي مفعمة شجوناً، كم من القوى الخفيّة ومن محيطات الغضب والحبّ كانت تتصادم وتتكسّر في هذا القلب الواهن، الأبله، المتداعي، المنهَك، المحطَّم.

وكانوا ينصحونني بأن أعود إلى حبّ الحياة، وأن أختلط بالناس!... ولكن كيف بوسع الغصن المكسور أن يحمل ثماراً؟ كيف يمكن الورقة المعفّرة التي اقتلعتها الرياح أن تخضرّ من جديد؟ ومن أين يأتي كلّ هذا الشعور بالمرارة فيما لا أزال في مقتبل العمر؟ ما أدراني! ربّما كان مقدّراً لي أن أحيا هكذا، متعَباً قبل أن أرزح تحت الأعباء، ولاهثاً قبل أن أركض...

قرأتُ وعملتُ بحماسٍ متأجج... وكتبت... آه كم كنت سعيداً آنذاك! كم كان فكري، في هذيانه، يحلّق عالياً في تلك الأصقاع التي لا تزال مجهولة لدى بني البشر، حيث لا أناس ولا كواكب ولا شموس. كان داخلي لا متناهياً أرحب وأوسع من المطلق، وكان الشعر يتهادى

محلّقاً باسطاً جناحيه في فضاءٍ من الحبّ والنشوة. ثمّ توجّب عليّ الانحدار مجدّداً من هذه السموات إلى الكلمات. لكن كيف بالإمكان أن أعبّر بالكلام عن هذا التناغم الذي يصعد في قلب الشاعر، وهذه الأفكار العملاقة التي تلوي الجُمَل كيَدٍ قويّة متورّمة تضيق بالقفّاز الذي يكسوها فتمزّقه؟

يا لتلك الخيبة. خيبة أن نلامس الأرض، الأرض الجليديّة حيث تنطفئ كلّ نار وتخبو كلّ طاقة. فأيّ مرقاة نتوسّل للانحدار من اللّامحدود إلى المحدود؟ كيف يمكن للفكر أن ينحطّ من علٍ دون أن يتحطّم؟ كيف بالإمكان تحجيم هذا العملاق الذي يُعانق اللّانهاية؟

عندئذٍ كنت أمرّ بلحظات حزنٍ ويأس، وأشعر بقوّتي تحطّمني، وبهذا الضعف يُخجلني، لأنّ الكلام ليس إلّا صدى بعيداً موهَناً للفكر. وكنت ألعن أَحبّ أحلامي ومعها تلك الأويقات الساكنة التي أعيشها عند حدود الخليقة، فأشعر بفراغٍ نهمٍ يلتهمني.

متعَباً من الشعر، ارتميتُ في حقل التأمّل.

شُغفتُ بدايةً بهذه المذاهب الجادّة التي تعتنق الإنسان هدفاً لها وتتوق إلى اكتناه وجوده متوسّلةً تفنيد الفرضيّات وتقصّي الاقتراحات المجرّدة، والتمعّن في الكلمات الجوفاء وفق منهجٍ منطقيّ صارم.

الإنسان حبّة رمل رمتها يدٌ مجهولةٌ في فضاء اللّانهاية، حشرة بائسة واهنة القوائم تريد أن تتشبّث على شفا الهاوية بكلّ الأغصان، فتتمسّك بالفضيلة، والحبّ، والأنانيّة، والطموح، وتتعلّق بالله، وتجعل من كلّ هذه الأمور مزايا تساعدها على الصمود بشكلٍ أفضل، لكنّها تضعف باستمرار، إلى أن تتخاذل وتُرخي قبضتها أخيراً فتسقط هالكة...

أيّها الإنسان أنت الذي تريد أن تفهم ما ليس موجوداً، وأن تصنع

من العدم علماً. أيّها الإنسان أنت الروح التي خُلقت على مثال الله. لكنّ عبقريّتك السامية تتوقّف عند حدود عشبة صغيرة، وتعجز عن تخطّي مسألة حبّةِ غبارٍ واحدة! وإذ أدركت ذلك هدّني التعب ورحت أرتاب بكلّ شيء، هرمت وأنا في عمر الصبا. غزت قلبي التجاعيد، وحين كنت أصادف شيوخاً مفعمين حيويّة وحماسة وإيماناً، كانت تعتريني مرارة متهكّمة فأتحسّر على نفسي، أنا اليافع، كيف مللت الحياة والحبّ والمجد والله، وكلّ ما هوَ موجود، وكلّ ما يمكن أن يوجد. ومع ذلك اختلج قلبي برعبٍ تلقائي حين أردت اعتناق الإيمان بالعدم. أغمضت عينيّ على حافة الهاوية، وارتميت فيها.

كنت سعيداً لأنّي أنجزت السقطة الحاسمة. كنت بارداً وساكناً مثل حجر ضريح. اعتقدتُني وجدت السعادة في الشكّ، فيا لجهلي. فالشكّ سقوط في فراغ لا حدّ له، ذاك الفراغ الهائل الذي يجعل شعر الرأس ينتصب رعباً ما إن نقترب من الحافّة.

من الشكّ بالله أفضى بي الأمر إلى الشكّ بالفضيلة، وهي فكرة واهية رفعها كلّ عصر، كيفما استطاع، على منصّة القوانين، وهي أوهى منها.

سوف أروي لكم لاحقاً جميع مراحل هذه الحياة الكئيبة المستغرقة في التأمّل التي أمضيتها جالساً في ركنٍ أمام نار الموقد، مكتّف الذراعَين، وأنا أتثاءب ضجراً أبديّاً -وحيداً طيلة نهارات بأكملها- منقّلاً نظري من وقتٍ لآخر تارة إلى الثلج على السطوح المجاورة، وتارة أخرى إلى الشمس الغاربة وهي تفيض بأنوارها الشاحبة على بلاط غرفتي، أو على الجمجمة المصفرّة الدرداء فوق مدفأتي التي تزداد اكفهراراً. الجمجمة رمز الحياة، وهي مثلها، باردة متهكّمة.

وستقرأون لاحقاً جميع مخاوف هذا القلب المحطّم، المفعَم مرارة.

وستكتشفون مغامرات هذه الحياة الممعنة في الهناءة والتفاهة، المفعمة بالمشاعر، الخالية من الوقائع.

وسوف تقولون لي فيما بعد إذا لم يكن كلّ شيء عبثاً وسخرية، إذا لم يكن كلّ ما نتغنّى به في المدارس وكلّ ما نهذي به في الكتب، وكلّ ما نراه ونحسّه ونقوله وكلّ ما هو موجود...

لن أكمل لأنّني أختنق مرارةً إذ أقوله. حسناً! سأقوله، إذا لم يكن كلّ ذلك بؤساً وهباءً وعدماً!

3

ارتذتُ المدرسة المتوسّطة منذ سنّ العاشرة وأظهرت منذ البداية نفوراً شديداً من الآخرين. وكان مجتمع التلامذة ذاك يمارس على ضحاياه قسوة توازي قسوة المجتمع الصغير الآخر، مجتمع البشر.

لاقيت في مدرستي الظلم نفسه الذي تتّصف به الجماهير، والطغيان نفسه الذي يميّز الأحكام المسبقة والقوّة، وواجهت الأنانيّة نفسها مهما قيل عن تجرّد الشبيبة وتفانيها. الشبيبة التي يقول هؤلاء الذين يحكمون العالم وفق «الحسّ السليم» إنّ عهدها مرادف لسنّ الجنون والأحلام والبلاهة والشِّعر. ولكنّي اصطدمت بهذه الشبيبة مهما فعلت وأينما كنت: في الصفّ بسبب أفكاري، وفي أوقات الاستراحة بسبب ميولي للوحدة المتوحّشة. ومنذ ذلك الحين، صرت مجنوناً.

عشت إذاً وحيداً ضجراً، يعاكسني أساتذتي ويسخر منّي رفاقي. كان مزاجي نزقاً متهكّماً، ولم تكن سخريتي اللّاذعة والمتخابثة تجنّبني الأذيّة من أيّ كان ولا استبداد الجميع بي.

أراني جالساً على مقاعد الدراسة، مستغرقاً في أحلامي عن المستقبل، مفكّراً في كلّ ما يستطيع خيال طفلٍ أن يحلم به من سموّ، فيما كان الأستاذ يسخر من أبياتي باللغة اللّاتينيّة وينظر إليّ رفاقي متهكّمين. هم الأغبياء ويضحكون منّي! هم السخيفون، التافهون، ذوو العقول المحدودة! وأنا الذي كنت أسبح بفكري عند تخوم الخليقة، وأهيم في عوالم الشعر. كنت أشعر أنّني أعظم منهم جميعاً، أنا الذي أستميل متعاً لا متناهية وتغمرني نشوات سماويّة أمام ما تبيّنه لي نفسي من تجلّيات حميمة!

كنت أشعر أنّني عظيم كالعالم، وأنّ فكرة واحدة من أفكاري يمكنها، لو كانت مقدودة من شهب الصاعقة، أن تحيله غباراً! فأيّ مجنون تعسٍ كنته!

أراني شابّاً في العشرين من عمري، مكلّلاً بالمجد، حالماً بالأسفار إلى أصقاع الجنوب. أرى الشرق ورماله الهائلة، وقصوره التي تدوسها الجِمال وجلاجلها البرونزيّة. وأبصر الخيول تتوثّب نحو الأفق الذي خضّبته الشمس. أرى أمواجاً زرقاء، وسماء صافية، ورمالاً من لجين. وأتنشّق ذاك العبق الدافئ لمحيطات الجنوب. وإلى جواري، في ظلّ خيمة منصوبة تحت ألوَة[1] عريضة الأوراق، امرأة سمراء متوقّدة النظرات تحتضنني بذراعيها وتحدّثني بلغة النساء الحُور[2].

والشمس تغرق في الرمال، والنوق والأفراس هاجعة فيما الحشرات تحوم حول أثدائهنّ بطنينها، وريح المساء تعبر قريباً منّا.

ويهبط الليل فيظهر القمر الفضيّ وسط الصحراء خامل النظرات، وتلتمع النجوم في السماء اللّازورديّة. عندئذٍ، في صمت ذلك الليل الحارّ

(1) الألوة أو الصَبر: جنس من النباتات الصحراويّة أو الجبليّة.

(2) استخدم مفردة «الحُور» العربية، الشائعة في الأدب الفرنسيّ.

العطر، كنت أحلم بمسرّات لا متناهية وبلذّاتٍ هي من فردوس الجنّة.

أرى أيضاً المجد بكلّ بهائه مصحوباً بالأهازيج والموسيقى الصاخبة المالئة الأرجاء، وأشجار الغار، والغبار الذهبيّ تنثره الرياح. أرى مسرحاً متلألئاً بنسائه المتبرّجات، وماساته اللّامعات وهوائه الثقيل وصدوره اللّاهثة. ثمّ يعقب ذلك الخشوعُ الدينيّ، والكلمات الملتهِمة كالحريق، ودموع وضحك وشهقات، وسكرة المجد، وصيحات الحماس ولجّةُ الحشد يضرب الأرض برجليه، وماذا بعد! لا شيء سوى بطلان وصخب وعدم.

في طفولتي حلمت بالحبّ، وفي صبايَ حلمت بالمجد، وفي عهد الرّجولة حلمت بالقبر، وهو الحبّ الأخير لمن لا يحدوه أيّ حبّ.

كنت أرى أيضاً القرون الغابرة المندثرة والأعراق الراقدة تحت عشب القبور. أرى جماعات الحجّاج والمحاربين يسيرون نحو الجلجلة ويتوقّفون في الصحراء وقد أضناهم الجوع، متضرّعين إلى الله الذي ذهبوا يبحثون عنه. وبعد أن أمضّهم تجديفهم، واصلوا السير باتّجاه هذا الأفق الذي لا حدّ له، منهكين، خائري القوى إلى أن بلغوا أخيراً غاية سفرهم يائسين عاجزين، متكبّدين كلّ هذا العذاب للتبرّك ببعض الحجارة القاحلة، محطّ إكرام العالم أجمع. كنت أرى الفرسان يعْدون على الأحصنة المدرّعة بالحديد على شاكلتهم، وقرع الرماح في المباريات، والجسر الخشبيّ ينخفض ليستقبل السيّد الإقطاعيّ العائد مع سيفه المدمّى، والأسرى على صهوات خيوله. وفي الليل أيضاً، كنت أرى الكاتدرائيّة القائمة وفي داخلها جناح الكنيسة كلّه مزيّناً بإكليلٍ من المؤمنين يرتقي مع التراتيل حتّى قبّتها، ونوافذ الزجاج الملوّن تشعّ بالأنوار. وفي ليالي الميلاد، تضيء المدينة القديمة بأسْرها مع سطوحها المسنّنة المغطّاة بالثلج، وتغنّي.

كانت روما أحبّ مدينة إليّ. روما الإمبراطوريّة، تلك الملكة الجميلة المتمرّغة في الفسق، الملطّخة ثيابها النبيلة بخمرة الفجور، الأكثر افتخاراً برذائلها منها بفضائلها. ونيرون! نيرون بمركباته المزدانة بالألماس التي تنهب أرض الحلبة نهباً، وعرباته المئة، وصبواته المتوحّشة، وولائمه الباذخة. وبعيداً عن الدروس الكلاسيكيّة، كنت ألوذ بشهواتكِ العارمة وإلهاماتكِ المضرّجة بالدم، وتسلياتك الحارقة، يا روما.

مهدهَداً بين ذراعي هذه الأحلام الغامضة، وهذه الرؤى الآتية؛ محمولاً على متن الفكرة الخطرة الجامحة كفرس لا لجام لها تعبر السيول وتتسلّق الجبال وتحلّق في الأجواء، كنت أبقى ساعاتٍ طوالاً مسنداً رأسي إلى يديّ أنظر إلى سقف صفّي، أو إلى عنكبوتٍ تنسج خيوطها في زوايا منبر أستاذنا. وعندما كنت أستيقظ محملقاً بعينيّ، كانوا يسخرون منّي، أنا الأضعف بينهم جميعاً، أنا الذي لا تخطر لي أيّ فكرة واقعيّة ولا أظهر ميلاً لأيّ مهنة، أنا العديم النفع في هذا العالم حيث يحرو بكلّ واحد أن يهبّ ليحظى بحصّته من الغنيمة. أنا الذي لا نفع لي في أيّ شيء كان، ربّما في التهريج على أكثر تقديرٍ، أو في استعراض الحيوانات، أو في صناعة الكتب.

ورغم تمتّعي بصحّةٍ جيّدة، إلّا أنّ مزاج نفسي المجرّحة بالحياة التي كنت أعيشها وباحتكاكي بالآخرين تسبّب لي باهتياجٍ عصبيّ جعلني نزقاً وجامحاً كثورٍ مريضٍ يُسقمه لذع الحشرات. وراودتني أحلام وكوابيس مرعبة.

آهٍ من تلك الحقبة الحزينة المتجهّمة! أراني فيها متسكّعاً، وحيداً في أروقة مدرستي الطويلة المطليّة بالكلس، أنظر إلى طيور البوم والزاغ تفرّ من قبب الكنيسة. أو أراني مضطجعاً في عنابر النوم تلك التي يضيئها

مصباح تجمّد فيه الزيت. وفي الليالي، أستمع طويلاً إلى الريح تعصف بنبرة جنائزيّة في الغرف الطويلة الفارغة، ويتغلغل صفيرها عبر الأقفال وتهتزّ لها إطارات النوافذ. كنت أستمع إلى الحارس يمشي ببطءٍ حاملاً فانوسه. ما إن يقترب منّي، حتّى أتظاهر بالنوم، وكنت أنام متأرجحاً بين أحلامي ودموعي.

4

أذكر رؤى راعبة إلى حدّ الجنون.

كنت نائماً في منزلنا. وكان الأثاث على حاله. وفجأة اصطبغ كلّ ما يحيط بي بالسواد. كانت ليلة من ليالي الشتاء والثلج يرسل انعكاسه الأبيض إلى غرفتي. وفجأةً ذاب الثلج واتّخذت الأشجار لوناً صدئاً محروقاً وكأنّ حريقاً اضطرم عند نوافذي. سمعتُ وقع خطوات ترتقي الدرج وتسرّب إليّ هواء ساخن وبخار نتن. ثمّ فُتِحَ الباب وحده. ودخلوا، كانوا جمعاً، ربّما بين السبعة والثمانية. لم يتسنّ لي الوقت لأعدّهم. كانوا قصار القامة وطوالاً، وكانت لحاهم سوداء مرسلة وكثّة. لم يكن معهم سلاح، لكنّ نصلاً من الفولاذ التمع بين أسنانهم جميعاً. اقتربوا منّي متحلّقين حول سريري، وسمعت اصطكاك أسنانهم وهو ما أرعبني. أزاحوا ستائري البيضاء ورسموا عليها بكلّ إصبع من أصابعهم خطّاً دامياً. كانوا يحدّقون إليّ بأعينٍ جاحظة ثابتة لا يرفّ لها جفن. ونظرت إليهم بدوري عاجزاً عن القيام بأيّ حركة. أردت الصراخ.

وبدا لي حينئذٍ أنّ البيت يقتلع من أُسسِه وكأنّه محمول على رافعة. تفرّسوا بي هكذا مطوّلاً ثمّ تفرّقوا فلاحظت أنّ لجميعهم جانباً من

الوجه مجرّداً من الجلد ويسيل منه الدم بطيئاً. نزعوا عنّي ملابسي وكانوا جميعهم ملطّخين بالدم. وبدأوا يأكلون، وكان الدم يقطر من الخبز الذي يقتسمونه قطرةً قطرة. ثمّ راحوا يضحكون، وكانت ضحكاتهم تتردّد كحشرجات الموتى.

وعندما رحلوا أخيراً، اصطبغ كلّ شيء، كلّ ما لمسوه، كسوات الجدران والدرج والأرضيّة، بالدماء.

شعرت بالمرارة تعتصر قلبي. بدا لي وكأنّني أكلت من لحمي. وسمعت صراخاً طويلاً، أجشّ، حادّاً. وانفتحت النوافذ والأبواب ببطء، وجعلتها الريح تصطفق بقوّة وتصرخ مثل أغنية غريبة كان كلّ صفير فيها خنجراً يمزّق فؤادي.

وفي حلم آخر، كنت برفقة والدتي على ضفّة نهر في الريف المخضوضر المزدهي بالأزهار اللّامعة. وفجأة سقطَتْ أمّي التي تسير لجهة الضفّة في النهر. رأيت الماء يزبد والدوائر تتّسع وتختفي فجأةً. ثمّ عاود السيل مجراه. وبعدئذٍ لم أعد أسمع إلّا دمدمة المياه تجري بين القصب وتلوي أعناقه.

وفجأةً نادتني أمّي: «النجدة! النجدة! أنجدني يا ولدي، أنجدني! أتوسّل إليك!».

فزحفت على بطني فوق العشب وراقبت النهر فلم أرَ شيئاً، وتواصلت الصرخات.

كانت قوّة لا تُقهر تلصقني بالأرض فيما توالت الصرخات: إنّني أغرق! إنّني أغرق! أنجدني!

وكانت المياه تجري، تجري صافية، وكان ذلك الصوت المنبعث من أعماق النهر يُغرقني في لجّة اليأس والغضب المسعور...

5

هاكم إذاً ما كنت عليه: حالماً، لا مبالياً، حرّ المزاج، متهكّماً، أخطّ لنفسي مصيراً، وأحلم بوجود شاعريّ مفعم حبّاً، وأعتاش من ذكرياتي، قدرَ ما يستطيع المرء أن تكون له ذكريات في سنّ السادسة عشرة.

كنت أكره المدرسة. ربّما كان هذا القرف العميق الذي تشعر به النفوس النبيلة إثر احتكاكها بالناس وانجراحها بهم موضوعاً جديراً بالاهتمام. لم أحبّ قطّ الحياة المنتظمة، والمواعيد المحدّدة بدقّة، والعيش الموصول إلى عقارب الساعة التي تُملي على الفكر أن يتوقّف عند رنين الجرس، وحيث كلّ شيءٍ أُحكِم وجرى ضبطه مسبقاً لقرونٍ وأجيال خلت. ربّما كان هذا الانتظام يلائم الشريحة الكبرى من الناس. ولكن بالنسبة إلى الطفل المسكين الذي يقتات بالشعر والأحلام والأوهام، ويفكّر بالحبّ وبكلّ التفاهات، كان هذا يعني إيقاظه باستمرار من حلمه السامي، والضنّ عليه بلحظة راحة واحدة، وكتْم انفاسه بإعادته إلى جوّ الواقع الخانق والحسّ السليم اللّذين يشمئزّ هو منهما ويتقزّز.

كنت أنتحي زاوية وفي يدي كتاب أشعار، أو رواية، أو شيء ما يجعل هذا القلب يرتعش، قلب الفتى المفعم بالأحاسيس البكر والمتلهّف للاستزادة منها.

أذكر بأيّ لذّة كنت ألتهم صفحات بايرون، و«فرتر»[1]. وبأيّ انخطاف قرأت «هاملت»، و«روميو وجولييت»، والأعمال الأعظم شأناً في زماننا، وكلّ المؤلّفات التي تأخذ بشغاف القلب وتشعله حماسة.

كنت أتغذّى إذاً من هذا الشعر اللّاذع الآتي من الشمال المدوّي بروعة

---

(1) إشارة إلى الرواية الشهيرة للكاتب الألماني غوته «آلام الشاب فرتر».

في أعمال بايرون كأمواج البحر. وغالباً ما كنت أحفظ لدى القراءة الأولى مقاطع كاملة منها ثمّ أردّدها لنفسي، كما تردّد أغنية سَحَرك لحنها وسكن رأسك. كم منَ المرّات استذكرت بداية «الكافر»[1]: «ما من نسمة هواء...»، أو «رحلة تشايلد هارولد»[2]: «قديماً في ألبيون[3]...»، و«أيّها البحر لطالما أحببتك على الدوام»... وكانت سطحيّة الترجمة الفرنسيّة تتلاشى أمام قوّة الأفكار وحدها وكأنّ لديها أسلوباً خاصّاً بها بمعزل عن الكلمات نفسها.

لا بدّ أنّ لهذا الطبع المعجون بشغف حارق وبسخرية مريرة أثراً كبيراً في تفتّح شخصيّة متوقّدة ونقيّة مثل شخصيّتي. كلّ هذه الأصداء المجهولة التي ترجّعها الآداب الكلاسيكيّة، وما تتحلّى به من جمالٍ باذخ، عبقتْ بالنسبة إليّ بعطر جديد، واغتنتْ بجاذب شدّني باستمرارٍ إلى هذا الشّعر العظيم الذي يصيبك بالدوار ويجعلك تسقط في هاوية لا قرار لها.

كنت إذاً مشوّه الذوق والقلب بحسب قول أساتذتي. كنت محاطاً بكائنات ذات ميول أرضيّة، وحدت بي استقلاليّة فكري لأن أُعتبَر الأكثر نزقاً بين الجميع. أُنزلتُ إلى أحطّ دركٍ بسببٍ من تفوّقي نفسه. بالكاد سلّموا لي بامتلاك الخيال، وهو، بحسب رأيهم، هذيان عقليّ أقرب ما يكون إلى الجنون.

هكذا كان دخولي إلى المجتمع والتقدير الذي لاقيته.

---

(1) الكافر: *Giaour* (وتعني «الكافر» باللغة العثمانيّة التركيّة) عنوان حكاية شعريّة للشاعر الإنجليزي لورد بايرون، كتبها عام 1813.

(2) «رحلة تشايلد هارولد»، قصيدة سرديّة طويلة كتبها الشاعر الإنجليزي لورد بايرون ونشرت بين 1812 و1818.

(3) ألبيون Albion: التسمية القديمة لبريطانيا العظمى.

6

افتروا على فكري ومبادئي لكنّهم لم يستطيعوا النيل من قلبي، لأنّني كنت طيّباً آنذاك، وكانت مآسي الآخرين تبكيني.

أذْكر، كنت طفلاً صغيراً، وكنت أحبّ أن أفرغ جيوبي للفقراء. بأيّ ابتسامة كانوا يستقبلونني لدى مروري بقربهم، وأيّ لذّة كانت تتملّكني لدى إحساني إليهم! تلك لذّة قد تصرّمت منذ ذلك الوقت. لأنّ قلبي الآن بات صلداً ودموعي جفّت. ولكن سُحقاً للناس الذين جعلوني فاسداً ولئيماً بعدما كنت طيّباً وتقيّاً! سحقاً لهذه الحضارة اللّافحة التي تُذبِل كلّ ما ينمو تحت شمس الشعر والعاطفة! إنّه هذا المجتمع القديم الموبق الذي أغرق الجميع في أوحال الفساد والفاحشة. إنّه ذاك اليهوديّ الجشع الذي سيموت جزعاً لفراق أكوام الزِّبل الموبوءة التي يدعوها ثرواته، ولن يكون هناك شاعر ليرثي موته، ولا كاهن ليغمض عينيه، ولا ذهب ليزيّن ضريحه، لأنّه برذائله وفساده أتى على كلّ شيء.

7

متى سينتهي إذاً هذا المجتمع الذي دمّرته الموبقات جميعها، موبقات الفكر والجسد والروح؟

لأنّه بموت مصّاص الدماء الكاذب الخبيث الذي ندعوه الحضارة سَيَعمّ الفرحُ الأرضَ، وسيترك الإنسان المعطف الملكيّ والصولجان والألماس، والقصر الذي ينهار، والمدينة التي تسقط ويذهب لملاقاة الفرس والذئبة. وبعد أن أمضى عمره في القصور وأفنى قدميه في شوارع

المدن الكبيرة، سيذهب ليموت في الغابات.

ستصبح الأرض قاحلة من جرّاء الحرائق التي التهمتها ومعفّرة بغبار المعارك. وريح الفاجعة التي عصفت بالبشر ستعصف بها، ولن تعطي الأرض إلّا ثماراً مرّة، ووروداً، وأشواكاً. وستندثر الأعراق في مهدها كالنباتات التي نخرتها الرياح وماتت قبل أن تُزهر.

لأنّه يجب أن ينتهي كلّ شيء، وأن تفنى الأرض بعدما داستها أقدام كثيرة. حريّ بهذا المدى الشاسع أن يتعب من حبّة الغبار هذه التي تحدث ضجيجاً متعاظماً وتعكّر جلال العدم. وخليق بالذهب أن ينفد لكثرة ما تناقلته الأيدي وأفسد الناس. يجب على بخار الدم هذا أن يهدأ، وأن يتداعى القصر تحت ثقل الثروات التي يخفيها، وأن ينتهي الفجور وتتمّ الصحوة.

وعندما يعاين الناس هذا الفراغ، عندئذٍ ستدوّي ضحكة اليأس المجلجلة، وستسلّم الحياة قيادها للموت، الموت الأكول الذي لا يشبع. وكلّ شيء سيتداعى منزلقاً في شقوق العدم، والرجل الفاضل سيلعن فضيلته، والشرّ سيصفّق بيديه ابتهاجاً.

أمّا ما بقي من ناس متسكّعين في الأراضي القاحلة فسيتنادون ويذهبون للتلاقي لكنّهم سيتراجعون مرتعبين من بشاعتهم ويموتون هولاً ورعباً. ماذا سيكون مصير الإنسان عندئذٍ، وهو الأكثر ضراوة من الحيوانات المتوحّشة والأكثر حقارة من الزواحف؟ وداعاً إلى الأبد أيّتها العربات المطهّمة البرّاقة، وداعاً أيّتها الأهازيج، والموسيقى الصاخبة، والأمجاد، وداعاً أيّها العالم، أيّتها القصور، أيّتها الأضرحة، يا شهوات الجريمة ويا مباهج الفساد. سيتدحرج الحجر فجأةً منسحقاً تحت وطأته هو بالذات وسينبت عليه العشب! والقصور، والمعابد، والأهرامات،

والأعمدة، وأضرحة الملك، ونعش الفقير، وجيفة الكلب، كلّ ذلك سيكون مستوياً تحت عشب الأرض.

وعندئذٍ سيتدفّق البحر بحريّةٍ معانقاً ضفافاً لا حدّ لها، غامراً بأمواجه رماد المدن الذي لا يزال مشتعلاً، وستنبت الأشجار من جديد وستورق، دون يدٍ تمرّ عليها لتكسرها أو تحطّمها، وستجري الأنهر في مروج زاهية. وستكون الطبيعة منعتقة من نكَد الإنسان. وصنف البشر سيندثر لأنّه ملعون منذ الأزل.

ما أحزن هذا الزمان زماننا وما أغربه! تُرى إلى أيّ محيط يجري هذا السيل من المعاصي؟ إلى أين نذهب في هذا الليل العميق المدلهمّ؟ كلّ من أراد لمس هذا العالم السقيم ما لبث أن تراجع مرتعباً من النتانة التي تغلي في أحشائه.

حين شعرَتْ روما أنّها تحتضر، كان لديها أمل على الأقلّ. كانت تستشفّ خلف الكفنِ الصليبَ المشعَّ، اللّامع، المشرِّع فوق الأبدية. استمرّ هذا الدينُ ألفي سنة وها هوَ يستنفد، لم يعد كافياً، بات هزأة. ها هي كنائسه تتداعى، وقبوره تغصّ بالأموات.

ونحن أيّ ديانة ستكون لنا؟

شاخ بنا الزمن كثيراً وعجزنا عن متابعة السير في الصحراء أسوة بالعبرانيّين لدى خروجهم من مصر.

أين أرض الميعاد؟

جرّبنا كلّ شيء وأنكرنا كلّ شيء دون أمل. ثمّ استحوذ على نفوسنا طمع غريب. كان ثمّة قلق رهيب يتأكّلنا. ثمة فراغ لا يلتئم في جمعنا. ومن حولنا نشعر ببرودة القبر تنخر عظامنا.

أخذت البشريّة تدير الآلات، وإذ رأت الذهب يسيل منها هتفت:

«هذا الله». وما لبثت أن التهمته. ولأنّ كلّ شيء انتهى، وداعاً! وداعاً! ارتشفوا الخمر قبل الحتف! كلّ واحدٍ ينقضّ حيث تدفعه غريزته، العالم يعجّ مثل الحشرات التي تنهش الجثّة، والشعراء يعبرون دون أن يكون لديهم الوقت لينحتوا أفكارهم. لا يكادون يرمونها على أوراق، والأوراق تتطاير. كلّ شيء يلمع ويدوّي في هذه المسخرة الشاملة، في ممالكها التي لا تدوم إلّا يوماً واحداً وصولجاناتها الكرتونيّة. الذهب يتدحرج والنبيذ يسيل. الفجور البارد يرفع ثوبه ويتلوّى... يا للرعب! يا للرعب! ثمّ يُرمى على كلّ ذلك ستار يجذبه كلّ واحد إليه ليتدثّر به قدر الإمكان.

أيّ تجديف! أيّ رعب! سحقاً!

8

ثمّة أيّام أشعر فيها بتعبٍ هائل وبضجرٍ قاتم يلفّني مثل كفنٍ حيثما أذهب. ثناياه تربكني وتزعجني. والحياة تثقل عليّ مثل ندم. في مقتبل العمر، ومع ذلك سئمت كلّ شيء وأحار في مَن أدركهم سنّ الكهولة ولا يزالون مفعمين حماسة. ما العمل؟ أيجدر بي النظر ليلاً إلى القمر يرسل على جدراني ضياءه المرتعش مثل أغصان متشابكة، وإلى الشمس نهاراً تذهّب بأشعّتها السطوح المجاورة؟ أهذه هي الحياة؟ لا بل هذا هو الموت تنقصه راحة القبر.

لديّ مسرّات صغيرة تخصّني وحدي، وذكريات طفوليّة ما برحت تأتي لتدفّئني في عزلتي كانعكاساتِ شمس غاربة عبر قضبان سجن. كان أقلّ تفصيل: نهار ماطر، أو شمس مشرقة، أو زهرة، أو قطعة

أثاث قديمة، أو أيّ شيء، يستحضر طائفةً من الذكريات فتعود كلّها مشوّشة خافتة مثل ظلال. أذكر لهوي طفلاً على العشب وسط الأقحوان في الحقول، وخلف السياج المزهر، وبمحاذاة العريشة ذات العناقيد الذهبيّة، وعلى الحزاز البنّيّ والأخضر، وتحت الأوراق العريضة والأفياء المنعشة. أيّتها الذكريات الهادئة والبهجة مثل ذكرى العمر الأوّل، تمرّين بقربي مثل ورودٍ ذابلة.

إنّه الشباب، بانخطافاته المتوهّجة، وغرائزه المشوّشة المتّصلة بالعالم وبالقلب، واختلاجاته العاشقة، ودموعه، وصرخاته. يا صبوات الفتى، أنت سخرية سنّ النضج. آه! تعودين إليّ غالباً بألوانك القاتمة أو الكامدة، هاربة، متدافعة كما تتراكض الظلال مسرعة على الجدران في ليالي الشتاء. وغالباً تعتريني النشوة إزاء ذكرى مرّت منذ زمنٍ طويل، ذكرى يوم طيّب أمضيته في سعادة مجنونة والضحكات المختلجة غبطة لا تزال تدوّي في أذنيّ وتجعلني أبتسم مرارة. قد تعودني ذكرى رحلة قمت بها على ظهر حصان متوثّب يكسوه الزبد، أو نزهة حالمة في ممرّ عريض ظلّيل، أنظر إلى الماء يجري على الحصباء، أو أتأمّل الشمس الجميلة المتلألئة بسهامها المضيئة وهالاتها الحمراء. لا أزال أسمع عدْو الحصان الذي يَخرج من منخريه بخارٌ من اللهب، والورقة التي ترتجف، والريح التي تلوي أعناق سنابل القمح المترامية مثل بحر. وتعودني أيضاً ذكريات أخرى كئيبة وباردة كنهارات ماطرة. ذكريات مرّة ومتوحّشة. ساعات عذاب مضنٍ أمضيتها وأنا أبكي بلا أمل، ثمّ أفتعل الضحك لكي أطرد الدموع التي تخفي العينين والشهقات التي تمنع الصوت.

وبقيت أيّاماً عديدةً، لا بل سنواتٍ، جالساً لا ألوي على شيء، أو أفكّر في كلّ شيء، غارقاً في اللّانهاية التي أردت معانقتها والتي كانت

تلتهمني.

كنت أستمع إلى المطر يسيل من المزاريب، وإلى الأجراس وهي تقرع وأنا أبكي. كنت أرى الشمس تغيب ببطء والليل يأتي، الليل النوّام الذي يهدّئ من الروع، ثمّ يعود النهار ليطلع من جديد بهمومه المضجرة وعديد ساعاته نفسها التي كنت أراها تتلاشى بفرح.

كنت أحلم بالبحر والأسفار البعيدة والصبوات والأمجاد، وبكلّ شيء مجهض في وجودي الذي تخشّب كالجثّة قبل أن يعيش الحياة.

يا للأسف! كل ذلك لم يُخلق من أجلي. لا أحسد الآخرين، لأنّ كلّ واحدٍ يشتكي من الحمْل الذي خصّه به القدر. فالبعض يرمي الحمْل قبل أن تنتهي الحياة، والبعض الآخر يضطلع به حتّى النهاية. أمّا أنا فهل سأقوى على رفعه؟

ما كدت أرى الحياة حتّى اجتاح نفسي قرفٌ عميم. ذقْتُ جميع الثمار وبدت لي جميعها مُرّة. كففْتُ عنها فكدت أموت جوعاً. الموت في عزّ الشباب، دون أملٍ يُرجى من القبر، دون يقينِ الرقادِ فيه، وأجهل إذا كان سلامه سينتهك أم لا! ها إنّك ترتمي بين ذراعي العدم لكنّك ترتاب في أنه سيتلقّفك.

أجل، إنّني أموت. أفهذه حياة أن يرى المرء ماضيه كالسيل المنحدر إلى البحر، وحاضره سجناً، ومستقبله كفناً؟

9

هناك أشياء تافهة صدمتني بقوّة واحتفظت بها دوماً رغم تفاهتها وبلاهتها وكأنّها الوسمة التي يتركها الحديد الملتهب على الجلد.

تعودني دوماً ذكرى قصر لا يبعد عن مدينتي كثيراً وكنّا نذهب لزيارته غالباً. كانت تسكنه امرأة عجوز من القرن الفائت. كان المنزل قديماً وكلّ شيء فيه مكتنَف بمسحة ريفيّة وبعتق الزمن وغموضه. ما زلت أرى البورتريهات المتبرّجة وملابس الرجال الزرقاء، وصور الراعيات والقطعان وسط الورود والقرنفل المرميّة على كسوات الجدران. كانت قطع الأثاث الرحبة اللدنة مكسوّة كلّها تقريباً بالحرير المطرّز. وكان يحيط بالقصر آنذاك سياج مزروع بأشجار التفاح. وكانت الحجارة تنهار أحياناً من كوى الرمي القديمة وتتساقط نحو الأسفل.

غير بعيد عن هذا المكان، الحديقةُ بممرّاتها القاتمة المليئة بالأشجار الباسقة ومقاعدها الحجريّة شبه المتداعية المكسوّة بالحزاز، المظلّلة بالأغصان ونبات العوسج. عندما تُفتحُ البوّابة الحديديّة تجفل العنزة التي ترعى هناك وتفرّ هاربة عبر الأشجار.

في أيّام الصحو، تخترق أشعّة الشمس الأغصان وتذهّب الحزاز في غير مكان.

كان الجوّ حزيناً. وكانت الريح تتغلغل في هذه المدافئ القرميديّة العريضة وتخيفني لا سيّما في المساء عندما ترسل طيور البوم نعيقها في الأهراءات الواسعة.

كانت زياراتنا تمتدّ إلى وقتٍ متأخّر من المساء، وكنّا نتحلّق حول ربّة المنزل العجوز، في قاعة كبيرة مفروشة بالبلاط الأبيض أمام مدفأة رخاميّة ضخمة. ما زلت أرى العلبة الذهبيّة المليئة بأجوَد أنواع التبغ الإسباني، وكلب المرأة العجوز بوبره الطويل الأبيض، وقدميها الظريفتين الصغيرتين اللتين تنتعلان حذاءً جميلاً عاليَ الكعب مزداناً بِوردة سوداء.

زمنٌ مرّ على تلك الأيام الغابرة! ربّة المنزل توفّيت وكلابها أيضاً،

وعلبة تبغها في جيب الكاتب العدل، والقصر تحوّل إلى مصنع، وحذاء المرأة التعس رُمي في النهر.

....

بعد ثلاثة أسابيع من الانقطاع عن الكتابة

أنا سئم لدرجة أنّني أقرف من المتابعة، لا سيّما بعد معاودتي قراءة ما كتبت.

هل يمكن لأعمال إنسانٍ ضجر أن تُسلّي الجمهور؟ سأحاول جاهداً مع ذلك أن أسلّيها بالتساوي.

هنا تبدأ «المذكّرات» فعلاً.

10

هنا تأتي ذكرياتي الأرقّ والأشدّ إيلاماً في الوقت نفسه. أُقاربُها بخشوعٍ شبه دينيّ. إنّها حيّة في ذاكرتي؛ وجراح الشغف التي لا تزال طريّة ما برحت تنزف، ووسومها العميقة منطبعة في قلبي أبداً. وفي هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الصفحة من حياتي يخفق قلبي وكأنّني أقف على أطلال عزيزة.

قديمةً أصبحت هذه الأطلال. وأنا أسير في الحياة، انجلى الأفق خلفي، ومعه أشياء كثيرة! ما أطولها الأيّام مذ ذاك، كلّما أشرقت شمس وغربت. لكنّ الماضي عبر سريعاً لا سيّما وأنّ النسيان قلّص الإطار الذي احتواه. يبدو لي كلّ شيءٍ وكأنّه لا يزال ينبض بالحياة. لا أزال أسمع ارتجاف الأوراق وأراها، أرى أقلّ ثنية في ثوبها، وأسمع رنّة صوتها وكأنّ ملاكاً يغنّي بجواري.

صوت عذب ونقيّ يسكرك ويذيبك حبّاً، صوت وكأنّه صار جسداً لفرط ما هو جميل ومُغوٍ، كما لو أنّ كلماته مسحورة.

....

أن أقول لكم في أيّ سنة حصل ذلك بالضبط فإنّ هذا يبدو لي مستحيلاً. أذكر فقط أنّني كنت فتيّاً جدّاً، في الخامسة عشرة من عمري على ما أعتقد، وأنّنا ذهبنا في تلك السنة للاستحمام في بحر...، في إحدى قرى منطقة بيكاردي، الساحرة بمنازلها المتراصّة، سوداء، ورماديّة، وحمراء، وبيضاء، مترامية في كلّ اتجاه، دون انتظام ولا اتّساق مثل كومة أصداف وحصى جرفتها الأمواج إلى الشاطئ.

لسنوات خلت، لم يكن أحد يأتي إلى القرية، على الرغم من شاطئها الممتدّ قرابة نصف فرسخ، وموقعه الساحر. ولكنّ الحال تغيّرت منذ بعض الوقت وبات الشاطئ يشهد إقبالاً. وحين ذهبت إليه مؤخّراً، رأيت فيه عدداً من المتأنّقين والخدم. ويُحكى أنّ هناك نيّة بإقامة قاعة للعروض الفنيّة فيه.

آنذاك، كان كلّ شيء بسيطاً ومتوحّشاً. لم يكن هنالك إلّا بعض الفنّانين وأهل القرية. كان الشاطئ مقفراً، ولدى انحسار الأمواج كنت ترى شاطئاً رمليّاً هائلاً رماديّ اللون ضارباً إلى الفضّيّ يتلألأ في الشمس نديّاً. إلى اليسار، صخور يلطم البحر، في أيّام تكاسله، جوانبها التي سوّدتها الطحالب. ثمّ بعيداً تحت الشمس المتوهّجة يزمجر المحيط الأزرق بخفوتٍ مثل عملاق يبكي.

ولدى العودة إلى القرية، كنت ترى المنظر الأكثر بهاءً ودفئاً، شِبَاكاً سوداء تأكّلتها المياه مبسوطة أمام الأبواب، وأطفالاً في كلّ مكان شبه عراة يمشون على الحصباء الرماديّة، بلاط المكان الوحيد، وبحّارة

بملابس حمراء وزرقاء. وكل ذلك كان بسيطاً في جماله، ساذجاً في إمتاعه، ويضجّ حيويّة وطاقة.

كنت أذهب غالباً وحدي للتنزّه على الساحل الرمليّ. وأخذتني الصدفة إلى مكان غير بعيدٍ عن آخر منازل القرية، وكان المستحمّون يؤمّونه لهذا السبب تحديداً. كان الرجال والنساء يسبحون معاً، ويخلعون ملابسهم عند الشاطئ أو في البيت، ويتركون برانسَهم على الرمل.

في ذاك اليوم، رأيت على الشاطئ برنساً أحمر جميلاً مزيّناً بخطوط سوداء. كان المدّ عالياً والشاطئ مزركشاً بالزبد. علا الموج وتدفّق مبلّلاً حواشي ذلك البرنس الحريريّة. انتشلته لأضعه بعيداً فألفيت نسيجه ناعماً رقيقاً. لا بدّ أنّه برنس امرأة.

يبدو أنّ أحداً رآني وأنا أنحّيه لأنّه في اليوم نفسه، أثناء الغداء، وبينا جميع النزلاء يتناولون الطعام في القاعة المشتركة، سمعت أحدهم يقول لي:

– يا سيّد، أشكرك جدّاً على لطفك.

استدرت، فرأيتُ امرأة شابّة جالسة مع زوجها إلى الطاولة المجاورة.

سألتها باضطراب:

– تشكرينني على ماذا؟

– على أنّك لمت برنسي، ألم يكن أنت؟

أجبتها مربكاً:

– نعم يا سيّدتي.

نظرت إليّ.

فخفضت بصري وتورّد وجهي خجلاً. يا لسحر نظرتها! ما أجملها هذه المرأة. لا أزال أرى حدقتيها المتوقّدتين مظلّلتين بحاجبيها الأسودَين

ترنوان إليّ كشمس.

كانت سمراء طويلة القامة، على رشاقة وهيَف، متوقّدة النظرات، وشعرها الأسود الرائع ينسدل مجدولاً على كتفيها. كان أنفها إغريقيّاً، وحاجباها مرفوعين على شكل قوّسٍ بديع، وجلدها ناعماً وكأنّه من المخمل الذهبيّ. كانت أوردة زرقاء تبين على بشرة هذا الصدر الأسمر الذي لوّحته الشمس. وكان زغب ناعم يكلّل شفتها العليا ويطبعها بالسُّمرة، مضفياً على وجهها تعبيراً ذكوريّاً حيويّاً يجعل الجميلات الشقراوات يشحبن غيرة. ربّما كان يعاب عليها قليل من الامتلاء أو بالأحرى تهاون في الهندام قد تلفيه النساء مفتقراً للأناقة، لكنّه أقرب لأن يكون لقصدٍ فنّي. كانت تتكلّم ببطء وفي صوتها موسيقى متمايلة عذبة، وترتدي ثوباً رقيقاً من الموسلين الأبيض الذي يكشف استدارات ذراعيها الطريّتين.

وعندما نهضت للانصراف، ارتدت معطفاً ذا قلنسوة له رباط ورديّ عقدَتْه بيدٍ ناعمةٍ مستديرة، يدٍ يحلم بها المرء ويشتهي أن يمطرها بوابلٍ من القبلات الحارقة.

كنت أذهب كلّ صباح لأراقبها وهي تستحمّ؛ أتأمّلها من بعيد وأنا أغبط الموجة المتثنية الهائمة التي تعانق خاصرتيها وتغمر بالزبد ذلك الصدر اللّاهث. كنت أستشفّ استدارات أطرافها خلف الملابس المبلّلة التي تغطّيها. أرى قلبها يخفق وصدرها يعلو. وأتأمّل سهواً قدميها تلامسان الرمل، وأقتفي بنظراتي آثار خطواتها ملتاعاً على شفا البكاء إذ أرى الأمواج تمحوها ببطء.

ثمّ كانت تعود وتمرّ قربي. كنت أسمع انسياب الماء من ثيابها وحفيف مشيتها فيخفق قلبي بعنفٍ وأخفض بصري شاعراً بالدم ينبض في رأسي،

وأنّني على شفير الاختناق. كان جسد هذه المرأة شبه العاري يمرّ بقربي حاملاً عطر الموجة. ولو كنت أصمّ وأعمى لكنت حدست وجودها لأنّ شيئاً ما في داخلي كان يذوب نشوةً وأفكاراً عِذاباً لدى مرورها هكذا أمامي.

لا أزال أرى المكان الذي جلسْتُ فيه على الشاطئ. أبصر الأمواج تهرول من كلّ جهة وتتكسّر وتتمدّد مطرّزة بالزبَد. وأسمع صخب الأصوات المبهمة للمستحمّين الذين يتحدّثون فيما بينهم. وأسمع وقع خطواتها وأنفاسها عندما تمرّ بقربي.

تسمّرت مذهولاً كما لو أنّ فينوس نفسها نزلت عن قاعدة التمثال وراحت تمشي. آنذاك كانت تلك المرّة الأولى التي شعرت فيها بقلبي يخفق، بشيءٍ روحانيّ، شيء غريب وكأنّه معنى جديد للحياة. غمرتني المشاعر اللّامتناهية الرقيقة وهدهدتني صور ضبابيّة غامضة، وألفيتُني أكبر وأشدّ فخراً في الوقت نفسه.

كنت مغرَماً.

أن تشعر بنفسك شاباً مفعماً حبّاً وبالطبيعة وما فيها من تناغماتها تخفق في داخلك. أن تحتاج إلى هذا الحلم، وإلى لواعج القلب هذه وأن تسرّ بها! آهٍ من خفقات الحبّ الأولى في قلب الرجل! ما أعذبها وما أغربها! ولاحقاً كم ستبدو ساذجة ومضحكة وبلهاء! أمر غريب. ثمّة عذاب وفرح في هذا الأرق. هل هذا بدافع الغرور أيضاً؟

آه! هل الحبّ إلّا الغرور؟ ولكن أيجب التنكّر لما يجلّه حتّى أكثر الناس كفراً؟ أيجب السخرية من القلب؟

وا أسفاه! وا أسفاه!

الموجة محت خطوات ماريّا.

في البداية اعترتني حالة غريبة من الدهشة والإعجاب. كان إحساساً روحانياً بمعنى من المعاني لا تخالجه فكرة الشهوة. فيما بعد فقط أحسست بهذا التوقّد الجامح القاتم للجسد وللروح حيث الجسد والروح يتناهشان.

كنت في خضمّ دهشة القلب الذي يشعر بنزوعه الأوّل. كنت كرجل الخليقة الأوّل الذي أدرك لتوّه كلّ قدراته.

كان يستحيل عليّ أن أقول حلمي. كنت شخصاً جديداً، صرت غريباً عن نفسي. انبعث صوت جديد في روحي. كلّ ما في هذه المرأة يحدث تأثيراً خارقاً في نفسي: ثنية فستانها، ابتسامة ثغرها، قدمها، أقلّ كلمة تافهة تقولها. وكان لديّ نهار كامل أمامي لأحلم بذلك كلّه، وأقتفي آثارها بمحاذاة جدار طويل، وأسمع حفيف ملابسها أو خطاها في الليل سائرة أو متقدّمة باتّجاهي فيخفق قلبي سعادة.

لا، لن أستطيع أن أقول لكم مقدار ما في الحبّ من أحاسيس عذبة، ومن نشوات تتملّك القلب، ومن غبطة، وجنون.

أمّا الآن فأضحك متهكّماً من كلّ هذا، بمرارة كليّة مقتنعاً بمسخرة الوجود. ومع ذلك لا أزال أعتقد حتّى هذه اللحظة أنّ هذا الحبّ الذي حلمت به في المدرسة دون أن أعرفه وعرفته فيما بعد، هذا الحبّ الذي أبكاني كثيراً وضحكت منه أكثر، هو أسمى الأشياء وأكثر الحماقات بلاهة في الوقت نفسه.

كائنان رُمِي بهما على الأرض صدفةً، ثمّ يتقابلان ويتحابّان لأنّ أحدهما رجل والآخر امرأة. ها إنّ واحدهما يلهث وراء الآخر. ها هما يتنزّهان معاً في الليل يغمرهما بنداوته ناظرَين إلى ضوء القمر فيجدانه شفيفاً، ويبديان إعجابهما بالنجوم قائلَين بجميع النبرات: أحبّك، تحبّني، يحبّني،

نحن متحابّان، ويردّدان كلّ ذلك وسط التنهّيدات والقبل. ثمّ يعودان روحَين محترقتين بنارٍ لا سابقة لها، نار أعضائهما المضطرمة المحتدمة. ثمّ يتضاجعان ويزأران ويتنهّدان تحدوهما الرغبة في أن يُنجبا سليلهما على الأرض، كائناً تعساً سيحذو حذوهما. انظروا إليهما في لحظة الجماع هذه كيف أنّهما صارا مثل البهائم، تغشاهما النشوة فيما هما يتقصّدان إخفاء متعتهما المتوحّدة عن البشر، ربّما لظنّهما أنّ السعادة جريمةٌ واللذّة عار.

ستعذرونني، على ما أعتقد، في إغفالي الكلام عن الحبّ العذريّ، ذاك الحبّ الهاذي كمن يحبّ تمثالاً أو كاتدرائيّة، والذي يستبعد كلّ فكرة غيرة وامتلاك، والذي يفترض به أن يكون متبادلاً بين الطرفين. ولكن لم تتسنّ لي رؤيته إلّا نادراً. لو كان هذا الحبّ موجوداً لكان سامياً لكنّه ليس إلّا حلماً أسوة بكلّ شيءٍ جميل في هذا العالم.

أتوقّف هنا، لأنّ سخرية العجوز يجب ألّا تدنّس عذرة مشاعر الفتى. سأستاء قدر استيائك أيّها القارئ إذا خاطبني أحد بهذه اللهجة القاسية.

كنت أعتقد أنّ المرأة كانت ملاكاً... آه! كم كان موليير محقّاً حين قارنها بالحساء![1]

11

كان لماريا طفلة صغيرة لا تزال في الأقمطة، وكانت محطّ قبلات، وعناية، وودّ. كم وددت أن أحظى بواحدة من هذه القبلات السخيّة المرميّة، كحبّات لؤلؤ، على رأس هذه الطفلة الرضيعة.

(1) تلميح إلى جملة في مسرحيّة «مدرسة النساء» للكاتب الفرنسي موليير، الفصل الثاني، المشهد الثالث، حيث يقول: «المرأة هي حساء الرجل». فكما أنّ الرجل لا يتقاسم حساءه مع أحد، يجب عليه بالتالي ألّا يتقاسم زوجته مع أحد.

كانت ماريا ترضعها بنفسها، وذات يوم، رأيتها تكشف عن صدرها وتلقمها ثديها.

كان ثديها مكتنزاً ومستديراً أسمر، وعروقه الزرقاء بارزة تحت هذه البشرة المتوقّدة: لم يسبق لي أن رأيت امرأة عارية حتّى ذلك الحين... آه يا للنشوة العارمة التي تملّكتني لدى رؤية هذا الثدي! كم التهمته بنظراتي! كم رغبت في لمسه فقط! كان يبدو لي أنّني إذا لثمته بشفتي فلن أتوانى عن عضّه بأسناني غضباً وشهوة. وكان قلبي يذوب حلاوة وأنا أفكّر بالملاذّ التي قد تمنحها هذه القبلة.

آه كم استرقت النظر إلى هذا الصدر المختلج، والعنق الطويل الأسيل، وإلى رأس المرأة بشعرها الأسود المجعّد وهي تنحني نحو الطفلة لترضعها وتهدهدها ببطء على ركبتيها منشدةً لها لحناً إيطاليّاً.

12

ولاحقاً تعارفْنا بشكلٍ أوثق. أقول «تعارفنا» لأنّه بالنسبة لي شخصيّاً، كنت سأبدو جريئاً فعلاً لو أنّني توجّهت إليها بكلمة نظراً للاضطراب الغريب الذي أغرقني فيه مرآها للمرّة الأولى.

كان زوجها يحتلّ منزلة وسطى بين الفنّان والجوّاب التجاريّ. كان لديه شاربان، وينتقي ثيابه وفق الموضة الرائجة. كان يدخّن بشراسة، وكان حيويّاً، ودمثاً وودوداً، ويهوى ملذّات المائدة. ذات مرّة رأيته يسير مسافة ثلاثة فراسخ على القدمين ليأتي بالشمّام من المدينة الأقرب. ومرّة أخرى شاهدته قادماً في عربة خفيفة مع كلبه وزوجته وابنته وخمس وعشرين زجاجة من نبيذ الرّاين.

حين يسوح المرء في الريف أو يسافر، فإنّه يتكلّم بطلاقة أكثر مع الآخر ويتوق إلى التعرّف عليه. ويغدو أيّ أمر مدعاة للمحادثة، فالشتاء أو الطقس الجميل مثلاً يشكّلان المناسبة الأجمل لتجاذب أطراف الكلام. ويضاف إليهما التشكّي من افتقار الغرف في النزْل إلى الراحة، ومن الطعام الكريه: إنّه كثير الفلفل والتوابل! ناهيك عن الشراشف وتوابعها إنّهم لا يحسنون غسلها! آه! شيء مرعب يا عزيزتي!

وإذا ما ذهب السيّاح سويّة إلى النزهة فينبغي بأحدهم أن يعبّر عن انفعاله العميق أمام جمال المنظر قائلاً: ما أجمله، ما أجمل البحر!

أضيفوا إلى ذلك بعض الكلمات الشاعريّة والمفخّمة، أو فكرتين أو ثلاث أفكار فلسفيّة مصحوبة بالتنهّدات واستنشاق صاخب من الفم. وإذا كنت تتقن الرسم، فاعرض ألبومك المغلّف بجلد السختيان. أو هناك ما هوَ أفضل، ضع قبّعتك على عينيك، وكتّف ذراعيك، ونمْ متظاهراً بالاسترسال في التفكير العميق.

ثمّة نساء استروحتُ «عمق أفكارهنّ» عن بعد ربع فرسخ تقريباً، فقط من الطريقة التي كنّ ينظرن فيها إلى الموجة.

وعليك كسائح أن تبدي تذمّرك من الناس، وتأكل قليلاً، وتتحمّس لجمال صخرة أو تعجب بحقلٍ وتموت حبّاً بالبحر. آه! عندئذٍ سيعجبون بك وسيقولون: «يا للفتى الساحر!» «ما أجمل سترته! وما أشدّ أناقة حذائه! ما أظرفه! ما أحبّ روحه!». إنّ هذه الحاجة إلى الكلام، هذه الغريزة للالتحاق بالركب حيث يمشي الأشدّ جسارةً في الطليعة، هي التي صنعت، في الأصل، المجتمعات، وهي التي في أيّامنا هذه، تشكّل لحمة المجامع.

إنّ مواضيع كهذه هي التي دفعتنا على الأرجح لنتعارف للمرّة الأولى.

كان الوقت بعد الظهر والطقس حارّاً، وكانت الشمس تسلّط سهامها على قاعة الطعام بالرغم من وجود المصاريع. كنا ممدّدين أنا وبعض الرسّامين وماريّا وزوجها على الكراسي ندخّن ونشرب الغروغ[1].

كانت ماريّا تدخّن، أو على الأقلّ، كانت تهوى رائحة التبغ، إلّا إذا كان هناك بقيّة من بلاهة نسائيّة تمنعها من التدخين. تهوى رائحة التبغ (يا للعار!)، لا بل إنّها قدّمت لي سجائر.

كنّا نتحدّث في الأدب، وهذا موضوع لا ينضب مع النساء. وشاركت هي في الحديث، تكلّمت طويلاً وبحماسة. كنّا أنا وماريّا على الموجة نفسها فيما يخصّ الفنّ. لم أسمع من قبل أحداً يقارب هذا الموضوع بالسذاجة التي أبدتها ماريّا وقلّة ادّعائها. كانت تستعمل كلماتٍ بسيطة ومعبّرة معالِجةً الموضوع بكثير من التلقائيّة والظرف والعفويّة والاسترخاء. لكأنّها كانت تغنّي.

وذات مساء، اقترح علينا زوجها القيام بنزهة في القارب. كان الطقس أكثر من رائع. فوافقنا على اقتراحه.

13

كيف يمكن أن تُقال بالكلمات هذه الأشياء التي تعصى على اللّغة، لواعج القلب هذه، أسرار النفس الخافية على النفس عينها، كيف أصف لكم بالكلام ما شعرت به وفكّرت فيه، وكلّ ما أمتعني في تلك السهرة؟

كانت ليلة صيفٍ جميلة. حوالى الساعة التاسعة صعدنا إلى الزورق وانطلقنا ندفعه بالمجاذيف. كان البحر هادئاً، وانعكس القمر على صفحته

(1) الغروغ grog: مشروب كحوليّ ساخن حلو المذاق.

المستوية، وحرثَ الزورق المياه جاعلاً صورةَ القمر ترتجّ في الأثلام خلفه. ثمّ علت الأمواج. وشعرنا بها تهدهد الزورق ببطء. وأخذت ماريّا تتكلّم. لا أعرف ماذا قالت. تركتُ لنفسي أن تنسحر بنبرة كلماتها كما تركتُ للبحر أن يهدهدني. كانت بجواري. وشعرت باستدارة كتفها وحفيف ثوبها، ورأيتها ترفع نظرها إلى السماء الصافية المشعّة بألماسات نجومها المنعكسة على صفحة الأمواج الزرقاء.

كان مرآها أشبه ما يكون بمرأى ملاك، برأسها المرفوع ونظرتها السماويّة.

سكرت حبّاً. رحت أستمع إلى المجاذيف تلطم الماء بالإيقاع المنتظم نفسه والأمواج تضرب جانبَي القارب. استسلمت لتأثير كلّ ذلك مصغياً إلى صوت ماريّا العذب المُشجي.

هل بإمكاني أن أصفَ لكم كلّ نغمة من نغمات صوتها، وكلّ مفاتن ابتسامتها وسحر نظراتها؟ هل أقول لكم إنّ كلّ ما رأيته وسمعته كان مختلجاً بلوعة الحبّ القاتلة. هذه الليلة المفعمة بأريج اليمّ، وأمواجه الشفّافة ورمله الذي جعله القمر فضيّاً، وهذا البحر الجميل الهادئ، وهذه السماء البرّاقة، وهذه المرأة بجواري... كان لديّ كلّ مسرّات الأرض وملاذّها وأرقّ ما فيها وأكثره فتنة.

امتزج في ذلك سحر الحلم ومباهج الواقع.

استسلمت لهذه الانفعالات لتحملني على متنها. كنت أنساب مع تيّارها بفرحة لا ترتوي. أسكرني هذا الهدوء المفعم شبقاً حتّى الثمالة، أسكرتني نظرة هذه المرأة وصوتها، وغصت في قلبي أغرف منه لذائذ لا متناهية.

ما أسعدني! سعادة الغسق المتهاوي في الليل. سعادة تعبر كالموجة

المتلاشية، كالضفّة...............

وعدنا من النزهة. نزلنا من القارب واصطحبت ماريّا حتّى شقّتها. لم أقل لها كلمة واحدة. كنت خجولاً. تبعتها وأنا أحلم بها ململماً وقع خطاها. وعندما دخلَتْ، نظرْتُ طويلاً إلى جدار الشقّة الذي تضيئه أشعّة القمر. رأيت النور يلتمع عبر النوافذ. وحين اختفى قلت في نفسي: ها قد أخلدت للنوم. وفجأةً تملّكني الغيظ والغيرة. «لكنّها لن تخلد إلى النوم فوراً»، قلتُ في سرّي ونهشتني كلّ العذابات التي تعصف بالهالكين.

فكّرت بزوجها، بهذا الرجل التافه السعيد. ومثلت أمام ناظري الصور الأكثر بشاعة وقباحة. كنت كسجينٍ يُجوَّع حتّى الموت في زنزانته فيما تُبسَط أمامه أشهى المأكولات.

كنت وحيداً على الشاطئ، وحيداً تماماً. إنّها لا تفكّر بي. نظرت إلى هذه الوحدة الهائلة المترامية أمامي، وإلى هذه الوحدة الأخرى الأكثر رهبة في داخلي، وأخذت أبكي كطفلٍ صغير. كانت هناك على بعد خطوات منّي، خلف هذه الجدران التي رحت ألتهمها بنظراتي. كانت هناك، خلفها، جميلة وعارية، مكتنفة بكلّ شهوات الليل، ونِعَم الحبّ، وتعفّفات الزواج. ولم يكن على هذا الرجل إلّا أن يفتح ذراعيه لتقْبل عليه دون أيّ جهد، دون أن ينتظر. تجيء إليه فيتحابّان ويتعانقان. له كلّ المتَع والمسرّات. أمّا حبّي فطريحُ قدميه. له وحده هذه المرأة بكاملها، بوجهها وصدرها ونهديها وجسدها وروحها وابتساماتها وذراعيها اللتين تحتضنانه، وكلمات الحبّ التي تهمس بها. له كلّ شيء، وليَ العدم.

وأخذت أضحك لأنّ الغيرة ألهمتني أفكاراً ماجنة فاضحة ورحت ألعنها كليهما مُنزلاً بهما الشتائم أمرّها. أشفقت على نفسي وسعيت للهزء من الصور التي أبكتني حسداً وغيرة. أخذ المدّ ينحسر، وتراءت في غير

مكانِ حُفر كبيرة مليئة بالماء الذي بدا فضيّاً في ضوء القمر. كانت بقع من الرمال لا تزال مبلّلة مغمورة بالطحالب، وهنا وهنالك صخور على مستوى الماء أو تعلوه منتصبةً سوداء وبيضاء، وشباك مبسوطة مزّقها البحر الذي انحسر مزمجراً.

كان الطقس حارّاً وكدت أختنق. عدت إلى الغرفة في النزل. أردت أن أنام فتواصل في أذنيّ اصطفاق الأمواج على جانبَي الزورق والمجذاف في الماء. كنت أسمع صوت ماريّا تتكلّم فتضطرم النار في أوردتي. كان كلّ ذلك يمرّ بخاطري من جديد، نزهة المساء، ونزهة الليل على الضفاف. أرى ماريّا من جديدٍ نائمة وأؤثر التوقّف هنا، لأنّ البقيّة كانت تجعلني أرتعد. كانت الحمم تسيل في روحي وتُنهكني. مضطجعاً على ظهري، كنت أنظر إلى الشمعة تحترق وإلى حلقتها الواجفة في السقف. وكنت أرى بذهولٍ غبيٍّ الزيتَ يسيل حول المشعل النحاسيّ وذؤابته السوداء تتمدّد وسط اللهب.

وأخيراً طلع الصبح. فغفوت.

14

وجب الرحيل. افترقنا دون أن يتسنّى لنا أن نتودّع. غادرَتِ الشاطئ في اليوم نفسه لرحيلنا. كان نهارَ أحد. رحلَتْ في الصباح، ونحن في المساء.

رحلتْ ولم أرَها ثانية. الوداع إلى الأبد! ذهبت كغبار الطريق المتطاير خلف خطواتها. كم فكّرت بها منذ ذلكَ الحين وكم من الساعات أمضيتها مشدوهاً أمام ذكرى نظرتها ونبرة كلماتها!

غائصاً في مقعدي في العربة، كنت أطير بقلبي ليسبقني على الطريق التي نعبرها، ولذتُ من جديد بالماضي الذي مضى إلى غير رجعة. كنت أفكّر بالبحر، بأمواجه وضفافه وبكلّ ما رأيته، وبكلّ ما شعرت به، بالكلمات التي قيلت والحركات والأفعال، بأقلّ الأشياء. وكلّ ذلك كان يختلج ويعيش في قلبي فوضى وهديراً هائلاً وجنوناً.

كلّ شيء مرّ كحلم. وداعاً إلى الأبد، وداعاً يا كلّ أزهار الشباب الجميلة، أنتِ التي ذبلتِ سريعاً وإن استعدنا بهاءك بين الفينة والأخرى بمرارة ولذّة في آنٍ معاً. وأخيراً لاحت منازل مدينتي. ها قد عدت إلى داري. وكلّ شيءٍ بدا لي مقفراً حزيناً، فارغاً وأجوف. ها قد عدت للعيش والشرب والأكل والنوم.

حلّ الشتاء وعدت إلى المدرسة.

15

لو قلت لكم إنّني أحببت نساء أخريات لكانت هذه كذبة شنيعة.

ومع ذلك سعيتُ لأن أحبّ وأشغل قلبي بأهواء أخرى، لكنّه انزلقَ على سطحها مثلَ من ينزلق على جليد.

في سنوات المراهقة الأولى، نقرأ كتابات كثيرة عن الحبّ. ونجد لحنَ هذه الكلمة بديعاً. ونروح نحلم بالحبّ ونتمنّى بلهفةٍ أن يتملّكنا هذا الشعور الذي جعل القلب يخفق لدى قراءة الروايات والمسرحيّات. وعند كلّ امرأة نراها نقول في أنفسنا: أليس هذا هو الحبّ؟ فنجهد لنحبّ كي نصير أكثر نضجاً واكتمالاً.

لم أكن خليّاً، أسوة بسائر الرجال، من ضعف المراهقة هذا. تأوّهت

حبّاً مثل شاعر رثاء، وفاجأني مراراً أن يمرّ خمسة عشر يوماً دون أن أفكّر بتلك التي اخترتها لأحلم بها. لكنّ غرور الفتوّة هذا انّحى أمام ماريّا.

ولكن عليّ أن أعود إلى وقتٍ سابق على تعرّفي بماريّا. لقد آليت على نفسي أن أقول لكم كلّ شيء. الشذرة التي ستقرأونها كُتبَ جزءٌ منها في ديسمبر الماضي، قبل أن تخطر لي فكرة كتابة «مذكّرات مجنون».

وبما أنّ هذه الشذرة يجب أن تكون على حِدة فسأدرجها هنا.

وها هي كما كتبتها بالضبط:

من بين كلّ أحلام الماضي، وانطباعات الأيّام الخوالي، وذكريات شبابي، أحتفظ بعدد قليل منها آنس إليه في ساعات ضجري. لدى ذكر اسم ما، تعود إليّ كلّ الشخصيّات بأزيائها وكلامها لتؤدّي أدوارها كما هي في الحياة. وأراها تتحرّك أمامي مثل إله يستمتع برؤية العوالم التي خلقها. لكنّ ذكرى خاصّة تعود إلى الحبّ الأوّل، الذي لم يكن عنيفاً ولا شغوفاً وقد محته رغبات أخرى، ظلّت قابعة دوماً في أعماق قلبي مثل درب رومانيّ قديم اجتزناه في حافلة قطار تسير على سكك الحديد وتبعث على القرف. إنها قصّة خفقات القلب الأولى، بواكير الشهوات الغامضة المبهمة، والرغبات الغائمة التي تعبر في نفس طفلٍ لدى رؤيته نهدَي امرأة وعينيها وسماع أغنياتها وكلماتها. إنّه هذا المزيج المشوّش من المشاعر والحلم الذي عليّ أن أبسطه كمثل جثّة أمام حلقة من الأصدقاء أتوا في الشتاء، في ديسمبر، ليتدفّأوا ويتحدّثوا إليّ بهناءة أمام الموقد وهم يدخّنون غلايينهم مطفئين حدّة التبغ بالشراب.

وبعد أن أتوا جميعاً، وجلس كلّ واحدٍ منهم، وحشا غليونه، وملأ كأسه، وبعد أن تحلّقنا حول النار، وكلّ واحدٍ منّا منهمك في أمرٍ ما، فهذا يمسك الملقطَ بيديه، وذاك المنفخَ، وآخر يحرّك الرماد بعصاه، بدأت

برواية قصّتي.

قلت لهم:

- يا أصدقائي الأعزّاء. ستغضّون النظر عن بعض الأمور، وعمّا يمكن أن يتضمّنه سردي من غرور.

فوافقوا جميعاً بإيماءة من رؤوسهم، ما شجّعني على البدء بقصّتي.

- أذكر، منذ سنتين، ذات نهار خميس من شهر نوفمبر (كنت، على ما أعتقد، في الصفّ الثاني المتوسّط) حين رأيتها للمرّة الأولى. كانت تتناول طعام الغداء عند والدتي. دخلتُ آنذاك مهرولاً مثل تلميذ متلهّف لوجبة الخميس بعدما انتظرها طيلة الأسبوع بفارغ الصبر. التفتتْ فألقيْتُ التحيّة عليها بفتورٍ، لأنّني كنت آنذاك من السذاجة والغفلة بحيث لا أفطن إلى وجود امرأة أمامي، لا سيّما عندما لا تكون من صنف السيّدات اللواتي كنّ ينظرن إليّ كطفل، ولا من الفتيات الصغيرات اللواتي يعتبرنني صديقاً، دون أن أحمرّ خجلاً أو أفعل شيئاً أو أقول شيئاً.

ولكنّي، منذ ذلك الوقت، اكتسبت، بمعونة الله، من الغرور والوقاحة بقدرِ ما خسرْتُ من البراءة والنضارة.

كانتا فتاتين يافعتين، أختَين، وصديقتين لأختي، وكانتا إنجليزيّتين تعستين أُخرِجتا من المدرسة الداخليّة لتروّحا عن نفسيهما قليلاً وتتمشّيا في الريف في الهواء الطلق، وتتنزّها في العربة، وتركضا في الحديقة، أي لتمضيا وقتاً ممتعاً بعيداً عن مراقبةِ ناظرةٍ تُحيل لهو الطفولة فاتراً ملجوماً بالانضباط. كانت الأكبر سنّاً في الخامسة عشرة، والصغرى تناهز الثانية عشرة وكانت قصيرة القامة نحيلة، وعيناها أكثر حيويّة واتّساعاً وجمالاً من عينَي أختها الكبرى. لكنّ وجه هذه الأخيرة كان مستديراً في غاية

الظرف، وكانت بشرتها نضرة ورديّة وأسنانها الصغيرة ناصعة البياض خلف شفتيها الورديتين، وكلّ ذلك مغمور بشعرٍ كستنائيّ مرفوع من الجهتين ما يجعلنا نعطيها الأفضليّة من حيث الجَمال. كانت قصيرة القامة ممتلئة قليلاً وربّما كان هذا الامتلاء يعيب جمالها. ولكنّ ما سحرني فيها هو هذا الظرف الطفوليّ الخالي من الادّعاء، هذا العبق الفتيّ الذي يفوح منها ويعطّر كلّ شيء حولها. كان فيها من السذاجة والبراءة ما يفتن حتّى أكثر البشر جحوداً.

لا أزال أراها عبر نوافذ غرفتي، تركض في الحديقة مع رفيقات أخريات. لا أزال أرى فساتينهنّ الحريريّة تتموّج بوضوح على أعقابهنّ محدثةً حفيفاً، وأقدامهنّ تهمّ بالارتفاع لتركض في ممرّات الحديقة الرمليّة، ثمّ يتوقّفن لاهثات ويمسكن بعضهنّ بخصر بعضٍ ثمّ يتنزّهن بِرَصانة متحدّثات على الأرجح عن الأعياد والرقصات واللذّات والغرام، يا للفتيات المسكينات!

كان هناك علاقة حميمة تجمعنا كلّنا. وفي ظرف أربعة أشهر رحت أقبّلها وكأنّها أختي. وكنّا نتكلّم جميعاً دون كلفة. وكنت أهوى التحدّث إليها لا سيّما وأنّ في لكنتها الأجنبيّة عذوبة ورهافة تجعلان صوتها نضراً كبشرتها.

على أيّة حال ثمة شيء ما عفويّ وتلقائيّ يميّز العادات الإنجليزيّة. إنّ فيها تخلّياً عن كلّ لياقاتنا قد يبدو لنا غُنجاً أنيقاً فيما هو سِحر يجذب كالنار الكاذبة الهاربة دون انقطاع.

وغالباً ما كنّا نقوم بنزهات عائليّة؛ وأذكر ذات يوم في الشتاء، ذهبنا لنزور سيّدة عجوزاً كانت تسكن على تلّة تشرف على المدينة. ويجب، للوصول إليها، اجتياز بساتين مزروعة بأشجار التفاح يرتفع فيها

العشب النديّ. كان الضباب يحجب المدينة ومن أعلى تلّتنا كنّا نرى السطوح متراكمة متلاصقة مغمورة بالثلج. ثمّ يتناهى إلينا صمت الريف، والضجّة الخافتة لدعسات بقرة في البعيد أو حصان تغوص قوائمه في الأثلام.

لدى مرورنا بحاجز مطليّ بالأبيض، علق معطفها بأشواك السياج فذهبت لأحرّره وعندئذٍ شكرتني بكثيرٍ من الظرف التلقائي ما جعلني أحلم بها طيلة النهار.

ثمّ أخذن يركضن ومعاطفهنّ التي كانت الريح ترفعها خلفهنّ تطير متموّجة مثل انحدار سيلٍ. ثمّ توقّفن لاهثات. لا أزال أذكر لهاثهنّ الذي تناهى صداه إلى أذنيّ وانطلق من أسنانهنّ البيضاء دخاناً أبيض متطايراً.

يا للفتاة المسكينة! كانت مفعمة بالطيبة، وتقبّلني بكثير من السذاجة.

وجاءت عطلة الفصح. فذهبنا لتمضيتها في الريف.

أذكر ذات يوم... كان الطقس حارّاً وضاع منها حزامها وكان ثوبها دون خصر.

كنا نتنزّه سويّة ونحن ندوس ندى الأعشاب وأزهار نيسان، كان لديها كتاب في يدها... كتاب شعر على ما أذكر. تركته يسقط وتابعنا نزهتنا.

ثمّ ركضت بعد أن قبّلتها على عنقها، وبقيت شفتاي ملتصقتين بتلك البشرة الناعمة والنديّة بعرقِها العطر.

لم أعد أذكر عمّا كنّا نتحدّث. ربّما عن أوّل شيء خطر ببالنا.

عندئذٍ قاطعني أحد المستمعين قائلاً:

- ها قد غدوْتَ غبيّاً.

- لا بأس يا عزيزي، القلب غبيّ.

بعد الظهر، كان قلبي ممتلئاً بفرَحٍ عذب وغامض. كنت أحلم بعذوبة

متخيّلاً شعرها المفتول الذي يطوّق عينيها المتوقّدتين، وصدرها الكاعب الذي كنت أقبّله دوماً على قدر ما يسمح لي خمار كتفيها. صعدت في الحقول وذهبت إلى الغابات وجلست في حفرة حالماً بها.

كنت مضطجعاً على بطني أنتزع الأعشاب وأقحوان نيسان. وعندما رفعتُ رأسي كانت السماء البيضاء والزرقاء الكامدة تشكّل فوقي قبّة لازورديّة تتوغّل حتّى الأفق خلف الحقول المخضوضرة: صدفَ أن كان معي ورقة وقلم فكتبت أبيات شعر...

(أخذ الجميع يضحكون)

إنّها الأشعار الوحيدة التي كتبتها في حياتي. كتبت ثلاثين بيتاً من الشعر في نصف ساعة؛ كان لديّ دوماً سهولة عجيبة في ارتجال الحماقات من كلّ نوع. ولكنّ هذه الأبيات كانت في معظمها مخادعة كمثل تصريحات الحبّ، عرجاء كالخير.

أذكر منها:

.... حين يأتي المساء

متعبة من اللّهو ومن الأرجوحة...

كنت أبذل قصارى جهدي لكي أصف دفئاً لم أصادفه إلّا في الكتب. ثمّ، هكذا، دون سبب يُذكر، كانت تعتريني كآبة قاتمة جديرة بأنطوني[1] مع أنّي كنت أملك نفْساً مفعمة بالبراءة وبالمشاعر الرقيقة المشوبة بالسذاجة، وعطور القلب، وغرق في الماضي لذيذ. قلت مع أنّي لا أقصد ما أقوله:

إنّ ألمي مرير، وحزني عميق

(1) إشارة إلى بطل مسرحيّة «أنطوني» *Antony* التي كتبها عام 1831 الكاتب الفرنسي ألكسندر دوما Alexandre Dumas (1802—1870)، وكان أنطوني رمز البطل الرومنطيقيّ.

وقد دفنت نفسي فيها مثل رجلٍ في القبر...

لم تكن الأبيات أبياتاً حتّى. ولكن راودتني رغبة في إحراقها، وذاك هوس لا بدّ أنّه يعذّب أغلب الشعراء.

عدت إلى المنزل ووجدتها تلهو على دائرة العشب. كانت الغرفة حيث تنام الشقيقتان قريبةً من غرفتي. وسمعتهما تضحكان وتتحدّثان طويلاً... فيما أنا... لم ألبث أن نمت مثلهما، بالرغم من جميع الجهود التي بذلتها لأطيل سهري أطول وقتٍ ممكن. لا بدّ أنّكم فعلتم مثلي في سنّ الخامسة عشرة. لا بدّ أنّكم ظننتم أنّكم أحببتم مرّةً ذاك الحبّ الحارق والمحموم، كما سمعتم عنه في الكتب فيما لم يكن لديكم على جدار القلب إلّا خدش بسيط من مخلب الحديد الذي ندعوه الشغف. وكنتم تنفخون، بكلّ ما أوتيتم من قوّة خيالٍ، على هذه النار الخافتة التي تكاد لا تشتعل.

ثمّة أهواء كثيرة في الحياة وُجدت من أجل الإنسان! في سنّ الرابعة، يهوى الأحصنة والشمس والأزهار والأسلحة البرّاقة وأزياء الجنود؛ وفي سنّ العاشرة يهوى الفتاة الصغيرة التي تلهو معه؛ وفي سنّ الثالثة عشرة المرأةَ الناضجةَ بصدرها المكتنز العارم. أذكر ما يحبّه المراهقون بجنون، يحبّون صدر المرأة الأبيض النقيّ، وكما يقول مارو:

«نهد مكوّر أشدّ بياضاً من بيضة

نهد أبيض أسيل كساتان جديد»

أوشكت أن يغمى عليّ حين رأيت للمرّة الأولى نهدَي امرأة عاريين. أمّا في سنّ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة فيهوى الصبيّ امرأة شابّة تأتي بنفسها إليه، وهي أكثر بقليل من شقيقة وأقلّ من عشيقة؛ وفي السادسة عشرة يُغرم بامرأة أخرى ويمتدّ هذا الغرام حتّى سنّ الخامسة والعشرين. ومن بعدها المرأة التي قد يقترن بها.

ولاحقاً بعد خمس سنوات من زواجه يحبّ الراقصة التي يتطاير ثوبها الشفّاف كاشفاً عن فخذيها المكتنزتين. وأخيراً في سنّ السادسة والثلاثين، يحبّ منصب النيابة والمضاربة والتشريفات؛ وفي سنّ الخمسين يهوى تناولَ العشاءِ عند الوزير أو العمدة؛ وفي سنّ الستين بائعةَ الهوى التي تناديه عبر النوافذ، فيرميها بنظرة عاجزة متحسّراً على الماضي.

أليس كلّ هذا صحيحاً؟ أنا من جهتي خضت كلّ أنواع الحبّ هذه، ليس كلّها تماماً، لأنّني لم أعش كلّ سنوات عمري؛ لكنّ كلّ سنة من حياة معظم الرجال يميّزها شغف جديد: الشغف بالنساء، وبلعب القمار، والأحصنة، والأحذية الفاخرة، والعصيّ، والنظّارات، والعربات، والمناصب.

آه! كم من مظاهر الجنون في حياة إنسان! والحقّ يُقال إنّ ثوب مهرّج ليس أكثر تنوّعاً في ألوانه من الفكر الإنسانيّ في ألوان جنونه، علماً أنّ الاثنين يصلان إلى النتيجة نفسها وهيَ أنّ كليهما ينصل لونها، ويملكان القدرة على الإضحاك لبعض الوقت: المهرّج يضحك الجمهور لكسب المال، والفيلسوف يضحكه بحكمته.

- عُدْ إلى القصّة!

قال أحد المستمعين الذي كان ظلّ صامتاً حتّى تلك اللحظة، ولم يفارق غليونه إلّا لكي يرمي استطراديَ المتصاعد مثل الدخان بِرِيقِ ملامته.

.... لم أعرف البتّة ماذا أقول بعد لأنّ هناك ثغرة في القصة، بيتاً من الشعر ناقصاً في المرثاة. ومرّت أيّام عديدة على هذا النحو. وفي شهر مايو أتت والدة هاتين الصبيّتين إلى فرنسا مصطحبةً شقيقهما، وكان صبيّاً ساحراً أشقر مثلهما ويفيض رعونة وكبرياءَ بريطانيّة.

كانت والدتها امرأة شاحبة، نحيلة، لا تهتمّ بهندامها. كانت ترتدي الأسود، وكان في حركاتها وكلماتها ولباسها شيء من التهاون واللّامبالاة، هذا صحيح، ولكنّه كان أقرب إلى «البطالة الهانئة» على الطريقة الإيطاليّة، ومعطّراً رغماً عن ذلك بحسن الذوق، وملمّعاً ببريقٍ أرستقراطيّ. بقيتْ شهراً في فرنسا.

... ثمّ رحلَتْ، وعدنا للعيش كما كنّا عائلة واحدة نترافق في النزهات والعُطَل والإجازات.

كنّا جميعاً إخوة وأخوات.

واتّسمت علاقاتنا اليوميّة بالكثير من الظرف والعاطفة والانسجام الحميم والتلقائيّة، إلى أن فقدت براءتها منقلبةً إلى حبّ، من جهتها هي على الأقلّ، ولديّ على ذلك براهين واضحة.

بالنسبة إليّ، أستطيع أن أضطلع بِدَوْرِ الرجل المستقيم لأنّني لم أكن عاشقاً آنذاك مع أنّي كنت راغباً في ذلك.

غالباً، كانت الفتاة الصغيرة الساحرة تأتي إليّ وتضمّ خصري بذراعيها، وتنظر إليّ وتكلّمني، وتطلب منّي أن أعيرها كتباً ومسرحيّات لم تُعد لي منها إلّا القليل القليل. كانت تصعد إلى غرفتي فأشعر بإحراج كبير. هل أفترضُ تصرّفها هذا نابعاً من امرأة متمادية في جرأتها أم في عفويّتها؟ ذات يوم، اضطجعتْ على كنبتي في وضعيّة شديدة الالتباس. وكنت جالساً قربها ولم أنبس بكلمة.

بالطبع، كانت تلك لحظة حاسمة لكنّي لم أستغلّها.

تركتُها ترحل.

وفي مرّات أخرى، كانت تقبّلني وهيَ تبكي. لم أكن أستطيع أن

أصدّق أنّها تحبّني. كان إرنست[1] مقتنعاً بالأمر وقد نبّهني إليه، ووصفني بالمغفّل.

وجلّ ما في الأمر أنّني كنت خجولاً وكسولاً في آن.

كان في شعوري عذوبة طفوليّة لم تغشَها أيّ فكرة امتلاك، لكنّه افتقر بسببٍ من ذلك إلى الحيويّة، وكان أشدّ سذاجة من أن يكون عذريّاً.

وبعد مرور سنة، جاءت والدتها لتقطن معها في فرنسا، ثمّ عادت بعد شهر إلى إنجلترا من جديد.

أُخرِجَتْ ابنتاها من المدرسة الداخليّة وسكنتا مع والدتها في شارعٍ مقفر في الطابق الثاني.

وخلال سفر والدتها، كنت أراهما غالباً عند النوافذ. وذات يومٍ عند مروري من هناك، نادتني كارولين فصعدتُ.

كانت وحدها، ارتمت بين ذراعيّ وقبّلتني بحرارة. كانت تلك المرّة الأخيرة لأنّها تزوّجت بعد ذلك.

كان الزوج أستاذها في الرسم الذي قام بزيارات متكرّرة للمنزل، وقد عُقِدَ مشروع الزواج هذا وحُلّ مئة مرّة. عادت والدتها من إنجلترا دون زوجها الذي لم نسمع مرّة عن أخباره.

وتزوّجت كارولين في شهر يناير. ذات يوم صادفتُها وزوجَها. لكنّها حيّتني بفتورٍ تامّ.

غيّرت والدتها مسكنها وسلوكها. باتت تستقبل لديها تلامذة ومتدرّبين على الخياطة، وتذهب إلى الحفلات التنكّريّة مصطحبة معها ابنتها الصغرى.

---

(1) إرنست شوفاليه Ernest Chevalier (1820–1887)، قاضٍ وسياسيّ فرنسي. ارتبط بصداقة متينة مع غوستاف فلوبير مذ كانا في المدرسة. ثم تلاشت صداقتهما بعد زواج إرنست عام 1850.

مرّت ثمانية عشر شهراً لم نرَهنّ خلالها.

هوَ ذا كيف انتهت هذه العلاقة التي كانت ربّما تحمل في طيّاتها بذور الشغف مع تقدّم العمر، والتي تلاشت من تلقاء نفسها.

هل من داعٍ للقول إنّ هذه العلاقة كانت للحبّ ما يكونه الغسق للنهار، وإنّ نظرة ماريّا محت ذكرى تلك الطفلة الصغيرة.

كانت ناراً عابرة ولم تعد إلّا رماداً خابياً.

16

هذه الصفحة قصيرة. كنت أودّ أن تكون أطول.. هاكم ما حصل.

دفعني الغرور إلى الحبّ، لا بل إلى اللذّة، وليس إلى اللذّة حتّى، بل إلى شهوة البدن.

كانوا يهزأون من عفّتي وكانت تُشعرني بالعار وأحمرّ منها خجلاً، وتعذّبني وكأنّها رذيلة.

عرضت امرأة نفسها عليّ فامتلكتها، وخرجتُ من ذراعيها ممتلئاً قرفاً ومرارة. لكنّ هذه العلاقة سمحت لي بأن أكون لافليس[1] الحانات، وأن أقول القدر ذاته من العبارات الفاحشة التي يتلفّظ بها رجل لدى اجتماعه بأصدقائه حول قدح من البانش. صرت بالغاً وبات عليّ القيام بواجب رجوليّ، كان عليّ أن أقترف الرذيلة ثمّ أتباهى بها. كنت في الخامسة عشرة من عمري وكنت أتحدّث عن النساء والعشيقات.

تلك المرأة، امتلكتُها كارهاً. جاءت إليّ وتركتُها تفعل. كانت تتصنّع ضحكات أثارت اشمئزازي وكأنّها وجوم منفّر.

(1) من شخصيّات رواية ريتشاردسون. سبقت الإشارة إليه، وهو يجسّد الغاوي المتخابث.

وبعدها ندمتُ. كان حبّ ماريّا تعبّداً فدنّسته.

17

ورحت أتساءل هل هذه هي المُتَع التي كنت أحلم بها، هل هذه هي النشوات الخارقة التي تخيّلها قلب طفلٍ رقيقٍ في عُذرته. هل هذا كلّ شيء؟ ألا يوجد خلف هذه المتعة الباردة متعة أخرى أسمى وأرحب، أليس هناك شيء ما إلهيّ يجعلك تقع في نوع من الانخطاف؟ آه! أيعقل أن يكون كلّ شيءٍ انتهى عند هذا الحدّ! أطفأتُ في الوحل نار نفسي المقدّسة هذه. آه يا ماريّا، مرّغتُ في الوحل الحبَّ الذي خلقتُه فيَّ نظرتك، ضيّعته هباءً لدى أوّل امرأة التقيتها، ولم يكن يحدوني لا حبّ ولا رغبة، مدفوعاً بغرور مراهقتي -وبحسابات الكبرياء- لكي أحارب خجلي أمام الفسق وأحتفظ برباطة جأشي في العربدة! يا لماريّا المسكينة!....

كنت تعباً وتملّكني قرف عميق واشمئزاز من تلك المتع الخاطفة واختلاجات الجسد تلك.

لا بدّ أنّني كنت تعساً جدّاً، أنا الذي كنت شديد الفخر بهذا الحبّ النبيل، وهذا الشغف السامي، لا سيّما وأنّني ظننت أنّ قلبي أرحب وأسمى من قلوب سائر البشر. أن يذهب بي الأمر لأحذو حذوهم، أنا! لا بل كنت أسوأ منهم! إنّ معظمهم يفعلون ذلك بدافع الغريزة وينساقون لشهواتهم انسياق البهيمة لغريزتها الطبيعيّة. ولكنّ تعمُّد الأمر يتّصف بانحطاط أكبر، حين يستثير المرءَ الفسادُ فيرتمي بين ذراعي امرأة ويتلاعب بجسدها ويتمرّغ في الوحل لينهض من ثمّ ويعرض نجاساته.

ثمّ اعتراني الخجل من فعلتي وكأنّها رجسٌ جبان. أردت أن أخفي

على نفسيَ الدناءة التي تباهَيت بها.

فعدت بالذاكرة إلى تلك الأوقات حين لم يكن الجسد بالنسبة إليّ متّسماً بأيّ دناءة وحيث الرغبة كانت ترسم لي أشكالاً مبهمة وملاذاً ابتدعها قلبي.

لا، أبداً لن نستطيع أن نقول جميع أسرار النفس في عُذرتها، جميع الأشياء التي تحسّ بها وجميع العوالم التي تخلقها. ما أعذب أحلامها!

وكم هي أفكارها شفيفة كالضباب! وما أمرّ خيبتها وأقساها!

أحببتُ، حلمتُ بالسماء، رأيتُ أصفى وأسمى ما في النفس، ثمّ علقت في أوزار الغريزة وكآبة الجسد. حلمتُ بالسماء وسقطتُ في الوحل!

من سيعيد لي الآن كلّ الأشياء التي فقدتها: عذريّتي وأحلامي وأوهامي، كلّ هذه الأشياء الذابلة وهي أزهار بائسة قضى عليها الجليد قبل أن تتفتّح؟

18

إذا كان هناك من لحظات حماس عشتها فهذا بفضل الفنّ. ومع ذلك أيّ باطلٍ هو الفنّ! ماذا تجدي الرغبة في تصوير الإنسان في كتلة حجارة، أو تبيان النفس في كلماتٍ، أو المشاعر في موسيقى، أو رسم الطبيعة على قماشة مبرنَقة...

لا أعرف أيّة قدرة جبّارة تمتلك الموسيقى. حلمت أسابيع كاملة بالإيقاع المنتظم لنغمة أو بالتموّجات الرحبة لِكورس مهيب. هناك نغمات تنفذ إلى روحي وأصوات تذيبني لذّة.

كنت أحبّ الموسيقى الصادحة بنغماتها المتدفّقة وتردّداتها الرنّانة، وهذه القوّة الهائلة التي تبدو وكأنّها مزوّدة بعضلاتٍ تتلاشى قدرتُها على طرف قوسٍ. كانت روحي تتابع اللحن الباسط جناحيه نحو اللّانهاية والمتصاعد دوائر حلزونيّة، الصافي البطيء المترامي مثل عطرٍ نحو السماء.

كنت أحبّ الصخب والألماس الذي يلمع في الضوء، وأيدي النساء المرتدية قفّازات وهي تصفّق حاملة باقات الأزهار. كنت أراقب رقصة الباليه بوثباتها وأثواب الراقصين الورديّة المتموّجة، وأسمع الخطى تتهادى بانتظام، وأنظر إلى الرُكَب تبتعد بليونة والخصور تنثني.

ومرّات أخرى كنت أشعر بخشوع أمام الأعمال العبقريّة، وكأنّي مقيّد إليها بسلاسل. لدى سماعي دمدمة الأصوات، وذلك الصراخ الجذّاب، والهدير المليء فتنةً، عندئذٍ، كنت أتوق إلى مصير هؤلاء الرجال الجبابرة الذين يستميلون مشاعر الجماهير ويجعلونها تبكي وتنتحب وتستشيط حماسةً، ضاربةً الأرض بقدميها. ما أرحب قلوب هؤلاء إذ هي تتسّع للعالم بأسره، وكم أنّ كلّ شيء في داخلي عقيم! حين أيقنت من عجزي عن الإبداع وعقمي، تملّكتني غيرة حاقدة فقلت في نفسي إنّ أعمالهم كلّها لا قيمة لها، وإنّ الصدفة وحدها أملَت عليهم هذه الكلمات، فرميت بالوحل أرقى الأشياء التي كنت أحسدها.

سخرت من الربّ وسهلَ عليّ أن أهزأ من الناس.

ولكنّ هذا المزاج المتجهّم لم يكن إلّا عابراً. أحسست بمتعة حقيقيّة وأنا أتأمّل العبقريّة المتألقة في موكب الفنّ وكأنّها زهرة عملاقة تفتح بتلاتها وتضمّخ بعطرها شمسَ الصيف.

الفنّ! الفنّ! يا له من شيء جميل باطل!

على الأرض وبين كلّ مجاهل العدم، إذا كان ثمّة معتقد جدير بالعبادة،

إذا كان هناك شيء مقدّس ونقيّ وسامٍ يتناسب وهذه الرغبةَ المبهمةَ التي تتوق إلى معانقة اللّانهاية والتي ندعوها النفس، فهو الفنّ.

وأيّة صغارة هو هذا السموّ - كما ندعوه - المبتدَع من حجر، أو كلمة، أو رنّة!

أريد شيئاً لا يحتاج تعبيراً أو شكلاً، شيئاً نقيّاً كالعطر، قويّاً كالحجر، منيعاً كأغنية، شيئاً يشتمل على كلّ هذه الأشياء ومجرّداً منها جميعاً.

كلّ شيء في الطبيعة بدا لي محدوداً وضحلاً وجهيضاً.

والإنسان بعبقريّته وفنّه ليس إلّا مُحاكِياً بائساً لما هو أرفع وأنبل.

أريد الجمال في اللّانهاية ولا أجد إلّا الشكّ.

19

آهٍ من اللّانهاية... اللّانهاية، تلك الهاوية السحيقة، تلك الدوائر الحلزونيّة التي تصعد من أعمق المهاوي إلى أعلى سموات المجهول. تلك الفكرة التي ندور في فلكها جميعاً فيأخذنا الدوار. إنّها الهاوية التي يمتلكها كلّ واحد منّا في قلبه، الهاوية التي لا حدّ لها ولا قرار.

وفي غمرة كربتنا عبثاً نتساءل لنهاراتٍ وليالٍ عن معاني هذه الكلمات: الله، الأبديّة، اللّانهاية! ونتقلّب داخلها، محمولين على جناح ريح هبّت من مجاهل الموت، مثل الورقة التي تقلّبها العاصفة. لكأنّ اللّانهاية تجد لذّة في أن تهدهدنا نحن أنفسنا بين ذراعَي هذا المدى الشاسع من الشكّ.

ونقول في أنفسنا مع ذلك: بعد قرون عدّة، بعد آلاف السنين، حين يُستَنفد كلّ شيءٍ، يجب أن يوضع حدّ لكلّ هذه المهزلة.

يا للأسف! ها إنّ الأبديّة تنتصب حيالنا راعبة. يرعبنا هذا الشيء

الذي يدوم طويلاً فيما نحن ندوم قليلاً قليلاً... وطويلاً طويلاً.

لا شكّ أنّه حين يختفي العالم من الوجود (كم أودّ أن أعيش حينذاك في عالم لا طبيعة فيه، ولا أناس، كم سيكون عظيماً هذا الفراغ!)، لا شكّ أنّه عندئذٍ سيعمّ الظلام بقعة الرماد المحروق هذه التي كانت تُدعى الأرض، وقطرات الماء القليلة التي كانت البحر فيما مضى.

أيّتها السماء! لا شيء سيبقى. فقط الفراغ، فقط العدم المترامي في اللّانهاية كمثْلِ كفن! ما قولكم في الأبديّة؟ هل ستدوم الأبديّة طويلاً؟ هل ستدوم أبداً... بلا نهاية!

ولكنّ أصغر حُطاماتِ هذا العالم، وآخر نَفَسٍ للخليقة المحتضرة، والفراغ نفسه، وكلّ ما يبقى يُفترض به أن يعيا بوجوده، ويستدعي دماراً شاملاً.

هذه الفكرة المتمثّلة في اللّانهاية تلقي بنا في ظلال الخوف. يا للأسف! إنّ هذه الدوّامة اللّامتناهية ستجرفنا جميعاً نحن الأحياء... وعندئذٍ ماذا سيصير بحالنا؟ سنؤول إلى لا شيء. ولن نكون نفحة هواء حتّى.

فكّرت طويلاً بالموتى في نعوشهم، بالقرون الطويلة التي تمرّ هكذا تحت الأرض المليئة صخباً ودمدمةً وصراخاً. فكّرت بالنعوش، الممعنة في الهدوء، في ألواحها المهترئة الذي تقطع صمتَها الكئيب شعرةٌ تسقط أو دودة تنزلق على لحمٍ قليل. ما أعمق نوم الراقدين هناك وما أشدّ سكونه، هناك تحت الأرض، تحت العشب المزهر!

ومع ذلك فإنّهم خلال الشتاء لا بدّ أنّهم يشعرون ببردٍ فظيع تحت الثلج.

آه! لو أنّهم أفاقوا من سباتهم، لو تسنّى لهم العيش من جديد ورأوا أنّ كلّ الدموع التي زيّنت كفن موتهم قد جفّت، وأنّ كلّ الشهقات هدأت،

وكلّ الأحزان انتهت، لتقزّزوا من هذه الحياة التي بكوها لدى رحيلهم عنها، ولعادوا سريعاً إلى العدم وهو منتهى الصمت والحقيقة.

بالطبع، من الناس من يحيون ويموتون دون أن يتساءلوا مرّة واحدة عن ماهيّة الحياة أو ماهيّة الموت.

ولكنّ ذاك الذي يرى الأوراقَ ترتجف لدى هبوب الريح، والأنهارَ تتلوّى في المروج، والحياةَ تتألّم وتهيم في الأشياء، والناسَ يحيون ويفعلون الخير والشرّ، والبحرَ يقذف أمواجه، وأنوارَ السماء تتوالى، ويتساءل: لَمَ هذه الأوراق؟ لَمَ الماء يسيل؟ لَمَ الحياة نفسها شلّال هادر يصبّ في محيط الموت الذي لا حدّ له؟ لَمَ الناس يمشون ويجدّون في عملهم كالنمل؟ لَمَ العاصفة؟ لَمَ السماء النقيّة الصافية والأرض الدنيئة المبتذلة؟ فهو موقن من أنّ هذه الأسئلة تُفضي إلى غياهب الظلمات التي لا خروج منها إطلاقاً.

والشكّ يأتي لاحقاً: إنّه شيء لا يُقال بل يُحسّ. والإنسان مسافر تائه في الرمال يبحث في كلّ مكان عن طريق تقوده إلى الواحة فلا يجد إلّا الصحراء.

الشكّ هو الحياة! الفعل، القول، الطبيعة، الموت: عليك أن تشكّكَ في هذه الأشياء كلّها.

الشكّ هو الموت للنفوس، هو برص يُهلك الأعراق الواهنة، هو مرض يأتي من العِلم ويقود إلى الجنون. الجنون هو ارتياب العقل. ربّما كان العقلَ نفسه.

فمن يثبت ذلك؟

20

ثمّة شعراء روحهم مفعمة بالعطور والأزهار، ينظرون إلى الحياة كما ينظر الفجر إلى السماء. وآخرون لا يجدوهم إلّا الظلام، ظلام نفوسهم حيث لا شيء إلّا المرارة والغضب. ثمة رسّامون يرون كلّ شيءٍ أزرق، وآخرون يرونه أصفر وأسود. لكلّ منّا وجهة نظره يرى من خلالها العالم. وطوبى لمن يميّز في ما يراه ألواناً ضاحكة وأشياء فرحة.

ثمّة أناس لا يرون في العالم إلّا لقباً أو نساءً، إلّا مصرفاً، أو شهرة، أو مصيراً... وكلّ هذه ترّهات. وأعرف منهم من لا يولون فيه أهميّة إلّا لسكك الحديد، أو الأسواق، أو البهائم. بعضهم يرونه مهزلة فاحشة، وآخرون يعتبرونه مرسوماً وفق خطة إلهيّة.

وهؤلاء سوف يسألونك ما هو الفاحش؟ سؤال تبدو الإجابة عليه مربكة ككلّ الأسئلة. بودّي أن أعطي التعريف المنطقيّ لفردَي حذاء أو لامرأة جميلة، فهما أمران مهمّان.

والناس الذين يرون عالمنا مَوحَلاً ضخماً أو صغيراً هم مميّزون، أو يصعب التغرير بهم.

تتحدّث لتوّك مع أحد هؤلاء الناس السفلة، الذين لا يدّعون أنّهم محبّون للبشر، ولا يخشون أن ندعوهم الكرليّين[1]، ولا يقترعون من أجل تدمير الكاتدرائيّات. ولكنّك سرعان ما تتوقّف صراحةً عن التحدّث إليهم أو تعترف بأنّك هُزمت، لأنّهم أناس دون مبادئ ينظرون إلى

(1) الكرليّون هم أتباع الكرليّة: حزب دون كارلوس– شارل دو بوربون– المطالب بعرش إسبانيا في القرن التاسع عشر. وقد أعطيت هذه التسمية في فرنسا لبضعة أعوام، لأنصار الملك شارل العاشر. كانت الكرليّة تُعير أهميّة كبرى للدين وكانت مدعومة من قبل الإكليروس.

الفضيلة بوصفها كلمة تافهة، وإلى العالم على أنّه مهزلة. لذلك ينطلقون من اعتبار كلّ شيء من وجهة نظر متدنيّة فيهزأون بأجمل الأشياء. وعندما تحدّثهم عن الإحسان، يهزّون بأكتافهم ويقولون لك إنّ الإحسان يُمارَس باكتساب أموالٍ للفقراء.

أن ترى لائحة أسماء المحسنين في جريدة شيء جميل حقّاً.

أمرٌ غريبٌ هذا الاختلاف في الآراء، وفي الأنظمة، والمعتقدات، والسخافات.

عندما تتحدّثون إلى بعض الناس يصابون فجأةً بالذهول وتأخذهم الرعدة ويسألونكم: ماذا! هل تنكرون ذلك؟ أيعقل أن تشكّوا في هذه الأمور كلّها؟ هل يمكننا أن ننفي الخطّة التي تسيّر الكون، وواجبات الإنسان؟ وإذا ما شردتَ لسوء حظّك قليلاً وهامت نظرتك مقتفياً حلماً في روحك، فإنّهم يتوقّفون فجأةً عن متابعة الحديث مكرّسين بذلك انتصارهم المنطقيّ، أشبه ما يكونون بهؤلاء الأطفال الذين يرتعبون من شبحٍ خياليٍّ فيغمضون أعينهم غير جاسرين على فتحها.

افتح عينيك أيّها الإنسان الضعيف المليء كبرياء، يا نملة تجهد زاحفة على حبّة الغبار هذه. تقول إنّك حرّ وعظيم، وتحترم نفسك، أنت الممتلئ فساداً خلال حياتك، أنت الذي تُكرِّم، من باب التهكّم على الأرجح، جسدَك المهترئ العابر. ثمّ تفكّر أنّ حياة بهذا الجمال، متأرجحة هكذا بين كبرياء قليلة تدعوها العظمة وهذه النفعيّة المنحطّة التي هيَ جوهر مجتمعك، ستتوّج بالخلود. بخلودك أنت الأكثر شبقاً من قرد، وشرّاً من نمر، ودناءة من أفعى؟ تمهّل قليلاً!

ألا فاصنعوا لي جنّة للقرد والنمر والأفعى، جنّة للشبق، والقسوة، والدناءة. هيّا اصنعوا جنّة للأنانيّة، وأبديّة لهذا الهباء، وخلوداً لهذا العدم.

تتباهى أيّها الإنسان بأنّك حرّ، وبأنّك قادر على صنع ما تدعوه الخير والشر، ألا فقلْ لي ما هو الخير الذي تحسن صنعه؟ هل هنالك حركة واحدة من حركاتك لا تحفّزها الكبرياء ولا توجّهها المصلحة؟

تدّعي أنّك حرّ! منذ ولادتك وأنت خاضع لكلّ عاهات آبائك، وتتلقّى مع النهار الطالع بذور رذائلك وغبائك وكل ما يجعلك تُدين العالم، أنت نفسك، وكلّ ما يحيط بك طبقاً لهذا القياس الذي تملكه في داخلك. ولدتَ بروح صغيرة ضيّقة، وبأفكارٍ جاهزةٍ عن الخير أو عن الشرّ، أو قيد التجهيز. سيقولون لك إنّ عليكَ أن تحبّ أباك وتعتني به في شيخوخته: لكنّك سوف تقوم بالأمرَين ولا حاجة بك لأن تتعلّمها، أليس كذلك؟ لأنّ تلك فضيلة فطريّة فيك كالحاجة إلى الأكل. ولكنْ، خلف الجبال حيث ولدتَ، سيلقّنون أخاك أن يقتل أباه الذي أصبح عجوزاً، وسوف يقتله، لأنّه يعتقد، وفقاً لتفكيره، أن ذلك أمرٌ طبيعيّ، ولم يكن ضروريّاً أن نعلّمه ذلك. (...) هل سبق لك أن تحرّرت من المبادئ التي ستتحكّم بسلوكك؟ هل أنت سيّد تربيتك؟ هل أنت من اخترت أن تُخلق بطبع سعيد أو حزين، مسلولاً أو قويّ البنية، لطيفاً أو شرّيراً، شريفاً أو متهتّكاً؟

ولكنْ مهلك: لماذا خلقت في الأصل؟ هل أنت أردت ذلك؟ هل نصحك أحد بهذا الشأن؟ خُلقتَ إذاً بطريقةٍ حتميّة لأنّ والدك عاد ذات يوم من حفلٍ، وقد أثاره النبيذ وأقوال الشهوة، فاغتنمت أمّك الفرصة ووظّفت كلّ حيَل المرأة المدفوعة بغرائزها وحيوانيّتها التي حبتها بها الطبيعة، واستطاعت نفخ الحيويّة في هذا الرجل الذي أرهقته الأعياد الشعبيّة منذ سنّ المراهقة. مهما تكن عظيماً فأنت قبل كلّ شيء نطفة هيّنة وذليلة، ثمّ كالدودة مررْتَ بأطوارٍ، وأخيراً جئت إلى هذا العالم، تكاد

تكون دون حياةٍ، باكياً صارخاً مغمضاً عينيك، كأنّما كرْهاً بهذه الشمس التي ناديتها عدّة مرّاتٍ فيما بعد. وغُذّيْتَ وكبرتَ ونموتَ كالورقة، وإنّها لصدفة حسنة ألّا تكون الريح اختطفتك مبكّراً جدّاً. أتعرف كم من الأشياء تخضع أنتَ لها؟ الهواء والنار والضوء والنهار والليل والبرد والحرّ، وكلّ ما يحيط بك، وكلّ ما هوَ موجود. وكلّ ذلك يتحكّم بك ويشغفك، تحبّ الاخضرار والأزهار وتحزن لذبولها. تحبّ كلبك وتبكي لموته. يتقدّم عنكبوت نحوك فتتراجع مذعوراً. ترتجف أحياناً وأنت تنظر إلى خيالك. وعندما يغرق فكرك نفسه في غياهب العدم، ترتعب وتخاف من الشكّ.

تقول إنّك حرّ، وكلّ يوم تتحرّك مدفوعاً بألف حافز، ترى امرأة وتحبّها وتموت بها حبّاً. هل أنت حرّ بتهدئة الدم الذي ينبض في عروقك، أو بتهدئة هذا الرأس المشتعل، وهذا الانقباض الذي يلفّ القلب، أو بإخماد هذه النيران التي تلتهمك؟ هل أنت حرّ بفكرك؟ إنّ ألف قيدٍ يمسك بك، وألف مهمازٍ يلمزك، وألف عائقٍ يعترضك. ترى رجلاً للمرّة الأولى، فتشمئزّ من لمحة في وجهه، وطيلة حياتك تشعر بنفورٍ منه وربّما كنت أحببته لو كان أنفه أقلّ ضخامة. معدتك تؤلمك وتقسو على من يأتي لزيارتك فيما كان يفترض بك أن تستقبله بلطف. ومن كلّ هذه الوقائع تنتج أو تترابط بطريقةٍ محتّمة سلاسل من الوقائع الأخرى التي تتشعّب عنها بدورها وقائع أخرى.

هل أنت اخترت بنيتك الجسديّة والأخلاقيّة؟ لا، ولن يمكنك التحكّم بها كليّاً إلّا إذا صنعتَها وقولبتَها بنفسك ووفق ما تشتهيه.

تقول إنّك حرّ لأنّ لديك روحاً. أوّلاً أنت من قمت بهذا الاكتشاف فيما تعجز عن تعريفه. هناك صوت في وجدانك يقول لك إنّ لديك روحاً.

مهلك فأنت تكذب لأنّ هذا الصوت يقول لك إنّك ضعيف، وتشعر في داخلك بفراغ هائلٍ فتريد ردمه رامياً فيه كلّ الأشياء. وحتّى ولو اعتبرت أنّ الروح موجودة، فهل أنت أكيد من ذلك حقّاً؟ من قال لك ذلك؟ يتنازعك طويلاً شعورَان متضادّان، وبعد تردّد وشكّ طويلين، تميل إلى أحدهما، وتعتقد أنّك سيّد قرارك. ولكن لكي تكون سيّداً، عليك ألّا يكون لديك أيّ ميل. هل أنت قادر على صنع الخير إذا كان الميل للشرّ متجذّراً في قلبك، وإذا كنت خُلقت بميولٍ سيّئة نمّتها فيك تربيتك؟ وإذا كنت فاضلاً وترتعب من الجريمة فهل يمكنك ارتكابها؟ هل أنت حرّ في اجتراح الخير أو الشر؟ إذا كان شعور الخير يوجّهك دوماً فأنت غير قادر على اقتراف الشرّ.

إنّها معركة تدور حول الصراع بين هذين الميلَين. إذا كنت تصنع الشرّ، فهذا لأنّ الرذيلة فاقت الفضيلة، ولأنّ الحمّى الأقوى هي التي غلبت.

عندما يتصارع رجلان، فمن المؤكّد أنّ الأضعف والأقلّ مهارة وليونة سيُهزمُ على يد الأقوى والأكثر مهارة وليونة. ومهما يطلْ زمن الصراع فسيكون هنالك مهزوم في النهاية. والأمر ذاته ينطبق على طبيعتك الداخليّة. حتّى حين يغلب الخير فهل غلبتُه هي دوماً عادلة؟ وما تعتبره الخير، هل هوَ الخير المطلق الثابت الأبديّ؟

كلّ شيءٍ إذاً ليس إلّا ظلمات تكتنف الإنسان وتُحدِق به. كلّ شيء فراغ، لذا يرغب الإنسان في شيءٍ ما ثابت. لكنّه يتدحرج هو نفسه في هذا المدى الشاسع المبهم ويريد أن يوقف دورانه فيتشبّث بكلّ شيء يحنّ إليه، بالوطن والحريّة والإيمان والله والفضيلة. ويحوز كلّ هذا، وكلّ هذا يسقط من يديه. إنّه كالمجنون الذي يُسقطُ قدح البلّور من يده ثمّ يضحك من الشظايا التي نثرها القدح.

بَيْدَ أنّ للإنسان نفساً خالدة ومخلوقة على صورة الله. وقد أهرق الإنسان في سبيل هاتين الفكرتين دمه، مع أنّه لا يفهم ماهيتَي النفس والله، لكنّه مقتنع بهما.

يقال إنّ هذه النفس جوهر يدور حوله كياننا الفيزيائيّ كما تدور الأرض حول الشمس. وإنّ هذه النفس نبيلة لأنّها من أصل روحانيّ مفارق لكلّ ما هو أرضيّ، ولا يمكنها بالتالي أن تكون دنيئة أو حقيرة. ولكن، أليست النفس هي الفكر الذي يوجّه الجسد؟ أليست هي التي ترفع ذراعنا عندما نريد أن نقتل؟ أليست هي التي تحرّك جسدنا؟ أو يكون الفكر مبدأ الشرّ، والجسد هو الفاعل؟

لنرَ كم أنّ هذه النفس، كم أنّ هذه السَّريرة مطّاطة وقابلة للانثناء، كم هي مطواعٌ سهلة الانقياد والانعطاف تحت ثقل الجسد، أو ربّما كانت تستند إلى الجسد الذي ينحني تحت ثقلها. لنرَ كم أنّ هذه الروح تباع وتشرى رخيصةً، كم تزحف وتتملّق، وتكذب، وتخدع! هي التي تبيع الجسد واليد والرأس واللسان! هي التي تطلب الدم وتتوخّى الذهب، لا انتهاء لها في نهمها وجشعها اللّذين لا يرتويان! إنّها مقيمة في قلب وجودنا، عطشاً وناراً متأجّجة تلتهمنا، ومحوراً يجعلنا ندور في فلكه.

ما من شكّ في أنّك عظيم أيّها الانسان! ليس بالجسد بل بهذا الفكر الذي جعلك، كما تقول، ملكاً على الطبيعة. أنت عظيم وسيّد وقويّ.

لكنّك في كلّ يوم تقلّب سكينة الأرض، وتحفر القنوات، وتبني القصور، وتحبس الأنهر بين السدود، وتقطف النبات وتعجنه وتأكله، وتحرث المحيط بمجاذيف سفنك، وتظنّ أنّ كلّ ذلك حسن. تظنّ نفسك أفضل من الحيوان المفترس الذي تأكله، وأكثر حريّة من الورقة التي تحملها الرياح، وأعظم من النسر الذي يحلّق فوق الأبراج، وأقوى

من الأرض التي تستخرج منها خبزك وألماسك، ومن المحيط الذي تعبره. ولكن ويا للأسف! الأرض التي تقلّبها تعود وتنبعث من تلقاء ذاتها، وقنواتك ينزل بها الخراب، وحقولك ومدنك تجتاحها الأنهر، وحجارة قصورك تتداعى وتسقط من تلقاء ذاتها، والنملات تدبّ على تيجانك وعروشك، وجميع أساطيلك لا يسعها أن تترك آثار مرورها على صفحة المحيط أكثر ممّا تتركه نقطة مطرٍ ورفّة جناح عصفور. وأنت نفسك، تُمضي على هذا المحيط أعماراً دون أن تترك آثاراً عليه أكثر مما تترك سفينتك على الأمواج. تظنّ نفسك عظيماً لأنّك تعمل دون توقّف، لكنّ هذا العمل هو دليل ضعفك. حُكم عليك بأن تتعلّم كلّ هذه الأشياء التافهة لقاء عرق جبينك. كنت عبداً قبل أن تولد، وتعيساً قبل أن تعيش! تنظر إلى الكواكب بابتسامة غرور لأنّك أعطيتها اسماً وحدّدتَ مسافتها، كما لو أنّك تريد أن تعيش اللّانهاية وتحبس الفضاء في حدود فكرك. لكنّك مخطئ! مَن يقول لك إنّه خلف هذه العوالم من الكواكب لا توجد عوالم أخرى ومنذ الأزل؟ ربّما كانت حساباتك تتوقّف على علوّ بضعة أقدام، ومن بعده يبدأ سلّم جديد للوقائع... على أيّة حال، هل تفهم أنت نفسك قيمة الكلمات التي تستعملها، ككلمتَي المَدى والفضاء؟ كلمات أكثر اتّساعاً منك ومن كلّ كرتك الأرضيّة.

أنت عظيم وتموت كالكلب والنملة، ولكنْ بحسرة أكبر من حسرتها، ثمّ تتعفّن. وأسألك: عندما تنهشك الديدان، عندما يتحلّل جسدك في رطوبة القبر ويندثر حتّى هباؤك، فماذا يتبقّى منك يا إنسان؟ أين هي روحك بالذات؟ هذه الروح التي كانت محرّك أعمالك، وكانت تسلّم قلبك للحقد والحسد، وللأهواء جميعها، هذه الروح التي تبيعك وتدفعك للقيام بدناءات كثيرة، أين هي؟ هل هناك مسكن بهذه القداسة

لاستقبالها؟ تحترم نفسك وتكرّمها وكأنّها إله، وابتدعتَ فكرة كرامة الإنسان، وهي فكرة يعجز كلّ شيء في الطبيعة عن الإقرار بها حالما يراك. تريد أن تُكرَّم وتكرِّم نفسك، تريد أن يكرَّم هذا الجسد في مماته بعدما كان قذراً في حياته. تريد أن نرفع قبعاتنا احتراماً أمام جيفتك البشريّة، التي تتعفّن من فسادها مع أنّها الآن أنقى منك يوم كنت حيّاً. هنا عظمتك بالذات.

عظمة الهباء، جلالة العدم!

21

عدت إلى هناك بعد سنتين، هل تعلمون أين؟ فما وجدتُها.

كان زوجها بمفرده، وقد أتى مع امرأة أخرى، ورحل قبل يومين من وصولي.

عدت إلى الشاطئ. كم كان خالياً! ومن هناك استطعت أن أرى الجدار الرماديّ لشقّة ماريا. أيّة وحشة هذه!

عدت إذاً إلى القاعة نفسها التي حدّثتكم عنها آنفاً. كانت مليئةً بالنزلاء لكنّ أيّاً من الوجوه التي أعرفها لم يكن موجوداً. جلس إلى الطاولات أناس لم أرهم من قبل قطّ. كانت امرأة عجوز تجلس إلى طاولة ماريا متّكئة إلى المكان نفسه الذي أسندت إليه ماريا مرفقها. بقيتُ هناك خمسة عشر يوماً تخلّلها بضعة أيّام من الطقس السيّء والماطر أمضيتها في غرفتي حيث كنت أستمع إلى المطرَ يتساقط على سطوح الأردواز والهدير البعيد للبحر، وصراخ بعض البحّارة على الرصيف من وقتٍ لآخر. استرجعت في ذهني كلّ هذه الأشياء القديمة التي أعادت رؤيتي الأماكن نفسها

إحياءها.

رأيت من جديدٍ المحيط نفسه بأمواجه، هائلاً أبداً، مزمجراً على الصخور بكآبة. رأيت القرية نفسها بأوحالها المتراكمة، وأصدافها المتكسّرة تحت الأقدام، ومساكنها المتعدّدة الطبقات. ولكنّ كلّ ما أحببته، كلّ ما كان يحيط بهاريا، تلك الشمس الجميلة التي تنساب عبر المصاريع مذهّبةً بشرتها، وذلك الهواء الذي تنسّم جسدها، وأولئك الناس الذين مرّوا بقربها... كلّ ذلك مضى إلى غير رجعة. آه! ليت يوماً واحداً يعود من تلك الأيّام التي لم أرَ لها مثيلاً! ليتني أستطيع استعادته دون أن أغيّر شيئاً فيه!

ماذا! أحقّاً أنّ شيئاً من هذا لن يعود؟ أشعرُ بفراغ قلبي الهائل لأنّ كلّ أولئك الناس الذين أحاطوا بي يحيكون صحراء وحدتي القاتلة.

أذكرُ تلك الأوقات الصيفيّة الطويلة والحارّة بعد الظهر حين كنتِ أتحدّث إليها دون أن تفطن إلى أنّني أحبّها، حين كانت نظرتها اللّامبالية تدخل إلى أعماق قلبي كشعاع حبّ. كيف كان بإمكانها أن ترى أنّني أحبّها حقّاً فيما لم أكن أحبّها آنذاك. إنّ كلّ ما قلته لكم كان كذباً. الآن فقط أحبّها وأرغب فيها. وحيداً على الشاطئ، أو في الغابات، أو في الحقول، هناك أتخيّلها، سائراً إلى جوارها وهي تتحدّث وتنظر إليّ. وعندما أضطجع على العشب وأنظر إلى الأعشاب تنحني للريح، والأمواج تلطم الرمال، أفكّر فيها وأعيد في قلبي لملمة جميع المشاهد التي تحرّكت هي فيها وتكلّمت. كانت هذه الذكريات بحدّ ذاتها شغفاً.

حالما أتذكّر أنّني رأيتها تمشي في مكان ما سعيْتُ إليه. ويلذّ لي أن أستعيد نبرة صوتها لكي أنسحر أنا نفسي. كم مرّة مررت أمام بيتها ونظرت إلى نافذتها! يستحيل عليّ إحصاء ذلك.

هكذا أمضيت تلك الأيّام الخمسة عشر في تأمّل شَغوفٍ وأنا أحلم بها، وأستذكر أشياء محزنة. ذات يوم، نحو الغسق، سلكتُ طريق العودة سائراً عبر المراعي المليئة بالعجول؛ كنت أمشي بسرعةٍ فلا أسمع إلّا وقع أقدامي فوق العشب. كان رأسي مطرقاً أنظر إلى الأرض. وهذه الحركة المنتظمة أشعرتني بنعاسٍ. خلتني أرى ماريا تتقدّمني، وهي تمسك بذراعي وتلتفت إليّ لتراني. كانت هي التي تمشي في العشب. كنت أعرف أنا نفسي أنّ ذلك كان هذياناً استغرقت فيه بنفسي ولكنّي لم أستطع أن أمتنع عن الابتسام لهذه الرؤيا وشعرتُ بشيء من السعادة. أقتمت السماء أمامي عند الأفق، والشمس الرائعة كانت تغرق في الأمواج. ثمّ ارتفعت حزمة ناريّة مشكّلة أعمدةً من الضوء متشابكة وسرعان ما تلاشت خلف غيومٍ كبيرةٍ سوداء عبرت فوقها بمشقّة، ثمّ لاح انعكاس لهذه الشمس الغاربة على مسافة أبعد خلفي في زاوية من السماء الصافية الزرقاء.

عندما لمحت البحر، كانت الشمس اختفت في معظمها. بقي قرصها غائصاً نصفه في الماء وصبغة ورديّة خفيفة امتدّت متّسعة نحو السماء وجعلتْ تخفّ ألوانها تدريجيّاً.

وفي يوم آخر، كنت عائداً على صهوة الحصان وأنا أسير بمحاذاة الشاطئ. نظَرتُ تلقائيّاً إلى الأمواج تبلّل بزبدها حوافر فرسي التي كانت قوائمها تغوص في الرمل وتعدو جاعلةً الحصى تتطاير. كانت الشمس قد اختفت للتوّ ولمحتُ على الأمواج لوناً قاتماً وكأنّ شيئاً أسود يحلّق فوقها. إلى يميني الصخور حيث كان الزبد يتناثر لدى هبوب الريح مثل بحرٍ من الثلج، وكانت النوارس تمرّ فوق رأسي وأجنحتها البيضاء تقترب من تلك المياه القاتمة الكامدة. لا شيء يستطيع أن يصف جمال ما رأيته: ذلك البحر، وذلك الشاطئ برمله المعبّد بالأصداف، وصخوره المكسوّة

بالطحالب التي رطّبتها المياه والزبد الأبيض الذي يتأرجح عليها لدى هبوب النسيم.

لو كان بإمكاني أن أبوح بكلّ ما شعرت به من حبّ ونشوة وحسرات لقلت لكم أشياء أخرى جمّة، أجمل وأرقّ. لكن من ذا الذي يستطيع أن يصف بالكلام خفقان القلب، أو أن ينطق بدمعة ويرسم بلّورها الرطب الذي يغمر العين بحزنٍ عاشق؟ هل يسعكم أن تقولوا كلّ ما شعرتم به في يومٍ واحد؟ أيّها الضعف البشريّ البائس، أنت بكلماتك ولغاتك وأصواتك تتكلّم وتتأتئ، تعرّف بالله والسماء والأرض والكيمياء والفلسفة ولا تستطيع أن تعبّر بلسانك عن كلّ السعادة التي يمكن أن تمدّك بها امرأة عارية- أو كعكة عيد الميلاد.

22

آهٍ يا ماريّا! يا ماريّا، يا ملاك شبابي الغالي. أنتِ التي رأيتك في نضارة مشاعري، أنتِ التي أحببتُ حبّاً ولا أرقّ، مفعماً بالعطر والأحلام الفائضة حناناً، وداعاً!

وداعاً! إنّ أهواء أخرى ستعاود ظهورها، سوف أنساك ربّما لكنك ستبقين دوماً في أعماق قلبي لأنّ القلب أرض وكلّ شغفٍ يقلبها ويزعزعها ويحرثها على أنقاض حبّ آخر. وداعاً!

وداعاً! ومع ذلك كم كان بوسعي أن أحبّك، كم كان بوسعي أن أقبّلك وأحضنك بين ذراعي! آه إنّ روحي تذوب حلاوةً أمام كلّ ألوان الجنون التي يمكن لحبّي أن يبتدعها. وداعاً!

وداعاً، ومع ذلك سأفكّر بك دائماً. سوف يُرمى بي في دوّامة الوجود

وسأموت مسحوقاً ربّما تحت أقدام الحشود وممزّقاً أشلاء. إلى أين أذهب؟ ماذا سيصير بحالي؟ أودّ لو أكون عجوزاً، أبيض الشعر. لا، بل أودّ أن أكون جميلاً كالملائكة، وأن أتكلّل بالمجد وأتّسم بالعبقريّة وأن أطرح كلّ شيء أمامك لتدوسيه بقدميك. لكنّني لا أملك شيئاً من ذلك، وقد نظرتِ إليّ ببرودٍ وكأنّني خادم أو متسوّل.

أتعلمين، لم تمرّ ليلة عليّ، ولم يمرّ نهار، ولم تمرّ ساعة إلّا وفكّرت بك، إلّا ورأيتك تخرجين مجدّداً من بين الأمواج بشعرك الأسود المنسدل على كتفيك وبشرتك السمراء وعليها لآلىء المياه المالحة، وثيابك التي ينساب منها الماء وقدميك البيضاوين بأظافرهما الورديّة اللتين تغوصان في الرمل. ومرآك هذا ما برح ماثلاً أمامي ويهمس دوماً إلى قلبي. آه! لا، كلّ شيءٍ بات خاوياً.

وداعاً! ومع ذلك، ليتني كنت أكبر سنّاً بأربعة أعوام أو خمسة عندما رأيتك، ليتني كنت أكثر جسارة... لو كنت كذلك لربّما... آه! لا يسعني تصوّر الأمر! كنت أحمرّ خجلاً عند كلّ نظرة ترمينني بها. وداعاً!

23

عندما أسمع الأجراس تُقرع، ودقّة الحزن الناحبة، تنبثق في أعماقي كآبة غامضة، شعور مبهم، وحالم أشبه ما يكون باختلاجات وانية.

إنّ سرباً من الأفكار يندفع في ذهني لدى سماعي رنين الجرس المشؤوم الذي يؤذن برحيل الموتى. يبدو لي أنّني أرى العالم في أبهى حلله: احتفالات، وصرخات ظفرٍ، وعربات، وتيجان... ثمّ يخيّم على كلّ هذا صمت وجلال أبديّان!

وعلى إيقاع هذا الصوت الذي يقرع الموت، تطير روحي صوب الأبديّة واللّانهاية محلّقةً فوق محيط الشكّ.

بَيْدَ أنّك أيّها الصوت المنتظم البارد مثل القبور، تقرع احتفالاً بكلّ عيد، وتبكي كلّ غياب. أحبّ أن أستسلم لموسيقاك التي تصيبني بالدوار، وتغلّف صخب المدن. حين أكون في الحقول وعلى التلال الذهبيّة لسنابل القمح اليانعة، أحبّ سماع الأصوات المرتعشة لجرس القرية الصادح وسط الريف فيما الحشرة تصفر تحت العشب، والعصفور يهمس تحت الأوراق.

بقيت طويلاً في الشتاء، في الأيّام التي لا شمس فيها، غير المضاءة إلاّ بنورٍ كئيب باهت، وأنا أستمع إلى كلّ الأجراس تقرع إيذاناً بالصلوات. من كلّ صوب تصاعدت الأصوات نحو السماء بأنغام متناسقة. كانت أفكاري المنبثقة مع قرع الأجراس عظيمة، لا متناهية، وكنت أشعر في داخلي بأصوات وأصداء من عالم آخر وأشياء رهيبة تتلاشى أيضاً.

أيّتها الأجراس! سوف تُقرعين غداً لموتي، ثمّ بعد دقيقةٍ من أجل طفلٍ يعمّدونه. أنتِ إذاً تتهكّمين كبقيّة الأشياء، كاذبة كالحياة التي تعلنين كلّ مراحلها: العماد، والزواج، والموت. أيّها المعدن التعس، الضائع والمختفي وسط الأجواء، لك وظائف أخرى: قد تسيل حمماً متأجّجة في ساح المعركة، أو تُستخدم في صنعِ حدوةِ حصان...

جنازة الدكتور ماتوران

آب/أغسطس 1839

ولم لا أهديك أيضاً هذه الصفحات الجديدة يا عزيزي الفريد؟
إنّ مثل هذه الهدايا أعزّ على من يهديها ممّا على من يتلقّاها، علماً أنّ صداقتك تعطيها قيمة تفتقر هي إليها. خذها إذاً بصفتها نابعة من الفكر الذي نسجها واليد التي حاكتها، وكلاهما لك.

أراد ماتوران، وقد أحسّ بالهرَم، أن يموت لاعتقاده أنّ العنقود الذي أينع ولم يُقطَف يفقد نكهته! ولكن لماذا وكيف هذا؟

ناهز السبعين ولمّا يزل قويّ البنية رغم شعره الأبيض، وظهره المحدودب، وأنفه المحمرّ؛ ويمكن القول إنّه ما برح يحتفظ بوجه عجوزٍ جميل. كانت زرقة عينيه صافية، شديدة الصفاء، وأسنانه بيضاء منتظمة، وشفتاه صغيرتين رقيقتين مرسومتين بإتقان وتشيان بشهيّة إلى الطعام نادرة في مثل سنّه حيث يفكّر المرء عادةً في تلاوة الصلوات والشعور بالخوف أكثر ممّا في إبداء الرغبة في الحياة.

أمّا السبب الرئيسي لاتّخاذه هذا القرار فهو أنّه كان مريضاً. وبما أنّ الخروج من هذه الحياة سيتمّ عاجلاً أم آجلاً، آثرَ تدارك المنيّة على الشعور بأنّها ستقبض على روحه عنوة.

وإذ أيقن وضعه، لم يعترِه عجبٌ ولا خوف، ولم يبك ولم يصرخ،

ولم يتلُ صلوات خاشعة، ولا طرح تساؤلات مدّعية. ولم يظهر بمظهر الرواقيّ ولا الكاثوليكيّ ولا عالِم النفس، أي أنّه لم يعتصم بكبرياء، ولم يُبدِ إيماناً ساذجاً، ولا غباء. كانَ عظيماً في موته، وفاقت بطولته بطولة إبامينونداس[1]، وهنيبعل، وكاتون[2]، وجميع قادة العصور القديمة، وجميع شهداء المسيحيّة، وفاقت شجاعة فارس آسّاس[3]، ولويس السادس عشر، والقديس لويس، وتاليران[4] المحتضر في مبذله الأخضر، وحتّى فييسكي[5] الذي لم يتوقّف عن كلامه اللّاذع إلى لحظة قطع رأسه، وكلّ أولئك الذين قضوا متفانين في سبيل عقيدة أيّاً يكن نوعها، والمتبرّجين قبل دنوّ أجلهم ليبدوا أجمل، والمتدثّرين في أكفانهم وكأنّها معطف مسرحيّ، والقادة الأشدّاء، والجمهوريّين الأغبياء! والشهداء الأبطال المعاندين! والملوك المخلوعين عن عروشهم، وأبطال السجون. أجل إنّ كل هؤلاء الشجعان قد تجاوزتهم شجاعة واحدة. وهؤلاء الموتى انكسف بريقهم بميّت واحد وهو الطبيب ماتوران الذي لم يقضِ نحبه وفاءً لقناعة أو اعتصاماً بكبرياء، أو تأديةً لدور عظيم، أو من أجلِ الدين، أو حبّاً بالوطنيّة، بل توفّي من جرّاء داء الجُنابِ الذي كان أصابه قبل ذلك

---

(1) إبامينونداس Epaminondas: (418؟–362 ق.م) من مشاهير قادة طيبة (اليونان) انتصر على السبارطيّين في وقعتَي لفترا ومانتينا حيث قتل.

(2) كاتون Caton (234–149 ق.م.): رجل دولة روماني. قنصل وخطيب مشهور دعا إلى القضاء على قرطاجة. من كبار المؤلّفين في اللاتينيّة.

(3) فارس آسّاس le chevalier d'Assas، فارس فرنسيّ تجلّت شجاعته في معركة كلوستر كامب إبّان حرب السنوات السبع (1756–1763) في مواجهة الإنجليز.

(4) تاليران Talleyrand: (1754–1838) سياسيّ فرنسيّ اشتهر بدهائه. لعب دوراً هامّاً في مؤتمر فيينا.

(5) فييسكي Fieschi: كورسيكي أطلق النار على الملك لويس فيليب وأبنائه في 1835، سبق ذكره.

بثمانية أيّام، وعسر الهضم الأوّل في حياته، لأنّه كان ممّن يُحسنون الأكل.

فارتضى، على غرار الأبطال، أن يغادر الحياة بملء إرادته وأن يدخل إلى النعش مرفوع الرأس. أستميحكم عذراً، فهو لم يوضع في نعش بل في برميل. لم يقل مثل كاتون: «أيّتها الفضيلة لست سوى عبارة جوفاء»، ولا مثل غريغوار السابع: «صنعتُ الخير وتجنّبتُ الظلم. ذاك هو السبب في أنّني أموت منفيّاً»، ولا مثل يسوع المسيح:» إلهي لماذا تركتَني؟». بل مات وهو يقول بكلّ بساطة: «وداعاً تمتّعوا بحياتكم كما ينبغي».

لم يمت ماتوران ميتة شاعر رومنطقيّ اشترى سلّة من الفحم وتنشّق دخانها ناظماً أشعاراً رديئة ليلفظ أنفاسه مختنقاً بعد أقلّ من ساعة. ولم يرمِ بنفسه في نهر السين في شهر شباط فغرق ومات متجلّداً. ولم يتجرّع سمّاً جعله يتقيّأ ثمّ يعود لرقاده الأخير وهو يبكي من شدّة ندمه على ارتكابه مثل هذه الحماقة. ولم يقضِ كشهيد مستهزئ بالرصاص الذي يُصبّ في فمه؛ ولا كنصيرٍ جمهوريّ تغويه فكرة قتل الملك لكنّه يفشل في قتله ويُقطَع رأسه. لم يمتْ ماتوران متشبّهاً بهؤلاء الناس المميّزين. كانت فلسفته في الحياة تمنعه من إيلام نفسه.

ربّ سائلٍ يسأل: لماذا كانوا يلقّبونه بالدكتور؟ ستعرفون السبب ذات يوم، وبمقدوري فعلاً أن أخبركم عنه بشكل أوفى وأكثر تفصيلاً مدرجاً ذلك بمثابة فصلٍ أخيرٍ ضمن سلسلة طويلة من المؤلّفات حريّ بها أن تخلّدني ككلّ الأعمال غيرِ المسبوقة. سأروي لكم أسفاره، وأنكبّ على دراسة كلّ كتبه وأضع مجلّداً من الملاحظات بشأن مذكّراته، وذيلاً من الصفحات البيضاء وعلامات التعجّب فيما يخصّ مؤلفاته العلميّة. لأنّه عالم من أكبر العلماء وفي كلّ العلوم الممكنة. وتواضعه يفوق أيضاً جميع معارفه. كانوا يعتقدون أنّه لا يعرف القراءة حتّى، وأنّه كان يرتكب

أخطاء في اللغة الفرنسيّة، هذا صحيح، لكنّه كان يعرف العبريّة وأشياء أخرى كثيرة.

لا سيّما الحياة فهو قد سبر أعماق قلب الإنسان، ولم يكن هناك وسيلة للإفلات من معيار نظرته الثاقبة الحكيمة حين يرفع رأسه مخفضاً جفنيه ناظراً إليك مواربة وهو يبتسم. كنت تشعر أنّ مسباراً مغناطيسيّاً يدخل في روحك متغلغلاً في كلّ خباياها.

أظنّ أنّه كان يملك في رأسه منظاراً يشبه ذاك الذي يمكنه اختراق الجدران في القصص الخرافيّة العربيّة. كان يجرّدك من كلّ ملابسك وأقنعتك، وينزع عنك كلّ خضاب الفضيلة الذي يخفي تجاعيدك، ومن كلّ العصيّ التي تستند إليها، ومن كلّ الكعوب التي تعلّيك. كان يعرّي الرجال من نزقهم، والنساء من خفرهنّ، والأبطال من عظمتهم، والشاعر من تبجّحه، والأيدي الوسخة من قفّازاتها البيضاء. ما إن يمرّ رجل من أمامه وينطق بكلمتين ويتقدّم خطوتين أو يقوم بأقلّ حركة، حتّى يعيده لك عارياً، مجرّداً من ثيابه مرتجفاً في الريح.

هل ذهبتم مرّة إلى عرضٍ مسرحيّ ورأيتم، على ضوء الثريّات المتلألئة بألف شمعة، الجمهورَ يشتعل حماسة، والنساء المتبرّجات يصفّقن بأياديهنّ، والابتسامات تزيّن شفاههنّ الحمراء، والماس المشعّ، والملابس البيضاء، والثروات، والبهجة، والبريق؟... هل تصوّرتم هذه الأنوار وقد انطفأت، وهذه الضجّة انقلبت صمتاً، وكلّ هذه الحياة آلت إلى العدم؟ هل تخيّلتم أنّ كلّ هذه الكائنات المرتدية أثواباً مقوّرة فوق صدورها المختلجة وشعورها المجدولة السوداء وبشراتها البيضاء وقد استحالت هياكل عظميّة متراصفة جوفاء مصفّرة، هياكل أموات دُفنت طويلا تحت الأرض التي مشت عليها، واجتمعت كلّها في عرض تؤدّي

فيه أدوار ممثّلين أبديّين جامدين يُبدون مزيداً من الإعجاب المتبادل في هذه الملهاة التي لا سابقة لها.

وكان ماتوران يفعل الشيء نفسه، لأنّه عبْر اللباس كان ينفذ إلى الجلد واللّحم، ويرى النخاع تحت العظم، ويستخرج من هذا الكيان خرقاً دامية، وقلباً فاسداً، وغالباً ما كان يكتشف غرغرينة مرعبة على أجساد سليمة.

هذا النظر الثاقب الذي صنع رجال السياسة العظماء، وعلماء الأخلاق الكبار، والشعراء المبدعين، ساهم في سعادته، وهذا أمر غاية في الأهمّيّة لا سيّما حين نعلم أنّ ريشليو وموليير وشكسبير لم يكونوا سعداء. عاش بحواسّ مسترخية دون تعاسة ولا سعادة، دون جهد، دون شغف ولا فضيلة، وهما حجرا الرحى اللّذان يفلاّن النّصال البواتر. وكان قلبه برميلاً لا تختمر فيه الشهوات المحتدمة. ما إن يشعر أنّ هذا البرميل أوشك على الامتلاء حتّى يغلقه بسرعة تاركاً مكاناً للفراغ، مكاناً للسلام. لم يكن إذاً لا شاعراً ولا كاهناً. ولم يتزوّج، وكان سعيداً بكونه لقيطاً. كان أصدقاؤه قلّة، وكان قبوه مليئاً بالنبيذ الفاخر. لم يكن لديه عشيقات يسعين لاستفزازه ولا كلب لعضّه. كانت صحّته ممتازة وكان ذا ذائقة مرهفة للغاية. ولكن يجدر بي أن أحدّثكم عن موته.

جاء بتلميذَيه (كان لديه اثنان) وقال لهما إنّه قرّر أن يموت، وإنّه سئم من مرضه، ومن تمضيته نهاراً كاملاً ملتزماً بحمْيَة.

حدث ذلك في الفصل الذهبيّ، موسم يناع سنابل القمح. الياسمين الذي ابيضّ زهره يعطّر أوراق العريشة. بدأوا يثنون أغصان الكرمة بعد أن تدلّت عناقيد العنب على مساميكها. البلبل يغنّي على السياج،

وضحكات الأطفال تُسمع في الغابات، والجفيف[1] نُقِلَ من الحقول. آه! فيما مضى كانت الحوريّات يأتين ليرقصن على المروج، ويصنعن عقوداً من الأزهار البريّة. كان سبيل الماء يدمدم مثل هديلِ عاشقٍ عذب، واليمام يطير على أشجار الزيزفون. وعند شروق الشمس، كان الأفق يتّشح دوماً بزرقة ضبابيّة، والوادي ينشر على النجود عطراً نضراً مضمّخاً بقُبَل الليل وندى الأزهار.

مضت عدّة أيّام وماتوران راقد في فراشه. كيف كانت أحلامه؟ كحياته بالطبع، هادئة ونقيّة. النافذة مفتوحة تترك لأشعّة الشمس أن تتسلّل عبر مشربيّتها. وعناقيد العريشة الناضجة المتسلّقة على طول الجدران الرماديّة تتداخل مع الأغصان المتشابكة لياسمين البرّ[2]. الديك يغنّي في فناء القنّ، ومجفّفو الكلأ يرتاحون في الظلّ تحت أشجار الجوز الباسقة التي افترش جذوعها الحزاز.

على مسافة غير بعيدة وتحت أشجار الدردار الصغيرة، مرجة مستديرة مزيّنة ببقعٍ صغيرةٍ من السوسن وشقائق النعمان؛ وهناك كان ماتوران وأصدقاؤه يقيّلون في معظم الأحيان، مضطجعين على بطونهم، أو جالسين يتحادثون متنادمين على الشراب فيما الجنادب تغنّي والحشرات تطنّ تحت شعاع الشمس، والأوراق تهتزّ لنسائم ليالي الصيف الحارّة.

هناك، حيث كلّ شيء كان مفعماً بالسلام والهدوء والطمأنينة استغرقوا في جمود وتبطّلٍ وسعادة، في نسيان تامّ للعالم، في أنانيّة فردوسيّة. وبينا كان الناس يعملون، والمجتمع يسير وفق شرائعه وأنظمته المتعدّدة، وبينا الجنود يتقاتلون، والمتآمرون يحيكون الدسائس، كانوا هم يشربون وينامون. لكم

(1) الجفيف هو الحشيش أو الكلأ اليابس.

(2) أو الظيّان: جنس نباتات معترشات من الفصيلة الحوذانيّة تزرع بعض أنواعه للتزيين.

أن تتّهموهم بحبّ الذات وتتحدّثوا عن الواجب، والأخلاق، والتفاني. لكم أن تقولوا مرّة أخرى إنّ هناك واجبات يتحتّم علينا القيام بها تجاه الوطن والمجتمع، لكم أن تكرّروا فكرة العمل الجماعيّ، وأن تتغنّوا دوماً بهذه اللقيا الرائعة عن خطّة الكون العادلة[1]، فلن تستطيعوا أن تحولوا رغم ذلك دون وجود أناس حكماء وأنانيّين ولكن في عيبهم المشين ثمّة من الحسّ السليم ما يفوق فضائلكم الساميّة.

أيّها الناس، أنتم الذين تسيرون في المدن، وتصنعون الثورات، وتدحرون العروش، وتحرّكون العالم، أنتم الذين لكي تُظهروا أمجادكم الصغيرة تثيرون الكثير من الغبار على الدرب االذي سلكه سائر البشر. اسمحوا لي قليلاً أن أسألكم إذا كان ضجيجكم، وعربات انتصاركم، وسيوفكم، وآلاتكم، وشعوذتكم، وفضائلكم، وما إلى ذلك... يُساوي حياة هادئة مطمئنّة لا يُكسر فيها شيء إلّا الزجاجات الفارغة، ولا ينبعث فيها دخان إلّا دخان الغليون، ولا يكون فيها قرف آخر إلّا ذاك القرف الناجم عن وجبة دسمة.

هكذا كانوا يمضون أيّامهم. وفيما كان الدم يسيل في الحروب الأهليّة، ودفّة الدولة تحطّمها العاصفة ويتنازعها قراصنة وحمقى، وفيما الإمبراطوريّات تتداعى، والاغتيالات تتواصل، والناس يعيشون ويؤلّفون الكتب عن الفضيلة، وفيما الدولة لا تعتاش إلّا من الرذائل الخسيسة، وتُمنح الجوائز الأخلاقيّة، ولا شيء يُستلطَف إلّا الجرائمُ النكراء، كانت الشمس بالنسبة لهم تُنضج العنب، والأشجار تزداد إيراقاً، وهم يفترشون حزاز الغابات، ويبرّدون نبيذهم في مياه البحيرات.

---

(1) يشير الشرّاح هنا إلى سخرية فلوبير من نظام فوريه Fourier الفلسفيّ القائم على تماثلات بين الكون الفيزيائيّ والعالم الاخلاقيّ.

كان العالم يحيا بعيداً عنهم، وصخب صرخاته لا يلامس أطراف أقدامهم. لأنّ كلمة مجلوبة من المدن كانت ستعكّر صفوَ قلوبهم. لم يقرب أيّ فم دنس كأس السعادة الاستثنائيّة هذه. لم تكن تصلهم لا جريدة ولا رسالة. وكانوا يتداولون كتب هوراس ورابليه. وهل عليّ أن أذكر أنّ لديهم أيضاً جميع إصدارات بريا سافاران[1]، و«الطبّاخ»[2]؟ ما من كتيّب عن السياسة، ولا من طِرسٍ عن المنطق، أو الفلسفة أو التاريخ، ولا أيّ من تلك التفاهات التي يتلهّى بها الناس ويتعلّلون، أفلت منهم. ألم تكن أمامهم الطبيعة والنبيذ، فما الذي يطلبونه أكثر؟ سمّوا لي شيئاً يفوق بجماله الريف البديع المشعّ بالشمس، والمتعة التي تثيرها قارورة ملأى بنبيذ صافٍ مزبد. أيّاً يكن الجواب الذي ستعطونه فسيكون مدعاة لسخريتهم وإشفاقهم. لذا أحذّركم.

ومع ذلك استفاق ماتوران. وكان تلميذاه هناك عند أسفل سريره. فقال لهما:

- اشربا في صحّتكما وفي صحّتي ثلاث كؤوس وعدّة زجاجات فأنا مريض ولا شفاء لي. أرغب في الموت. ولكن قبل كلّ شيء أنا

(1) جان أنتيلم بريا سافاران Jean-Anthelme Brillat-Savarin (1755–1826)، من أشهر وأعظم الذوّاقة في العالم، وهو صاحب القول: «قل لي ماذا تأكل أقل لك من أنت» . له كتاب «فيزيولوجيا الذوق» *Physiologie du goût* وقد صدرت من كتابه الشهير بين 1826 و1838 خمس طبعات.

(2) «الطبّاخ» كتاب للطبّاخ الفرنسي فرانسوا بيار لا فارين François- Pierre La Varenne (1618– 1678)، وقد أعيد طبعه مرّاتٍ عدّة. صدر عام 1651 وهو أول كتاب للطبخ يستعرض عمليّاً كلّ المستجدّات في المجال الغذائيّ التي أنجزت في فرنسا في القرن السابع عشر. وفيه يشرح لافارين وهو المسؤول عن الطبخ لدى ماركيز دوسيل D'Uxelles، كيفيّة طهي مختلف أنواع اللحوم وصنع الحلويات وغيرها من المآكل، وقد استحدث صلصات كثيرة وإليه ربّما كان يعود الفضل في اختراع الصلصة البيضاء المضاف إليها النبيذ أو المواد الدهنيّة.

عطشان، وبي ظمأ كبير. لست متعطّشاً إطلاقاً إلى معونة الدين ولا لقربانٍ. لنشرب إذاً كي نتودّع.

وأحضروا زجاجات خمرٍ من جميع الأنواع ومن أفضلها، وتدفّق النبيذ غزيراً لمدّة عشرين ساعة، وقبل انبلاج الفجر، أدركهم السكر.

في البداية كان سُكراً هادئاً وساكناً، سكْراً عذباً يديمونه طوع رغبتهم. كان ماتوران يشعر بحياته تمضي، وكمثلِ سنيكا[1] الذي قطع شرايين يديه وجلس في مغطس ماء قبل موته، كذلك فعل ماتوران وجلس في حمّام من النبيذ الفاخر حيث غسل قلبه بغبطةٍ لا توصف وذهب توّاً عند الربّ قربةً مليئةً بهجة وشراباً.

وعندما أَفَلَتِ الشمس كانوا قد شربوا ثلاثتهم خمس عشرة زجاجة من بون[2] (ذات جودة رفيعة، من إنتاج 1834)، وأجروا محاضرة في التيوديسيا[3] والميتافيزيقا.

لأنّ الدكتور ماتوران أوجز كلّ علمه في هذا اللقاء الأخير.

رأى الشمس تأفل إلى الأبد وتنأى خلف التلال. عندئذٍ نهض واستدار ناحية الشمس الغاربة ناظراً إلى الريف الهاجع عند الغسق، وإلى القطعان تنحدر من التلال وجلاجل البقرات يُسمع رنينها في الفرجات، والأزهار تغلق تويجاتها، وأشعّة الشمس الغاربة ترسم على الأرض حلقات نورانيّة متحرّكة. ولمّا هبّ نسيم الليالي التطمت أوراق العرائش بأوتادها، وتسلّل إليهم فأنعش خدودهم الملتهبة.

---

(1) سنيكا Seneca، فيلسوف وكاتب مسرحيّ رومانيّ (4 ق.م –65 ب.م.) عمد إلى قتل نفسه بأمر من نيرون الذي غضب منه، سبق ذكره.

(2) بون Beaune: من بلديّات فرنسا، مشهورة بصناعة النبيذ.

(3) التيوديسيا Théodicée أو الربوبيّة: علم الإلهيّات الذي يبحث عن وجود الله وصفاته، وعن العدالة الإلهيّة.

قال ماتوران:

- وداعاً. وداعاً. غداً لن أرى ثانية هذه الشمس التي ستنير بشعاعها قبري وأنقاضه دون أن تنفذ إليّ.

سوف تسيل المياه دوماً ولن أسمع دمدمتها. وبعد كلّ حساب عشت حياتي فلمَ لا أموت؟ الحياة نهر، وحياتي سالت بين المروج المليئة بالأزهار تحت السماء الصافية، بعيداً عن العواصف والغيوم، وها أنا قد صرت عند المصبّ! أرمي بنفسي في أوقيانوس اللّانهاية وأمتزج بكلّ هذا الاتّساع الهائل اللّامحدود، وعندئذٍ لن أعود مدركاً عدمي. هل الإنسان أكثر من قطرة ماءٍ في المحيط أو فقاعة رغوةٍ على برميل النّاخب؟[1]

وداعاً إذاً يا رياح المساء التي تهبّين على الورود المنحنية، وعلى الأوراق المختلجة في الغابات النائمة. عندما تأتي الظلمات، ستختلج طويلاً أوراق القرّيص التي ستنمو على أنقاض قبري. حين كنت أمرّ ضاحكاً بالقرب من المدافن، ويُسمع صوتي وأنا أغنّي بمحاذاة الجدران، والبومة تصفّق بجناحيها فوق قبب الأجراس، وأشجار السرو تهمس بتنهّدات الموتى، كنت أرنو بنظرة هادئة إلى هذه الحجارة التي تحوي الأبديّة كلّها بين رفات جثثها. كان ذلك بالنسبة لي عالماً آخر يكاد فكري يعجز عن إدنائي من حلمه المبهم اللّامتناهي.

الآن، ألمس بأصابعي المرتعشة أبواب هذا العالم الآخر التي ستفتح لي ما دمت أدقّ مطرقتها بقبضة غاضبة، يائسة.

---

(1) الأرجح أنّ هذه إشارة إلى برميل هايدلبرغ Heidlberg الموجود في قصر هايدلبرغ في المدينة التي تحمل الاسم نفسه في ألمانيا ويحتوي سعة 228000 ليتر من النبيذ. ويدعوه «برميل النّاخب» لأنّ من بناه هو دوق بافيريا النّاخب شارل–تيودور في 1751. والنّاخبون في هذا السياق هم الأمراء وكبار الإقطاعيّين الذين كان لهم حقّ المشاركة في الانتخابات الإمبراطوريّة في ما كان يُدعى «الإمبرطوريّة الرومانيّة الجرمانية المقدّسة».

لتأتِ المنيّة، لتأتِ، وستأخذني نائماً في كفنها نوماً عميقاً، وسأذهب لأكمل الحلم الأبديّ تحت عشب الربيع الناعم، أو تحت ثلوج الشتاء، فما همّ؟ لتأتِ وسأمنحها ابتسامتي الأخيرة، وسأقبّلها قبلاتٍ مليئة خمراً، وأعطيها قلباً مليئاً بالحياة لكنّه لم يعد يرغب في المزيد، قلبَ سكرانٍ توقّف عن الخفقان.

أليس الجمال الأسمى والسعادة الأسمى هما في النوم؟ سأنام إذاً، سأنام نوماً طويلاً ولن أفيق منه أبداً، الموتى..».

وفيما كانت وتيرة كلامه تتصاعد، توقّف ليعبّ الشراب ثمّ تابع قائلاً:

«الحياة وليمة. منهم من يموتون متخمين من الطعام ويخرّون ساقطين تحت الطاولة، ومنهم من يلطّخون الشراشف دماً ونجاسات لا عدّ لها. طوبى لمن يُهرقون بقع النبيذ، لا الدموع. ومنهم من يصابون بالدوار من جرّاء الأضواء والصخب، ويشمئزّون من رائحة المأكولات، ويضيقون بصوت الناس وصياحهم، فيخفضون رؤوسهم منتحبين. طوبى للعقلاء الذين يتناولون طعامهم على مهل، ويبعدون مدعوّيهم النهمين وخدّامهم الوقحين المزعجين، ويستطيعون في آخر يوم لهم، عند وقت التحلية، حين ينام البعض ويثمل البعض الآخر منذ أوّل كأس، وبعدما يرحل غالبيّة الضيوف المرضى، أن يحتسوا أخيراً أنفَس الخمور ويتذوّقوا الفواكه الأنضج والأكثر حلاوة، ويستمتعوا الهوينى بخواتيم العربدة، وينهوا كأسهم دفعةً واحدة، ويطفئوا المشاعل ويموتوا».

وكالماء الصافي الذي تَسكبه حوريّة الرخام مدمدمة من صدفتها الرخاميّة، تابع طويلاً كلامه على هذا النحو بصوته الوقور والمثير في آنٍ، المفعم بهذه الكآبة الفرحة التي تكتنفنا في اللحظات الحاسمة، وأفضى بمكنون صدره من بين شفتيه كالماء الصافية.

هبط الليل نقيّاً، عاشقاً. ليل أزرق تضيئه النجوم. لم يكن هناك ضجّة تُسمع إلّا صوت ماتوران الذي تكلّم طويلاً إلى صديقيه. كانا يستمعان إليه ممعنين النظر فيه. جالساً على فراشه، بدأ الكرى يثقل أجفانه. كان لهب الشموع الأبيض يرتجف في الريح، والظلال التي تخطّطها ترتعش على كسوات الجدران، والخمر يلتمع في الأقداح والسُكر بادٍ على الوجوه. ها قد جلس ماتوران على عتبة القبر واضعاً بجوارِه قِرْبَة نبيذه ولن تُغلَقَ إلّا بعدما يشربها حتّى آخر نقطة.

فليأتِ إذاً ذاك الونى العذب للحواسّ الذي يُثمل حتّى الروح، فليهدهده حاملاً إليه الخدر اللذيذ، ولينم حالماً بمسرّات لا حدّ لها وهو يقول أيضاً: «لنقرع الأرض بقدم رشيقة»[1] ولترم الحوريّات القديمات ورودهنّ العطرة على الشراشف الخمريّة التي يجعل منها كفنه، وليأتين ويرقصن أمامه في حلقةٍ ظريفة، ووداعاً لكلّ الجهالات التي يحلم بها القلب، وداعاً لسحر الصبوات الأولى، وشهوة القبلات الأطول والنظرات الأحلى، فلتشعّ السماء بكلّ نجومها وليكنْ ليلها أصفى، لتسطع أنوار الأثير، ولتُنِر مسرّات هذا الاحتضار، ولتجعل الريح أكثر نداوة وأريجاً، لتتصاعد أصواتٌ من تحت العشب ولتغنّ فيما هوَ يحتسي آخر قطرات حياته، ولترتعش الأعين المغلقة وكأنّها تطبق على أرقّ عناق، وليكنْ فرحاً حتّى الموت، ليكن سلاماً حتّى العدم، ولتكن الأبديّة سريراً يهدهده في القرون الآتية.

لكن، هلّا نظرتم إليهم قليلاً. نهض جاك وأغلق النافذة. كانت

---

(1) الجملة تحوير من قصيدة للشاعر اللاتيني هوراتيوس (هوراس) Horace (65ق.م.-8ق.م.) والبيت يقول: «الآن حان وقت الشرب، لنقرع الآن الأرض بقدم رشيقة». هوراتيوس هو صاحب «الإنياذة» ويحثّ في أشعاره على حسن استغلال الوقت وقطف ما هوَ حاضر بين أيدينا.

الريح تلفح ماتوران وأخذت أسنانه تصطكّ. وقرّب الصديقان الطاولة المستديرة إلى أقصى حدّ ممكن من السرير. ارتفع دخان غلايينهم نحو السقف وملأ جوّ الغرفة بغيوم زرقاء. كانت تُسمع رنّات كؤوسهم وكلماتهم. اندلق النبيذ أرضاً. وراحوا يشتمون ويضحكون. ثمّ احتدم سُكرهم، وكانوا على أهبة أن يتناهشوا.

لا تخشوا شيئاً، إنّهم ينهشون دجاجة شحيمة، فيما فطر الكمأة تفلت حبّاته من شفاههم الحمراء وتتدحرج على الأرضيّة...

ثمّ بدأ ماتوران يتحدّث في السياسة.

- الديمقراطيّة شيء جيّد للفقراء وسيّئ المعشر. للأسف، سيأتي يوم يصبح فيه بمستطاع جميع الناس أن يشربوا النبيذ الرخيص، وعندئذٍ لن يعود أبداً في الإمكان شرب نبيذ كونستانس. إذا كان استبداد النبلاء (وكان لديهم طبّاخون رائعون!)... ألم أكن أحدّثكم عن الثورة... آه نعم... يا للرهبان المساكين! كانوا يتقنون زراعة الكروم... وهكذا فإنّ روبسبيير[1]، ذاك الرجل الغريب الهيئة، الذي كان يتغذّى على لحم البقر في بيتِ نجّار[2]، والذي بقي نقيّاً خلال تسلّمه السلطة، وكان له، عن استحقاقٍ، أسوأ سمعة ممكنة، لو أنّه كان أكثر ذكاء بقليل، لو أنّه دفع إلى الإفلاس الدولة وأنفق على عشر عشيقات مقتطعاً من المال العامّ، واحتسى النبيذ الجيّد بدلاً من إراقة الدماء لكان فعلاً وحقّاً رجلاً

---

(1) روبسبيير Robespierre: (1758–1794) محامٍ وسياسيّ فرنسيّ، من شخصيّات الثورة الفرنسيّة ومن أشهر السفّاحين على الإطلاق إذ قتل ستّة آلاف شخص في ستّة أسابيع فقط في إطار القضاء على كلّ أعداء الثورة.

(2) إشارة إلى النجّار موريس دوبليه Maurice Duplay، الذي ساهم في الثورة الفرنسية واستضاف في منزله روبسبير وأسرته في 1791.

نبيلاً وفاضلاً... كنت أقول إذاً إنّ فورييه[1]... [لو أنّه] ألّف كتاباً رائعاً في فنّ الطبخ... هذا لا يمنع أنّ واشنطن كان رجلاً عظيماً، ومونتيون[2] إنساناً رائعاً، فائق قدرة البشر، فائق الغباء. ربّما كان من الأجدى التعريف بالفضيلة قبل تخصيص الجوائز لها. فذاك الذي يتمكّن من تصنيف الفضائل، ويحدّد مسبقاً خصائصها الدقيقة والواضحة والمثبتة، يستحقّ، لعمري، جائزة خارقة، أقرّ بذلك. وحريّ به أن يحدّد لأيّ مدى تتداخل الكبرياء والعظمة، والسذاجة والإحسان، وبذلك يبيّن الحدّ الواضح بين المصلحة والغرور. كما يجرو به الاستشهاد بأمثلة، وإيضاح ثلاث كلمات غير قابلة للفهم: الأخلاق، والحرّيّة، والواجب (لكان ذلك أسمى ما توصّلت إليه نظريّته، ولكان في الإمكان إدراجها في مصافّ أهمّ الحقبات المعرفيّة) وتبيان كم أنّ البشر أحرار حتّى لو اضطلعوا بواجباتهم، وأيضاً الإسهاب قدر المستطاع في الكلام عن الفضيلة المثابة، والرذيلة المعاقبة. وسندعم على المستوى التاريخيّ الرأي القائل إنّ نبوخذّ نصر، والاسكندر، وسنوسرت[3]، ويوليوس قيصر، وبيتريوس، ولويس الحادي عشر، ورابليه، وبايرون،

(1) شارل فورييه Charles Fourier (1772–1837)، فيلسوف فرنسي، صاحب نظريّة اجتماعيّة واقتصاديّة عرفت باسمه، دعا إلى الاتّحاد في الانتاج، وأمل في تغيير العالم إلى نظام اقتصاديّ أفضل عن طريق المثال الصالح. يعتبره علماء الاقتصاد اشتراكيّاً لأنّه نادى بإقامة جمعيّات صغيرة من العمّال يعيشون في مجتمع إنتاجيّ تعاونيّ ويحقّقون انسجاماً متكاملاً. وكانت تربطه بالذوّاقة بريا سافاران الذي ذُكِرَ آنفاً علاقة مصاهرة.

(2) جان بانيست دو مونتيون Jean- Baptiste de Montyon، (1733–1820) محسن وعالم اقتصاد فرنسي. خصّص في وصيته قبل مماته جائزة للأعمال الخيّرة، وثانية أدبية وثالثة علمية. وكان فلوبير يكنّ له حقداً خاصّاً ويدرجه في خانة المحسنين الذين انتقدهم.

(3) سنوسرت اسم حمله فراعنة عديدون في مقدّمهم سنوسرت الأوّل، الذي حكم مصر في الفترة 1971 ق. م. – 1926 ق. م.

ونابوليون، والمركيز دو ساد، كانوا حمقى، وإنّ موردخاي، وكاتون، وبروتوس، وفسبيانوس، وإدوارد المُعَرِّف[1] ولويس الثاني عشر، ولافاييت، ومونتيون، والرجل ذا المعطف الأزرق[2] وبارمنتييه، وبوافر[3]، كانوا رجالاً عظماء وعباقرة وآلهة، وكائنات...

وأخذ ماتوران يضحك وهو يعطس. انشرحت أساريره وافترّت شفتاه عن ابتسامة شيطانيّة، وتطاير الشرر من عينيه، وتشنّجت كتفاه. ثمّ أردف قائلاً:

- يحيا الإحسان! كأس نبيذٍ مثلّج من فضلكم! التاريخ عِلم أخلاقيّ برغم كلّ شيء ويشبه إلى حدّ ما رؤية منزل مومسات ومقصلة مضرّجة بالدم. ومع ذلك فإنّ الوقائع تثبت أنّ العالم يتحرّك نحو الأفضل. وهكذا فإنّ العبرانيّين الذين قتلهم أعداؤهم أنشدوا «المزامير» التي تثير إعجابنا اليوم بشعرها الغنائي؛ وإنّ المسيحيّين الذين ذُبِحُوا لم يتبادر إلى أذهانهم أنّهم كانوا هم أيضاً يؤسّسون لشعريّة جديدة، ومجتمع نقيّ لا عيب فيه؛ وإنّ يسوع المسيح الذي مات وأنزل عن الصليب أمدّ الرسم في آخر القرن السادس عشر بلوحاتٍ جميلةٍ، وكذلك ألهم الحركة الإصلاحيّة[4]، والفلسفة،

(1) إدوارد المُعرّف *Edward the Confessor* (1004–1066): قدّيس وملك لإنجلترا. لقبه آتٍ من ورعه الكبير، والمعرّف هو أساساً الكاهن الذي يتلقّى الاعترافات.

(2) الرجل ذو المعطف الأزرق: آدم شامبيون **Edme Champion** (1764–1852)، صائغ أصبح محسناً وكان يوزّع صدقاته بنفسه في باريس. يقدّمه بلزاك عام 1836 على أنّه يمضي حياته وهو يحمل الحساء ليوزّعه في الأسواق، وفي الأماكن المكتظّة بالجياع.

(3) بيار بوافر Pierre Poivre (1719–1786)، حاكم تولّى إدارة جزر فرنسيّة مستعمرة في المحيط الهندي وقد أحسن معاملة العبيد هناك. ولهذا يذكره فلوبير هنا.

(4) إشارة إلى الإصلاح البروتستانتيّ، الحركة الإصلاحيّة التي قامت في القرن السادس عشر وهدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكيّة.

والإحسان الذي يغذي البشر بالبطاطس، والأبقار بالشمندر. كلّ ذلك جعل العالم يتقدّم من حسن إلى أحسن بالاختراعات المفيدة كبارود المدافع، والمقصلة، والمراكب البخاريّة، والكعكات بالقشدة، اعترفوا بأنّها كلّها رائعة. هنالك أناس متفانون جدّاً وقد أوكلت إليهم مهمّة إعطاء الحياة لهؤلاء الذين يريدون فقدانها. فَهُم يقطعون راحتَي قدميك لكي يفتحوا لك عينيك، ويبرّحونك ضرباً بلكماتهم ليجعلوك سعيداً. وبما أنّك تصبح عاجزاً عن السير، فإنّهم يأخذونك إلى المستشفى حيث تموت جوعاً، لكنهم سيستفيدون من جثّتك أيضاً لينطقوا بحماقات عن كلّ عصب في جسدك، ولتغذية الكلاب الفتيّة التي تُربّى لإجراء التجارب. كونوا على ثقةٍ بوجود النعمة الإلهيّة الأبديّة وبالحسّ المشترك للأمم. فكم منَ الناس يملكون هذه القناعة؟ نبيذ بوردو يمكن طهيه دوماً. والمأكولات تتدرّج من الأدسم إلى الأخفّ دسماً. والمشروبات تتدرّج من المعتدلة إلى المسكّرة؛ إلى الأكثر استطرافاً. وإذا أردتم أن تستلذّوا بقبّرة فاقطعوها من النصف.

- والنعمة الإلهيّة يا سيّد؟
- أجل، صحيح. أظنّ أنّ الشمس تنضج العنب. وأنّ فخذ أيل مملّح هو شيء لذيذ. والأمور لا تنتهي عند هذا الحدّ، ويجدر بنا ألّا ننسى أنّ هناك عِلمين أبديّين: الفلسفة وعلم الذَّوَاقَة[1]. ينبغي من جهة معرفة ما إذا كانت النفس ستجتمع بالجوهر الكونيّ أم أنّها ستبقى منفصلة، وأين ستذهب وإلى أيّ بلاد، ومن جهة أخرى كيف نستطيع أن نحتفظ بنبيذ بورغونيا لمدّة أطول... أعتقد أنّه لا تزال

(1) الذواقة: فنّ إعداد الاطعمة الفاخرة والتمتّع بها.

هناك طريقة أفضل لتحضير الكركند، وخطّة تربويّة جديدة، لكنّ التربية لا تُحسِن إلّا تنشئة الكلاب من الناحية الأخلاقيّة. آمنت طويلاً بمياه سالتز الغازيّة وببلوغ الإنسان مرتبة الكمال. أنا الآن مقتنع بالأبسنت[1]. إنّه كالحياة ومن لا يعرف كيف يشربه يتجهّم.

- هل تنفي إذاً خلود الروح؟
- صبّوا لي كأس خمر.
- والثواب والعقاب؟

وقال ماتوران بعد أن ارتشف جرعة نبيذ مستلذّاً بطعمها:

- يا لهذه النكهة!
- وخطّة الكون؟ ما رأيك بها؟
- وأنت ما رأيك بنجمة سيريوس؟[2] وهل تظنّ أنّك تعرف البشر أفضل من سكّان القمر؟ التاريخ نفسه كذبة حقيقيّة.
- وما معنى هذا؟
- هذا يعني أنّ الوقائع تكذب، أنّها كانت ولم تعد موجودة، وأنّ الناس يحيون ويموتون، وأنّ الكائن والعدم هما وجها زيف لعملة واحدة هي الأبد.
- لا أفهم يا معلّم.

فأجاب ماتوران.

- ولا أنا.

قال جاك وقد أوشك على الثمالة:

---

(1) الأبسنت: من المشروبات الكحوليّة والمقطّرة بدرجة عالية، وهو كحول بنكهة اليانسون مستمدّ من أوراق عشبة الأفسنتين.

(2) أو الشِّعرى اليمانية، أسطع النجوم ليلاً ورابع ألمع نجم في السماء بعد الشمس والقمر وكوكب الزهرة («وأنّه هوَ رَبُّ الشِّعرى»، سورة النجم).

- ما تقوله عميق جدّاً. وثمّة رهافة حقيقيّة تكمن في هذه العبارة الأخيرة.
- ألا يوجد بيني وبينكما أنتما الاثنين، بين الإنسان وحبّة الرمل، بين اليوم والبارحة، بين هذه الساعة وتلك المقبلة، مسافات لا يستطيع الفكر قياسها ومملوءة بالعوالم، ومجاهل ليس فيها سوى العَدَم؟ والفكر نفسه هل بالإمكان تحديده؟ هل تشعر بنفسك نائماً، وعندما يرتفع فكرك ويحلّق بعيداً ألا يتبادر إلى ذهنك أحياناً أنّك ما عدْتَ موجوداً، وأنّ جسدك تهاوى وأنك تمشي في اللّانهاية كالشمس، وتتدحرج في هاوية كالأوقيانوس على سرير من رمال، وأنّ جسدك لم يعد جسدك، وأنّ هذا الشيء المعذّب الذي يلبسك ليس إلّا حجاباً نفخت فيه العاصفة؟ هل خطر لك أن ترتاب بالمادّة وبالإحساس نفسه؟ خذ حبّة رمل ترَ أنّ ثمّة هاوية يقتضي سبر أغوارها لقرون وقرون. تلمّس نفسك لِتدرك ما إذا كنت موجوداً. وعندما تعلم أنّك موجود، حينئذٍ تدرك اللّامتناهي الذي لن تسبر أغواره.

كانوا سكارى وعجزوا عن فهم هذا الحديث الميتافيزيقيّ مهما يكن مسطّحاً.

- هذا يعني أنّ الإنسان يستطيع أن يرى بوضوحٍ في داخله ومن حوله قدر ما يرى لو سقط متعتعاً من السُكْرِ في برميل نبيذ يفوق المحيط الأطلسي اتّساعاً.

هذا القول بأنّ في الخليقة جمالاً، وهذه الرغبة في تأليف سمفونيّة مدائح تضمّ كلّ صرخات اللعنة المدوّية، والشهقات المتفجّرة والأنقاض المتداعية. تلك هي فلسفة التاريخ، حسب قولهم، وأيّة فلسفة! ابنوا

لي هرماً من جماجم الموتى وامدحوا الحياة، تغنّوا بجمال الأزهار وأنتم جالسون على مزبلة، وبالهدوء وهمس الأمواج عندما يدخل الماء المالح من جوانب السفينة ويغرقها، وعندما الأمم..... إنّ ما تستطيع العين أن تراه هو قرقعة راعبة مقتطعة من احتضار أبديّ. انظروا قليلاً إلى الشلّال المتساقط من الجبل، كيف أنّ سيله المتدفّق الراغي يجرف معه أطلال المروج، وأفنان الغابة التي كسرتْها الرياح وهي لا تزال خضراء، ووحل الجداول، والدم المراق، والعربات السائرة. هذا جميل وبديع. اقتربوا، اسمعوا إذاً حشرجة هذا الاحتضار المرعبة التي تفوق الوصف. ارفعوا أعينكم وانظروا أيّ جمال، وأيّ رعب، وأيّ هاوية.

اذهبوا قدماً، ونقّبوا، وأزيلوا الأنقاض المجهولة تجدوا تحت هذه الأنقاض أنقاضاً أخرى دائماً وأبداً. أمعنوا النظر في ركام عشرين جيلاً من الموتى، فتّشوا عن الإمبراطوريّات التائهة تحت رمال الصحراء، وعن قصور ما قبل الطوفان تحت الأوقيانوس، وسوف تجدون ربّما الكثير من الأزمنة المجهولة، ستجدون تاريخاً آخر، وعالماً آخر، وقروناً أخرى عظيمة الجبروت، وكوارث ونوائب أخرى، وأنقاضاً ينبعث منها الدخان ودماً متجمّداً على الأرض وعظاماً مسحوقة تحت الأقدام.

ثمّ توقّف لاهثاً وانتزع قلنسوته القطنيّة؛ كانت خصلات شعره الطويلة العرقة ملتصقة بجبينه الشاحب. نهض ونظر من حوله. ما عاد يلتمع أيّ شعور انسانيّ في عينيه الزرقاوين الكامدتين كالرصاص، وفي حدقتيه اللّتين تشيان بشيء من برودة القبر. وهكذا، مسجّى على سرير موته، غارقاً في العربدة حتّى أذنيه، ساكناً بين القبر والفحش، بدا وكأنّه تمثال التهكّم الناظر إلى الموت مواجهةً، وقاعدته برميل نبيذ.

كلّ شيء يتخبّط الآن، كلّ شيء يدور ويترنّح في هذه السكرة الأخيرة.

العالم يرقص عند سرير موت ماتوران. وبعد الهدوء الفرِح لأولى لحظات السكْر وداهمتهم الحمّى وارتعاشاتها المتزايدة باطّراد، الحمّى التي راحت تنبض في قلوبهم، وتحت جلودهم، وفي أوردتهم الزرقاء المتفخة. راحوا يلهثون هم أنفسهم، وُسمِعَ صخب لهاثهم، وطقطقة السرير المتلوّي تحت اختلاجات المحتضر.

اختلجت قلوبهم بقوّة حيّة، واحتدمت صدورهم بغيظٍ تصاعد تدريجاً منها إلى رؤوسهم. كانت حركاتهم متقطّعة وأصواتهم حادّة، وأسنانهم تصطكّ على الأقداح. واصلوا الشرب باستمرار، متوسّعين في خطاباتهم المتفلسفة، باحثين عن الحقيقة في قعر الكأس، وعن السعادة في السُكر، وعن الأبديّة في الموت. وحده ماتوران وافى الأبديّة.

في تلك الليلة الأخيرة، حدث بين هؤلاء الرجال الثلاثة شيء مرعب وبديع في آن. لو أنكم رأيتموهم كيف استنفدوا كلّ شيء في السياسة، والأخلاق، والدين، وأَنضَبُوا كلَّ شراب، واعتصروا نكهة أنفَس اللذّات، واستصفوا عطور الفضيلة، وانتشوا بكلّ أوهام القلب. مرّوا على كلّ المسائل وحيّوها بضحكة ساخرة وبتكشيرة ألقت الرعب في نفوسهم. وسبروا أغوار الماورائيّات في غضون ربع ساعة، والأخلاقيّات وهم يحتسون كأسهم الثانية عشرة.

ولِمَ لا؟ إذا كان ذلك يروّعكم فلا تذهبوا أبعد. كلّ ما أفعله هو نقْل الوقائع، والإحصاء الملحميّ المتسارع لكلّ الزجاجات التي تمّ احتساؤها.

والآن جاء دور البانش، ها هو يلتمع ويغلي. وبما أنّ اليد التي تحرّكه ترتجف، فإنّ اللهب المتطاير من الملعقة يسقط على الشراشف والطاولة وأرضاً، فيحدث التماعاتٍ ناريّة تنطفئ وتشتعل من جديد. لم يُمزَج

البانش بالدم كما يحدث في الروايات الرخيصة، أو في الحانات حيث لا يُباع إلّا الخمر الرديئة، ويذهب الشعب ليسكر بالعرق المستخرج من عصير التفاح.

أصبحت الجلسة صاخبة. لم يغنّوا بل راحوا يتحدّثون بصوتٍ عالٍ ويتصارخون بشكلٍ مرعب، ويضحكون دون أن يعرفوا السبب، إن لم يكن النبيذ، وانصاعت روحهم لثوران الأعصاب المهتاجة. ها هي الزوبعة ترتفع، والعربدة تزبد، والمشاعل تنطفىء، والبانش يشتعل في كلّ مكان، وماتوران يتوثّب لاهثاً على فراشه الملطّخ بالخمر.

- هيّا، مزيداً مزيداً من الكيرش والروم، مزيداً من الماء والكيرش أيضاً. أحرقوا الشراب وأشعلوه وسخّنوه إلى حدّ الغليان. اكسرِ الزجاجة، ولا تهتمّ، واشرب منها مكسورة.

وعندما انتهى، رفع رأسه بفَخرٍ، ورنا إلى الآخرين مبتسماً، ثابت النظرات، مشدود العنق. كانت قميصه مبلّلة بالشراب. ثمّ راح العرق يتصبّب منه، ودخل في الاحتضار، وصعد الدخان الثقيل إلى السقف. دقّت الساعة الواحدة. كان الطقس جميلاً، والقمر يلتمع في السماء بين الضباب والتلّة الخضراء التي أكسبها ضياء القمر لوناً فضيّاً وران عليها السكون الوادع. كلّ شيء نام. راحوا يشربون من جديد. واحتدم سكرهم هياجاً مسعوراً، هياج أبالسة ثملين.

لم يعد هناك أقداح -ضاقت الكؤوس بالشراب- ولم يعد ينفع الآن إلّا تجرّع النبيذ من الزجاجة مباشرةً. راحت أصابعهم تضغط على الزجاجة بحيث أوشكت أن تكسرها. كانوا ممدّدين على كراسيّهم وسيقانهم متخشّبة تخشّباً متشنّجاً، ورؤوسهم إلى الخلف وأعناقهم مائلة، وأعينهم إلى السماء، وعنق الزجاجة على أفواههم، والنبيذ يسيل دوماً

في حلوقهم. والسُكْر يأتي غزيراً. يشربون من عنق الزجاجة، والزجاجة تملؤهم والنبيذ يدخل إلى دمهم ويجعله ينبض ملء الأوردة. ثمّ جمدوا، محملقين بعيونهم دون أن يروا شيئاً. تنهّد ماتوران وأراد أن ينقلب فالتفّتِ الشراشفُ المتجمّعة تحته حول جسده. شعر بثقلٍ في ساقيه وبألمٍ في خاصرتيه. إنّه يحتضر لكنّه يواصل الشرب. لا يريد تضييع لحظة، ولا حتّى لحظة واحدة. وإذ ولج طريق الفجور فقد سار فيها بكلّ قوّته وتاه في مسالكها ولفظ أنفاسه في آخر اختلاجة لعربدته، قريحته الأسمى.

كان رأسه مائلاً إلى جهة واحدة، وجسده واهناً. حرّك شفتيه بطريقةٍ آليّة دون أن يتلفّظ بكلمة. لو كانت عيناه مغمضتين، لخلناه ميتاً. لم يعد يميّز شيئاً. وأخذ يلطم بقبضتيه الاثنتين صدره المحشرج، ورغم ذلك، أمسك إبريقاً صغيراً من الخمر ليشربه.

دخل الكاهن ليمنحه المسحة الأخيرة فرمى الإبريق في وجهه ملطّخاً قميصه الأبيض المثنيّ، ومُسقِطاً كأس القربان من يده، وملقياً الذعر في قلب الصبيّ الذي كان برفقته. ثمّ أخذ إبريقاً آخر وتجرّعه وهو يطلق زئيراً أشبه ما يكون بزئير حيوانٍ مفترس. تلوّى جسده مثل أفعى، وراح يتململ، ويصرخ، ويعضّ الشراشف، وأظفاره تتشبّث بخشب السرير. ثمّ هدأ كلّ شيء فتمدّد، وهمس بكلام في مسامع تلميذَيه، ولفظ أنفاسه ببطء بهجٍ بعد أن أسرّ لهما برغباته الأخيرة ونزواته فيما وراء القبر.

وتنفيذاً لرغباته الأخيرة، جذباه من سريره في مساء اليوم التالي ودثّراه في شراشفه الملطّخة بالنبيذ، وحملاه، جاك من الرأس وأندريه من القدمين، وانطلقا.

نزلا الدرج واجتازا الفناء، والبستان المزروع تفّاحاً. وها هما على الطريق الرئيسة يحملان صديقهما إلى مقبرة بعينها. كان مساء الأحد،

وخرج الجميع للاحتفال بالعيد وتمضية السهرة في هذه الأمسية الجميلة. وضعت النساء شرائط ورديّة وزرقاء، وارتدى الرجال سراويل بيضاء. توجّب التوقّف عند مداخل المدينة، حيث العجلات تجري، والعربات، والأحصنة، وهناك انضمّت إلى موكب ماتوران حشود اختلط فيها الأوغاد بالشرفاء. لم يحظَ أيّ ملك بمثل هذه الجموع الغفيرة من المشيّعين في جنازته. كان الناس يتدافعون ويتلاطمون بمرافقهم ويتشاتمون. أرادوا أن يروا، أن يروا بملء عيونهم ماذا يجري... وقلّة منهم كانوا على علمٍ بما يجري. سار البعض في الموكب بدافع الفضول والبعض الآخر بتشّجيعٍ من جيرانهم. كان بعضهم مغتاظين تحمرّ وجوههم غضباً، وبعضهم ضاحكين.

وفي لحظةٍ ما، توقّف الحشد، دون أن يُعرف السبب. وكما يتوقّف الكاهن أثناء الزّيّاح[1] عند أحد المذابح المنصوبة على جوانب الطريق، دخل جاك وأندريه لتوّهما إلى حانة ليستريحا. أوَ يكونُ الميت بُعث حيّاً فأرادا أن يقدّما له كوب ماء محلّى بالسكّر؟ احتسى الفيلسوفان كأسَين صغيرتَين، وسكبا ثالثة على رأس ماتوران. بدا وكأنّه يفتح عينيه. لكنّ هذا غير صحيح، كان ميتاً. وتفاقم الأمر عندما ولجا الضواحي فما توانيا عن الدخول إلى كلّ مشرب، وحانة، ومقهى. اهتاج الحشد. لم يعد بإمكان العربات أن تمرّ. وسارت الجموع على قوائم الكلاب التي تعضّ، وأقدام المواطنين الذين كشّروا وقلبوا شفاههم غيظاً. وكما قلت لكم، كانت جموع الناس تمضي ثائرة وتركض من حانة إلى حانة مفسحةً المجال لماتوران الذي يحمله تلميذاه، مبديةً له الإعجاب. ولِمَ لا؟ رأيناهما يفتحان شفتيه ويسكبان الشراب في فمه. لكنّ حنكه انطبق، وصَرَفَتْ

(1) الزّيّاح هو عند المسيحيّين احتفال دينيّ تُحمَل فيه أشياء مقدّسة يُطاف بها على الجمهور.

أسنانه مصطكّةً في الفراغ، وغارت الخمر في حلقه. وواصلا سعيهما.

هل سحقته عربة؟ أم انتحر؟ هل كان شهيد الحكومة؟ أم ضحيّة اغتيال؟ هل غرق؟ أم اختنق؟ هل مات حبّاً أو من جرّاء عسر هضم؟ بادر رجل شفوق إلى جمع التبرّعات من أجل الميت، واحتفظ بالمال. وتكلّم أخلاقيّ بإسهابٍ عن الجنازات مؤكّداً أنّه يجب دفن الجثث لأنّه حتّى المناجذ تدفن نفسها. تحدّث باسم الأخلاق المهانة. في البداية، أنصتوا إلى خطابه لأنّه استهلّه بالشتائم ثمّ ما لبثوا أن أداروا له ظهورهم منصرفين خلا رجلاً واحداً نظر إليه بانتباه، وكان أصمّ. واقترح رجل مناصر للحكم الجمهوريّ أن يؤلّب الشعب ضدّ الملك لأنّ سعر الخبز ارتفع كثيراً ولأنّ هذا الرجل مات جوعاً. عبّر عن اقتراحه بصوتٍ منخفض جدّاً لدرجة أنّ أحداً لم يسمعه.

تفاقم الوضع في المدينة وازدادت الحشود كثافة لدرجة أنّ جاك وأندريه دخلا إلى أحد المقاهي ليتفاديا هيجان الجماهير. كبيرة كانت دهشة روّاد المقهى لدى رؤيتهم ميّتاً يندسّ وسطهم. مُدِّد على طاولة الرخام إلى جانب أحجار الدومينو. وجلس صديقاه على طاولة أخرى تنفيذاً لوصيّة الدكتور الطيّب. احتشد الزبائن من حولهما وبدأوا يسألونهما: من أين أتيتما؟ ما هذا الذي تحملانه؟ ولأيّ غاية؟

لا جواب البتّة.

وبدأت التخمينات تنهال من كلّ جهة.

- لا بدّ أنّهما يقومان برهانٍ.

- ربّما كانا كاهنين هنديّين درجا على دفن الأموات بهذه الطريقة.

- لا بل أنتم مخطئون، إنّهما من الأتراك.

- لكنّهما يحتسيان الخمر.

وقال مؤرّخ: وأيّ شعائر هذه؟

وصرخ أحدهم:

- لكنّ هذا مقرف شنيع...

وقال ملحد: أيّ نجاسة، يا للرعب!

ووجد خادمُ جلّادٍ أنّ هذا مقرف، وقال لصّ إنّه عمل لا أخلاقيّ.

توقّف لاعبو البليارد عن اللعب، وبتوقّفهم سكنت حركة المقهى. وقاطع إسكافيّ خطابه المطوّل عن التربية. وتجرّأ شاعرُ رثاء كاد ينفجر لفرط ما احتسى من النبيذ الأبيض وما التَهَمَ من المحار، على القول: «هذا أمرٌ شائن».

وعمّ هرج ومرج وصيحات استنكار. استشاط كثيرون غضباً لأنّ الخدّام كانوا يتأخّرون في جلب الأطباق لهم. ورفع رجال الأدب، الذين كانوا يقرأون مؤلّفاتهم المنشورة في المجلّات، رؤوسهم وشتموا دون أن يُفهم ما قالوه. والصحافيّون، يا لغضبهم، يا لهذا السخط الشديد الذي أبداه مهرّجو الأدب هؤلاء! وانقضّت عشرون جريدة متناولةً الحدث، وكلّ واحدة منها نشرت خمسة عشر مقالاً من ثمانية أعمدة مزوّدة بملاحق، ووُضعت ملصقات على الجدران. صفّقوا للرجلَين وانتقدوهما وانتقدوا النقد وزادوا على المديح مديحاً. واستُشهِدَ بالإنجيل والأخلاق والدين من دون أن يكون قد قُرِئ الإنجيل أو مورِست الأخلاق أو اعتُنق الدين. وكان من حسن حظّهما أن اجترأ كلاهما في قول حماقات أمام اثني عشر مستمعاً، لا بل وصل الأمر بأحدهما إلى صفع الميْت. وأيّ مدحٍ مُغالٍ فيه للأدب، وكم جرى الكلام على فساد الروايات، وانحطاطَ الذوق لدى الشعراء الذين يلقون نجاحاً! أيّة سعادة للجميع شكّلتها مغامرة مماثلة، وكم استُخلصت منها أشياء جميلة، فهي قد ألهمت

ملهاة ومأساة، وقصّة خرافيّة أخلاقيّة، ورواية فنطازيّة.

ومع ذلك خرج جاك وأندريه من المقهى واجتازا المدينة وسط الحشد المصدوم والمستمتع في آن. وحين هبط الليل، كانا قد وصلا خارج حرم المدينة. فناموا ثلاثتهم في الحقول على كومة من الحشيش اليابس.

الليالي قصيرة في الصيف. ما لبث أن طلع النهار، وهلّت أولى أنواره عند الأفق متسلّلة إلى غير مكان. شحب القمر تماماً مختفياً في الضباب الرماديّ. أيقظتهم نضارة الصبح المفعمة بالندى فتابعا طريقهما لأنّ عليهما اجتياز فرسخ على طول النهر، عبر ممرّ ضيّق معشوشب متعرّج كمجرى الماء. يساراً كان هناك الغابة وكانت أوراقها المبلّلة تبرق تحت أشعّة الشمس المتغلغلة بين جذوع الأشجار المكسوّة بالحزاز، وأشجار البيتولا. ارتعشت أوراق الحور الرجراج الفضيّة، وأمالت أشجار الحور الشائع ذراها المستقيمة ببطء. بدأت العصافير بالتغريد والغناء تاركةً لنغماتها المحبحبة كاللآلئ أن تتطاير في أرجاء السماء. وكان النهر يسيل من الجهة الأخرى عند أسفل الأكواخ على طول الأسوار، وكانت الأشجار تسقط كُتَلَ أوراقها وثمارها الناضجة.

كان المرج وكانت الغابة. سُمعت ضجّة غامضة لعربة رباعيّة العجلات في الطرقات الخاوية، ووقْع أقدام تدوس العشب.

وفي غير مكان، الجزيرات المنثورة في النهر باقاتٍ مخضوضرة، وضفافها تفترشها الكروم حيث جاءت المياه الخضراء تعانق أماليدها ببطء رقراق.

أجل، هنا بالذات أراد ماتوران أن ينام في المرج بين الغابة والنهر. حملاه وحفرا له مثوىً تحت العشب غير بعيد عن عرائش الكروم التي تينع في الشمس وعن المياه الموشوشة على رمل الضفّة المُحصِب.

كان صيّادون يحملون شباكهم ويجرّون مركبهم منكبّين على مجاذيفهم فانساب بسرعة على الماء. راحوا يغنّون وأصواتهم تتهادى على طول النهر وصداها ترجعه النجود المكسوّة بالأشجار. وبعد أن أتمّ جاك وأندريه مهمّتهما بدآ، هما أيضاً، بإنشاد أغنية بطيئة متناغمة الألحان، انسابت كأغاني الصيّادين، وكسَيل النهر الضائع عبر الأفق. هي نشيد للخمر والطبيعة والسعادة والموت. كانت الريح تحمل الكلمات، والأوراق تتساقط على جثّة ماتوران أو على شعر صديقَيه.

لم تكن الحفرة عميقة؛ غطّياها بالعشب لا بالحجارة المقصّبة أو بالرخام المذهّب. وعلى الجثّة وضعا بضعة ألواح من برميلٍ مكسور وُجد هناك بالصدفة وذلك تفادياً لأن تدوسها الأقدام.

وعندئذٍ استلّ كلّ منهما زجاجتين. شربا اثنتين وكسرا الزجاجتين الأخريين، وسال النبيذ أحمر متدفّقاً على الأرض فتشرّبته بسرعةٍ حاملةً إلى ماتوران ذكرى آخر النكهات في حياته والدفءَ إلى رأسه الراقد تحت التراب.

لم يعد يُرى إلّا حطام الزجاجتين. حُطام كسائر الحُطامات! يذكّر بمسرّاتٍ ويهذي إلى فراغ!

غوستاف فلوبير

الجمعة 30 آب/ أغسطس 1839

نوفمبر

شذرات بأسلوب مُتَوانٍ...
1842

«من أجل... تزجية الوقت والتخيّل على هواي».
(مونتاني)

أحبّ الخريف، هذا الفصل الحزين الذي يلائم الذكريات حقّاً. حين تتعرّى الأشجار من أوراقها، وتحتفظ السماء عند الغسق بلونها الأصهب الذي يضفي على العشب الذابل لوناً ذهبيّاً، ما أعذب أن تنظر إلى كلّ شيء يخبو في داخلك فيما كان منذ أمدٍ قصيرٍ مشتعلاً!

أعود لتوّي من نزهتي في المروج الخاوية، على شفا الوهاد الباردة حيث تتمرأى أشجار الصفصاف في السيل. الريح تصفر في أغصانها العارية، تصمت حيناً، لتعاود حيناً. عندئذٍ ترتعش الأوراق الصغيرة التي بقيت معلّقة بالأجمات من جديد، ويرتعش العشب حانياً أعناقه إلى الأرض وكلّ شيء يبدو أكثر شحوباً وبرداً. وعند الأفق يتوه قرص الشمس في لون السماء الأبيض ويحيطها بقبسٍ من حياة محتضرة. شعرت بالبرد وبشيء من الخوف.

احتميت من الريح خلف تلّةٍ منَ العشب. ثمّ توقّفت الريح. لا أعرف لماذا. كنت هناك جالساً أرضاً، لا أفكّر بشيء وأنظر في البعيد إلى الدخان المتصاعد من الأكواخ الصغيرة، وكلّ حياتي ارتسمت أمامي مثل طيف. والعطر المرّ للأيّام.التي قضت عاد إليّ مع رائحة العشب اليابس

والغابات العقيمة. ومرّت سنواتي البائسة من جديد أمام ناظري، وكأنّها محمولة على متن الشتاء في زوبعةٍ موجعة. ثمّة شيء رهيب كان يُطوّقها في ذاكرتي، بغضبٍ أكبر ممّا يجرف الهواء الأوراق في الأزقّة الوادعة. ثمّة سخرية غريبة تلامسها وتقلّبها أمام ناظريّ ثمّ تطير كلّها معاً لتتوه في سماءٍ كئيبة.

حزينٌ هو الفصل الذي حلّ علينا. لكأنّ الحياة ستذهب مع الشمس. والرجفة تسري في القلب كما على الجلد، وكلّ الضوضاء تخبو والآفاق تشحب وكلّ شيء يهجع أو يموت. أحياناً، أرى البقرات لدى عودتها وهي تخور ملتفتة إلى المغيب، والفتى الصغير وهو يسوقها أمامه بقضيبٍ من العوسج، مرتجفاً تحت ثيابه الكتّانيّة. وكانت البقرات تنزلق على الوحل لدى انحدارها من التلّة، وتدوس على التفّاحات الباقية في العشب. والشمس ترسل آخر أشعّتها مودّعةً خلف التلال المتلاصقة، والبيوت أضاءت في الوادي، والقمر، كوكب الندى، كوكب الدموع، بدأ ينجلي بين الغيوم مُظهراً وجهه الشاحب.

تلذّذتُ طويلاً بطَعم حياتي الضائعة. قلت بفرَحٍ إنّ شبابي مضى. من المفرح أن تشعر بالبرد يتسرّب إلى قلبك وتظلّ قادراً على القول، وأنت تلمسه بيدك، مثل موقد لا يزال ساخناً: «إنّه ما عاد يَلسع». ومرّت في خاطري بطيئةً كلّ لحظات حياتي، الأفكار، والأهواء، وأيّام الغضب، وأيّام الحِداد، وخفقات الأمل، وآلام اليأس. استعدت كلّ شيء مثل رجلٍ يزور ممرّات الدياميس وينظر ببطءٍ من الجهتين إلى الموتى المتراصفين الواحد تلو الآخر. إذا أحصينا السنوات منذ ولادتي فهي ليست بكثيرة. لكنّي أملك في ذاتي من الذكريات ما يجعلني أشعر أنّني أرزح تحتها كما يرزح الشيوخ تحت ثقل الأيّام المنقضية. يبدو لي أحياناً

أنّني عشت عدّة قرون، وأنّ كياني يحوي حطام ألف حياة ماضية. وما السبب؟ هل أحببتُ؟ هل كرهتُ؟ هل بحثتُ عن شيءٍ ما؟ لا زلت أشكّ بذلك. عشت بمعزلٍ عن أيّ حركة، وعن أيّ فعل، ولم أسعَ لمجد أو لذّة، أو علم، أو مال.

لا أحد يعرف شيئاً ممّا سأقوله في ما يأتي، سواء من كانوا يرونني كلّ يوم أو الآخرون. كانوا بالنسبة إليّ كالسرير الذي أنام عليه ولا يعرف شيئاً عن أحلامي. وفي مطلق الأحوال، أليس قلب الإنسان وحدة هائلة لا يخترقها أيّ شيء؟ والأهواء التي تعصف به هي كالمسافرين في الصحراء الكبرى، تموت مخنوقة، ولا تصل صرخاتها أبعد منها.

في المدرسة، أمضيت أيّامي حزيناً ضجراً. كنت أكتوي برغباتي وتحدوني أشواق مضطرمة إلى حياة مجنونة ومضطربة. حلمت بالأهواء ورغبت في أن أمتلكها كلّها. وبعد بلوغي العشرين حلمت بعالم من الأضواء والعطور. بدت الحياة من بعيد مكتنفة بالروائع وصيحات الانتصار. كانت كما في قصص الجنّيات، أروقة متتالية حيث الألماس يسيل تحت ضوء الثريّات الذهبيّة. كلمة سحريّة تكفي لتفتح الأبواب المسحورة متحرّكة على نوابضها. وكلّما تقدّمت، غاصت العين في رؤى بديعة ضوؤها الساطع يبهر الأبصار ويحمل على الابتسام.

كان يحدوني توق مبهم إلى شيء رائع لم أقدر على تبيانه بكلمة، أو توضيحه في فكري بأيّ شكل، ولكنّي قاربته برغبة ثابتة راسخة. أحببت دوماً الأشياء اللّامعة. حين كنت طفلاً، كنت أندفع وسط الحشد باتّجاه خيمة البهلوانات لأرى أشرطة خدّامهم الحمراء وزخارف ألجِمة أحصنتهم. وكنت أبقى طويلاً أمام خيمة المهرّجين، أنظر إلى سراويلهم المنتفخة وأطواقهم المطرّزة. آه! كم كنت أحبّ خصوصاً الراقصة على

الحبال بأقراط أذنيها الطويلة المتمايلة مع حركة رأسها والعقد الضخم من الأحجار الذي يهتزّ على صدرها! بأيّ نهم قلِق كنت أتأمّلها عندما تثب حتّى أعالي المصابيح المعلّقة بين الأشجار فيصطفق ثوبها المطرّز بالبرق الذهبيّ لدى قفزها وينتفخ بالهواء! إنّهنّ أول نساءٍ أحببتهنّ. وكان فكري يتعذّب وأنا أتخيّل تلك الأفخاذ ذات الأشكال الغريبة الملتصقة بسراويل ورديّة، وتلك الأذرع اللدنة المحاطة بحلقاتٍ كنّ يطقطقنها على ظهورهنّ حين ينقلبن إلى الخلف، ويلامسن الأرض بأرياش عمائمهنّ. المرأة التي كنت أحاول منذ ذلك الحين أن أعرفها (ما من مرحلة من العمر إلّا وتفكّر فيها بالنساء. في الطفولة، نتلمّس بشهوانيّة ساذجة صدور الفتيات البالغات اللواتي يُقبّلننا ويحملننا بين أذرعهنّ؛ في سنّ العاشرة نحلم بالحبّ. وفي سنّ الخامسة عشرة، نعيشه؛ وفي سنّ الستّين تلازمنا ذكراه. وإذا كان الموتى يفكّرون بشيءٍ في قبورهم، فهو أن يقدروا على الزحف تحت التراب إلى القبر القريب ويرفعوا كفن الميتة ليرقدوا بجوارها). كانت المرأة إذاً بالنسبة لي لغزاً جذّاباً يشوّش ذهن الطفل البائس الذي كنته. ما رنتْ إليّ إحداهنّ بنظرة إلّا وأدركتُ ومضةَ القدَر المحتوم في تلك النظرة الفاتنة، شيئاً يقهر الإرادات البشريّة، وكان ذلك يسحرني ويخيفني في آنٍ معاً.

تُرى بمَ كنت أحلم خلال سهرات دراستي الطويلة، حين كنت أجلس مسنداً مرفقي إلى منضدتي، متأمّلاً ذؤابة السراج بلهبها المتطاول، وكلَّ نقطةِ زيتٍ تسقط في الصحن، وأسمع صرير أقلام رفاقي على الورق، واصطفاق صفحات كتاب يُفتح أو يُغلق من وقتٍ لآخر؟ كنت أسارع لأنجز فروضي ليتسنّى لي الاستسلام قدر ما يحلو لي لهذه الأفكار الغالية. وفي الواقع، كنت أعِدني مسبقاً بكلّ المسرّات وكأنّها لذّة

سأمتلكها لا محالة. لا بل تعمّدت التفكير بها، وكأنّني شاعر حقيقيّ يريد أن يخلق شيئاً ما ويبتعث الإلهام. كنت أمعن الغوص في تفكيري وأقلّبه من كافّة الوجوه وأسبر أعماقه، ثمّ أطفو على سطحه، ثمّ أعاود الغوص فيه. وهكذا كان ذلك سباقاً محموماً للخيال، واندفاعة باهرة تتخطّى الواقع. استرسلت في مغامرات، وابتدعت قصصاً، وبنيْتُ قصوراً وسكنتها وكأنّني إمبراطور، وحفرت كلّ مناجم الألماس ورميته أكواماً على الطرق التي عليّ اجتيازها.

وعندما يأتي المساء، ونرقد جميعاً في أسرّتنا البيضاء بستائرها البيضاء، ويذرع الناظر وحيداً أرض المهجع، كنت أغوص أكثر في داخلي مُخفِياً بلذّةٍ ذلك العصفور الذي يخفق بأجنحته في صدري ويشعرني بدفئه! لا يوافيني النوم إلّا بعد سهادٍ أطلق فيه العنان لأفكاري. كنت أستمع إلى الساعات تدقّ، وكلّما انقضت ساعة ودوّى طنينها طويلاً ازدادت سعادتي. بدا لي وكأنّ ذلك الطنين يدفعني إلى العالم، وأنّه كان يحيّي كلّ لحظة في حياتي قائلاً: إلى الساعة التالية! هيّا إلى الساعة التالية! وداعاً! وداعاً! وعندما تتلاشى الدقّة، ويتوقّف الطنين في أذنيّ، أقول في نفسي: «إلى الغد، الساعة نفسها ستدقّ، والغد سيكون يوماً بالناقص، ويوماً بالزائد يقرّبني من الهدف البرّاق نحو مستقبلي، نحو تلك الشمس التي تغمرني بنورها وألمسها منذ الآن بيديّ»، ثمّ أقول في نفسي ها إنّ المستقبل يتأخّر في المجيء فأنام شبهَ باكٍ.

كانت بعض الكلمات تهزّ كياني لا سيّما كلِمَتَا «امرأة»، و«عشيقة». وكنت أبحث عن تفسير كلمة «امرأة» في الكتب، وفي الرسوم، وفي اللّوحات التي يحلو لي انتزاع قماشاتها لكي أكتشف ما يختبئ خلفها. وفي اليوم الذي اكتشفت فيه ما كان خفيّاً، أحسستُ بدوارٍ لذيذٍ وكأنّني

سمعت نغمة مُثلى، وخفّ اضطرابي، وزاد سروري منذ ذلك الحين. شعرت باندفاعة كبرياء في داخلي؛ قلت لنفسي إنّي غدوْتُ رجلاً، كائناً مستعدّاً ليمتلك امرأة ذات يوم. أصبحت كلمة الحياة واضحة بالنسبة إليّ، كانت بمثابة مدخلٍ إليها وتذوّق إحدى نكهاتها. لم تذهب رغبتي إلى ما هو أبعد واكتفيت بما عرفته. أمّا كلمة «عشيقة» فكانت بالنسبة لي تعني كائناً شيطانيّاً؛ كان سحر الكلمة كافياً لوحده لكي يرميني في نشواتٍ لا تنتهي: فمن أجل عشيقاتهنّ كان الملوك يخسرون ولايات أو يستولون على أخرى. من أجلهنّ تُحاك سجاجيد الهند، ويُسبك الذهب، ويُنحت الرخام، ويهتزّ العالم. من أجلهنّ العبيد، ومراوح من ريش تطرد الذباب عنهنّ أثناء رقادهنّ على أرائك الساتان، وفِيَلةٌ محمّلة بالهدايا تنتظر أن يستفقن، وهوادج تتهادى بهنّ إلى ضفاف الينابيع. يجلسن على عروشٍ وحولهنّ هالة إشراقٍ وعطر، أبعد ما يكون عن الرعاع الذين يتوقون إليهنّ ويحجمون عنهنّ في الوقت نفسه.

إن سرّ المرأة هذا خارج الزواج، والذي كان يزيدها أنوثة، كان يغيظني ويغويني بفتنته المزدوجة المتسربلة بالحبّ والثروة. لم أكن أحبّ شيئاً قدر حبّي للمسرح. أحببت حتّى الضوضاء الهادرة في فترات الاستراحة، وأيضاً الأروقة التي كنت أعبرها بقلبٍ مضطربٍ لأجد مجلساً. وحين يبدأ العرض، كنت أصعد الدرج مهرولاً. ثمّ أستمع إلى صخب الآلات والأصوات والتصفيق. وعندما أدخل وأجلس في مكاني، كان الهواء مضمّخاً بعطر امرأةٍ أنيقة دافىء، عابقاً برائحة باقات البنفسج، والقفّازات البيضاء، والمناديل المطرّزة. كانت المقصورات المليئة بالناس، والمزيّنة بأكاليل الأزهار والألماس، تبدو مشدودة بكليّتها إلى سماع الأغاني. كانت الممثّلة وحدها تتقدّم خشبة المسرح، وكان صدرها الذي تخرج منه

النغمات مهرولةً يلهث ويشهق خافقاً إثرها. كان الإيقاع يدفع بصوتها للعدو ويجرفه في زوبعة رخيمة، والنغمات المتعاقبة تبرز أوداجها المتفخة كعنق بجعة، تحت ثقل القبلات المجنّحة. كانت تمدّ عنقها، وتصرخ وتبكي وترسل وميضاً وتنادي شيئاً ما بحبٍّ يتعذّر فهمه، وحين تعاود اللّازمة، يبدو لي وكأنّها تقتلع قلبي بنغمة صوتها وتضمّه إليها في رعشة عاشقة.

ثمّ يصفّقون لها ويرمون الأزهار على المسرح. وفي غمرة انخطافي، كنت أتلذّذ برؤية وجهها منتشياً بإعجاب الجمهور، فرحاً بمحبّة كلّ أولئك الناس، مختلجاً برغبة كلّ واحدٍ فيهم. كنت أودّ لو أكون محبوباً من لدنها، حبّاً ملتهماً مخيفاً، محبوباً من لدن أميرة أو ممثّلة، ذاك الحبّ الذي يملؤك كبرياء ويجعلك بلحظة واحدة مساوياً للأغنياء وذوي النفوذ! ما أجمل المرأة التي يصفّق لها الجميع، ويرغب فيها الجميع، تلك التي تفعم الجمهور بحمّى الرغبة في أحلامهم كلّ ليلة، تلك التي لا تظهر إلّا على ضوء المشاعل، لامعة ومنشدة، ومتهادية في خيال شاعر وكأنّها ملكةٌ تتسيّد حياةً صُنعت من أجلها! لا بدّ أنها تكنّ لحبيبها حبّاً مختلفاً، أجمل بكثيرٍ من ذاك الذي تسكبه وفيراً على كلّ القلوب الفارهة التي ترتوي منه، وتسمعه أغانيَ أرقّ ونغماتٍ أكثر خفوتاً وارتجافاً وعشقاً! لو كان بإمكاني أن أكون قريباً من هاتين الشفتين اللتين تخرج منهما نغمات بهذا الصفاء، وألمس هذا الشعر البرّاق الذي تزيده لآلئه التماعاً! لكنّ أضواء المسرح بدت لي حاجز الوهم. وخلفه عالم الحبّ والشعر حيث الأهواء أجمل وأعذب لحناً، والغابات والقصور تتبدّد وكأنّها دخان، والحوريّات ينحدرن من السماء، وكلّ شيء يغنّي وكلّ شيء يعشق.

كنت أفكّر بكلّ ذلك وحيداً في المساء، عندما تصفر الريح في الأروقة،

أو في أوقات الاستراحة فيما كان التلامذة يُمارسون سباق الحواجز أو يلعبون بالكرة، وكنت أتنزّه بمحاذاة الجدار، سائراً على أوراق الزيزفون اليابسة وأنا ألهو بها مستمتعاً بوقع خطاي.

ولاحقاً تملّكتني الرغبة في الحبّ. تمنّيت الحبّ بلهفةٍ لا متناهية؛ حلمت بعذاباته، وارتقبت في كلّ لحظة ألماً يمزّقني، ويملؤني فرحاً. وعدّة مرّات حسبتُني وقعت فيه. تعاود ذهني أوّل امرأة صادفتها ووجدتها جميلة، حينها قلت في نفسي: «وجدت المرأة التي سأحبّها». أردت الاحتفاظ بذكراها لكنّها كانت تشحب وتتلاشى بدل أن تتعاظم. على أيّة حال، كنت أشعر أنّني أُجهد نفسي لكي أحبّ، وأنّني أؤدّي، حيال قلبي، مسرحيّة لا تنطلي عليه، وهذه الخيبة كانت تملؤني كآبة لازمتني طويلاً. رحت أتحسّر على صبواتٍ لم أعشها، وأحلم بأخرى أردت أن أملأ بها فراغ نفسي.

وأكثر ما يراودني حلم العشق كان ذاك غداة حفلة راقصة، أو مسرحيّة شاهدتها، أو لدى العودة من عطلة امتدّت يومين أو ثلاثة: كنت أتصوّر في خيالي تلك التي اخترتها، كما رأيتها، في الفستان الأبيض، وأنا أختطفها أثناء رقصة الفالس من بين يدي فارسها الذي يطوّق خصرها ويبتسم، أو متّكئة على الحاجز المخمليّ لمقصورة في المسرح، مبينة بخفرٍ جانبَ وجهها الملكيّ. كانت الموسيقى الصاخبة التي ترافق رقصات الكدريل[1]، ووميض الأضواء، كلّ ذلك كان يرجّع صداه في مسمعي ويبهرني لبعض الوقت، ثمّ يُمحى ويتلاشى في رتابة حلم أليم. وهكذا استمالتني ألف صبوةٍ صغيرة لم تتعدّ مدّتها ثمانية أيّام أو شهراً على أكثر تقدير فيما كنت أودّ أن أطيلها لقرون. لا أعرف كيف استطعت أن أخلق

(1) رقصة الكدريل: رقصة ريفيّة قديمة إنجليزيّة المنشأ.

لها كياناً ما، ولا الهدف الذي كانت ترمي إليه كلّ هذه الرغبات الغامضة. أظنّ أنّها كانت الحاجة لشعور جديد، وكمثلِ طُموحٍ إلى شيء نبيل لم أكن أرى أعلاه.

إنّ مراهقة القلب تسبق مراهقة الجسد. بَيْدَ أنّني كنت أتوق إلى الحبّ أكثر من الشهوة. حتّى أنّني لم أعد أملك الآن فكرة عن هذا الحبّ الذي يعود إلى زمن المراهقة الأولى، حيث الحواسّ ليس لها أهمّيّة، وحيث اللّانهاية فقط تملؤها. بين الطفولة وسنّ الشباب هذا الحبّ هو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ولا يلبث أن يعبر سريعاً، وسرعان ما يُنسى.

قرأت كثيراً لدى الشعراء كلمة «حبّ»، وغالباً ما كنت أكرّرها لنفسي لكي أنسحر بعذوبتها. وعند كلّ نجم يلمع في سماءٍ زرقاء في ليلةٍ عذبة، ولدى كلّ همسة تشي بها الأمواج للضّفّة، وعند كلّ شعاع شمس يتلألأ في قطرات الندى، كنت أقول: «أحبّ! آه! أحبّ! وكان ذلك يُشعرني بالسعادة والفخر والتأهّب لأجمل التفانيات، لا سيّما حين كانت امرأة تلمسني لدى عبورها أو تنظر إليّ. كنت أحلم بأعظم الصبوات وبأحرّ اللوعات، بأن يحطّم خفقان قلبي الخافت صدري.

ثمّة طورٌ من العُمر، تتذكّرونه أيّها القرّاء، مفعم غموضاً كما لو أنّ قبلاتٍ تُذكي الهواء. تمتلئ صدورنا بنسيم عطر، وينبض الدّم بحرارة في عروقنا، ويفور مثل النبيذ في قدح البلّور. تستيقظون أكثر فرحاً وغنى من أمسِ، بقلبٍ أكثر خفقاناً وانفعالاً. ثمة سوائل رقيقة تسري في الجسد وتُشيع في حناياه دفئها العُلويّ المُسكِر. الأشجار تَحني رؤوسها للريح انحناءات لدنة، والأوارق ترتعش متلامسة وكأنّها تتحادث، والغيوم تنزلق وتفتح أبواب السماء، فيبين القمر مبتسماً ويتمرأى من عليائه في النهر. وحين تسير الهوينى في المساء، متنشّقاً رائحة الجفيف، مستمعاً إلى

طائر الوقواق في الغابات، ناظراً إلى النجوم المذنّبة، أفلا تشعر أنّ قلبك أصفى وأكثر امتلاءً بالهواء والنور والأثير من الأفق الوادع حيث الأرض تطبع على شفتَي السماء قبلة هادئة؟ آه من شعور النساء كم هي عطرة! كم بشرة أياديهنّ رقيقة، كم نظراتهنّ تخترق قلوبنا!

ولكنّ تلك الأحاسيس تتخطّى انبهارات الطفولة الأولى، أو ذكريات أحلام الأمس المضطربة. كنت، بعكس ذلك، أدخل إلى الحياة الواقعيّة حيث لديّ مكاني، حيث قلبي يغنّي نشيداً وسط هذه السمفونيّة الهائلة ويهتزّ بشكلٍ بديع. كنت أتذوقّ بفرحٍ وفخرٍ هذا التفتّح الساحر لحواسّي المستفيقة أخيراً من سباتٍ طويل. وكأوّل رجلٍ في الخليقة رأيت بقربي كائناً شبيهاً بي ومختلفاً عنّي، ومن هذا الاختلاف تنبعث قوّة مدوّخة تجذبنا واحدنا إلى الآخر، وتخلق فيّ شعوراً جديداً يُذكي فكري فيما الشمس تلمع أكثر صفاءً، والأزهار تفوح بعطرٍ أطيب من أيّ وقتٍ مضى، والظلّ أعذب وألطف.

وبالتزامن مع هذا، كنت أشعر في كلّ يوم بتنامي ذكائي الذي كان يعيش وقلبي حياة مشتركة. لا أعرف ما إذا كانت أفكاري مشاعر، لأنّها كانت جميعها مفعمة بدفء الأهواء. وكان الفرح الحميم الذي أملكه في أعماق كياني يفيض على الوجود ويثني عليّ من فيض سعادتي العاطر. كنت أداني معرفة الشهوات الأسمى. وكرجلٍ يقف عند باب عشيقته ويتردّد في الدخول، كنت أبقى طويلاً وأنا أتعمّد الحزن والألم، ويلذّ لي تعليل النفس بأملٍ أكيد مفكّراً: عمّا قريب سأضمّها بين ذراعيّ وستكون لي، لي أنا، ليس هذا حلماً.

ما أغرب هذا التناقض! كنت أهرب من مجتمع النساء وأشعر نحوهنّ بلذّة ماتعة. أدّعي أنّني لا أحبّهنّ البتّة، فيما كنت أعيش فيهنّ جميعاً،

وددت لو أخترق كنه كلّ واحدة منهنّ لأمتزج بجمالها. كانت شفاههنّ تدعوني لقبلاتٍ لها طعم مختلف عن القبلات الأموميّة. وبخيالي كنت أتدثّر بشعورهنّ، وأُدخل رأسي بين نهودهنّ، لأنسحق هناك باختناقٍ مقدّس. وددت لو أكون الطوق الذي يزيّن أعناقهنّ، والمشبك الذي يعضّ أكتافهنّ، والثوب الذي يلفّ أجسادهنّ. وفي ما يتعدّى الثوب لم أكن أرى شيئاً. تحته كان هناك حبّ لا نهائيّ يتيه عقلي لدى تفكيري به.

هذه الأهواء التي أردت امتلاكها، كنت أدرسها في الكتب. كانت الحياة البشريّة بالنسبة لي تتمحور حول فكرتين أو ثلاث، حول كلمتين أو ثلاث يدور حولها باقي الأشياء، كما تدور الكواكب حول شمسها. وهكذا ملأت لا نهايتي بشموسٍ ذهبيّة عديدة. كانت قصص الحبّ تُجاور في رأسي الثورات الجميلة، وقصص الشغف العظيمة تُساكِن الجرائم الفظيعة. كنت أفكّر في الوقت نفسه بالليالي المقمرة في البلدان الحارّة، والمدن المحروقة المشتعلة، والنبات المعترش في الغابات العذراء، وأبّهات المهالك المندثرة، والقبور، والمُهود، ودمدمة المياه بين سوق القصب، وهديل اليمائم في الوكنات، وخشب الآس، ورائحة الألوة، وصلصلة السيوف على الدروع، والأحصنة التي تقدح الأرض بأرجلها، والذهب الملتمع، وشرارات الحياة، ونزع اليائسين... كنت أتأمّل كلّ ذلك بنفس النظرة المفتوحة على مداها، وكأنّه وكر نمل مضطرب عند قدميّ. ولكن خلف هذه الحياة المختلجة الصاخبة بصرخات لا تحصى، كانت تنبثق مرارة هي خلاصتها المائجة ومعها السخرية.

وفي أماسي الشتاء، كنت أتوقّف أمام المنازل المضاءة حيث كانوا يرقصون، وكنت أرى خيالات تمرّ خلف الستائر الحمراء، وأسمع أصواتاً تنضح بالترف، واصطفاق كؤوسٍ على الصواني، وقرقعة الأواني

الفضيّة، فأقول في نفسي إنّ مشاركتي في هذا الاحتفال الذي يتدافع إليه الجميع، وفي هذه الوليمة حيث يلتهمون الطعام، أمر منوط بي. لكنّ كبرياء متوحّشة كانت تبعدني عن المشاركة في الوليمة. كنت أشعر أنّ وحدتي تزيدني جمالاً، وأنّ قلبي أكثر اتّساعاً إنْ أنا أبقيته بعيداً عن كلّ ما يصنع فرح البشر. عندئذٍ كنت أتابع طريقي عبر الشوارع المقفرة حيث كانت الفوانيس تتأرجح بحزنٍ ويُسمع أزيز بكراتها.

كنت أحلم بآلام الشعراء، وأبكي معهم أحرّ دموعهم، وأشعر بوجودهم في أعماق قلبي. وأنطبع بهم وبأحزانهم. كان يبدو لي أحياناً أنّ الحماسة التي يمدّونني بها تجعلني مساوياً لهم وتسمو بي إليهم. وكنت أعجب من صفحات تُبقي قرّاءها في فتورٍ فيما كانت تنقلني إلى عالمٍ آخر وتملؤني بغضب العرّافات، وتجعلني أعيش في خرابٍ داخليّ يُرضي شبقي، وكنت أتلوها على شاطئ البحر، أو أذهب، خافضاً الرأس، لأسير على العشب، وألقيها بصوتٍ عذبٍ يذوب عشقاً.

الويل لمن لم يستحوذ عليه غضب المآسي المجنون، الويل لمن لم يعرف غيباً مقاطع عشقيّة يردّدها لنفسه في ضوء القمر! ما أجمل العيش هكذا في الجمال الأبديّ والتدثّر بثياب الملوك، وامتلاك العشق في تعبيره الأسمى، والتوق إلى الصبوات التي خلّدتها العبقريّة.

ومنذ ذلك الحين عشت في عالمٍ مثاليّ لا حدّ له، حرّاً، محلّقاً وسع الفضاء. كنت أطوف مثل نحلة وأمتصّ الرحيق من كلّ شيء فيغذّيني وأحيا. كنت أسعى لأن أكتشف، في صخب الغابات والأمواج، كلماتٍ لم يسمعها الناس البتّة، وأنصت لتجلّي موسيقاها. كنت أؤلّف مع الغيوم والشمس لوحاتٍ بديعة يعيا على كلّ لغةٍ التعبيرُ عنها. وفي الأفعال البشريّة أيضاً، كنت أرى تناغماً وتضاداً بدقّة نورانيّة تبهرني أنا نفسي.

أحياناً بدا الفنّ والشعر وكأنّهما يشرّعان لي آفاقاً لا متناهية ويستقدحان ألقهما فيزداد النور إشعاعاً. كنت أبني قصوراً من نحاس صافٍ، وأرتقي بشكلٍ أبديّ نحو السماء المشرقة على درج من الغيوم أكثر لدانة من غطاء الريش.

النسر طائر يجثم على القمم العالية. ويرى من تحته الغيوم تتدحرج في الوادي، حاملةً على متنها طيور السنونو. يرى المطر يسقط على أشجار التنّوب، وحجارة الرخام تسقط في مجرى الماء، والراعي يصفّر لعنزاته، والظباء تقفز فوق المهاوي. عبثاً ينهمر المطر، وتحطّم العاصفة الأشجار، وتتدفّق السيول هادرة، ويُشيع الشلّال بخاره ويتوثب، ويدوّي الرعد مزعزعاً قمم الجبال. يحلّق النسر فوقها ساكناً مصفّقاً بأجنحته. يُمتعه هدير الجبل فيطلق صيحات الابتهاج ويتصارع مع الغمام المهرول بسرعة، ويصعد أعلى فأعلى في سمائه الشاسعة.

أنا أيضاً، يلذّ لي سماع ضجيج العواصف، وطنين البشر الغامض الصاعد إليّ. عشت في الأعالي حيث القلب يمتلئ بهواءٍ نقيٍّ وأطلقت صرخات ظفرٍ لكي أروّح عن سأم وحدتي.

وسرعان ما انتابني قرف عارم من أشياء هذه الأرض. ذات صباح ألفيتُني عجوزاً مفعماً بتجارب غنيّة لم أخضها. كنت زاهداً في أكثر الأشياء إغواءً، ومحتقراً أجملَها. أشعرَني كلّ ما كان يثير حسد الآخرين بالإشفاق، ولم أرَ شيئاً يستحقّ حتّى عناء اشتهائه. ربّما كان غروري يصوّر لي أنّني كنت فوق غرور سائر الناس، وربّما لم يكن زهدي إلّا تمويهاً لجشعٍ فادح. كنتُ أشبه ما أكون بتلك المباني الجديدة التي تكتسي بالحزاز قبل أن يكتمل بناؤها حتّى. وكانت مسرّات أصدقائي الصاخبة تُضجرني، كنت أهزّ كتفيّ استهزاءً بسذاجاتهم العاطفيّة. احتفظَ بعضهم

لسنةٍ كاملة بقفّاز أبيض عتيق، أو زهرة كاميليا ذابلة، وغمرها بقبلاته وتنهّداته. والبعض الآخر كتب الرسائل لبائعات القبّعات، أو واعدَ الطاهيات. بدا لي الأوّلون بلهاء والآخرون مضحكين. ثمّ أضجرني المجتمعان الراقي والفاسد على حدٍّ سواء. كنت متخابثاً مع الأتقياء، وروحانيّاً مع الفاسقين بحيث إنّ الجميع أعرض عنّي.

آنذاك كنت بِكراً لمّا أزل، وأجد لذّة في مراقبة بائعات الهوى. أمرّ في الشوارع حيث يقطنّ، وأتردّد إلى الأمكنة حيث يتنزّهن. أحياناً كنت أكلّمهنّ لكي أقع أنا نفسي في الإغواء، وأتعقّب خطاهنّ وألمسهنّ وأتنشّق الهواء الذي يُشغله من حولهنّ. ظننتني هادئاً فيما كنت وقحاً. كنت أشعر بقلبي خاوياً ولكنّ ذلك الخواء كان هاوية.

كان الضياع في متاهات الشوارع يستهويني. وغالباً ما استسلمت لتسلياتٍ فارغة كالتحديق إلى كلّ عابر لأكتشف على وجهه عيباً أو هوى نافراً. ومرّت كلّ هذه الوجوه من أمامي مسرعة، بعضها يتبسم ويمضي مُصَفِّراً وشعره يتطاير في الريح، والبعض الآخر شاحب، أو متورّد الخدَّين، أو باهت. وسرعان ما كانت الوجوه تختفي من أمام ناظري، متوالية كاللّافتات التي نراها فيما العربة تسير بنا. وأحياناً لم أكن أوجّه نظري إلّا إلى الأقدام الذاهبة في جميع الاتّجاهات محاولاً وصل كلّ قدم بجسد، وكلّ جسدٍ بفكرة، وكلّ حركة بغايةٍ متسائلاً أين تذهب كلّ هذه الأقدام، ولِمَ يسير كلّ هؤلاء الناس. أنظر إلى العربات الباذخة تتوغّل تحت البهو المعمّد مرجّعاً صداها، والمرقاة الثقيلة تنبسط مقرقعة، والجمهور يتوغّل عند باب المسارح. أنظر إلى الأضواء تلتمع في الضباب، ومن فوقها السماء المدلهمّة دون نجوم، وعند منعطف الشارع عازف أرغن، وأطفال لابسون الأسمال يغنّون، وبائع ثمار يجرّ عربته

المضاءة بمصباحٍ أحمر، والمقاهي تضجّ بروّادها، والسكاكين المدوّية على طاولات الرّخام. وأمام الباب، يقف الفقراء المرتجفون على رؤوس أصابعهم ليروا الأغنياء وهم يتناولون الطعام. كنت أنضمّ إليهم وبنظرةٍ مماثلة، أتأمّل السعداء في الحياة، وأغبطهم على مسرّاتهم التافهة، فثمّة أيّام يداهمنا الحزن فيها ونرغب في إذكائه، ويلذّ لنا الانغماس في اليأس كمن يعبر سهلاً ليّناً، وتمتلئ قلوبنا دموعاً ونستسلم للبكاء. غالباً ما تمنّيت أن أكون بائساً مرتدياً الأسمال يضنيني الجوع، ويسيل الدّم من جروحي، وقلبي يوغَر حقداً ساعياً للانتقام.

ما هو إذاً هذا القلق الأليم الذي نفتخر به وكأنّه عبقريّة ونخفيه طيّ قلوبنا كما نُخفي حبّاً؟ لا نبوح به لأحد، ونحتفظ به لأنفسنا. نضمّه إلى صدرنا بقبلٍ تغشاها الدموع. وممّ التشكّي مع ذلك؟ ما الذي يجعلك متجهّماً فيما أنت في ريعان الصبا وكلّ شيء يبتسم لك؟ أليس لديك أصدقاء متفانون؟ وعائلة تفتخر بك، وحذاء ملمّع، ومعطف مبطّن بقطن مندوف، إلخ؟ كلّ هذه الآلام التي تفوق الوصف هي مجرّد رابسودات[1] شعريّة، ذكريات من قراءات سيّئة، مبالغات متكلّفة. ولكنْ، أتكون السعادة هيَ أيضاً استعارة ابتُدعت في نهار مضجر؟ طويلاً شككت في هذا الأمر لكن شكّي تلاشى اليوم.

لم أحبّ شيئاً، وكم وددت لو أحبّ! وسأموت دون أن أتذوّق حلاوة العيش. وفي هذه الساعة بالذات، لا تزال الحياة البشريّة تحفل بألف جانب لم أستشفّه. إلّا أنّني أبداً ما اعتليت حصاني اللّاهث على ضفّة نبع، ولا سمعت صوت البوق في الغابات. وما شعرت في ليلةٍ عذبة فوّاحة بعطر الورود بيدٍ ترتعش في يدي وتحتضنها بصمت. آه! أشعر أنّني أكثر

(1) رابسودة: قصيدة ملحميّة كان ينشدها رواة محترفون.

فراغاً وخواءً وحزناً من برميل مثقوب شُرِبَ كلّ ما فيه، وحيث العناكب تنسج خيوطها في قعره المظلم.

لم يكن ألمي شبيهاً بألم رينيه[1]، ولا باتّساع الرحابة السماويّة لضجره الأجمل والأكثر التماعاً من أشعّة القمر، ولا كنت عفيفاً كفرتر[2]، ولا فاسقاً كدون خوان. ولم أكن في المحصّلة لا نقيّاً ولا قويّاً بما يكفي. كنت إذاً ما أنتم عليه جميعاً، رجلاً يعيش وينام ويأكل ويشرب ويبكي ويضحك منطوياً على ذاته ويجد في داخله، حيثما يذهب، أنقاض الرجاء نفسها تُهدم ما إن تُبنى، والغبار نفسه للأشياء المسحوقة، والدروب نفسها المعبورة ألف مرّة، والأعماق المرعبة والمملّة نفسها التي لم تُسبَرَ بعد. ألم تملّوا مثلي من الاستيقاظ كلّ صباح ورؤية الشمس عينها، ألم تسأموا من عيش الحياة نفسها ومن معاناة الألم نفسه؟ ألم تسأموا الرغبة، والقرف، والانتظار، وما تملكون؟

وما جدوى كتابة كلّ ذلك إذاً؟ ما جدوى أن أواصل بالصوت المنتحب نفسه القصّة المشؤومة نفسها؟ عندما بدأتها، ظننتها جميلة، وكلّما تقدّمت فيها انهمرت دموعي على قلبي وأخمَدَتْ صوتي.

آه من شمس الشتاء الشاحبة الحزينة مثل ذكرى سعيدة! إنّ الظلّ يحدّق بنا ونحن ننظر إلى موقدنا يشتعل، حيث الفحمات مغمورة بخطوط عريضة سوداء متصالبة تبدو وكأنّها تخفق مثل أوردة تنبض بحياة أخرى. لننتظر مجيء الليل.

لنتذكّر أيّامنا الحلوة، الأيّام التي كنّا فيها سعداء، حين كنّا مجتمعين، والشمس تلمع، والعصافير المختبئة تغنّي بعد المطر، تلك الأيّام التي

(1) رينيه *René*: بطل قصّة لرينيه دو شاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير، وتحمل القصّة اسم البطل عنواناً.

(2) فرتر: بطل رواية «آلام الشابّ فرتر» للكاتب غوته، سبقت الإشارة إليه.

تنزّهنا فيها في الحديقة. كان رمل الممرّات مبلّلاً، والهواء عطراً، وكانت تويجات الورود تسقط في مساكبها. لماذا لم نستمتع بسعادتنا كما يجب حين كانت بمتناول أيدينا؟ آنذاك كان حرياً بنا ألا نفكّر إلّا بتذوّقها والتلذّذ قدر الإمكان بكلّ دقيقة لكي تمرّ ببطء أكبر. ثمّة أيّام مرّت كسواها، وما زلت مع ذلك أتذكّرها بحلاوة. ذات مرّة، مثلاً، كان الفصل شتاءً والطقس بارداً. كنّا عدنا من نزهة، وبما أننا كنّا ثلّة، سمحوا لنا بأن نتحلّق حول الموقد. وتدفّأنا قدر ما يحلو لنا، وشوينا خبزنا كما يحلو لنا. كان القسطل يهدر ونحن نتحدّث عن آلاف الأشياء، عن المسرحيّات التي شاهدناها، والنساء اللواتي أحببناهنّ، ونزهاتنا المدرسيّة، وعمّا سنفعله عندما نكبر، إلخ. وفي مرّة أخرى، أمضيت طيلة بعد الظهر مضطجعاً على ظهري، في حقل نبتت فيه أزهار مرغريت صغيرة بين العشب. كانت صفراء وحمراء ضائعة في المرج الأخضر وكأنّها لوحة ألوان لا تنتهي تدرّجاتها. والسماء مكسوّة بغيوم صغيرة بيضاء متماوجة. نظرت إلى الشمس عبر يديّ المستندتين إلى وجهي فرأيت الشمس تذهّب أطراف أصابعي وتملأ جلدي بلونٍ ورديّ متوهّج. تعمّدت إغماض عينيّ لأرى تحت أجفاني بقعاً خضراء كبيرة مزدانة بأهدابٍ ذهبيّة. وذات أصيل، لم أعد أذكر متى تحديداً، نمتُ في أسفل عُرمة من الكلأ، وعندما صحوت كان الليل قد هبط، وكانت النجوم تلمع وامضة، وعُرمات الكلأ تتقدّم ظلّها. كان للقمر وجه جميل من لجين.

ما أبعد كلّ هذا في الزمن! هل عشت في ذاك الزمن؟ هل كنت أنا فعلاً؟ هل أنا الشخص نفسه الآن؟ وكأنّ كلّ دقيقة من حياتي تبدو فجأةً مفصولة عن الأخرى بهاوِيَة، بين الأمس واليوم، هناك أبديّة ترعبني. كلّ يومٍ يبدو لي أنّني أكثر تعاسة من أمس دون أن أستطيع تحديد ما انضاف

إلى بؤسي، وأشعر فعلاً أنّ قلبي يزداد فقراً، وأنّ الساعة الآتية تسلبني شيئاً ما. كنت مندهشاً فقط من قدرتي على إفراد حيّز للعذاب في قلبي. لكنّ قلب الإنسان نبع من الحزن لا ينضب. فرحة أو فرحتان تكفيان لملئه، فيما كلّ تعاسات البشريّة يمكنها أن تتواعد فيه وتنزل ضيوفاً.

لو كنتم سألتموني في ذلك العهد ما الذي كان ينقصني، لما عرفتُ بما أجيبكم. لم يكن لرغباتي هدف، ولا لحزني من سبب مباشر. أو بالأحرى كان ثمّة أهداف وأسباب كثيرة ممّا يُعجزني عن تسمية واحد منها. كانت جميع الأهواء تدخل إليّ ولا تستطيع الخروج، وأضيق بها فتوقد بعضها بعضاً كمرايا متّحدة المركز. كنت على تواضعي ممتلئاً كبرياء. أحلم بالمجد رغم غرقي في الوحدة، وأتحرّق للظهور والتألّق في العالم رغم انسحابي منه. وكنت على عفافي أستسلم في أحلامي نهاراً وليلاً لأكثر ألوان الفجور شططاً، ولأكثر الشهوات توحّشاً. الحياة التي كنت أكبتها في داخلي كانت تمسك بشغاف القلب وتحاصره فيكاد يختنق.

وأحياناً، كان يستبدّ الضيق بي وتلتهمني أهواء لا حدّ لها، وتتدفّق في نفسي حمم لاهبة، ويتولّاني شغف مجنون بأشياء أجهلها، فأتحسّر على أحلام بديعة، وأفتتن بكلّ شهوات الفكر، وأستميل إليَّ كلّ القصائد والسمفونيّات، وأنسحق تحت ثقل قلبي وكبريائي... عندئذٍ كنت أسقط مهيضاً في هاوية الآلام، والدم يلفع وجهي، وينبض في أوردتي فأشعر بالدوار، وأنفاسي تكاد تنقطع في صدري، فلا أعود أرى شيئاً أو أشعر بشيء. كنت ثملاً، كنت مجنوناً، كنت أتخيّلُني عظيماً، أتخيّلني تجلّياً أسمى سينكشف عن حقيقة ستدهش العالم، وهذه الآلام الناجمة عنه ليست سوى حياة الإله نفسه الذي حبلت به في أحشائي. ولهذا الإله البديع ضحّيت بأجمل أوقات شبابي. صنعت من نفسي معبداً مكرّساً لشيء ما

مقدّس، بقي المعبد فارغاً ونبتَ القرّاص بين حجارته، وتداعت أعمدته، وها قد صار مأوى لطيور البوم. لم أستغلّ الوجود فاستغلّني. كانت أحلامي تتعبني أكثر ممّا لو قمت بأعمال شاقّة. إنّه فعل خلق كامل، جامد، غير متجلٍّ لنفسه يحيا سرّاً خلف حياتي. كنت فوضى هاجعة تحتضن بذور ألف مبدأ خصب ولا تعرف كيف تنبتها ولا ماذا تفعل بها أو تحار كيف السبيل لصوغها أشكالاً أو قولبتها.

كنت، في تنوّع كياني، مثل غابة شاسعة في الهند حيث الحياة تختلج في كلّ خليّة وتظهر، شائهةً أو رائعة، كلّما أشرق شعاع شمس؛ وحيث الأثير مليء بالعطور والسموم، والنمور تتوثّب، والفيَلة تسير بفخرٍ وكأنّها معابد حيّة، والآلهة الغامضون والمشوّهون مختبئون في جوف المغاور بين سبائك الذهب الضخمة. وفي وسط الغابة يسيل النهر العريض وفيه تماسيح فاغرة أفواهها وحراشفها تلطم لوتس الضفّة، وباقات أزهارها التي يجرفها السيل مع جذوع الأشجار والجثث التي خضّرها الطاعون. ومع ذلك كنت أحبّ الحياة، لكنّها الحياة الرحبة المشرقة المشعّة. كنت أحبّها في العدْو المسعور للخيل، في تلألؤ النجوم، في حركة الأمواج المهرولة إلى الضفاف. كنت أحبّها في خفقان الصدور الجميلة العارية، في ارتجاف النظرات العاشقة، في اهتزاز أوتار الكمنجة، في ارتعاش أشجار السنديان، في الشمس الغاربة التي تذهّب النوافذ وتذكّر بشرفات بابل حيث كانت تتكئ الملكات رانياتٍ إلى آسيا.

وفي وسط هذا كلّه، كنت أبقى بلا حراك. بين عديد الأفعال التي كنت أراها وأحرّكها حتّى، كنت أبقى جامداً، جمود تمثال يحيط به سرب من الذباب يطنّ عند أذنيه ويجول على رخامه.

آه! كم كان بإمكاني أن أحبّ لو تسنّى لي أن أحبّ، لو كان بإمكاني أن

أوجّه إلى نقطة واحدة كلّ هذه القوى المتباعدة التي ترتمي عليّ! أحياناً، كنت أريد بأيّ ثمنٍ العثور على امرأة. كنت أريد أن أحبّها، لأنّها تشتمل على كلّ ما أتوق إليه، وأنتظر كلّ شيءٍ منها. كانت شمسَ قصائدي التي ستجعل كلّ زهرة تتفتّح وتُذكي كلّ جمالٍ. كنت أعِدني بحبٍّ إلهي، وأزنّره مسبقاً بهالة تبهرني. ما إن أصادف امرأة وسط الحشد وتُقبل عليّ حتّى أعطيها روحي. وأمعن النظر فيها بحيث تستطيع أن تقرأ في هذه النظرة وحدها كلّ خفايا كياني فتحبّني. كنت أصنع قدري من هذه الصدفة، لكنّها كانت تمرّ كالنساء السابقات، وكالنساء الآتيات، فأرتمي بعد كلّ لقاء متداعياً من جديد مثل شراع تمزّقه العاصفة.

بعد هذه النوبات التي تعتريني تعود الحياة لتنفتح لي من جديد في رحاب ساعاتها وأيّامها الرتيبة التي لا تنتهي. كنت أنتظر المساء بنفاد صبرٍ، وأعدّ كم تبقّى لي من الأيّام لبلوغ نهاية الشهر. كنت أتمنّى لو يأتي الفصل المقبل فتبتسم لي الحياة بشكلٍ أعذب. وأحياناً، لكي أهزّ معطف الرصاص هذا الذي كان يثقل على كتفي، كنت أريد أن أغوص في الأفكار والعلوم، وأن أعمل وأقرأ. كنت أفتح كتاباً ثمّ اثنين، ثمّ عشرة، ومن دون أن أقرأ سطرين من كتاب واحد، كنت أرميه مشمئزّاً ثمّ أعود للنوم ضائقاً بالضجر نفسه.

ما الذي ينبغي عليّ فعله على هذه البسيطة؟ بمَ عليّ أن أحلم؟ ما الذي يتوجّب عليّ بناؤه؟ بالله عليكم قولوا لي أنتم الذين تسلّيكم الحياة، أنتم الذين تسيرون إلى هدفٍ وتتعذّبون في سبيل تحقيقه!

لم أجد شيئاً جديراً بي، وبالمقابل لم أجدني أصلح لشيء. فالعمل، والتضحية بكلّ شيء في سبيل فكرة، والطموح، الطموح البائس المبتذل، واحتلال منصب رفيع، والشهرة؟ وماذا بعد؟ ما جدوى ذلك؟ ثمّ إنّني

لم أكن أحبّ المجد، والمجد الأكثر تجلّياً لم يكن ليرضيني لأنّه لم يكن ليتناغم مع طموح قلبي.

مذ ولدت وأنا أشتهي الموت. لا شيء كان يبدو لي أكثر بلاهة من الحياة وأكثر خزياً من التشبّث بها. وقد نشأت دون دين، مثل أبناء جيلي. لم أكن أملك فرح الملحدين، ولا استخفاف الشكّاكين الساخر. وإذا صدف وعنّ ببالي أن أدخل أحياناً إلى الكنيسة فلكي أستمع إلى الأرغن، ولكي أتملّى بإعجابِ التماثيلَ الحجريّة في المشكاوات. ولكن في ما يخصّ العقيدة، لم يصل بي الأمر إلى حدّ اعتناقها، وكنت أشعر أنّني ابن فولتير.

كنت أرى الناس يعيشون، ولكنّ حياتهم مختلفة عن حياتي. منهم المؤمنون، ومنهم من ينكر إيمانه، منهم الشكّاكون، وآخرون لا يهتمّون إطلاقاً بكلّ هذا، بل فقط بشؤونهم، أي يبيعون في الدكاكين، ويكتبون الكتب، أو يصرخون من على المنابر. كان هذا ما ندعوه البشريّة، المسافة المتحرّكة للأشرار والجبناء والبلهاء والقِباح. وأنا كنت وسط الجموع مثل طحلب عائم تائه وسط الأوقيانوس، والأمواج التي لا عدد لها، تتقاذفني وتغمرني وتملؤني صخباً.

وددت لو أكون إمبراطوراً كي أمتلك القدرة المطلقة، وعدداً كبيراً من العبيد، والجيوش الهادرة حماسةً. وددت لو أكون امرأة لأملك الجمال، وأزهو بنفسي، وأتعرّى، وأسدل شعري على أعقابي، وأتمرأى في الجداول. كنت أتوه قدر ما يحلو لي في أحلام لا متناهية وأتخيّلني مشاهداً أعياداً قديمة جميلة، أو ملكاً على بلاد الهند أذهب إلى الصيد على ظهر فيلٍ أبيض، أو أتفرّج على رقصات إيونيّة[1]، وأستمع إلى هدير البحر الإغريقي عند درجات المعبد، ونسائم الليالي في أشجار الدفلى في

(1) إيونيّة: متعلّقة ببلاد إيونية في آسيا الصغرى.

حدائقي، وأهرب مع كليوباترا على متن سفينتي القديمة. آه! كلّ تلك الجنونيّات! الويل للمتقطة الحصيد التي تترك عملها جانباً وترفع رأسها لترى البرلينيّة[1] تمرّ على الطريق الواسعة! ثمّ تستأنف عملها شاردةً تحلم بمعاطف الكشمير وغراميّات الأمراء، فلا تجد سنبلة فتعود إلى منزلها فارغة اليدين.

كان من الأفضل أن أفعل كسائر الناس، أي أن تكون حياتي وسطاً بين الهزل والجدّ، وأختار مهنة وأمارسها، وأغنم بحصّتي من هذه الدنيا راضياً، بدلاً من أن أتبع الطريق الموحشة التي سلكتها وحيداً. ربّما ما كنت لأقدر والحالة هذه على كتابة ما أكتبه، أو ربّما كانت القصّة مختلفة تماماً. وكلّما تقدّمت في كتابتها، التبست عليّ الأمور حتّى أنا نفسي، كتلك الأطياف التي نلمحها من بعيدٍ جدّاً، لأنّ كلّ شيء يعبر حتّى ذكريات دموعنا الأكثر حرقة، وضحكاتنا الأكثر دوّياً. إذ سريعاً ما تجفّ العين ويعود الفم إلى طبيعته. لم أعد أملك الآن إلّا ذكرى ضجرٍ طويلٍ دام عدّة شتاءات أمضيتها وأنا أتثاءب متمنّياً أن تنتهي حياتي.

ربّما لهذا السبب اعتقدتُني شاعراً. للأسف، لم أدعْ، كما ترون، أيّاً من ألوان البؤس يفوتني. أجل، حسبتُني فيما مضى أمتلك عبقريّة ما. كنت أمشي وجبيني ممتلئ بالأفكار البديعة، وكان الأسلوب يسيل تحت ريشتي كالدم في عروقي. وأمام أيّ تماسّ مع الجمال، كان هناك نغم صافٍ يتصاعد فيَّ، مثل تلك الأصوات المجنّحة، الأصوات التي تردّدها الريح إذ تنطلق من الجبال. كانت الأهواء البشريّة اهتزّت بشكلٍ رائع لو أنّني لستها. كان لديّ في رأسي مسرحيّات جاهزة مليئة بالمشاهد المسحورة والأحزان الخفيّة. من الطفل في مهده إلى الميت في لحده، كانت البشريّة

---

(1) برلينيّة: مركبة مقفلة ذات أربعة مقاعد صنعت أصلاً في برلين.

ترجّع أصداءها فيّ. أحياناً كانت أفكار مهولة تعبر فجأة في خاطري، كما في الصيف تلك البروق الساطعة التي تنير مدينة بأكملها، بكلّ زاوية في مبانيها، ومنعطف في شوارعها. كنت مصدوماً بهذه الأفكار، منبهراً بها، ولكن ما إن أعثر لدى الآخرين على الأفكار نفسها التي تصوّرتُها والتعابير نفسها حتّى أسقط توّاً في أفدح خيبة. ظننتُني ندّاً لهم ولم أكن إلّا ناسخاً لنصوصهم! وعندئذٍ أنتقل من سكرة العبقريّة إلى الشعور المخزي للتفاهة مع كلّ الغضب الذي يعتري الملوك المخلوعين عن عروشهم وما يقاسونه من عذابات المهانة. أحياناً كنت واثقاً من أنّني خلقت من أجل ربّة الإلهام، وأحياناً أخرى ألفيْتُني شبه أبله. ومتنقلاً هكذا على الدوام من قمم العظمة إلى أحطّ دركات الإخفاق، أفضى بي الأمر كالناس الذين يراوحون طيلة حياتهم بين غنىً وفقر، أي كنت وبقيت مجرّد بائس.

آنذاك، كنت أستفيق كلّ صباح وأشعر أنّ أمراً عظيماً سيحدث لي، فيمتلئ قلبي بالرجاء، وكأنّني أنتظر مجيء سفينة مشحونة بالسعادة من بلادٍ بعيدة. ولكنّي كنت مع تقدّم ساعات النهار أفقد كلّ شجاعة، لا سيّما عند الغسق حين أرى أنْ ما من سفينةٍ أقبلت، وأنّه لم يقبل إلّا الليل، فأخلد للنوم.

كانت أنغام حزينة تتزاحم بين الطبيعة وبيني. وكم كان قلبي ينقبض عندما تصفر الريح في الأقفال، وحين ترسل الفوانيس ضوءها على الثلج، وأسمع الكلاب تنبح إثر القمر!

لم أكن أرى شيئاً أستطيع التشبّث به، لا العالم، ولا الوحدة، ولا الشعر، ولا العلم، ولا الكفر، ولا الدين. كنت أتسكّع وسط هذا كلّه مثل الأرواح التي تنبذها جهنّم وتطردها الجنّة. عندئذٍ كنت أمكث مكتوف اليدين ناظراً إلى نفسي وكأنّني رجل ميّت. كنت مجرّد مومياء محنّطة في

ألمي. والقدر المحتوم الذي قصم ظهري منذ الشباب امتدّ ليشمل العالم أجمع. رأيته يتجلّى في جميع أفعال البشر كما تنير الشمس سطح الأرض. أمسى هذا القدر إلهاً متوحّشاً أعبده كما عبد الهنود العملاق المتجوّل الذي يمرّ على بطونهم. وكنت أقبع في حزني ولا أقوم بأيّ جهد للخروج منه، لا بل أتلذّذ به، كفرح المريض اليائس حين يحكّ جرحه ويبدأ بالضحك بعدما تمتلىء أظفاره دماً.

وتملّكني حيال الحياة، وحيال البشر، وحيال كلّ شيء، غضب مسعور لا يوصف. كان لديّ في قلبي كنوز من الحنان، فيما صرت أكثر توحّشاً من النمور. فوددت أن أبدّد الخليقة وأنام بجوارها في العدم اللّامتناهي. ليتني أستيقظ على نار المدن المحروقة! ليتني أسمع ارتجاف العظام التي يفجّرها اللهب، وأجتاز أنهراً محمّلة بالجثث، وأعدو بحصاني منقضّاً على شعوب ذليلة، وأسحقها بحوافز فرسي الحديديّة! ليتني جنكيزخان، أو تيمورلنك، أو نيرون، فأجعل العالم يرتعب إن أنا عقدْتُ حاجبيّ.

وقدر ما كان لديّ نشوات ولمعاتُ إلهام، كنت أنغلق على نفسي وألتفّ بها. منذ وقتٍ طويل أيبستُ قلبي. ما من جديدٍ يدخل إليه. إنّه فارغ مثل القبور التي يتعفّن فيها الموتى. كرهت الشمس، وضقت ذرعاً بهدير الأنهر ومنظر الغابات. لا شيء بدا لي أسخف من الريف. وكلّ شيء اسودّ في عينيّ، وهَانَ، وعشت في غسقٍ متواصل.

أحياناً كنت أتساءل إذا لم أكن مخطئاً فأنا في ريعان الشباب والمستقبل أمامي، ولكن أيّ شباب يرثى له، وأي مستقبل فارغ!

عندما أردت الخروج من مسرح بؤسي والنظر إلى العالم، لم أرَ إلّا زعيقاً وصراخاً ودموعاً واختلاجات، أي المهزلة نفسها التي تتكرّر، ومعها الممثلون أنفسهم. كنت أقول في نفسي: هناك أناس يعانون ما

أعانيه، ويعاودون العمل كلّ صباح! لم يكن هناك إلّا حبّ كبير يستطيع أن ينقذني من هذا المأزق كلّه، لكنّي كنت أنظر إلى الحبّ كشيء لا ينتمي إلى هذا العالم فأتحسّر بمرارة على السعادة التي حلمت بها.

عندئذٍ بدا لي الموت جميلاً. أحببته على الدوام. طفلاً، كنت أشتهيه فقط لأعرفه، لأعرف ماذا يوجد في القبر وأيّ أحلام تكتنف هذا النوم. أذكر أنّني غالباً ما حففت الزنجار عن القروش القَديمة لأتسمّم به، وحاولت أن أبتلع دبابيس، واقتربت من كوة العليّة لأرمي بنفسي في الشارع... عندما أفكّر أنّ أغلب الأطفال يفعلون الشيء نفسه وأنّهم يحاولون الانتحار خلال لهوهم، ألا يجدر بي أن أستخلص أنّ الإنسان، مهما قال، يحبّ الموت بشغَف؟ فهو يعطيه كلّ ما يخلقه، ويخرج منه ويعود إليه، وكلّ ما يفعله هو أنّه يفكّر به ما دام حيّاً، فبذرتُه في جسده، ورغبته في قلبه.

إنّه لمن العذب جدّاً أن نتخيّل عدَمَنا! وأنّنا وسط السكون المطلق الذي يرين في المقابر كلّها! هناك سيمدّدونني مدثّراً في الكفن وذراعاي متصالبتان على الصدر، لا القرون المتوالية توقظني ولا الريح التي تعبر في العشب. كم من المرّات تأمّلت في مصلّيات الكاتدرائيات، تلك التماثيل الضخمة المستلقية فوق المدافن! كان سكونها من العمق بحيث لا يعادله شيء في هذه الحياة. على شفاههم الباردة ابتسامة منبثقة من عمق القبر، لكأنّهم ينامون ويتلذّذون بالموت. هناك لاحاجة للبكاء، ولا للشعور بهذا الوهن والعجز اللذين يقصفان الجسد، كما تنقصف المفاصل المتعفّنة... هناك حيث السعادة تفوق كلّ سعادة، والفرح الذي لا عاقبة له والحلم الذي لا يقظة منه. ثمّ نذهب إلى عالم أجمل في ما وراء النجوم حيث نحيا حياة النور والعطور، حيث نكون ربّما شيئاً من عطر الورود

ونضارة المروج! آه لا، بربّكم لا! أفضّل الاعتقاد أنّنا لا نغدو شيئاً بعد هذا الموت، وأنّ لا شيءَ يخرج من النعش. وإذا كان لا بدّ من الشعور بشيءٍ فليكن عدمنا بالذات؛ فليرعَ الموت من عشبه هوَ، مزهّواً بنفسه. وليبقَ لنا فقط من الحياة ما يشعرنا أنّنا ما عدنا موجودين.

وكنت أصعد إلى أعلى الأبراج، وأنحني فوق الهاوية وأنتظر أن أصاب بالدوار، كان لديّ رغبة غامضة لأرتمي وأحلّق في الفضاء، وأتبدّد مع الرياح. كنت أنظر إلى رؤوس الخناجر وفوهات المسدّسات وأضعها على جبيني لاعتاد ملمسها البارد وحدّة نصالها. ومرّات أخرى، أنظر إلى سائقي العربات ينعطفون عند زاوية الشوارع والعجلات الهائلة تطحن الغبار على الطرقات، وأفكّر أن رأسي سيُسحق هكذا تحت الأحصنة تعدو. ولكنّي لم أكن أريد أن أسجّى في نعش، فالنعش يرعبني. كنت أودّ بالأحرى أن أوضع على سرير من الأوراق اليابسة في قلب الغابات، وأن تنقر العصافير جسمي شيئاً فشيئاً، وتذيبني أمطار العواصف.

ذات يوم، كنت في باريس، فتوقّفت طويلاً على جسر «البون نوف». كان الفصل شتاءً، ونهر السين يجرف ببطءٍ قطعاً ضخمةً من الجليد المنحدرة مع السيل والمتكسّرة تحت القناطر. كان النهر مخضوضراً. فكّرت بكلّ الذين أتوا إلى هناك لينهوا حياتهم. كم من الناس مرّوا، في المكان حيث أقف، وهم يركضون ورؤوسهم مشدودة بلهفة لموافاة حبيب، أو للذهاب إلى عملٍ، ثمّ عادوا ذات يومٍ سائرين الهوينى وقلوبهم تختلج لدنوّ الموت فاقتربوا من الحاجز ثمّ تسلّقوه وقفزوا في الماء. آه كم من الحيوات التعيسة انتهت هناك، كم من المسرّات بدأت هناك! أيّ قبرٍ باردٍ ورطب هو هذا النهر! وكم يتّسع للجميع! كم من الموتى غرقوا فيه، وما برحوا يسبحون متهادين في الأعماق بوجوههم المتشنّجة وأطرافهم

الزرقاء، وكلّ موجة من تلك السيول الجليديّة تحملهم في نومهم لتأخذهم بهدوءٍ إلى البحر.

أحياناً كان الشيوخ ينظرون إليّ بحسد قائلين لي إنّ عليّ أن أسعد بشبابي، وإنّ الشباب أجمل عمر. كانت أعينهم المجوّفة تبدي إعجاباً بجبيني الأبيض، وغالباً ما كانوا يتذكّرون قصص حبّهم ويروونها لي. لكنّي غالباً ما تساءلت ما إذا كانت الحياة في زمانهم أجمل. وبما أنّني لم أكن أرى ما أُحسد عليه، كنت أغار من حسراتهم لأنّها تخفي أفراحاً لم أعرفها. كنت أضحك بعذوبة ومن لا شيء كالمتماثلين للشفاء. وأحياناً أشعر أنّني أذوب رقّة من أجل كلبي وأقبّله بلهفة. أو كنت ألتجئ إلى خزانة لأرى فيها من جديدٍ ثياباً قديمة ارتديتها حين كنت تلميذاً، متذكّراً النهار الذي لبستها فيه لأوّل مرّة، والأمكنة التي لازمتني فيها، وأتوه في ذكريات عن كلّ أيّامي التي عشتها لأنّ الذكريات عذبة سواء كانت حزينة أو فرحة. وأكثرها حزناً هي الأكثر حلاوة لنا، أفلا تختصر لنا اللّانهاية؟ قد نستغرق أحياناً قروناً لنتذكّر ساعةً بعينها لن تعود أبداً، ساعة عبرتْ وامتلكها العدم إلى الأبد، ونقايضها بالمستقبل برُمّته.

ولكنّ تلك الذكريات مجرّد مشاعل مبعثرة في قاعة كبيرة مظلمة، تلمع وسط الظلمات ولا تضيء إلّا دائرة نورها، وكلّ ما يتعدّاها أكثر سواداً واكتنافاً بالظلمات والضجر.

وقبل أن أتوغّل في السرد عليّ أن أروي لكم ما يلي:

لم أعد أذكر السنة جيّداً، كان ذلك خلال عطلة. استيقظتُ رائق المزاج ونظرتُ عبر النافذة. كان النهار يطلع، والقمر الذي ابيضّ تماماً يصعد من جديد في كبد السماء. وبين وهاد التلال أبخرة رماديّة ورديّة ترتفع بعذوبة ثمّ تتلاشى في الفضاء. كانت الدجاجات في الفناء تصيح.

وسمعت، خلف المنزل، على الدرب الذي يقود إلى الحقول، اصطفاق عجلات عربة في الأثلام، وصوت ميتّسي الكلأ الذاهبين إلى حقولهم. التمعت الشمس فوق الندى على السياج، وتصاعدت رائحة العشب المبلّل.

خرجت متّجهاً إلى مدينة... كان يتوجّب عليّ اجتياز ثلاثة فراسخ. وسرت في طريقي وحيداً دون عصاً ودون كلب يرافقني. بداتُ بالسير في الممرّات المتعرّجة بين سنابل القمح ومررت تحت أشجار التفاح المزروعة بجوار الأسيجة. لم أكن أفكّر بشيء. أصغيت إلى وقع خطاي، وانتظام حركاتي هدهد أفكاري. ألفيتُني حرّاً ساكِناً هادئاً، وكان الطقس حارّاً. من وقتٍ لآخر أتوقّف وصدغاي ينبضان، وأسمع الجنادب تغنّي في المراعي الجرداء. تابعت سيري. مررت بقرية لم يكن فيها أحد. ومجاري الماء صامتة. أظنّ أنّه كان نهار أحد. كانت البقرات المضطجعة فوق العشب في ظلّ الأشجار تجترّ بسكينة محرّكة رؤوسها لتطرد الذباب عن آذانها. أذكر أنّني سرت في درب يجري فيه الجدول على الحصباء، وكانت هناك عظايات خضراء، وحشرات ذهبيّة الأجنحة تصعد ببطء على طول حافتي الطريق المتوغّلة عميقاً، المكسوّة بأغصان الأشجار المورقة. ثمّ وجدتُني على أحد النجود، في حقل أجرد. كان البحر ممتدّاً أمامي تامّ الزرقة، والشمس تلتمع فوقه عقوداً من حبات اللؤلؤ المشعّة، والأثلام الناريّة تتخلّل الأمواج. بين السماء اللاّزورديّة والبحر الأكثر دكنة، توهّج الأفق مشعّاً. كانت القبّة الزرقاء تبدأ فوق رأسي وتنخفض خلف الأمواج المتّصلة بالسماء راسمةً دائرة لا متناهية خفيّة. تمدّدتُ في أحد الأثلام ناظراً إلى السماء، مستغرقاً في تأمّل جمالها.

كان الحقل حيث تمدّدت حقل قمح. سمعت طيور السماني تحوم

فوقي وتأتي للانقضاض على تلعات التراب. كان البحر رقراقاً ويصدر صوتاً أقرب لأن يكون تنهيدة هامسة. بدت الشمس وكأنّها تضجّ هي أيضاً. كانت تغمر كلّ شيء، وتلفح بلهيبها أطرافي، والأرض تعكس لي دفئها. كنت غارقاً في بحر نورها. أغمضت عيني ورأيتها مع ذلك. صعدت رائحة الأمواج إلى أنفي ممتزجة برائحة الطحالب والنباتات البحريّة. أحياناً بدت الأمواج وكأنّها جمدت أو جاءت لتتلاشى معانقة بصمتِ الشاطئ المخرّم بالزبد، مثل شفة لا يُسمع صوت قبلتها. عندئذٍ، وفيما كان الأوقيانوس يعلو بأمواجه تأهّباً لموجة جديدة، كنت أستمع إلى تغريد السمانى للحظة، ثمّ يعاود اصطخاب الأمواج، وبعده زقزقة العصافير.

نزلت إلى الشاطئ مهرولاً قافزاً فوق الأراضي الزاحلة بخطوةٍ واثقة. كنت أرفع رأسي شامخاً وأتنشّق بلذّةٍ النسيمَ العليل الذي يجفّف شعري المتعرّق. وكان روح الله يملؤني، وشعرت بقلبي رحباً، متخشّعاً منفرداً لعبادة شيءٍ ما بانفعالٍ غريب. وددت لو يمتصّني نور الشمس، وأضيع في هذا المدى الأثيريّ الهائل، وسط الرائحة المنبعثة من البحر. وعندئذٍ غمرتني فرحة غريبة، ورحت أمشي وكأنّ سعادة السموات تتغلغل في روحي. كان الجرف متقدّماً في البحر في هذه الناحية ما جعل الشاطئ يختفي عن ناظري، وما عدت أرى شيئاً سوى البحر: كانت الأمواج تصعد على الحصى لتصل حتّى قدميّ، وتزبد على الصخور العائمة، وتغمرها بإيقاعٍ منتظم معانقةً إيّاها وكأنّها أذرع من ماء وأسمطة شفافة، ثمّ تتلاشى مضّاءة بلونٍ أزرق. كانت الريح ترفع عنها الحزاز من حولي، وتتموّج لهبوبها بِرَكُ الماء المتجمّعة في جوف الصخور. تمايلتِ الطحالب وبكت من جرّاء الموج الذي فارقها. من وقتٍ لآخر، يعبر طائر نورس

مصفّقاً بجناحيه الكبيرين محلّقاً حتّى أعلى الجرف. وعلى قدر ما كان البحر ينسحب وينأى بضجيجه مثل لازمة تتلاشى، كان الشاطئ يتقدّم نحوي تاركاً على الرمل الخطوط التي رسمتها الموجة. عندئذٍ أدركت مدى السعادة التي تبثّها الخليقة، والفرح الذي منحه الله للإنسان في رحابها. وبدت لي الطبيعة جميلة مثل سمفونيّة مكتملة وحدها الروح المنتشية بمقدورها أن تسمعها. وأقبل شيء ما حنون كالحبّ، خاشع كالصلاة، من عمق الأفق من أجلي منهالاً من قمّة الصخور الممزّقة، ومن أعالي السموات. وانبثق من صخب المحيط ونور النهار طيفُ مكان ساحر امتلكته وكأنّه بقعة من مُلكٍ سماويّ. وشعرت أنّني أحيا فيه سعيداً ومهيباً كالنسر الذي ينظر إلى الشمس ويطير مرتفعاً صوب أشعتها.

عندئذٍ بدا لي كلّ شيءٍ جميلاً على الأرض. ولم أعد أرى فيها شيئاً متنافراً أو سيّئاً. أحببت كلّ شيء حتّى الحجارة التي كانت تتعب قدميّ، حتّى الصخور الصلدة التي كنت أسند إليها يديّ، وحتّى هذه الطبيعة عديمة الإحساس التي كنت إخالُها تسمعني وتحبّني، وفكّرت حينئذٍ ما أعذب الغناء مساء جاثياً على ركبتي أمام العذراء المضاءة بنور الشماعد، وما أعذب محبّة العذراء مريم التي تظهر للبحّارة في ركن من السماء حاملةً الطفل الوديع يسوع بين ذراعيها.

وكان هذا كلّ شيء. ثمّ سرعان ما تذكّرت أنّني كنت أعيش، وعدت إلى ذاتي، وتابعت السير وأنا أشعر أنّني رهين هذه اللعنة التي تطاردني، وأنّني أعود إلى كنف البشر. عادت إليّ الحياة، كما تعود الحرارة مؤلمةً إلى الأطراف المتجلّدة، وكما تملّكتني قبل ذلك بقليل سعادة لا توصف، رأيتني أسقط في إحباطٍ بهيم، وذهبت إلى مدينة...

في المساء عدت إلى المنزل وعبرت الطرقات نفسها. ورأيت من جديدٍ على الرمل آثار قدميّ، والمكان حيث كنتُ تمدّدت في العشب. بدا لي أنّني كنت أحلم. ثمّة أيّام نعيش فيها حياتَين حيث الحياة الأخرى ليست سوى ذكرى للأولى، وغالباً ما كنت أتوقّف في طريقي أمام جنبة، أو شجرة، عند زاويةِ طريقٍ وكأنّ حدثاً عظيماً حصل في حياتي هناك عند الصباح.

وعندما وصلت إلى البيت، كان الليل قد هبط تقريباً. أغلقت الأبواب وبدأت الكلاب تنبح.

إنّ أفكار الشهوة والحبّ التي أقضّت مضجعي في سنّ الخامسة عشرة عادت لتهتدي إليّ في سنّ الثامنة عشرة. إذا انتبهتم إلى ما قلته آنفاً، فعليكم أن تذكروا أنّه في ذاك السنّ كنت بكراً، ولم يسبق لي أن أحببت امرأة. وفيما يتعلّق بجمال الأهواء وصخبها الرنّان، فإنّ الشعراء هم الذين كانوا يزوّدونني بمادّة أحلامي. أمّا عن لذّة الحواس، ومسرّات الجسد التي يتوق إليها المراهقون، فإنّني كنت أصون في قلبي الرغبة باستمرارٍ عبر كلّ الإثارات المتعمّدة للفكر. وكما أنّ العشّاق يطمحون إلى السيطرة على حبّهم بالاستسلام له دون توقّف، والانعتاق منه عبر المواظبة على التفكير به باستمرار، بدا لي أيضاً أنّه عبر الفكر وحده أستطيع أن أستنفد هذا الموضوع، وأن أُنضِب الإغواء لفرط ارتوائي منه. لكنّي وبالعودة دوماً إلى النقطة التي انطلقت منها، كنت أدور في دوّامة مفرغة ويعوزوني شوق للخروج منها إلى أفقٍ أرحب. في الليل، كنت أحلم بأجمل الأشياء الممكنة، لأنّني في الصباح أجد قلبي مفعماً بالابتسامات والكآبات الشفيفة. كانت اليقظة تحزنني فأنتظر بفارغ الصبر العودة إلى النوم لكي يمدّني من جديد بهذه الارتعاشات التي حلمت بها طيلة النهار، والتي

يتعلّق أمر انبثاقها بي، وأرتعب منها رعباً خاشعاً.

عندئذٍ شعرت فعلاً بشيطان الشهوة يتغلغل في كلّ عضلات جسمي، ويسري في دمي كلّه. تحسّرت على الحقبة البريئة التي كنت أرتجف فيها من نظرات النساء. وحيث كنت على شفا الإغماء أمام اللوحات أو التماثيل. كنت أريد أن أعيش وأن أتمتّع وأن أحبّ، وأشعر بشكلٍ مبهم باقتراب زمني. تماماً كما تشعرك أيّام الشمس الأولى بوهج الصيف مع هبّاتِ الرياح الدافئة، رغم أنّ العشب لم ينبت بعد، ولا الأوراق، ولا الورود. ما العمل؟ من أُحبّ؟ من سيحبّني؟ من هيَ السيّدة العظيمة التي قد تقبل بي؟ من هي صاحبة الجمال الإلهيّ التي ستمدّ لي ذراعيها؟ من ذا الذي يقدر أن يروي كلّ الرحلات الحزينة التي يقوم بها المرء وحيداً على ضفاف الجداول، وكلّ تنهيدات القلوب المملوءة شجناً، المنطلقة نحو النجوم في اللّيالي الحارّة حين يضيق الصدر بأنفاسه؟

الحلم بالحبّ هو الحلم بكلّ شيء، إنّه بلوغ السعادة منتهاها، والفرح سرّه. بأيّة لهفةٍ ناريّة تلتهمك نظرات النساء! بأيّ دقّة توجّهن سهامكنّ أيّتها النساء الجميلات الظافرات! إن الفتنة والإثم يمكن تنسّمها في كلّ حركاتكنّ وسكناتكنّ.

إنّ لثنيات أثوابكنّ حفيفاً يحرّكنا وينفذ إلى أعماقنا. وتنبعث من أجسادكنّ برمّتها فتنة قاتلة.

ومنذ ذلك الحين استهوتني بين كلمات البشر عبارة تشير إلى حبّ المتزوّجات. كانت تعبق بسحرٍ فريدٍ وتكتنفها عذوبة رهيفة. إنّ كلّ القصص التي رويت، والكتب التي قرئت، والحركات التي نقوم بها تنطق بهذه العبارة وتعقّب عليها بشكلٍ أبديّ. وقلب الشابّ يروي منها غليله، ويجد فيها شعراً سامياً ممزوجاً باللعنة والشهوة.

وعند اقتراب الربيع، عندما تبدأ أزهار الليلك تفتّحها، والعصافير تغريدها في ظلّ أولى الأوراق المبرعمة، عندئذٍ، كنت أشعر أنّ قلبي متلهّف إلى الحبّ، وإلى الذوبان بكليّته فيه، والاستغراق في شعور عذب غامر، كأنّها الولادة من جديد في النور والعطور. وكلّ سنة، مع حلول فصل الربيع، أشعر بعذارة تتجدّد مع البراعم البازغة. لكنّ المسرّات لا تزهر من جديد مع الورود، ولم يعد ثمّة اخضرار في قلبي ولا على الطريق الواسعة حيث ضوء الشمس يُتعب النظر، والغبار يرتفع مزوبعاً.

ومع ذلك، ما إن أتأهّب لأروي لكم ما يلي، مستعيداً هذه الذكرى حتّى أرتجف وأتردّد. كمن يذهب لرؤية عشيقة سابقة فتضيق أنفاسه ويتوقّف عند كلّ درجة متهيّباً لقاءها وغيابها في آن. وهذه هي الحال مع أفكارٍ لازمتنا طويلاً. نودّ لو نتحرّر منها إلى الأبد، ومع ذلك فهي تسري فينا كالحياة نفسها، ويتنسّم القلب هواءها المُحيي.

قلت لكم إنّني كنت أحبّ الشمس. في أيّام إشراقها يلتمع قلبي بقبس من شعاع الآفاق الصافية ويهيم في الأعالي. كان الفصل صيفاً... مهلاً! لا يفترض بي كتابة هذا كلّه... كان الطقس حارّاً، خرجت من البيت، ولم يلاحظ أحد ذلك. كان الناس قلائل في الشوارع المكسوّة بالغبار. من وقتٍ لآخر، تصاعدت نفحات حارّة من الأرض إلى رأسي، وأرسلت جدران المنازل انعكاسات ملتهبة. وبدا الظلّ نفسه أكثر احتراقاً من النور في زاويا الشوارع. بالقرب من أكوام النفايات، كان يُسمَع طنين أسراب الذباب وهي تحوّم في أشعّة الشمس مثل عجلة ذهبيّة ضخمة. وكانت زوايا السطوح تتقاطع مستقيمة وزرقةَ السماء. بدت الحجارة قاتمة، وما من عصافيرَ تلوذ بقبب الأجراس.

سرت مفتّشاً عن مكانٍ أستريح فيه، راغباً في نسمة هواءٍ منعشة، في

شيء ما يرفعني عن الأرض، ويحملني على متن زوبعة.

خرجت من الضواحي، ووجدتني خلف حدائق، في دروب ما بين شارع وزقاق. كانت فرجات متوقّدة تنبثق في غير مكان عبر أغصان الأشجار المورقة. في الأفياء الظلّيلة، انتصبت الأعشاب مستقيمة، ورؤوس الحصى أرسلت إشعاعاً، والغبار خشّ تحت قدمي، وكلّ شيء في الطبيعة كان لاذعاً. وأخيراً توارت الشمس، واقتحمت غيمةٌ ضخمةٌ السماء وكأنّ عاصفة تتحضّر. أضحى العذاب الذي كنت أشعر به من طبيعة مختلفة. لم أعد مغتاظاً تماماً بل كنت محاصراً. لم يعد الأمر تمزّقاً بل غدا اختناقاً.

اضطجعت أرضاً على بطني، في المكان الذي بدا لي أنّه الأكثر اكتنازاً بالظلّ، وبالعتمة والسّكون، وارتميت هناك وقلبي يلهث برغبة جامحة. كانت الغيوم محمّلة برخاوة، وتثقل عليّ وتسحقني كأنّها صدر يطبق على صدري. شعرت برغبة شبقة، مضمّخة بعطور أكثر نفاذاً من أريج الياسمين البريّ، وأكثر اضطراماً من الشمس فوق جدران الحدائق. آه لو أستطيع أن أضمّ شيئاً بين ذراعيّ، وأغمره بدفئي، لو أستطيع أن أنقسم أنا نفسي وأغرم بالكائن الآخر ذاك وننصهر معاً. لم تكن تلك رغبةً في مثالٍ غامض، ولا التوق إلى حلم متلاشٍ، ولكن كما تفعل الأنهار التي لا مجرى لها، فاض شغفي من كلّ الجهات وتدفّق سيولاً هادرة مغرقاً قلبي في دمدمته الباعثة على الدوار والأعتى دويّاً من الشلالات المنهالة من الجبال.

اتّجهت إلى ضفّة النهر. استهوتني المياه على الدوام، وأيضاً حركة الأمواج العذبة المتلاطمة. كان النهر هادئاً، والنيلوفر الأبيض يرتجف من وقع هدير السيل، والأمواج تتكسّر ببطء منبسطة الواحدة تلو الأخرى.

وفي وسطها جزر صغيرة ترسل في الماء باقاتها الخضراء. بدت الضفّة وكأنّها تبتسم. وما عاد يُسمع إلّا صوت تكسّر الأمواج.

في ذلك المكان بالذّات انتصبت بضع شجرات باسقات. أمتعني التجاور الرطيب للماء والظلال، وأدخل السرور إلى قلبي. وكما تتنسّم ربّة الإلهام فينا الموسيقى المتناغمة والألحان العذبة، لا أعرف ما الذي تمدّد في داخلي وتنسّم فرحاً كونيّاً. ناظراً إلى الغيوم تتراكض في السماء، وإلى حشائش الضفّة المخمليّة تذهّبها أشعة الشمس، مستمعاً إلى وشوشة الماء وارتعاش ذرى الأشجار الواجفة رغم تلاشي النسيم، ألفيتُني في وحدتي واضطرابي وهدوئي أنوء تحت ثقل شهوتي وتلك الطبيعة العاشقة، فناديت على الحبّ! كانت شفتاي ترتعشان وتدنوان وكأنّهما تشعران بلهاث فم آخر، وسَعتْ يداي لتتلمّسا، في ثنية كلّ موجة، وفي أطياف الغيوم المستديرة، شكلاً ما، لا بل متعة، لا بل تجلّياً. كانت الرغبة تتدفّق من كلّ مسامي، وكان قلبي متحنّناً مفعماً بتناغم ملجوم. نفضت شعر رأسي وداعبت وجهي متلذّذاً بتنشّق رائحته، وتمدّدت على الحزاز، عند أسفل الأشجار متمنّياً أن تدهمني كآبات أعمق. وددت لو أختنق تحت الورود، وأتداعى تحت القبلات؛ وددت لو أكون الزهرة التي تهزّها الريح، والضفّة التي يبلّلها النهر، والأرض التي تُخصبها الشمس.

كان العشب طريّ الملمس ويحلو السير عليه؛ كلّ خطوة أمدّتني بلذّة جديدة مدغدغةً باطنَ قدميّ. امتلأت المروج، في البعيد، بالحيوانات والأحصنة والأمهار، ورجّع الأفق ضجيج الصهيل وعدْو الحوافر. كانت الأراضي تنخفض وتعلو منعطفةً حول التلال، والنهر يتعرّج مختفياً وراء الجزر، ليظهر من ثمّ بين الأعشاب والقصب. كان كلّ ذلك جميلاً هانئاً ممتثلاً لقانونه ومقتفياً مجراه. أنا وحدي كنت سقيماً متداعياً

أذوب رغبة.

وفجأةً لذتُ بالفرار، عدت إلى المدينة مجتازاً الجسور، هائماً في الشوارع، والساحات. كانت النساء يعبرن بجواري سراعاً وكثيراتٍ. كنّ جميعاً رائعات الجمال. لم يسبق لي أن نظرت إليهنّ مواجهةً بهذا القدْر، ولا أن حدّقت بهذه الجسارة إلى أعينهنّ اللّامعة، ومشيتهنّ الخفيفة كمشية الغزال. بدت الدوقات المنحنيات على أبواب العربات، المزدانة بشعارات النّسَب، وكأنّهنّ يبتسمنَ لي ويدعونني إلى مطارحتهنّ الغرام على وسائد الحرير. ومن أعالي شرفاتهنّ كانت نساء متّشحات بالمناديل يتقدّمن لرؤيتي وينظرن إليّ قائلات: «أحِبّنا! أحِبّنا!» وكنّ جميعهنّ مغرماتٍ بي في انحناءات أجسادهنّ، في جمودهنّ نفسه، كنت أرى ذلك جيّداً. ثمّ كانت النساء في كلّ مكان، كنت أتأبّط ذراعهنّ، وألامسهنّ، وأتنشّق رائحتهنّ التي تملأ الهواء. أرى حُبَيبات العرق على أعناقهنّ بين الشال وأرياش قبعاتهنّ المتمايلة مع خطواتهنّ. كانت أثوابهنّ ترتفع فوق كعوبهنّ وهنّ يمشين أمامي. وحين أمرّ بالقرب من إحداهنّ، ترتعش يدها التي ترتدي قفّازاً. لا أريد هذه المرأة بالذات، ولا تلك، ولا الواحدة أكثر من الأخرى، بل جميعهنّ، بل كلّ واحدة منهنّ، أريد أن أعانق أشكالهنّ في تنوّعها اللّامتناهي بالرغبة التي تُوافق خصوصيّة كلٍّ منهنّ. عبثاً كنّ يرتدين الثياب، كنت أزيّنهنّ في الحال بعريٍ بديع أعرضه لناظري، وأختطف، وأنا أعبر بالقرب منهنّ، قدر ما أستطيع وأكثر من أفكارٍ شبقة وعطورٍ تُذكي رغباتي، ولمسات مثيرة، واستدارات جذّابة.

كنت أعرف جيّداً مقصدي؛ اتّجهت إلى منزل في شارعٍ صغير كنت تعمّدتُ المرور فيه غالباً لأحمل قلبي على الخفقان. كان للمنزل مصاريع خضراء ومدخله مزدان بدرجات ثلاث. آه! أعرف ذلك عن ظهر قلب

لكثرة ما عاينته وكم من مرّة انحرفت عن طريقي لا لشيء إلّا لأرى نوافذه المغلقة. وأخيراً، وبعد تجوالٍ دام دهراً، دخلت إلى هذا الشارع، وأحسستني على شفير الاختناق. لا عابر من هناك. تقدّمت. لا أزال أشعر باحتكاك كتفي بالباب حين دفعته فأذعن. خفت أن يلتصق بالحائط لكنّه استدار على محوره بنعومة دون أن يصدر صوتاً.

صعدت درجات سوداء، وكانت واهية مهتزّة تحت قدميّ. واصلت صعودي، دون أن أرى شيئاً أو يتحدّث إليّ أحد. شعرت بالدوار وبأنفاسي تضيق. وأخيراً رأيتني في غرفة. بدت لي واسعة. وهذا واضح قياساً إلى الظلمة التي تعمّها. كانت النوافذ مفتوحة، لكنّ ستائر ضخمة صفراء منسدِلة حتّى الأرض كانت تحجب الضوء. تلوّنت الشقة بانعكاسات ذهبيّة باهتة. في عمق القاعة، بجوار النافذة الواقعة إلى اليمين، جلست امرأة. لا بدّ أنّها لم تنتبه لدخولي لأنّها لم تبدِ أيّ التفاتة. بقيت واقفاً لا أتقدّم خطوة، مستغرقاً في النظر إليها. كان ثوبها أبيض قصير الأكمام، وكانت تُسند مرفقها إلى حافة النافذة، مقرّبة يدها من فمها؛ بدت وكأنّها تنظر أرضاً إلى شيءٍ مبهم وحائر. كان شعرها الأسود الملّس مشكولاً ضفيرتين على صدغيها ولامعاً كجناح غراب، وقد أفلتت بعض الشعيرات على عنقها من الخلف متجعّدة. كان رأسها مائلاً قليلاً، ومشطها الكبير الذهبيّ المعقوف مزيّناً بحبّات مرجانٍ حمراء.

ندّت عنها صرخة حالما رأتني فنهضت قافزة. سحرتني في الحال نظرتها اللّامعة الطافحة من عينيها الواسعتين. ألفيتُني رازحاً تحت ثقل هذه النظرة وعندما استطعت أن أرفع جبيني، رأيت وجهاً ذا جمالٍ لامع، متناسق الملامح فالخطّ المستقيم نفسه ينطلق منحدراً من أعلى رأسها، من مفرق شعرها ليمرّ بين حاجبيها العريضين المقوّسين، نزولاً إلى أنفها

الأقنى بمنخريه المختلجتين المرفوعين مثل الرسوم القديمة المنقوشة على العقيق، منفرجاً في الوسط إلى شفة شهوانيّة يظلّلها زغب أزرق، ثمّ ينسكب العنق، العنق المكتنز الأبيض المستدير. رأيت عبر لباسها الرقيق نهديها المتكوّرين يهبطان ويعلوان وفقاً لتنفّسها. وقفتْ هكذا منتصبة إزائي، مغلّفة بنور الشمس النافذ عبر الستارة الصفراء والذي كان يبرز بشكلٍ أوضح تلك الملابس البيضاء، وذلك الوجه الأسمر.

وفي النهاية، ابتسمَتْ، ابتسامة إشفاق ورقّة. واقتربتُ. لا أعرف ماذا وضعت في شعرها ولكنّ عطراً كان يفوح منها، وشعرت بقلبي أكثر هشاشة ووهناً من لبّ درّاقة يذوب في الفم. قالت لي:

- ما بالك؟ تعال!

وذهبت لتجلس على كنبة طويلة مكسوّة بقماش رماديّ، مسندة إلى الحائط. جلستُ قربها. أمسكت بيدي. كانت يدها دافئة. وبقينا هكذا طويلاً نتبادل النظرات صامتين.

لم يسبق لي أن رأيت امرأة عن هذا القرب. كان كلّ جمالها يغمرني؛ لامست ذراعها ذراعي، وانسدلت ثنيات ثوبها على ساقيّ، وألهبني دفء خصرها. شعرت عبر هذا الاحتكاك بانحناءات جسدها وتأمّلت استدارة كتفها، وعروق صدغيها الزرقاء. قالت لي:

- ماذا بعد!

فقلت بفرحٍ وكأنّني أحاول أن أطرد عنّي هذا السحر الذي يخدّرني:

- ماذا بعد!

لكنّي صمتُّ. شعرت بأنّي مأخوذ بها وأجَلْتُ بها ألحاظاً كسالى. ومن دون أن تقول شيئاً، طوّقتني بذراعيها وجذبتني إليها في عناقٍ صامت. وضممتها إليّ بدوري، وألصقت فمي بكتفها، وارتشفت بلذّة أوّل قبلة

حبّ لي مشبعاً عبرها رغبات شبابي الطويلة وشهوات أحلامي المنشودة، ثمّ أرجعت عنقي إلى الخلف لأرى وجهها بشكلٍ أفضل. كانت عيناها تلتمعان وتلتهمانني، ونظرتها تطوّقني بأكثر من ذراعيها. تهت في نظرتها، وتشابكت أصابعنا. كانت أصابعها طويلة رهيفة تتغلغل في يدي بحركاتٍ قويّة بارعة. كان بإمكاني أن أسحقها لدى أدنى جهد فتعمّدتُ الشدّ عليها لأزيد من إحساسي بها.

لم أعد أذكر الآن ماذا قالت لي ولا بماذا أجبتها. مكثت هكذا لوقتٍ طويل، ضائعاً، معلّقاً بخفقان قلبي، مهدهداً به. كانت كلّ دقيقة تزيد من نشوتي، وتستزيد روحي من مرور كلّ لحظة، وكان جسدي كلّه يرتعش لهفة ورغبة وفرحاً. ومع ذلك كنت متجهّماً قاتماً أكثر منّي فرحاً، كنت جادّاً كما لو أنّني مستغرق في شيءٍ ما مقدّس وسام. بيدها جذبت رأسي إلى صدرها ولكن بخفّة كما لو أنّها تخشى أن تسحقه.

وبحركة من كتفيها نزعت كمّيها فانزاح ثوبها. لم تكن ترتدي مِشَدّاً، وكان قميصها مفتوحاً. كان نهداها من تلك النهود الرائعة التي يرغب المرء أن يدفن رأسه بينهما ويموت حبّاً. جلستُ على ركبتيّ متّخذةً الوضعيّة الساذجة لطفل يحلم. بدا جانب وجهها الجميل عذباً رقيقاً. ورأيت ثنية ذات استدارة رائعة تحت إبطها، وكأنّها ابتسامة كتفها. وكان ظهرها الأبيض ملتوياً قليلاً من التعب، وفستانها منفرشاً على الأرضيّة. كانت تنظر إلى السماء وتدندن بخفوتٍ لحناً حزيناً واهناً.

أمسكْتُ بمشطها ونزعْتُه فانهمر شعرها مثل موجة، وارتجفت الخصلات الطويلة السوداء وهي تسقط فوق خاصرتيها. مررت يدي بدايةً على شعرها وفيه وتحته، ثمّ غمست فيه ذراعي ومسحت به وجهي. كنت منفعلاً. أحياناً كان يلذّ لي أن أفرّق شعرها إلى قسمين من الخلف

ثمّ أردّه إلى الأمام مُخفياً نهديها. وأحياناً أخرى أجمعه كلّه وأجذب رأسها لأراه مرتدّاً إلى الخلف فيما عنقها مشدود إلى الأمام؛ استسلمت لي وكأنّها ميتة.

وفجأة، تملّصت منّي وأنزلت فستانها من قدميها متحرّرة منه، ثمّ قفزت على السرير برشاقةِ هرّة فغار الفراش تحت قدميها، وصرّ السرير وفجأة أسدلت الستائر واضطجعت. مدّت لي ذراعيها وجذبتني. يا ويلتاه! كانت الشراشف نفسها تبدو وكأنّها لا تزال دافئة من لمسات الحبّ التي عبرت من هنا.

كانت يدها الناعمة والرطبة تجول جسدي، وراحت تقبّلني على وجهي، وفي فمي، وعينيّ. كانت كلّ لمسة من لمساتها المتلهّفة تجعلني أفقد رشدي. تمدّدت على ظهرها متنهّدةً، وأغمضت عينيها نصف إغماضة ناظرة إليّ بسخرية شبقة، ثمّ اتكأت إلى مرفقها منقلبة على بطنها رافعة عقبيها في الهواء. كانت حركاتها تجمع الظرف والسحر المتكلّف إلى الرهافة والبساطة. وأخيراً استسلمت لي بتخلٍّ تامّ، رفعت عينيها نحو السماء، وأطلقت تنهيدة عميقة اختلج لها كلّ جسدها... تمدّد جسدها الدافئ تحتي مرتعشاً، وغمرتني الشهوة من أخمص قدميّ حتّى قمّة رأسي، التصق فمي بفمها وتشابكت أصابعنا تهدهدها الارتعاشة نفسها. كنّا متداخلين في عناقٍ واحد. رحت أتنشّق رائحة شعرها ولهاث شفتيها، وشعرتُ بأنّني أموت لذّة. بقيت لبعض الوقت فاغراً فمي أتلذّذ بخفقان قلبي والارتعاشة الأخيرة لأعصابي المهتاجة، ثمّ بدا لي أنّ كلّ شيء خمد وتلاشى.

أمّا هي! فلم تكن تقول شيئاً من ناحيتها. كانت جامدة مثل تمثال حيّ. كان شعرها الأسود الكثيف يكلّل وجهها الشاحب، وأفلتت طوق

ذراعيها باسطةً إيّاهما باسترخاء. من وقتٍ لآخر، كانت اختلاجة تعرو ركبتيها وخاصرتيها. وعلى صدرها لا يزال أثر قبلاتي بادِياً. تصاعد صوت أجشّ وأليم من حلقها كمن يخلد للنوم بعد بكاء وشهيق طويلين. وفجأةً سمعتها تقول هذا: «في غيبة حواسك، ليتكِ تصيرين أمّاً». ثمّ لم أعد أتذكّر ما تبع ذلك. صالبت ساقيها وأخذت تتمايل وكأنّها في أرجوحة.

مرّرت يدها في شعري وداعبته وكأنّها تداعب طفلاً، ثمّ سألتني إذا كانت لديّ عشيقة. أجبتها بِنعم. وبما أنّها تابعت، أضفت أنّ عشيقتي جميلة ومتزوّجة. وسألتني أيضاً عن اسمي، وعن حياتي، وعن عائلتي. قلت لها:

- وأنت؟ هل أحببت؟

- أحببت؟ بالطبع لا!

وأطلقت ضحكة مصطنعة أوقعتني في بلبلة.

سألتني أيضاً هل كانت عشيقتي جميلة. وبعد صمتٍ قالت:

- آه! لا بدّ أنّها تحبّك كثيراً! قلْ لي ما اسمك! هل سمعتني! ما هو اسمك؟

وبِدَوري أردت أن أعرف اسمها.

فأجابتني:

- ماري. لكنّ لديّ اسماً آخر. لم يكونوا ينادونني بهذا الاسم في بيتنا.

وبعدئذٍ لم أعد أعرف شيئاً. كلّ ذلك انقضى ومرّ عليه الزمن! ومع ذلك هناك أشياء أستعيدها الآن وكأنّها حدثت البارحة، غرفتها مثلاً. أرى من جديدٍ سجّادة السرير التي حُتّت في وسطها، والسرير من خشب الأكاجو مع زينته النحاسيّة، وكانت ستائره من الحرير الأحمر المتموّج

تخشّ تحت اليدين، وحواشيها بالية. على المدفأة آنيتان من الأزهار الاصطناعيّة. وفي الوسط ساعة الحائط التي كان ميناؤها متوسّطاً أربعة أعمدة من الرخام. في غير مكان، عُلّقت إلى الحائط صور مزدانة بإطار خشبيّ أسود تمثّل نساءً مستحمّات، وقطّافي ثمارٍ، وصيّادين.

أمّا هي! أمّا هيَ! أحياناً كانت ذكراها تعودني حيّة في منتهى الوضوح، وتتراءى لي كلّ تفاصيل وجهها من جديد بهذه الذاكرة الوفيّة التي ترعبنا والتي وحدها الأحلام تمدّنا بها، حين نرى من جديد أصدقاءنا القدامى الموتى بملابسهم نفسها ونغمة أصواتهم نفسها. أذكر جيّداً أنّه كانت لديها على الشفة السفلى، من الجهة اليسرى، شامة تظهر في ثنية البشرة حين تبتسم. أفقدتها الأيّام نضارتها، وبدا في زاويا فمها تشنّج مرير متعَب.

عندما تأهّبتُ للانصراف، قالت لي وداعاً.

- وداعاً!

- هل سنراك من جديد؟

- ربّما!

عندما صرت في الخارج، أنعشني الهواء. وشعرتُ بتغيّر تامّ في داخلي. لا بدّ أنّ الآخرين سيلاحظون على وجهي أنّني لم أعد الرجل نفسه، هكذا خطر لي. كنت أمشي بخفّة، وفخر، وابتهاج، وحريّة. لم يعد لديّ ما أتعلّمه، ولا ما أشعر به، ولا ما أرغب به في الحياة. عدت إلى البيت، وكأنّ دهراً قد مرّ مذ خرجت. صعدت إلى غرفتي وجلست على سريري، وأنا أرزح ساقطاً تحت وطأة نهاري. ربّما كانت الساعة تقارب السابعة مساءً. الشمس غربت واشتعلت السماء بألوانٍ ناريّة، وتخضّب الأفق تماماً متوهّجاً خلف سطوح المنازل. اكتنفت العتمة الحديقة، وبدت

غارقة في حزنها وتراكضت دوائر صفراء وبرتقاليّة في زوايا الجدران، تنخفض وتعلو في الجنبات. كانت الأرض معفّرة رماديّة. في الشارع بعض الناس من الرعاع يتأبّطون أذرع نسائهم ويغنّون لدى مرورهم قاصدين الحانات.

لم أكن أكفّ عن التفكير بما حدث لي فتملّكني حزن لا يوصف. كنت قرفاً، ومتخماً، وتعباً. قلت في نفسي: «لكنّي لم أكن كذلك في الصباح، كنت أنضر وأكثر سعادة، فما سبب هذا الحزن؟» ومررت بفكري من جديد بجميع الشوارع التي عبرتها. ورأيت من جديدٍ النسوة اللواتي صادفتهنّ، وكلّ الدروب التي سلكتها، وعدتُ إلى ماري واسترجعت كلّ تفصيل في ذاكرتي، لا بل اعتصرت ذاكرتي مستخرجاً كلّ ما تجود به. وأمضيت السهرة كلّها وأنا أفكّر بذلك. حلّ الليل وبقيت متشبّثاً بهذه الفكرة الساحرة، كما يتشبّث عجوز بذكرياته. كنت أشعر أنّني لن أستعيد شيئاً منها، وأنّني سأعرف صبوات أخرى، لكنّها لن تشبه هذه بشيء، فهذا العطر الأوّل تلاشى، وهذه النغمة طارت. رغبت في رغبتي وتحسّرت على فرحي.

عندما كنت أسترجع الماضي والحاضر، أي الانتظار الذي عشته مع الأيّام المنصرمة والتعب الذي كان يرزّحني، لم أكن أعرف أيّ زاوية من حياتي انتحى قلبي، هل كنت أحلم أم أبادر إلى الفعل، هل كنت مليئاً قرفاً أم مفعماً رغبة، ذلك أنّني كنت في الوقت نفسه أشعر بغثيان التخمة واحتدام الرجاء.

هل هذا ما يدعى حُبّاً؟ هل هذه هي المرأة؟ آه يا إلهي! لماذا نشعر بالجوع فيما نحن متخمون؟ لماذا هذا الكمّ من الأشواق وهذا الكمّ من الخيبات؟ لماذا قلب الإنسان بهذا الاتّساع والحياة بهذا الضيق؟ ثمّة أيّام

لا يكفيه فيها حبّ الملائكة نفسه ويتعب بساعة واحدة من كلّ المداعبات في هذه الدنيا.

ولكنّ الوهم المتلاشي يترك فينا عطره السحريّ، ونقتفي آثاره عبر كلّ الأزقّة التي فرّ منها. يحلو لنا أن نقول إنّ كلّ شيءٍ لم ينتهِ بهذه السرعة، وإنّ الحياة ما زالت في بدايتها، وإنّ عالماً يشرّع لنا أبوابه. أوَ نكون في الواقع قد أهدرنا الكثير من الأحلام السامية، والكثير من الرغبات المحتدمة لكي نصل إلى هنا؟ بَيدَ أنّني لم أكن أريد أن أتخلّى عن كلّ الأشياء الجميلة التي صنعتُها. لقد ابتدعتُ من أجلي، على هامش عذريّتي المفقودة، أشكالاً أخرى أكثر إبهاماً ولكنّها أجمل، وشهوات أخرى أقلّ وضوحاً كالرغبة التي تثيرها فيّ، لكنّها سماويّة ولامتناهية. وإلى الأفكار الخياليّة التي استرسلت فيها من قبل أو التي حاولت أن أذكرها، انضافت الذكرى الحادّة للأحاسيس الأخيرة، وكلّ شيءٍ امتزج، الطيف والجسد، الحلم والواقع. والمرأة التي تركتها للتوّ اكتست بالنسبة لي بعداً يشتمل على الماضي ويضحي مرقاة للمستقبل. كنت وحيداً أفكّر بهذه المرأة، قلّبتها من كلّ الزوايا علّني أكتشف فيها شيئاً جديداً، شيئاً غير مسبوقٍ، لم ينجلِ لي في المرّة الأولى. وأخذتني الرغبة في أن أراها ثانية، هجست بها، كانت كمثل منحدَرٍ محتوم أنزلق فيه.

كان الطقس حارّاً والليل جميلاً، آه من الليل! وصلت إلى بابها والعرق يتصبّب منّي. كانت نافذتها مضيئة. لا بدّ أنّها لا تزال سهرانة. توقّفت خائفاً. بقيت متردّداً لوقتٍ طويل لا أعرف ماذا أفعل، مليئاً بألف فكرةٍ مشوّشة. ومرّة أخرى دخلتُ. ومرّة أخرى انزلقت يدي على درابزين درجها، وأدارت مفتاح بابها.

كانت وحيدة كما في الصباح، ماكثة في المكان نفسه، وفي الوضعيّة

نفسها تقريباً لكنّها استبدلت ثوبها بآخر أسود مزيّن في أعلاه بحاشية من الدانتيل تموج على صدرها الأبيض. كانت بشرتها مضيئة، وكان لوجهها ذلك الشحوب الشهوانيّ الذي تمنحه المشاعل. كان فمها شبْه مفتوح، وشعرها مسدلة خصلاته على كتفيها أمّا عيناها فتنظران إلى السماء وكأنّهما تبحثان عن نجمٍ متوارٍ.

ثمّ نهضت بسرعةٍ وبقفزةٍ واحدة انقضّت عليّ واحتضنتني بين ذراعيها. كان عناقنا مرتعشاً مثل عناق العشّاق الذين تجمعهم لهفة الوصال في ليلة الميعاد بعد أن ارتقبوا طويلاً في الظلمات مترصّدين كلّ جلبة في الأوراق، وكلّ طيف غامض مرَّ في الفرجة بين الأشجار.

قالت لي بصوتٍ متلهّفٍ عذب:

- آه ها قد عدت لرؤيتي! أنت تحبّني إذاً! قلْ لي قلْ لي يا قلبي هل تحبّني؟

كان لكلماتها رنّة حادة غنجة كالنبرات الأكثر ارتفاعاً في الناي.

ثنت ركبتيها قليلاً واحتضنتني بين ذراعيها ونظرت إليّ بلهفة قاتمة. أمّا أنا فكنت، إلى دهشتي، مسحوراً وفخوراً بهذا الشغف المفاجئ.

كان ثوبها الساتان البرّاق يخشّ بين أصابعي، ونعومة القماش المخمليّ تذكي دفء ذراعها العذب، وبدا وكأنّ من لباسها نفسه ينبعث إغواء يضاهي العري الأكثر فحشاً.

أرادت بكلّ قواها أن تجلس على ركبتيّ. وعاودت لمستها المعهودة: تمرّر يدها في شعري وهي تنظر إليّ بثباتٍ، وعيناها في عينيّ. وفي وضعيّتها الجامدة تلك، بدت حدقتاها متمدّدتين، وسال منهما شيء أحسست به يصبّ في قلبي. وكلّ فوحان من هذه النظرة الفارهة الذي يشبه الحلقات المتتابعة التي يرسمها العقاب النسريّ في الفضاء، كان يزيدني انجذاباً إلى

ذلك السحر الرهيب.

قالت من جديد:

- آه! أنت تحبّني أذاً! ها قد عدت إليّ! من أجلي! ولكن ما بالك لا تقول شيئاً؟ لمَ أنت حزين؟ ألم تعد تريدني؟

توقّفت قليلاً ثمّ استأنفت:

- كم أنت جميل يا ملاكي! أنت جميل مثل قلب النهار! عانقني إذاً! أحبّني! قبّلني ! هيّا بسرعة!

والتهمت فمي هادلةً كَيَمامة انتفخ صدرها بالتنهّدات المشحونة لذّة.

- آه! يا لفرحتي جئت تقضي الليلة، الليلة كلّها لنا نحن الاثنين، أليس كذلك؟ أودّ أن يكون لي عشيق مثلك، عشيق فتيّ ونضر يحبّني كما أشتهي ولا يفكّر إلّا بي! آه، كم سأحبّه!

وأطلقت تلك التنهيدة المشحونة رغبةً التي يبدو معها وكأنّ السماء ستطبق على الأرض.

سألتها:

- أليس لديك عشيق؟

- من؟ أنا؟ وهل تظنّ أنّ أحداً يحبّنا، أو يأبه بنا، أو يريدنا؟ وأنت نفسك، أستتذكّرني غداً؟ ربّما ستقول: «أمس طارحتُ الغرامَ فتاةً...!». ولكن أفّ...... ترالا! لا! لا! (وأخذت ترقص واضعة يديها على خصرها متمايلة في حركاتٍ بذيئة). انظر كم أنا بارعة في الرقص! انظر، انظر إلى بذلتي.

وفتحَتْ خزانتها، ورأيْتُ على الدرفة قناعاً أسود، وأربطة زرقاء، ومعطفاً ذا قلنسوة، وسروالاً من المخمل الأسود المزدان بشرائط ذهبيّة معلقاً إلى مسمار، وكلّها بقايا ذابلة من الكرنفال السابق.

قالت:

- بذلتي، يا بذلتي المسكينة! يا رفيقة حفلاتي، كم رقصنا سويّةً هذا الشتاء!

كانت النافذة مفتوحة، والريح ترجّف نور الشمعة، فذهبت لتنقلها من على المدفأة إلى طاولة السرير. وإذ وصلت قرب السرير، جلست عليه مسترسلة في التفكير، ورأسها مطرق إلى صدرها. لم أكلّمها. انتظرت. كانت رائحة ليالي آب الدافئة تصل إلينا. وكان يُسمَع من الغرفة حفيف الأشجار في الجادّة، واصطفاق ستارة النافذة. طيلة الليل تواصلت العاصفة. وأحياناً، على ضوء البروق كنت ألمح وجهها الكامد، المتشنّج في تعبيرٍ حزين متوهّج. ركضت الغيوم في الفضاء مسرعةً، وظهر القمر، بين الفينة والأخرى في زاوية صافية من السماء محاطاً بالغيوم القاتمة.

خلعت ثيابها ببطءٍ بحركات منتظمة آليّة. أبقت على قميصها الداخليّ وسارت نحوي على البلاط حافية القدمين. أمسكت يدي واقتادتني إلى مخدعها. لم تنظر إليّ، كانت تفكّر بشيءٍ آخر. راقبت شفتها الورديّة الرطبة ومنخريها المنفرجين، ونظرتها المتوقّدة التي بدت وكأنّها ترتعش تحت تأثير أفكارها، أشبه ما تكون بآلة الفنّان الرنّانة التي تترك رغم غيابه عطراً خفيّاً من الأنغام الهاجعة ينتشر في الفضاء.

اضطجعت قربي مستعرضةً بكبرياء المحظيّة جميع روائع جسدها. رأيت صدرها الصلب عارياً وعارماً كدمدمة عاصفة، وبطنها اللؤلؤيّ بسرّته المجوّفة، بطنها المتشنّج، اللّدن، العذب كوسادة من الساتان الدافئ يلذّ للرجل أن يمرّغ رأسه فيه. كانت وركاها رائعتين، من تلك الأوراك الأنثويّة المذهلة، وإذا نظرت جانبيّاً إلى الخطّ المتموّج المنسكب من الورك حتّى الفخذ المستديرة ذكّرك بداهةً برشاقة الأفعى وفسق المُجّان. جعلها

العرق الذي يندى من جلدها نضرة ودبقة. في الليل برقت عيناها بلمعانٍ رهيب، وكان سوار العنبر الذي ترتديه في ذراعها اليمنى يرنّ حين تتمسّك بخشب السرير. آنذاك قالت لي وهي تضمّ رأسي إلى صدرها:

- يا ملاك الحبّ والملاذ والشهوة، من أين جئت؟ من هي والدتك؟ بماذا كانت تفكّر عندما حبلت بك؟ هل كانت تحلم بقوّة أسود أفريقيا، أم بالعطر الفتّاك لأشجار تلك الأصقاع البعيدة؟ ألن تقول لي شيئاً؟ انظر إليّ بعينيك الواسعتين، انظر إليّ! انظر إليّ! أعطني فمك! هيّا أعطني فمك! خذْ فمي!

راحت أسنانها تصطكّ وكأنّ بها حمّى، وارتعشت شفتاها المنفرجتان ناطقتين بكلماتٍ مجنونة:

- آه! كم سأغار عليك، أتعرف، إذا تحاببنا، فإنّ أيّ امرأة تنظر إليك فسوف........

وأكملت جملتها صرخة. وفي مرّات أخرى كانت توقفني في حمأة احتدامنا وهي متصلّبة الذراعين وتقول بصوتٍ منخفض إنّها تكاد تموت.

- آه! ما أجمل الرجل في شبابه؟ لو كنت أنا رجلاً لأحبّتني كلّ النساء، ولالتمعت عيناي ببريق الشهوة! ولتأنّقت كثيراً وتجمّلت! عشيقتك تحبّك أليس كذلك؟ أريد أن أتعرّف إليها. أين تتقابلان؟ هل عندك أم عندها؟ أم في المتنزه على ظهر حصانك؟ لا بدّ أنّك جميل حين تعتلي الحصان! أم في المسرح لدى انتهاء العرض حين تذهب لاستلام معطفها؟ أم في حديقتها ليلاً؟ ما أجملها الساعات التي تقضيانها وأنتما تتحدّثان معاً جالسين تحت العريشة، أليس كذلك؟

تركتها تتكلّم. بدا لي أنّها بهذه الكلمات تغدو عشيقة مثلى. بتّ أهوى هذا الطيف الذي نفذ للتوّ إلى روحي والذي التمع بأسرع من شهب ناريّ مساء في الريف.

- هل تعارفتما منذ وقتٍ طويل؟ أخبرني قليلاً عن علاقتكما. ماذا تقول لها حتّى تثير إعجابها؟ هل هي طويلة القامة أم قصيرة؟ هل تحسن الغناء؟

لم أستطع إلّا مصارحتها بأنّها كانت على خطأ. حتّى أنني حدّثتها عن مخاوفي حين جئت للقائها، وعن ندمي، أو أقلّه عن الخوف الغريب الذي تملّكني بعد اللقاء، والرغبة المفاجئة التي دفعتني للعودة إليها. ثمّ قلت لها إنّه لم يسبق لي فعلاً أن حظيت بعشيقة، وإنّني بحثت عن عشيقة في كلّ مكان وحلمت بها طويلاً، وإنّها هي أوّل امرأة استجابت لمداعباتي، فاقتربت منّي بدهشة، وضمّتني بين ذراعيها، وكأنّني وهمٌ تريد الإمساك به.

ثمّ قالت لي:

- هل صحيح ما تقول؟ إيّاك أن تكذب عليّ. إذاً أنت بكرٌ ومعي ودّعتَ عُذرتكَ يا ملاكي المسكين؟ بالفعل شعرتُ بسذاجة طفوليّة في قبلاتك. لكنّك تدهشني! أنت ساحر. كلّما نظرت إليك ازداد حبّي لك أكثر فأكثر. خدّك ناعم مثل الدراق، بشرتك بيضاء نقيّة، وشعرك الجميل قويّ وعبيّ. آه كم سأحبّك لو أردت! لأنّني لم يسبق لي أن رأيت أحداً مثلك. لكأنّك تنظر إليّ بطيبة ومع ذلك فعيناك تحرقانني. أرغب دوماً في الاقتراب منك وضمّك إلى صدري.

كانت هذه أولى كلمات الحبّ التي أسمعها في حياتي. أيّاً يكن مصدرها

فإنّ قلبنا يتلقّاها بارتعاشةٍ سعيدة. تذكّروا هذا! رويت من كلماتها كلّ غليلي. آه كم ارتميت بسرعةٍ محلّقاً في هذه السماء الجديدة!

- هيّا هيّا، قبّلني، قبّلني بحرارة! فقبلاتك تعيد إليّ الشباب. أحبّ أن أشمّ رائحتك التي تشبه رائحة زهر العسل في شهر حزيران. رائحة نضرة وحلوة في الوقت نفسه. وأسنانك، أرني أسنانك. إنّها أكثر بياضاً من أسناني. لست جميلة مثلك... آه! ما أشهاك وما أجملك!

وألقت شفتيها على عنقي وارتشفت منه قبلات لاذعة كما ينهش حيوان مفترس أحشاء فريسته.

- ماذا حدث لي هذا المساء؟ لقد أثرتني. أرغب في الشراب والرقص والغناء. هل أردت أحياناً أن تكون عصفوراً صغيراً؟ سوف نطير معاً. لا بدّ أنّ مطارحة الغرام في الفضاء أمرٌ عذبٌ، فالرياح تدفعنا، والغيوم تحيط بنا... لا، لا تنبس بكلمة، أريد أن أنظر إليك، أن أنظر إليك طويلاً، لكي أتذكّرك دوماً!

- ولِمَ هذا كلّه؟

أجابتني:

- لِمَ هذا كلّه؟ لا لشيء، لكي أتذكّره، وأفكّر فيك. سأفكّر فيك في الليل حين ينتابني الأرق، وفي الصباح عندما أستفيق، سأفكّر في ذلك طيلة النهار، وانا أنظر إلى العابرين مستندة إلى نافذتي. ولكنّي سأفكّر فيك خصوصاً في المساء، عندما تعتم السماء قبل إشعال الشموع. سأتذكّر وجهك وجسدك، جسدك الجميل الذي ينتسم الشهوة. وسأتذكّر صوتك! آه! اسمع. أرجوك يا حبّي، دعني أقصّ خصلةً من شعرك. سأضعها في هذا السوار، ولن تفارقني.

ونهضت للتوّ، ذهبت لإحضار مقصّها وقصّت، من مؤخّرة رأسي، خصلة شعرٍ. أحدث مقصّها الصغير الحادّ صريراً لدى انفتاحه وانغلاقه. لا أزال أشعر على رقبتي ببرودة الفولاذ ويد ماري.

إنّ من أجمل الأشياء بين العاشقين منح خصلات الشعر وتبادلها. كم من الأيادي الجميلة سرّبتْ في الليالي عبر الشرفات جدائلَ سوداء لأحبّتِها! كم من الخصلات ضُفِرت بإتقانٍ وجُعِلَتْ سلاسل للساعات، أو ألصقت بالخواتم، أو أُدرِجَتْ في الميداليّات على شكل ورقة النفل[1]! وكم من ضفائر لوّثتها يد المزيّن التافهة! أريد الخصلات بسيطة ومعقودة في طرفيها بخيط مخافة أن أفقد شعرة واحدة. وقد يقصّها العاشق بنفسه من شعر المحبوب في لحظةٍ قصوى، لحظة قويّة من حبّ أوّل، أو عشيّة الرحيل. ما أجمل الشَّعر! ما أجمل الشَّعر! إنّه معطف المرأة البديع في العصور البدائيّة عندما كان ينسدل حتّى عقبيها ويغمر ذراعيها فيما كانت تذهب مع الرجل ويتمشّيان على ضفاف الأنهر الكبيرة؛ آنذاك كانت نسائم الخلق الأولى ترجّف ذرى النخيل، وألباد الأُسُود، وشعور النساء في آنٍ معاً. أحبّ الشَعر. كم منَ المرّات، حين تنبش القبور أو تُهدم الكنائس كنت أتأمّل الشعور التي تظهر في الأرض المقلوبة بين عظام مصفرّة وقطع خشبٍ مهترئة! وغالباً ما تُرسل الشمس عليها شعاعاً شاحباً، وتلمّعها كخيوط الذهب. وأحبّ أن أفكّر بأنّه يوماً ما، بعد أن تُجمع وتوضع على جلد أبيض مدهون بالعطور السائلة، ستلامسها يد متيبّسة وتبسطها فوق الوسادة، أو أنّ فماً ما، وقد بات أدرد، يقبّلها في وسطها ويعضّ طرفها وهو ينتحب سعادة.

تركتها تقصّ لي شعري بغرورٍ ساذج. وخجلت لأنّني لم أطلب منها

---

(1) النفل: نبات من الفصيلة البقوليّة ثلاثيّ الأوراق.

ذلك بدوري. وفي تلك الساعة بالذات أدركت أنّني لا أملك شيئاً، لا قفّازاً، أو حزاماً، ولا حتّى تويجاتٍ ثلاثة من الورد مجفّفة موضوعة في كتاب، لا شيء إلّا ذكرى حبّ بائعة هوى، وأتحسّر على خصلة الشعر تلك.

أنهت مهمّتها، وجاءت تنام قربي من جديد واندسّت في الفراش وهي ترتعش لذّة. كانت ترتجف وتتجمّع على نفسها ملتصقة بي مثل طفل صغير. وأخيراً غفت واضعةً رأسها على صدري.

وكلّما تنفّستُ، شعرتُ بثقل ذلك الرأس النائم يعلو فوق صدري. أيّ اتّحادٍ حميم كان يجمعني إذاً بذلك الكائن المجهول؟ كان واحدنا يجهل الآخر حتّى تلك الساعة، وجمعتنا الصدفة. كنّا هناك في الفراش نفسه، متّحدين بقوّة لا توصف، وسنفترق ولن نتلاقى مجدّداً. إنّ الذرّات التي تطير سابحة في الهواء تتلاقى فيما بينها لمدّة أطول ممّا تتلاقى القلوب المتحابّة على هذه الفانية. لا بدّ أنّ الرغبات المتوحّدة التي تتوق إلى أنيسٍ تنهض في الليل وتتعانق أحلامها باحثة عن نصفها الآخر. ربّما كان هذا القلب يحنّ إلى النفس المجهولة التي تحنّ بدورها إليه في دوائر أخرى تحت سموات أخرى.

فما هي الأحلام التي كانت تجول يومذاك في رأس تلك المرأة؟ هل كانت تفكّر في عائلتها، أم في عشيقها الأوّل، أم في الرجال، أم في حياة غنيّة رغيدة؟ هل تفكّر في حبّ مشتهى؟ ربّما كانت تفكّر فيّ! كنت أحدّق بجبينها الشاحب متلصّصاً على نومها وأحاول أن أكتشف معنى الصوت الأجشّ الذي يخرج من منخريها.

كانت تمطر، وكنت أصغي إلى دمدمة المطر وإلى غطيط ماري. كانت الأنوار الموشكة على الانطفاء تفرقع في أقراص الشمعدان البلّوريّة. لاح

الفجر وانبثق خطّ أصفر في السماء متمدّداً أفقيّاً ومتّخذاً تدريجاً ألواناً مذهبّة وخمريّة، ثمّ أرسل في الشفّة نوراً واهناً مبيّضاً؛ متقزّحاً بالبنفسجيّ يعابث الليل وبريق الشموع المتلاشية المنعكسة في المرآة.

كانت ماري ممدّدة فوقي، وبعض أجزاء جسدها في الضوء، وأخرى في الظلّ. تململَتْ قليلاً. كان رأسها أكثر انخفاضاً من نهديها. وكانت ذراعها اليمنى، الذراع المتزيّنة بالسوار، تتدلّى خارج السرير وتلامس الأرضيّة تقريباً. على طاولة سريرها باقة من أزهار البنفسج موضوعة في كوب ماء. مددت يدي وأخذت الباقة ثمّ فككت الخيط بأسناني وتنشّقتها. لا شكّ أنّ دفء الليلة السابقة، أو الزمن الطويل الذي مضى على قطافها قد أذبلها. فاحت منها رائحة لذيذة في منتهى الخصوصيّة. شممت عطرها زهرةً زهرة. وبما أنّها كانت رطِبَة وضعتها على عينيّ لأبرّدهما، فدمي كان يغلي، وأطرافي التعبة شعرت بحريق لدى احتكاكها بالأغطية. عندئذٍ، لم أعد أعرف ماذا عليّ أن أفعل، ولم أشأ إيقاظها لأنّ مرآها نائمةً أشعرني بلذّة غريبة. ثمّ وضعت برقّة جميع أزهار البنفسج على صدر ماري فغمرتْه ولم ألبث أن جعلتُ ماري تُماثل في ذهني تلك الأزهار الجميلة الذابلة التي كانت تدثّر نومها. ومثلها في الواقع، وبالرغم من النضارة المثلومة، أو ربّما بسبب من ذلك، كانت ترسل إليّ عطراً أكثر نفاذاً. لا بدّ أنّ الشقاء الذي ظلّلها أضفى جمالاً على المرارة التي طبعت إيماءة فمها. حتّى وهي نائمة، بدت جميلة رغم التجعيدتين اللّتين حفرتا عنقها من الخلف، والتي كانت تخفيهما ولا شكّ في النهار خلف شعرها. وإذ رأيت تلك المرأة المتمرّسة بالأحزان حتّى في لحظات الشهوة، والتي كان لعناقها فرح مشؤوم، رحت أتخيّل آلاف الأهواء الفظيعة التي اخترقت روحها كصاعقة نظراً لما خلّفت من آثار. ثمّ إنّه

يطيب لي سماعها تروي حياتها أنا الذي كنت أبحث في الحياة البشريّة عن الصوت الرنّان المؤثّر، عن عالم الأهواء الجارفة والدموع الوالهة.

وفي تلك اللحظة، استيقظَتْ فسقطت عن صدرها كلّ أزهار البنفسج. ابتسمت. كانت عيناها لا تزالان شبه مغمضتين، لكنّها ضمّتني بذراعيها، وعانقتني، وقبّلتني قبلة صباحٍ طويلة، قبلة يمامة تنهض من نومها.

وعندما رجوتها أن تخبرني قصّتها، قالت لي:

– لك أنت سأرويها بطيبة خاطر. الأخريات سيكذبن عليك ويبدأن بالقول لك إنّهنّ لم يكنّ دوماً ما هنّ عليه الآن. وسيخبرنك قصصاً ملفّقة عن عائلاتهنّ وغراميّاتهنّ. لكنّي لا أريد أن أخدعك، ولا أن أتظاهر بأنّني من صنف الأميرات. اسمعْني وسترى مدى سعادتي! هل تعرف أنّني رغبت غالباً في أن أقتل نفسي؟ ذات مرّة، أتوا إلى غرفتي، وكنت على شفير الاختناق. آه! لو أنّني لا أخاف من الجحيم لكنت انتحرت منذ زمن طويل. أخاف أيضاً من الموت، أخاف من أن أمرّ بهذه اللحظة، ومع ذلك أرغب في الموت!

أنا من الريف. والدي كان مزارعاً. وحتّى ذكرى مناولتي الأولى[1]، كانوا يرسلونني كلّ صباحٍ لأحرس البقرات في الحقول. طيلة النهار كنت أبقى وحيدة؛ أجلس على حافة الوهدة، أو أذهب إلى الغابة أخرج العصافير من أعشاشها، أتسلّق الأشجار مثل صبيّ، وكانت ثيابي ممزّقة دوماً. وغالباً ما ضُرِبت لسرقتي بعض التفاح، أو لأنّي سمحت للبهائم

(1) هي المرّة الأولى التي يتناول فيها الطفل المسيحيّ خبز القربان في شعيرة كنسيّة معدّة لهذا الغرض، ويتمّ هذا عموماً بين سنّ الثامنة والعاشرة.

بأن تسرح عند الجيران. وعندما يأتي موسم الحصاد، كنّا نتحلّق عند المساء ونرقص في الفناء، وأستمع إلى الأغاني التي لم أكن أفهم كلّ معانيها. كان الصبْية يقبّلون الفتيات ونضحك مقهقهين. وكان هذا يحزنني، ويحملني على الحلم. أحياناً، في طريق عودتي إلى المنزل، كنت أطلب من أحد المزارعين أن يرفعني إلى عربته التي تحمّل الجفيف[1]. كان الرجل يصطحبني معه ويضعني على حُزَم البرسيم. أتعلم أنّني بدأت أجد لذّة فائقة حين يرفعني رجل، قويّ البنية متعرّق الصدر، وقد لفحت الشمس وجهه، بيديه القويّتين الصلبتين؟ عادةً كانت أكمام قميصه مشمّرة حتّى إبطيه، وكنت أحبّ أن ألمس عضلاته التي تنتفخ وتتصلّب عند كلّ حركة يقوم بها، وأن يقبّلني وأشعر بذقنه الخشنة تخز وجنتيّ. في أسفل المرج، حيث كنت أذهب كلّ يوم، كان جدول صغير بين صفّين من أشجار الحور، وعلى حافته تنبت كلّ أنواع الأزهار. كنت أصنع من الأزهار باقاتٍ وتيجاناً، ومن حبّات الغبيراء[2] سلاسل. درجْتُ على هذه العادة، وملأت بها منزري دوماً. كان أبي يزجرني ويقول لي إنّي لن أكون إلّا مجرّد فتاةٍ مغناج. وفي غرفتي وضعت منها أيضاً. أحياناً كانت هذه الروائح النفّاذة تسكرني، وأنام وبي دوار لذيذ. كانت رائحة الجفيف المقصوص مثلاً، الجفيف الدافئ المختمر تبدو لي دوماً شهيّة بحيث إنّني في أيّام الآحاد كنت أحتبس في الهري وأمضي هناك طيلة بعد الظهر أراقب العناكب وهي تنسج خيوطها عند العوارض، وأسمع طنين الذباب. كنت أعيش متكاسلة، لكنّي غدوتُ في يفاعتي فتاة جميلة، ممتلئة صحّة. وغالباً ما كان يأخذني مسّ من الجنون فأركض، وأركض حتّى أتهاوى تعباً، أو

(1) الجفيف، وقد سبق التعريف به، هو الحشيش أو الكلأ اليابس.

(2) غبيراء: جنس من النباتات الشجريّة من الفصيلة الورديّة.

أغنّي بأعلى صوتي، أو أتكلّم لوحدي وطويلاً. وكانت تتملّكني رغبات غريبة. كنت أنظر دوماً إلى الحمائم في وكناتها تمارس الحبّ. وبعضها تأتي إلى نافذتي، وتتعابث في الشمس، أو تلهو في العريشة. ليلاً، كنت أسمع أيضاً رفرفة أجنحتها وهديلها الذي بدا لي في غاية العذوبة والرقّة لدرجة أنّني أحببت أن أكون يمامة أنا نفسي، وأن ألوي عنقي كما كانت تفعل حين تتبادل القبل. كنت أفكّر: «بمَ كانت تناجي بعضها البعض حتّى تبدو على هذه السعادة؟». وأذكر أيضاً بأيّ لهفة كنت أرى الخيول تركض خلف الأفراس، وكيف تنفرج مناخيرها حين تتسافد. وأذكر أيضاً كيف يهتزّ صوف النعجة بهجةً لدى اقتراب الكبش منها، وهمس النحلات عندما تتراصف كحبّات العناقيد على أشجار البساتين. في الحظيرة، غالباً ما كنت أندسّ بين الحيوانات لأشمّ روائح إفرازاتها، بخار الحياة هذا الذي كنت أستنشقه بملء رئتيّ، ولأتأمّل أيضاً أعضاءها خلسةً، وأشعر بدوار يُغيم عينيّ دوماً. مرّات أخرى، عند منعطف الغابة، وخصوصاً عند الغسق، كانت الأشجار نفسها تتّخذ أشكالاً غريبة. بعض الأحيان بدت كأذرع تبتهل للسموات، وأحياناً كانت جذوعها تلتوي مثل أجسادٍ تعصف بها الريح. في الليل، حين أستيقظ، كنت أرى القمر والغيوم في السماء، وأشياء أخرى ترعبني وتثيرني. أذكر ذات مرّة عشيّة عيد الميلاد رأيت امرأة طويلة القامة تقف عارية، وتزوغ بعينيها. كان طولها يبلغ مئة قدم لكنّه لم ينِ جسدها يمتدّ آخذاً في النحول إلى أن انبتر، وسقط كلّ عضوٍ منفصلاً، الرأس أوّلاً، ثمّ باقي الأطراف المختلجة. أو أنّني كنت أحلم. في سنّ العاشرة كانت تنتابني ليالٍ محمومة، ليالٍ مليئة بالشبق. ألم يكن الشبق يلمع في عينيّ ويسري في عروقي ويجعل قلبي متوثّباً لدى تلامس أعضائي؟ كان الفجور لا يكفّ عن ملء رأسي بأناشيد شهوانيّة.

وفي رؤاي، كانت الأجساد تلمع مثل ذهب، وأشكال مجهولة تترجرج كالزئبق.

في الكنيسة كنت أنظر إلى الرجل العاري الممدّد على الصليب وأودّ لو أرجع رأسه مستقيماً، وأملأ خاصرتيه المزيلتين، وألوّن كلّ أطرافه، وأرفع أجفانه، ليصير أمامي رجلاً جميلاً متوقّد النظرات. ثمّ أنزعه عن الصليب وأنزله إليّ على المذبح متقدّماً وسط دخان البخور الذي يكتنفه، فتسري في جلدي ارتعاشات مغتلمة.

وحين يتحدّث رجل إليّ، كنت أمعن النظر إلى عينيه، والشعاع المنبعث منهما. وأحبّ خصوصاً الرجال الذين تخفق أجفانهم باستمرار رامشةً في حركة شبيهة بخفقات أجنحة الفراشات الليليّة. وأحاول أن أتخيّل عبر ملابسهم سرّ أعضائهم الحميمة. ورحت أسأل صديقاتي الشابّات عن هذه الأمور، وأتلصّص على قبلات والديّ منصتةً إلى الجلبة التي يُحدثانها ليلاً في فراشهما.

في سنّ الثانية عشرة احتفلتُ بذكرى مناولتي الأولى. أحضروا لي من المدينة فستاناً أبيض جميلاً. وارتدينا جميعاً أحزمة زرقاء. أردت أن يُضفرَ شعري على طريقة السيّدات الناضجات. وقبل أن أذهب إلى الكنيسة نظرتُ إلى نفسي في المرآة. كنت جميلة كملاك الحبّ حتّى أنّني أُغرمت بنفسي ووددت لو أقدر على ذلك. صادف الاحتفال بمناولتي قبيل عيد القربان؛ ملأت الراهبات الكنيسة بالأزهار التي فاحت عطورها. وبادرت، أنا نفسي، منذ ثلاثة أيّام، إلى معاونة الآخرين في تزيين الطاولة الصغيرة التي تقدّم عليها النذور، بزهر الياسمين. وغصّ المذبح بأزهار الياقوتيّة، وكُسيَتِ الأدارج حيث يقف الكورس بالسجاجيد. كنّا نرتدي جميعاً قفّازات بيضاء، ونحمل شموعاً في أيدينا. كنت أطير سعادة،

وشعرت أنّني خُلِقتُ من أجل السعادة. وخلال القدّاس، رحت أحرّك قدمي على السجّاد الذي خلا منه منزل والدي. وأردت أن أنطرح عليه بثوبي الجميل، وأن أبقى وحدي في الكنيسة وسط الشموع المضاءة. أخذ قلبي يخفق برجاءٍ جديد. وانتظرت تناول القربان بقلق. سمعتهم يقولون إنّ المناولة الأولى تغيّر الإنسان، وظننت أنّ جميع رغباتي ستهدأ بعد تناول القربان. لكنّ شيئاً من هذا لم يحصل! حين عاودت الجلوس في مكاني، ألفيتُني أحترق في أتون جسدي. لاحظت أنّهم كانوا ينظرون إليّ عندما ذهبت إلى الكاهن مبدين إعجابهم بي. وهذا زادني اختيالاً وتبختراً، وجدتني جميلة وتعاظم كبريائي بطريقة مبهمة، وأذكته الرغبات الكثيرة المختبئة فيّ، والتي تخفى عليّ أنا نفسي.

ولدى الخروج من القدّاس اتّجهنا إلى الباحة بجوار المقبرة، متوالين جميعاً في صفّ منتظم. كان الأهالي والفضوليّون يقفون من الجهتين على العشب، ليشاهدوا مرورنا. سرْتُ في المقدّمة، كنت الأطول قامة. وخلال العشاء، لم أتناول شيئاً من الطعام لانقباضٍ شديدٍ خالجني. كانت عينا أمّي التي بكت طيلة رتبة القدّاس لا تزالان محمرّتين. وأقبل بعض الجيران لتهنئتي وقبّلوني بحرارة، لكنّ لمساتهم كانت تقرفني. وعند المساء، أوان الصلاة، اجتمع حشد أكبر من الصباح. وقبالتنا اصطفّ الصبيان. راحوا يرنون إلينا بنظراتٍ نهمة لا سيّما ناحيتي. وحتّى حين أطرقت رأسي شعرت بنظراتهم مصوّبة نحوي. كانوا مثلنا حسني الهندام وقد جعّدت شعورهم. أنشدنا المقطع الأوّل من إحدى التراتيل. وعندما غنّى الفتيان بِدورهم، ملأتني أصواتهم انفعالاً. إن أنهوا غناءهم تلاشت متعتي، وإن عاودوه انتفضت رغبتي من جديد. تفوّهْتُ بنذوري، وكلّ ما أذكره هو أنني تحدّثت عن الثوب الأبيض وعن البراءة.

وتوقّفت ماري عن الكلام هنا، تائهة على الأرجح في الذكرى المؤثّرة، خائفة ربّما من أن يهزمها الألم. ثمّ استأنفت وهي تطلق ضحكة يائسة:

- آه كيف نسيت! الثوب الأبيض! منذ زمن طويل بلي هذا الثوب! والبراءة معه! أين هنّ الأخريات الآن؟ منهنّ من توفّين ومنهنّ من تزوّجن وأنجبن أطفالاً. لم أعد أرى أيّ واحدةٍ منهنّ. لا أعرف أحداً. وكلّ يوم أرغب في أن أكتب رسالة لأمّي لكنّي لا أجرؤ. ولكنْ يكفي! كلّ هذه المشاعر بلهاء!

لجمت انفعالها ثمّ تابعت:

- وفي اليوم التالي الذي صادف أيضاً يوم عيد، جاء أحد الرفاق ليلعب معي. فقالت لي أمّي: «الآن وقد أصبحت صبيّة يجب ألّا تذهبي مع الفتيان». وفرّقتنا. ويجب أيضاً ألّا أغرم به، ذاك الصبيّ. كنت أسعى في إثره، وأتغزّل به، ورغبت في أن نهرب سويّاً من قريتي، وأن يتزوّجني عندما أكبر. كنت أناديه بزوجي وعشيقي، وهو لم يكن يجرؤ على الهرب معي. وذات يوم وفيما كنّا عائدين لوحدنا من الغابة حيث ذهبنا لنقطف ثمار الفراولة، وحين كنّا نمر بالقرب من عرمة جفيفٍ انقضضت عليه وغمرته بكلّ جسدي وأنا أقبّله في فمه. ورحت أصرخ: «أحبّني، لنتزوّجْ، لنتزوّجْ!»، فتملّص من عناقي وولّى هارباً.

ومنذ ذلك الحين ابتعدت عن الجميع، ولم أعد أخرج من المزرعة، وعشت متوحّدة مع رغباتي كما تعيش أخريات برفقة متعهنّ. ما إن أسمع عن اختطاف فلان فتاةً، واعتراض أهلها، حتّى أتخيّلني عشيقته، هاربةً معه على ظهر حصانه عبر الحقول وأنا أضمّه بين ذراعيّ. وإذا تحدّثوا عن عرس، كنت أسارع للنوم في السرير الأبيض مرتعدة خوفاً ولذّة

وكأنّني العروس. وكنت أحسد حتّى الخوار الشاكي للبقرات عندما تضع صغارها، وأنا أحلم بباعثِ حبَلها، وأغار من آلامها.

ثمّ توفّي أبي، واصطحبتني والدتي إلى المدينة معها. التحق أخي بالجيش وأصبح ضابطاً. كان عمري ستّة عشر عاماً عندما رحلنا عن البيت. ودّعت الغابة إلى الأبد، والمرج حيث كان الجدول الذي لهوت قربه، وودّعت بوّابة الكنيسة حيث أمضيت ساعاتٍ ألعب في الشمس، وأيضاً غرفتي التعسة الصغيرة، ولم أعد لرؤية كلّ ذلك مجدّداً. وأصبحت بعض العاملات الشابّات في الحيّ صديقاتي، وكنّ يعرّفنني على عشاقهنّ، وأرافقهنّ إلى بعض السهرات وأراهنّ يعانقن عشّاقهنّ، وأستمتع بهذه المشاهد قدر ما يحلو لي. وكلّ يوم كنت أختلق ذريعة لأتغيّب، فلاحظت أمّي ذلك ووجّهت لي الملامة في البداية، ثمّ آلَ بها الأمر إلى أن تتركني بسلام.

وأخيراً، اقترحت عليّ امرأة عجوز، تعرّفت عليها منذ بعض الوقت، أن أجني ثروةً قائلةً لي إنّها وجدت لي عشيقاً فاحش الثراء، وإنّ كلّ ما عليّ فعله هو مرافقتها في مساء اليوم التالي وكأنّ لديّ مهمّة عليّ إنجازها في إحدى الضواحي.

وخلال الأربع وعشرين ساعة التي تلت ذلك العرض، اعتقدتني سأجنّ. وكلّما اقتربت الساعة شعرت بأنّ الموعد لن يأتي. فقط كانت هذه العبارات تدوّي في رأسي: «لديّ عشيق! لديّ عشيق! سيكون لديّ عشيق، سأحِبّ وأكون محبوبة!». ارتديت بدايةً حذائي الأرقّ ثمّ إذ لاحظت أنّ قدميّ تضيقان به انتعلت جزمتي. وصفّفت شعري بطرقٍ متنوّعة، على شكل خصلات مفتولة، أو مضفورة على الجبين، أو مجعّدة، أو مجدولة إلى ضفيرتين. وكلّما نظرت إلى نفسي في المرآة شعرت أنّني أزداد

جمالاً. لكنّي لم أكن جميلة كما ينبغي. كانت ثيابي عاديّة وهذا جعلني أحمرّ خجلاً. لَمَ لم أكن من تلك النساء البيضاوات اللواتي يرتدين ثياباً مخمليّة مخرّمة بالدانتيل، تفوح منها رائحة العنبر والورد، بحريرها الذي يخشّ، ويحيط بهنّ الخدّام الذين وُشّيت ثيابهم بالذهب! ولعنت والدتي وحياتي الماضية، وهربت إلى الأمام مدفوعة بإغواءات الشيطان كلّها ومتلذّذة بها كلّها مسبقاً.

وعند زاوية أحد الشوارع، كانت عربة في انتظارنا فصعدنا إليها. وبعد ساعة توقّفت بنا عند بوّابة حديقة. وبعد أن سرنا لبعض الوقت لاحظت أنّ المرأة العجوز تركتني، وبقيت وحدي أمشي في الممرّات. كانت الأشجار باسقة مورقة، وأجمات من الأزهار تزيّن بقعاً من العشب الأخضر المجزوز. لم أرَ في حياتي شيئاً بجمال تلك الحديقة. كان نهر يمرّ في وسطها، ورُصِفَت الحجارة بمهارة في غير مكان محاكية شلالات صغيرة، وكانت طيور بجع تلهو في الماء باسطةً أجنحتها، ومستسلمةً للسيل يتقاذفها. استمتعت أيضاً برؤية قفص الطيور الكبير حيث تزغرد عصافير من كلّ الأنواع متأرجحة على حلقاتها. كانت تمدّ أذنابها المتعدّدة الألوان وتطير بالتتابع. بهرني كلّ ما رأيته. كان هناك عند أسفل الدرج تمثالان بديعان من المرمر الأبيض يتبادلان النظرات، والحوض الكبير قبالتهما تذهّبه الشمس الغاربة ويثير فيك رغبة الاستحمام فيه. لم تمرّ لحظة دون أن أفكّر بالعشيق المجهول الذي يسكن هذا القصر. ارتقبت رؤيته خارجاً من خلف أجمة الأشجار، رجلاً جميل المحيّا واثق الخطوة سائراً مثل أبولون. وبعد العشاء، وحين هدأ صخب القصر الذي طال، ظهر السيّد الذي كنت بانتظاره. كان عجوزاً ناحلاً شائب الشعر تماماً يرتدي ثياباً أنيقة جدّاً ووسام الشرف يزيّن ملابسه، وحذاؤه يربك مشيته. كان

أنفه كبيراً، وكانت عيناه صغيرتين خضراوين يلوح فيهما المكر. اقترب منّي مبتسماً بفمه الأدرد. حريّ بالمرء المتبسّم أن تكون شفتاه رقيقتين ورديّتين مثل شفتيك اللتين يعلوهما شاربان، أليس كذلك يا ملاكي العزيز؟

جلسنا على مقعد جنباً إلى جنب. أخذ يديّ ووجدهما جميلتين جدّاً بحيث قبّل كلّ إصبع فيهما. قال لي إنّه إذا أردت أن أكون عشيقته فعليّ أن أبقى متعقّلة وأن ألازمه، وعندها سأصبح واسعة الثراء، وسيكون لديّ خدّام يسهرون على راحتي، وثياب جميلة تتجدّد في كلّ يوم، وسأركب الخيل، وأتنزّه في العربة. ولكن للحصول على ذلك يجب أن أحبّه. فوعدته بأن أحبّه.

ومع ذلك فإنّ أيّاً من تلك النيران الداخليّة التي كانت تضطرم في أحشائي لدى اقترابي من الرجال، لم تشتعل. ورحت بجواره أقنع نفسي أنّني عشيقته فانتهى بي الأمر لأن أرضى بذلك. وعندما دعاني للدخول، نهضتُ بحيويّة، فسُرّ للغاية وارتجف فرحاً، الرجل المسكين! وبعد أن اجتزنا صالوناً جميلاً كانت المفروشات فيه كلّها مزدانة بالذهب، أخذني إلى غرفتي، وأراد أن ينزع عنّي ملابسي بنفسه. بدأ بنزع غطاء رأسي، ثمّ حين همّ بخلع حذائي صعب عليه الانحناء وقال لي: «ذلك أنّني عجوز يا بنيّتي». جثا على ركبتيه ونظر إليّ متوسّلاً ثمّ أضاف وهو يجمع يديه: «أنت جميلة جدّاً». كنت خائفة من المنحى الذي ستأخذه الأحداث.

جذبني إلى سرير ضخم في عمق المخدع وهو يصرخ فرحاً. أحسستُ بي أغرق في الشراشف والفراش الوثير. ارتمى فوقي وأثقل جسده عليّ فشعرت بألم فظيع. ثمّ أمطرني بالقبلات الباردة من شفتيه الرخوتين. كان سقف الغرفة يسحقني أيضاً. كم كان سعيداً! كان سيغمى عليه من

اللذّة! وحاولت بدوري أن أحظى بالمتعة، وكان هذا يثير متعته على ما يبدو. ولكن ما همّني لذّته هو! كنت أريد لذّتي، وأنتظرها. رحت ألتهم فمه الأجوف وأطرافه الواهنة، واستعنت بكلّ ما يملكه ذلك العجوز، وجمعت في جهدٍ هائل كلّ ما كان في داخلي من شبق ملجوم لكنّي لم أتوصّل إلّا إلى القرف في أوّل ليلة فجورٍ لي.

وما إن ابتعد عنّي، حتّى نهضتُ. ذهبت إلى النافذة وفتحتها تاركةً للهواء أن ينعش جسدي- وددت لو أنّ المحيط يغسلني من قذارته. رتّبت سريري مخفيةً بعنايةٍ كلّ الآثار التي تشهد على اختلاجات تلك الجثّة التي أجهدتني. أمضيتُ طيلة الليل في البكاء وأنا أزأر في يأسي مثل نمرٍ أخصي. آه لو أنّني عرفتك آنذاك! لو أنّك كنتَ في مثل سنّي، لكنّا تبادلنا الحبّ وأنا لا أزال في السادسة عشرة من عمري، يوم كان قلبي نضراً! ولكانت حياتنا كلّها حبّاً بحبّ، ولكنتُ أفنيت ذراعيّ وأنا أضمّك إليّ، وأفنيت بصري وأنا أنظر إليك.

ثمّ تابعت:

- وبما أنّني صرت سيّدة عظيمة، نهضت من نومي في الثانية عشرة ظهراً. كان لديّ خدم يتبعونني حيثما ذهبت، وعربة أستلقي فيها على الوسائد. وكان حصاني الأصيل يقفز بروعة فوق جذوع الأشجار، والأرياش السوداء لقبّعتي الفروسيّة تتمايل بدلالٍ. لكنّي إذ أصبحت ثريّة بين ليلة وضحاها، فإنّ هذا الترف زادني جموحاً بدل أن يهدّئ من روعي. ولاحقاً ذاع صيتي بين أهل الهوى، وامتلكني من أرادني، وراح عشّاقي يتبارون ليثيروا إعجابي، وكلّ مساء كنت أقرأ رسائلهم العذبة التي أرسلوها لي في النهار علّني أجد فيها تعبيراً جديداً صادراً عن رجلٍ مختلف عمّن سبقه يوافق

أهوائي. لكنّهم كانوا جميعاً متشابهين. وكنت أعرف مسبقاً خواتيم عباراتهم والطريقة التي سيخّرون بها ساجدين عند قدميّ. هناك اثنان طردتهما لنزوةٍ ثارت في رأسي فانتحرا، ومع ذلك فإنّ موتهما لم يؤثّر فيّ، فلمَ الموت؟ لمَ لمْ يواجها كلّ شيءٍ ساعيَين لامتلاكي؟ لو أحببتُ أنا رجلاً فلن تمنعني لا البحار الواسعة، ولا الجدران العالية من موافاته. لو كنت رجلاً لكنت تفنّنت في رشوة الحرّاس، وتسلّقت ليلاً النوافذ، وكتمت بقبلاتي صراخ الضحيّة، وعلّلت النفس كلّ صباح حتّى لو خاب أملي بالأمس!

كنت أطرد عشّاقي غاضبةً وأستبدلهم بآخرين. أصابني تشابه الملذّات باليأس، وطاردتها بجموحٍ، متعطّشة دوماً لمتع جديدة صوّرتها لي أحلامي بديعة. كنت أشبه ما أكون بالبحّارة التائهين في عرض البحر الذين لا ترويهم المياه المالحة ولا يسعهم الامتناع عنها لشدّة العطش الذي يحرق أجوافهم.

اخترت عشّاقي من المتأنّقين والريفيّين على حدٍّ سواء لأرى ما إذا كانوا جميعاً متشابهين. تذوّقت شغف الرجال ذوي الأيدي البيضاء المكتنزة، والشعور المصبوغة الملتصقة بالأصداغ، وكذلك المراهقين الشاحبين، الشقر، المخنّثين كالفتيات، وأحبّوني حتّى العبادة. وكذلك لوّثني الشيوخ بمتعهم المهترئة، وتأمّلت لدى استيقاظي صدورهم المقعّرة وعيونهم الكامدة. وعلى مقعدٍ خشبيّ، في حانة ريفيّة، بين قنينة نبيذ وغليون محشوّ بالتبغ، قبّلني أيضاً العَوامّ بشراسة. وعلى غرارهم أوجدت لنفسي سعادة شقيّة، واتّبعتُ سلوكاً مبتذلاً، لكنّ الرعاع لا يمارسون الحبّ بأفضل من النبلاء وحزمة القشّ ليست أكثر دفئاً من الأرائك. أردت أن أثير شغف عشّاقي، فتفانيت لبعضهم وكأنّني أمَة

لهم لكنّ هذا لم يزدهم حبّاً لي. وتصرّفت مع بلهاء بدناءة مخجلة فكرهوني واحتقروني فيما انحصر همّي في مضاعفة مداعباتي لهم وغمرهم بالسعادة. وأخيراً علّلت النفس بالحبّ الذي قد يمنحه الرجال المشوّهون أكثر من غيرهم. ظننتُ أنّ الأجسام الكسيحة تتشبّث بالحياة عبر الشهوة فما كان منّي إلّا أن استسلمت لحُدْبٍ، وزنوجٍ، وأقزام. وأمضيت معهم ليالي تجعل أصحاب الملايين يموتون حسداً، لكنّي كنت أروّعهم ربّما، لأنّهم تخلّوا عنّي بسرعة. وهكذا، فلا الفقراء ولا الأغنياء ولا القِباح استطاعوا أن يملأوا فراغ الحبّ في داخلي. كانوا كلّهم واهنين، سقيمين، معجونين بالضجر. كانوا كلّهم أقزاماً أنجبهم مقعدون، الخمر يسكرهم، والمرأة تقتلهم. يخافون الموت في الفراش كمن يخاف الموت في ساحة الوغى. لم أصادف أيّاً منهم إلّا وتداعى منهكاً ولمّا يمضِ على اللقاء ساعة واحدة. لم يعد على الأرض من وجودٍ لأولئك الشبّان الشجعان كما في الأزمنة الغابرة! أين باخوس، أين أبولون، أين هؤلاء الأبطال الذين يسيرون عراة مكلّلين بأغصان الكرمة والغار! خُلِقتُ لأكون عشيقة إمبراطور، أو لكي يحبّني أحد قطّاع الطرق ويطارحني الغرام على صخرة قاسية تحت شمس أفريقيا. اشتهيت عناق الأفاعي وقبلات الأسود المزمجرة.

آنذاك، كنت أقرأ كثيراً. وهناك كتابان قرأتهما مئة مرة: «بول وفيرجيني»[1]، و«جرائم الملكات»، وهو كتاب يرسم صوراً شخصيّة لميسالين[2]، وتيودورا، ومرغريت دو بورغوني، وماري ستوارت،

(1) «بول وفيرجيني» *Paul et Virginie* : رواية للكاتب الفرنسي برناردان دو سان بيار Bernardin de Saint-Pierre كتبها عام 1787، ولقيت نجاحاً كبيراً. وقد ترجمها الكاتب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي أو بالاحرى أعاد صياغتها.

(2) ميسالين: زوجة الإمبراطور كلوديوس عرفت بانحلال أخلاقها. ومرغريت دو بورغوني زوجة لويس العاشر، كانت تهوى الخيانة وقد خنقت بأمرٍ من زوجها. تيودورا =

وكاترينا الثانية. كنت أقول في نفسي: «كوني ملكة واجعلي الحشود مغرمة بك». حسناً كنت ملكة، ملكة كما يمكن أن تكون الملكات الآن. وحين كنت أدخل إلى مقصورتي، كنت أجيل الجمهور بنظرة ظافرة ومستفزّة، وكانت آلاف الرؤوس تتبع حركة حاجبيّ. وكنت أهيمن على الجميع بوقاحة جمالي.

بيد أنني سئمت التفتيش عن عشيق، ورغبت في العثور عليه أكثر من أيّ وقت مضى وبأيّ ثمن. وإذ جعلت من الرذيلة عذاباً له من المكانة والتقدير عندي، هرولت إلى هنا، وقلبي ملتهب وكأنّه لا تزال لديّ عذريّة أبيعها. كنت مرفّهة، لكنّي آليت على نفسي شظف العيش. كنت في رغد، فارتضيت النوم في البؤس. لأنّه، إذ أمعنت في الانحدار إلى أسفل الدركات لم أعد أطمح ربّما بالصعود بشكلٍ أبديّ. وكلّما وهنت أعضائي، هدأت رغباتي على الأرجح وأردت أنْ أنتهي منها هنا دفعة واحدة وأن أقرف منها إلى الأبد، محتقرةً كلّ ما رغبت فيه بكبير شغفٍ. نعم، أنا التي كنت أستحمّ بالفراولة والحليب، أتيت إلى هنا أتمدّد على هذا السرير الحقير الذي يستقبل الجميع. وعوضاً عن أن أكون عشيقة رجلٍ واحد، جعلت من نفسي خادمة الجميع، وأيّ خدمة قاسية مارستها هنا! ليس لديّ نار في الشتاء ولا نبيذ فاخر يرافق وجباتي. منذ سنة وأنا أرتدي الفستان نفسه، ما همّ! أليس العري في أساس مهنتي؟ لكنْ، أتعرف ما هي فكرتي الأخيرة، ما هو الأمل الأخير الذي كنت أعلّل النفس به؟ آهٍ! أن أعثر ذات يوم على الرجل الذي لم ألتقه يوماً، الرجل الذي هرب

= إمبراطورة المشرق، عشيقة جوستينيانوس ثم زوجته التي سحرت بيزنطية بجمالها وروعتها وممارساتها الفاحشة. وماري ستوارت ملكة إنجلترا وكان يؤخذ عليها ممارساتها الطائشة ويقال إنّ زوجها اللورد دارنلي قتل بإيعاز منها. وكاترينا الثانية إمبراطورة روسيا اللامعة والتي اشتهرت بتعدّد عشّاقها.

منّي دائماً، وطاردته في سرير المتأنّقين وفي شرفات المسارح. أن أمسك بيديّ ذاك الوهْم في قلبي. أجل كنت آمل أن يأتي أحدهم ذات يوم، وأن يكون أطول قامة وأنبل وأقوى من الآخرين: عيناه نجلاوان كأعيُن السلطانات، وفي صوته نغمة شهوانيّة، ولأطرافه ليونة الفهود المذهلة وشبقهم، رائحته تخلب اللبّ، وأسنانه تعضّ بلذّة هذا الصدر العارم من أجله. وعند مجيء هذا الزبون أو ذاك كنت أقول: «هل هذا هو؟ أتراه هو؟ فليُحبّني إذاً! ليحبّني! ليضربني! ليحطّمني! أنا وحدي سأكون له بمثابة حريم كامل. أعرف الأزهار المثيرة والشراب الذي يبعث على النشوة، وكيف يتحوّل التعب نفسه إلى انخطاف لذيذ. سأكون دلعة حين يريد لأغيظ غروره أو لأثير فكره. وفجأةً سيجدني وانية، لدنة مثل قصبة، ناطقة بأعذب الكلمات ومطلقة أرقّ التنهّدات. من أجله سأتلوّى كالأفاعي، وفي الليل ستنتابني اختلاجات مسعورة وتشنّجات أليمة. وفي بلاد حارّة، سأحتسي الخمر في كؤوس بلوريّة، وسأرقص له مرتديةً الصنّاجات رقصات إسبانيّة، أو سأقفز زاعقة نشيداً حربيّاً كزوجات المتوحّشين. وإذا كان يهوى التماثيل واللّوحات، فسأجعل أساطين الرسّم يصوّرونني بحيث يخرّ ساجداً عند قدميّ. وإذا كان يفضّل أن أكون صديقه فسأرتدي ثياب رجل، وأذهب معه إلى الصيد، وأعاونه في ثاراته. وإذا أراد أن يقتل أحداً، سأترصّد مروره من أجله. وإذا كان لصّاً فسنسرق سويّة. وسأحبّ ملابسه والمعطف الذي يرتديه». ولكنّ كلّ هذا لن يتحقّق أبداً! أبداً! عبثاً يمرّ الزمن وتتكرّر الصباحات، عبثاً يُتلف الرجال كلّ موضع في جسدي بكلّ شهواتهم الممكنة، فقد بقيت كما أنا في سنّ العاشرة، عذراء. إذا كانت العذراء هي تلك التي لا زوج لها ولا عشيق، والتي لم تعرف اللذّة وتحلم بها باستمرار، وتبتدع أطيافاً ساحرة

تراها في أحلامها وتسمع أصواتها في ضجيج الرياح وتبحث عن ملامحها في ضوء القمر، فأنا لا زلت هذه العذراء! أيُضحكك هذا؟ ولكنْ، ألا أملك من العذراوات المشاعر الغامضة والصبابة المتوقّدة؟ لديّ كلّ ما للعذارى، خلا العذريّة نفسها.

انظر إلى أعلى سريري، إلى كلّ هذه الخطوط المتشابكة على الأكاجو، إنّها آثار أظفار كلّ هؤلاء الذين تخبّطوا هنا، كلّ هؤلاء الذين لطموا رؤوسهم هنا. ليس لديّ شيء مشترك معهم. وإن اجتمعتُ معهم في أوثق عناق يمكن لأذرع بشريّة أن تقوم به، فإنّ هاوية تفصلني عنهم دوماً. آه! كم من المرّات تاهوا في لجج متَعهم وأردوا الغوص فيها بكلّيّتهم، فابتعدتُ عنهم بخيالي مسافة ألف فرسخ لكي أتقاسم الحصيرة مع متوحّش، أو العرين المزيّن بجلود الخواريف لراعٍ من رعاة أبروتسو[1].

إنّ أحداً منهم لم يأتِ من أجلي، إنّ أحداً منهم لم يعرفني. ربّما يبحثون فيّ عن امرأةٍ معيّنة كما أبحث فيهم عن رجلٍ معيّن. ألا يوجد في الشوارع أكثر من كلبٍ يبحث في النفايات لكي يجد عظام دجاجة أو قطعاً من اللحم؟ وكذلك، مَن يدري كم من الغراميّات الملتهبة تنهال على بائعة الهوى، وكم مرثيّة جميلة انتهت بكلمة سخيفة؟ كم من الرجال رأيتهم يأتون إلى هنا وقلوبهم ممتلئة حقداً وأعينهم مليئة دموعاً! بعضهم خرجوا من حفلة، وأرادوا أن يختصروا في امرأةٍ واحدة كلَّ النساء اللواتي تركنهم للتوّ؛ والبعض الآخر هرباً من زواج مجّدت فيه العفّة. ورأيت شبّاناً لا يجرؤون على التحدّث إلى عشيقاتهم فجاؤوا إليّ مطلقين العنان لاستيهاماتهم عبر جسدي. وكم من الأزواج أرادوا أن يستعيدوا شبابهم والملذّات السهلة لأيّامهم القديمة الحلوة، وكهنةٍ أغواهم الشيطان فلم

(1) أبروتسو Abruzzo: أحد أقاليم إيطاليا يتميّز بجباله العالية.

يلوذوا بامرأة بل بعاهرة، بل بالخطيئة متجسّدة، ثمّ صبّوا عليّ لعناتهم، وخافوا منّي وتخشّعوا لي في آنٍ معاً. ولكي يكون الإغواء أقوى والرعب أفظع، أرادوا أن تكون قدماي ظلفاوين، وأن يلتمع ثوبي بالأحجار الكريمة. وكلّهم عبروا بحزن، متشابهين مثل ظلال تتوالى، أو كحشودٍ لا نذكر منها إلّا ضجيجها الهادر، وخبط أرجلها المدوّي، والصيحات المبهمة الصادرة عنها. ولكنْ، أتراني أذكر اسم واحدٍ منهم؟ يجيئون ويتركونني دون أن تبدر منهم مداعبة حقيقيّة ولو لمرّة واحدة. لكنّهم يستجدون المداعبات، وقد يستجدون الحبّ لو تجرّأوا! يجب أن تثني على جمالهم وثرائهم المفترض، فيبتسمون. ومنهم من يهوون الضحك. وأحياناً يحبّون أن أغنّي لهم، أو أن أصمت، أو أن أتحدّث. أمّا هذه المرأة المعروفة من الجميع، فلا أحد يخمّن أنّ لديها قلباً. يا لهم من أغبياء، امتدحوا حاجبيّ المقوّسين، وكتفيّ البهيّتين، وارتقصوا فرحاً لأنّهم اشتروا بسعرٍ بخسٍ لحمَ ملكةٍ بيضاء، ولم يأخذوا هذا الحبّ الذي لا ينطفئ المهرول أمامهم والمرتمي عند أقدامهم!

ومع ذلك رأيت من المومسات من عثرن، حتّى هنا في الماخور، على عشّاق، عشّاق حقيقيّين يحبّونهنّ. وهنّ يفردن لهم حيّزاً على حدة، في سريرهنّ كما في أنفسهنّ، وعند مجيئهم يشعرنَ بالسعادة. ومن أجلهم، كما ترى، يُسرّحن شعورهنّ طويلاً ويروين أحواض الأزهار على نوافذهن. لكن أنا، لا عشيق لي، لا أحد. ولا حتّى العاطفة الهانئة لطفلٍ تعس لأنّ المومس يُشار إليها بالبَنان، ويمرّون من قربها مطرقي الرؤوس. يا إلهي كم مرّ زمن طويل على خروجي إلى الحقول، كم مرّ زمن لم أرَ فيه الريف! كم من الآحاد مرّت ولم ألبِّ صوت الأجراس الحزين الذي يذكّر الجميع بمواعيد الصلاة! مرّ زمن طويل ولم أسمع جلاجل البقرات

في الأشجار المقصوصة! آه! أريد أن أرحل من هنا. سئمت! سئمت. سأعود مشياً على القدمين إلى دياري، سأذهب إلى مربّيتي، فهي امرأة شجاعة وستستقبلني بالترحاب. عندما كنت في عمر الطفولة الأوّل، كنت أذهب إليها، وكانت تعطيني الحليب. سأساعدها في تربية أطفالها وتنظيف المنزل. سأذهب لجمع الحطب اليابس في الغابة وسنتدفّأ، مساءً، أمام الموقد عندما يتساقط الثلج. إنّ الشتاء قريب، وسنقترع على الحلوى. آه! ستحبّني جدّاً، سأهدهد الصغار ليناموا، كم سأكون سعيدة!».

وصمتتْ، ثمّ رمقتني بنظرةٍ متوقّدة عبر دموعها وكأنّها تقول لي: «أوَ يكون هذا العشيق هو أنت؟».

استمعتُ إليها بشغفٍ شديد. استمعت إلى جميع الكلمات تخرج من فمها محاولاً أن أتماهى مع الحياة التي ترويها. وإذ اتّخذت فجأةً حجماً أكبر أضفيتُه عليها، بدت لي امرأة جديدة، مليئة بالأسرار الخفيّة، ومنحتها علاقتي بها سحراً ملتاعاً وجاذباً جديداً. الرجال الذين امتلكوها خلّفوا عليها رائحة عطرٍ كامد، وأضفت آثار الأهواء المندثرة جلالاً شبقاً عليها. وزيّنها المُجون بجمالٍ شيطانيّ. فلولا العربدات السابقة هل كانت ستمتلك هذه الابتسامة الانتحاريّة التي تجعلها شبيهة بحسناء الجانّ النائمة لا تستيقظ إلّا على قبلات الحبّ؟ أذكت الحياة اللاهية شحوب وجنتيها، ونعومة شعرها وعطره، وزادت أطرافها ليونة ولدانة ودفئاً. ومثلي أنا أيضاً، سارت من الأفراح إلى الأحزان، وعبرت من الرجاء إلى القرف، وأعقبت أفدحُ الانهيارات لديها التشنّجاتِ المجنونة. لم نكن قد تعارفنا ومع ذلك فهي في فسقها، وأنا في عفّتي، تبعنا الدرب نفسه المفضي إلى الهاوية نفسها. وفيما كنت أسعى للبحث عن عشيقة، كانت تبحث هي عن عشيق في دنيا الواقع، وأنا في قلبي، وكلانا لم نعثر على

ضالّتنا.

قلت لها وأنا أضمّها إلى صدري:

- أيّتها المرأة المسكينة كم تألّمتِ!

فأجابتني:

- هل عرفت أنت أيضاً آلاماً مماثلة؟ هل تألّمت مثلي حقّاً؟ هل أغرقت وسادتك بدموعك؟ هل من أجلك تصطبغ أيّام الشتاء المشمسة بهذا الحزن؟ وحين يهجم الضباب مساءً وأمشي وحيدة يبدو لي أنّ المطر ينفذ إلى قلبي ويمزّقه أشلاء.

- أشكّ مع ذلك في أن يكون سأمكِ في هذا العالم بقدرِ سأمي فيه. كانت لك أيّام حافلة بالملذّات الصاخبة. أمّا أنا فكأنّني خلقت في سجن. لديّ آلاف الأشياء التي لا تزال في عتمة جهلي.

- ومع ذلك فأنت في مقتبل الشباب! وإذا أردت الحقّ، فإنّ جميع الرجال مسنّون في أيّامنا هذه. والأطفال قرفون مثلهم مثل العجائز. لا بدّ أنّ أمهاتنا كنّ سئمات عندما حبلنَ بنا. لم يكن الناس هكذا فيما مضى، أليس كذلك؟

أجبتها:

- هذا صحيح. المنازل التي نسكنها متشابهة كلّها، بيضاء وكئيبة مثل القبور. لا بدّ أنّ الحياة في الأكواخ القديمة السوداء التي يهدمونها الآن كانت تنبض بحرارة أكبر. كان ساكنوها يغنّون بصوتٍ عالٍ، ويحطّمون الأباريق على الطاولات، ويخلعون الأسرّة وهم يتطارحون الغرام.

- ولكن ما الذي يجعلكَ حزيناً إلى هذا الحدّ؟ هل أحببتَ كثيراً؟

- يا إلهي، عرفتُ من الحبّ ما يكفي لأحسدكِ على حياتك.

قالت:

- تحسدني على حياتي!

- نعم، أحسدكِ! لأنّني لو كنت مكانك، لكنت سعيداً ربّما. الرجل الذي تحلمين به غير موجود، لكنّ المرأة التي أرغب فيها تعيش في مكانٍ ما. وبين هذه القلوب الكثيرة الخافقة، ثمّة قلب يلائم قلبي.

- ابحثْ عنه! ابحثْ عنه!

- آه! نعم! أحببت! اتّخمتُ نفسي برغباتي المكنونة. لا، لن تعرفي أبداً كلّ هؤلاء اللواتي أهلكنني واللواتي في أعماق قلبي أطوّقهنّ بحبٍّ ملائكيّ. اسمعي حين عشت يوماً برفقة امرأة قلت في نفسي: «لو أنّي عرفتها قبل عشر سنوات لكنت ملكْت كلّ أيّامها الماضية، ولكانت أوّل ابتسامة افترّ عنها ثغرها، لي أنا وحدي، وأيضاً أوّل فكرة خطرت لها. سامرها رجال من قبلي، وسألوها فأجابتهم، وفكّرت بهم. وأعجبتها كتب ولم أقرأها. ليتني تنزّهتُ معها في كلّ الأفياء التي ظلّلتْها! ثمّة أثواب أتلفَتْها ولم أرَها؛ استمعتْ في حياتها إلى أجمل حفلات الأوبرا ولم أكن برفقتها؛ أنشقَها رجال آخرون أزهاراً لم أقطفها. ستنساني، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال ذلك. أنا بالنسبة إليها كأيّ عابرِ سبيلٍ في الشارع»، وعندما أفترق عنها كنت أقول في نفسي: «أين هي؟، ماذا تفعل طيلة النهار بعيدة عنّي؟ كيف تمضي وقتها؟» إذا أحبّت امرأة رجلاً وأومأت له بإشارة فسيخرّ عند قدميها ساجداً! أمّا نحن الرجال، فعلاقتنا بالنساء أكثر تعقيداً!... على الواحد منّا أن يكون ثريّاً ويمتلك أحصنة لتعتليْنَ أنتنّ ظهرها، وأن يمتلك بيتاً مزيّناً بالتماثيل، ويقيم الاحتفالات، وينثر الذهب، ويكون مشهوراً بين الناس. أمّا أن

يعيش المرء بين الناس عاجزاً عن السيطرة عليهم بعبقريّته أو بماله، وأن يبقى مغموراً مثل أجبنهم وأكثرهم بلاهة، فيما هو يحدوه توق إلى غراميّاتٍ سامية، ويطير فرحاً من نظرةٍ ترمقه بها الحبيبة، فذاك عذاب عرفته.

- أنت خجول، أليس كذلك؟ لا شكّ أنّ النساء يبعثن فيك الخوف.

- لم أعد كذلك. فيما مضى، كان صخب خطواتهنّ يجعلني أرتجف. وكنت أمكث أمام محلّات مزيّني الشعر لأنظر إلى وجوه النساء الجميلة المصنوعة من الشمع المزدانة شعورهنّ بالأزهار والألماس. كنّ متورّدات، وبيضاوات، وكاشفات عن أكتافهنّ، وكنت مغرماً ببعضهنّ. كذلك كانت تثيرني أحذية الساتان الرقيقة في واجهات الأساكفة، تلك التي تأخذها النساء معهنّ إلى حفلات الرقص المسائيّة. كنت أُلبسها قدمَي امرأة عاريتين، قدمين جميلتين بأظفارٍ ناعمة، رخاميّتين من لحم ودم، قدمَي أميرة تدخل إلى الحمام. وكانت الصُّدرات المعلّقة في واجهات محلّات الموضة التي تهتزّ في الريح، تبعث فيّ كذلك رغباتٍ غريبة. أهديت باقات زهر لنساء لا أحبّهنّ متأمّلاً أن يأتي الحبّ عبر هذه الهدايا، هكذا سمعتهم يقولون. كتبت رسائل وجّهتها لأيّ عابرة، لكي يرّق قلبي عبر الكتابة، وبكيت. كانت أقلّ ابتسامة من فم امرأة تُذيب قلبي حلاوة، وكان هذا كلّ شيء. إنّ السعادة الكبيرة لم تُخلق من أجلي، فأيّ امرأةٍ قد تحبّني؟

- انتظر! انتظر أيضاً عاماً، أو ستّة أشهر! أو غداً ربّما على ما آمل.

- تألّمت كثيراً، ولم أحصل على ما أتمنّى.

قالت لي:

- تتكلّم مثل طفل.

- لا، لم أجد حبّاً يستطيع أن يروي ظمئي أكثر من يوم واحد. حلمت كثيراً بهذا الشعور بحيث أتعبني كما يتعبنا هؤلاء الذين أحببناهم بشغفٍ.

- ولكن ليس هناك من جمال في العالم إلّا جمال الحبّ.

- ولمن تقولين ذلك؟ سأعطي كلّ ما أملكه لأقضي ليلة واحدة مع امرأةٍ تحبّني.

- آه! لو أنّك بدلاً من أن تخفيَ قلبك، تظهر كلّ ما يختلج به من سخاءٍ وطيبة، عندئذٍ كلّ النساء سيرغبن بك. لن توجد امرأة لن تسعى لتكون عشيقتك. لكنّك فقتني جنوناً! هل انتبه أحد لهذه الكنوز الدفينة فيك؟ وحدهنّ النساء الغنِجات يدركن حقيقة الرجال الذين مثلك ويعذّبنهم، أمّا الأخريات فلا يلحظنهم. ومع ذلك تستحقّ أن تُحَبّ. مهلاً! بئساً لهنّ جميعاً! أنا سأحبّك، أنا سأكون عشيقتك.

- عشيقتي؟

- آه! أتوسّل إليك! كنْ عشيقي فأتبعك حيثما تذهب. سأرحل من هنا، وأستأجر غرفةً قبالتك وأنظر إليك طيلة النهار. كم سأحبّك! ألازمك في المساء، وفي الصباح، وفي الليل ننام معاً وأطوّق جسدك بذراعيّ، ونأكل على الطاولة نفسها متواجهين، ونرتدي الثياب في الغرفة نفسها، ونخرج سويّة، وأشعر بك قربي! ألم يُخلق واحدنا للآخر؟ وآمالك، ألا تتناسب مع خيباتي؟ أليست حياتك وحياتي واحدة؟ ستخبرني كلّ همومك ووحدتك، وسأقول لك كلّ العذابات التي قاسيتُها. علينا أن نعيش وكأنّنا لن نبقى معاً

إلّا ساعة واحدة، ونستنفد كلّ ما في داخلنا من شهواتٍ وحنان، ونعيد إحياء حبّنا كلّ يومٍ حتّى نموت. قبّلني! قبّلني ثانيةً، ضع رأسك على صدري لكيْ أشعر بثقله، دعْ شعرك يدغدغ عنقي، ولتلامس يداي كتفيك. ما أرقّ نظرتك!

كان الغطاء المنحسر يتدلّى أرضاً ويكشف قدمينا العاريتين. فنهضت على ركبتيها وأدخلته تحت الفراش. رأيت ظهرها الأبيض يلتوي مثل قصبة. هدّني أرَق الليل. وشعرت برأسي ثقيلاً وأجفاني تحرقني. قبّلتْ أجفاني بنعومة بطرف شفتيها فانتعشت وكأنّها تبلّلت بماءٍ باردة. استيقظت، هي أيضاً، شيئاً فشيئاً، من الخدر الذي استسلمت له هنيهة. كانت متشنّجة من التعب، يُذكي شهوتها طعمُ المداعبات السابقة، فعانقتني بشبقٍ يائسٍ وهي تقول لي: «لنتحابّ لأنّه لا أحد أحبّنا. أنت لي!».

كانت تلهث وفمها منفرج. قبّلتني بجنون ثمّ فجأةً تمالكت نفسها ووضعت يدها على جدائلها المشعّثة، وأضافت:

- اسمع، كم ستكون حياتنا جميلة! ما رأيك لو نذهب للسكن في بلادٍ حيث الشمس تنبت أزهاراً صفراء وتُنضج البرتقال النابت قريباً من شواطئ رمالها بيضاء ناصعة، ورجالها يرتدون عمامات، ونساؤها يتسربلن بالأثواب الشفّافة. سنضطجع هناك تحت شجرة كبيرة عريضة الأوراق ونستمع إلى هدير الخلجان، ونمشي سويّة على الشاطئ ونجمع الأصداف. وسأصنع سلالاً من القصب ونذهب لبيعها. وأنا سأهتمّ بلباسك وأجعّد شعرك بأصابعي وأضع عقداً حول عنقك. آه كم سأحبّك! كم أحبّك. دعني إذاً أروي غليلي منك!

وإذ التصقتُ بفراشها بحركةٍ نزقة، انقضّت عليّ وتمدّدت على جسدي بفرحٍ ماجن، شاحب، مرتعش، وهي تكزّ على أسنانها، وتضمّني إليها بقوّةٍ مسعورة. شعرتُ وكأنّني محمول على جناح عاصفة من الحبّ. انفجرت شهقاتها ثمّ صرخاتها حادّةً، وكانت شفتي المرطّبة بِريقها تدغدغني وتحكّني، وعضلاتنا الملتوية تتلاصق، وتتداخل، واللّذة تتقلب هذياناً والمتعة عذاباً.

وإذ فتحت فجأةً عينيها المنذهلتين المرتعبتين قالت:

- ماذا لو أنجبت طفلاً!

ثمّ انقلب موقفها إلى دلالٍ متوسّل، وقالت:

- نعم! نعم! أريد طفلاً! أريد طفلاً منك!... هل ستتركني؟ ألن نلتقي بعد اليوم؟ هل ستفكّر بي أحياناً؟ سأحتفظ بخصلات شعرك، وداعاً!... انتظر على الأقلّ طلوع النهار.

لماذا كنتُ متلهّفاً للفرار؟ هل كنت بدأتُ بحبّها؟

صمتت ماري رغم أنّني بقيت عندها نصف ساعة. كانت تفكّر ربّما بالعشيق الغائب. قُبَيْلَ الوداع يستبق العاشق حزن الغياب.

لم نتوادَع. أمسكتُ يدها. فاستجابت ولكنّها أضمرت في قلبها قوّة الشدّ على يدي.

لم أرها ثانيةً.

ومنذ ذلك الحين وأنا أفكّر بها. لم يمرّ نهار دون أن أحلم بها ساعات طويلة، قدر مستطاعي، متعمّداً أحياناً الانعزال في غرفتي لأعيش هذه الذكرى من جديد. وغالباً ما سعيت للتفكير بها قبل النوم، عساني أراها في الحلم، ولكنّ أمنيتي لم تتحقّق.

بحثت عن طيفها في كلّ مكان، في الحدائق، والمسرح، وعند منعطف

الشوارع. كنت أظنّها ستكتب لي رسالة وأجهل سبب ظنّي. وحين أسمع صوت عربة تتوقّف عند بابي، كنت أتخيّل أنها ستنزل منها. كذلك تبعت بعض النساء في سيرهنّ بقلقٍ عظيم! وكم خفق قلبي حين توهّمت أنّها خلفي فالتفتُّ، وخاب ظنّي!

هُدِمَ المنزل الذي كانت تسكن فيه، ولم يستطع أحد أن يقول لي ماذا صار بحالها.

إنّ الرغبة في امرأة امتلكناها شيء فظيع، أفظع ألف مرّة من الرغبة في امرأة لم نمتلكها. تطاردك صور رهيبة مغلّفة بالندامات. لم أكن أغار من الرجال الذين امتلكوها قبلي، بل من أولئك الذين امتلكوها بعد أن عرفتها. بدا لي أنّ هناك اتّفاقاً ضمنيّاً بيننا، وعلينا بموجبه أن يُخلِصَ واحدنا الودّ للآخر. ظللت سنة كاملة وفيّاً لهذا العهد. ثمّ دفعتني الصدفة، والضجر، وربّما التعب من ملازمة الشعور نفسه، للنكْث بعهدي. لكنّي ما برحتُ أطاردها في كلّ مكان؛ وفي سرير الأخريات كنت أحلم بلمساتها.

عبثاً نريد أن نزرع أهواء جديدة في قلوبنا بدلاً من أهوائنا القديمة، فهيَ تعاود الظهور مجدّداً. ما من قوّةٍ في العالم يمكنها استئصال جذورها. كتلك الدروب الرومانيّة حيث كانت تعبر عربات الحكّام وما عادت سالكة منذ زمنٍ طويل؛ ألف درب جديدة محت معالمها، وزُرِعَتْ حقولٌ فوقها ونبتَ القمح، ومع ذلك كلّما قَلّبتْ سكّة المحراث التراب اصطدمت بحجارتها الكبيرة وانكسرت.

قد لا يكون الأنموذج النسائيّ الذي يبحث عنه جميع الرجال إلّا ذكرى حبّ تكوّن في السماء أو منذ بدء الخليقة، ما يدفعهم لاستقصاء كلّ ما يذكّرهم بهذا الحبّ طيلة حياتهم. المرأة الثانية التي تعجبك تكاد

تشبه الأولى. ويجب أن تبلغ دركاً كبيراً من الفساد أو أن تملك قلباً رحباً للغاية لكي تقدر على حبّ جميع النساء. لاحظْ أيضاً أنّ النساء اللواتي يتحدّث عنهنّ الأدباء ويتطرّقون إلى وصفهنّ من دون كلل هنّ ذاتهنّ على الدوام. أعرف صديقاً أغرم في سنّ الخامسة عشرة بأمٍّ شابّة رآها ترضع طفلها. ومنذ ذلك الحين وهو لا يؤثر إلّا اللّواتي يملكن خصوراً كخصور بائعات الأسماك، وغدا جمال النساء الرشيقات بالنسبة إليه بغيضاً.

ومع مرور الوقت، أخذت أحبّ ماري أكثر فأكثر، حبّاً قوامه الغيظ كذلك الذي يتملّكنا حيال الأشياء المستحيلة. وأتخيّلني أخوض مغامرات لأعثرَ عليها، وأتصوّر ظروف لقائنا. استعذتُ عينيها في فقاعات الأنهر الزرقاء، ولون وجهها في أوراق الحور الرجراج عندما يلوّنها الخريف. ذات مرّة، كنت أمشي بسرعة في أحد الحقول، والأعشاب تخشّ من حولي، فشعرت أنّها خلفي. التفتّ، فلم أرَ أحداً. وفي يوم آخر، مرّت عربة أمامي. رفعت بصري فرأيت وشاحاً أبيض طويلاً يطيّر من الباب مصطفقاً في الريح. دارت العجلات فتلوّى الشال وناداني ثمّ اختفى وسقطت وحدي منهكاً، مهجوراً، كمن يسقط في عمق الهاوية.

آه! لو أنّنا نستطيع أن نقتلع من ذواتنا كلّ ما هو موجود فيها ونصنع منه كائناً بالفكر وحده! لو أنّنا نستطيع أن نمسك طيفنا بين أيدينا ونلمسه عند الجبين بدلاً من أن نضيّع في الهواء لمسات وتنهّدات جمّة! لكنّ الذاكرة تنسى والصورة تُمحى فيما الألم وحده يظلّ متحكّماً فينا. كتبت ما سبق أعلاه بغية أن أتذكّرها، وآملاً أن تُحييها الكلمات من جديد. لكنّي فشلت. أعرف أكثر بكثير ممّا كتبت.

إنّ علاقتي بماري سرّ لَم أبح به لأحد وإلّا لكان سخِرَ منّي. أفلا يسخر

الرجال ممّن يحبّون لأنّ الحبّ شيء مخجل بالنسبة إليهم؟ كلّ واحد يُخفي أفضل ما لديه وأرقّ ما فيه بدافع الخجل، أو الأنانيّة. لكي يقدّرك الآخرون عليك ألّا تُظهر إلّا أقبح الجوانب فيك لأنّك بذلك تكون أهلاً للاحترام. أيعقل أن تحبّ امرأة مماثلة؟ هكذا سيقولون لك متعجّبين، ثمّ إنّ أحداً منهم لن يفهمك فما جدوى أن تتحدّث إذاً عن الأمر؟

وربّما كانوا على حقّ فهي ربّما ليست أجمل ولا أكثر إثارة من سواها. أخشى ألّا أكون قد أحببت فيها إلّا مجرّد فكرة في روحي مبجّلاً الحبّ الذي كانت هي مصدر إلهامه.

طويلاً تصارعت وهذه الفكرة. جعلت الحبّ في أسمى منزلة بحيث عجزت عن حطّه من عليائه. ولكن أمام ثبات هذه الفكرة، يجدر بي الاعتراف بأنّ ما حصل لي كان حبّاً من هذا القبيل. ولم أشعر بذلك إلّا بعدما تخلّيت عنها بأشهرٍ عديدة. أمّا في فترة الفراق الأولى فقد عشت في هدوء عميم.

ما أشدّ وحشة العالم للسائر في الدرب وحيداً. ماذا سأفعل؟ كيف سأمضي الوقت. بمَ أشغل فكري؟ ما أطول النهارات! أين ذاك الإنسان الذي يشتكي من قصَر أيّام حياته؟ أظهروه لي. لا بدّ أنّه آدميّ سعيد.

يقولون: استمتع بوقتك، لكن كيف؟ كأنّي بهم يقولون: حاول أن تكون سعيداً، لكن بأيّ وسيلة؟ وما جدوى كلّ هذه المساعي؟ كلّ شيءٍ في الطبيعة حسنٌ، الأشجار تنبت، والأنهار تسيل، والعصافير تغنّي، والنجوم تبرق، لكنّ الإنسان المعذّب يعمل، وينهمك، ويقطع الغابات، ويقلّب الأرض، وينقضّ على البحار، ويسافر، ويركض، ويقتل الحيوانات، ويقتل نفسه، ويبكي، ويزمجر، ويفكّر في الجحيم، كما لو أنّ الله أعطاه فكراً ليتصوّر شروراً أكثر من تلك التي يكابدها.

فيما مضى، قبل أن أعرف ماري، كنت أشعر أنّ في سأمي شيئاً ما جميلاً وعظيماً، لكنّ سأمي الآن عقيم. إنّه أشبه ما يكون باشمئزاز رجل امتلأ جوفه بخمرٍ رديئة، أو بنومٍ ثملٍ ميّت.

هناك أناس يكبرونني سنّاً وحالتهم ليست كحالتي؛ قد تصادف أناساً في سنّ الخمسين أشدّ نضارة منّي أنا العشرينيّ. كلّ شيءٍ بالنسبة إليهم لا يزال جديداً وجذّاباً. تُراني أكون مثل تلك الأحصنة الواهنة التي تبدو منهكة لدى خروجها من حظائرها، ثمّ بعد أن تقطع شوطاً طويلاً من الطريق وهي تعرج وتتألم، تشتدّ همّتها فجأة وتعدو بأقصى سرعتها؟ إنّ الكثير من المشاهد يؤلمني والكثير منها يثير إشفاقي أيضاً، أو أنّ كلّ ذلك يمتزج في القرف ذاته.

ثمّة من لم يقدر على اتّخاذ عشيقة لأنّه لا يستطيع أن يغمرها بالألماس ولا أن يسكنها في قصر، ويكتفي بالتفرّج على غراميّات مبتذلة متأمّلاً بنظراتٍ هادئة البشاعة البهيميّة لذينك الحيوانين المُتسافدَين اللذين ندعوهما عشيقاً وعشيقة، ولا يغريه أن ينحدر إلى هذا المستوى المتدنّي فيمتنع عن الحبّ كأنّه ضعفٌ يجب مقاومته؛ ويسحق كلّ الرغبات التي تعتريه، وهذ الصراع ينهكه. إنّ الأنانيّة المتخابثة للبشر تبعدني عنهم، وكذلك ينفّرني فكر النساء المحدود ويمنعني من إقامة علاقةٍ معهنّ. لكنّني مخطئ بعد كلّ حساب لأنّ شفتين جميلتين أفضل من كلّ فصاحة الوجود.

إنّ الورقة التي تسقط ترتعش ثمّ تطير في الرياح، وكذلك أنا، أودّ أن أطير، وأن أمضي في سبيلي، وأرحل إلى غير رجعة، أرحل إلى أيّ مكان، المهمّ هو أن أغادر هذه البلاد. إنّ منزلي يثقل على كاهلي. مرّاتٍ عديدة دخلت وخرجت من الباب نفسه! ومرّاتٍ عديدة رفعت بصري إلى

المكان نفسه، محدّقاً إلى سقف غرفتي بنظراتٍ أتلفت بعضه.

آه، ما أجمل أن يعتلي المرء ظهرَ جمل! أمامك السماء ناريّة، والرمل الأسمر، والأفق المتوهّج يمتدّ والأراضي تتموّج، والنسر يحوم فوق رأسك. وفي زاوية ما، سرب من طيور البجع ذات القوائم الزهريّة تعبر متّجهة إلى برك الماء. تهدهدك سفينة الصحراء المتحرّكة، والشمس تبهرك وتغمرك، ولا يُسمع إلّا الضجة المخنوقة لحوافر المطايا. الجمّال أنهى أغنيته للتوّ. ويتواصل السير، طويلاً. عند المساء تُزرع الأوتاد، وتُنصب الخيمة، وتُسقى الجِمال الوحيدة السنام، وتنام على جِلد أسدٍ، وتدخّن، وتشعل النار لإبعاد أبناء آوى التي تسمعها تعوي في عمق الصحراء، وترى نجوماً غير معروفة تخفق في السموات، أكبر من نجومنا بأربع مرّات. وعند الصباح، تملأ القِرب من الواحة، وتعاود المسير، بمفردك، والريح تصفر، والرمال ترتفع مزوبعة.

ثمّ في أحد السهول حيث تعدو طيلة النهار، تنتصب أشجار النخيل وتتمايل أفياؤها بخفّةٍ مجاورةً الظلال الجامدة للمعابد الخرِبة. تتسلّق عنزاتٌ الواجهاتِ المنهارة، وتمضغ النباتات النابتة في شقوق الرخام، وتقفز هاربة لدى اقترابك منها. وعلى مسافة أبعد، بعد اجتيازك غاباتٍ حيث الأشجار التفّت عليها النباتات المعترشة، والأنهار لا تُلمح ضفّتها الأخرى، ترى السودان، بلاد الزنوج، بلاد الذهب. لكن فلنمضِ أبعد من ذلك! لنذهبْ قدُماً! أريد رؤية مالابار[1] المسعورة، ورقصاتها التي يحتدم فيها القتال حتّى الموت. وحيث الخمور تُميت كالسموم، والسموم عذبة كالخمور. والبحر، البحر يمتدّ أمامك أزرق مليئاً بالمرجان واللآلئ، ويرجّع صدى العربدات المقدّسة التي تُقام في عرائن الجبال.

(1) مالابار في الهند.

البحر ساكن تماماً، والجوّ قرمزيّ، والسماء الصافية تتمرأى في المحيط الدافئ، والقلوس يتصاعد منها الدخان وهي تسحب من الماء، وأسماك القرش تتعقّب السفينة وتأكل الموتى.

آه! ما أُحَيلى السفر إلى الهند! الهند بالذات! هناك حيث الجبال بيضاء ومليئة بالمعابد والأوثان، والغابات تعجّ بالنمور والفيلة، ورجال صفر بملابس بيضاء، ونساء بلون القصدير والخلاخل في أقدامهنّ وفي أيديهنّ، والأثواب الشفافة تلفّهنّ كأطياف، وأعينهنّ سُوِّدت بالحنّاء ولا تُرى منها إلّا الأجفان. ثمّ ينشدن معاً أغنية لإله ما، ويرقصن... ارقصي، ارقصي أيّتها الراقصة الهندوسيّة المقدّسة، يا ابنة نهر الغانج، اغزلي قدميك جيّداً في رأسي! مثل أفعى تتلوّين وتفردين ذراعيك، رأسك يهتزّ وخصرك يتمايل، ومنخراك ينفرجان، وشعرك ينسدل. والبخور المحترق يحيط بالوثن المذهّب الرابض المزدان بأربعة رؤوس وعشرين ذراعاً.

وفي قارب طويل من خشب الأرز، مجاذيفه رفيعة مثل ريشات، وتحت شراع مصنوع من البامبو المجدول، وعلى إيقاع الطَنْطَن[1] والدفوف، سأذهب إلى البلد الأصفر الذي يُدعى الصين، حيث أقدام النساء منمنمة تؤخذ بجمع اليد، ورؤوسهنّ صغيرة، وحواجبهنّ رفيعة مشدودة في أطرافها، ويعشن في تعريشات من القصب الأخضر، ويأكلن فواكه مخمليّة القشرة في الخزف الملوّن. وحيث الموظّف المتنفّذ، بشاربيه الحادّين المتدلّيين حتّى صدره، ورأسه الحليق، والقنزعة التي تنزل على ظهره، ومروحته المستديرة بين أصابعه، يتنزّه في الرواق حيث تشتعل المباخر، ويمشي ببطء على الحصائر، وقد وضع غليوناً صغيراً في قلنسوته المدبّبة. وعلى ملابسه المصنوعة من الحرير الأحمر طُبعت كتابات سوداء.

(1) طنطن: طبلة صغيرة تستعمل في إفريقيا السوداء.

آه! كم بعثت فيّ علب الشاي أحلاماً بالسفر.

احمليني يا عواصف العالم الجديد: تقتلعين السنديانات الدهريّة، وتزوبعين في البحيرات حيث تلهو الأفاعي بالمياه! فلتغمرني سيول النروج بزبدها! ولتَمحُ ثلوج سيبيريا المكدّسة معالمَ طريقي! آه، ما أجمل السفر! السفر دون توقّف، والدوران في رقصة الفالس الهائلة هذه، ورؤية كلّ شيء يظهر ويتوارى حتّى ينشقّ جلدك وينبجس الدم منه!

فلتعقب الأوديةُ الجبالَ، والحقولُ المدنَ، والسهولُ البحارَ، لننحدرْ مع الخراف من التلال ونصعد إليها، لتختفِ قمم الكاتدرائيّات إزاء صواري السفن المتزاحمة في المرافئ؛ لنُنصتْ إلى الشلّالات تتساقط على الصخور، وإلى الريح في الغابات، وجبال الجليد تذوب في الشمس. فلأرَ الفرسانَ العرب يعْدون بخيولهم، والنساءَ محمولاتٍ على الهوادج، والقببَ المستديرة، والأهراماتِ المرتفعة في السموات، والدياميسَ الخانقة حيث ترقد المومياءات، والشِعَب الضيّقة التي يَصْلي فيها قاطع الطريق بندقيّته، والقصبَ حيث تختبئ الجلجليّة[1]، والحميرَ الوحشيّة المرقّشة الراكضة بين الأعشاب المرتفعة، وحيواناتِ الكونغرو المنتصبة على قوائمها الخلفيّة، والقرودَ المتأرجحة على أطراف أغصان أشجار جوز الهند، والنمورَ المتوثّبة على فرائسها، والغزلانَ الهاربة منها...

لنذهب قُدُماً، لنذهب بعيداً! لنعبرِ المحيطات الرحبة حيث الحيتان القاتلة وحيتان العنبر تتصارع، وحيث الجذعيّات[2] تُقبل مثل طيور بحريّة ضخمة خافقةً بأجنحتها على صفحة المياه، والشعور الدامية تتدلّى من مقدّمتها، وعلى متنها متوحّشون غلاظ الشفاه دهنوا أضلعهم

---

(1) الجلجليّة: أو ذات الأجراس، جنس حيّات سامّة تعدّ أخبثها على الإطلاق.

(2) جذعيّة: زورق طويل يصنع من جذوع الأشجار.

بالأحمر، ولطّخوا وجوههم بالألوان، ووضعوا أقراطاً في أنوفهم المثقوبة، وراحوا يغنّون زاعقين لحن الموت، حاملين أقواسهم المشدودة ورماحهم برؤوسها الخضراء المسمومة التي تفتك بمن تصيبه فتكاً ذريعاً. أمّا نساؤهم العاريات اللواتي اكتست نهودهنّ وأياديهنّ بالوشوم فيجهّزن محارق كبيرة بعدما وعدهنّ أزواجهنّ بفرائس من رجال بيض لحمهم الطريّ يذوب تحت الأسنان.

أين أذهب؟ الأرض واسعة، سأفني الدروب كلّها وسأخترق الآفاق كلّها. هل بإمكاني أن ألقى حتفي وأنا أنعطف حول رأس الرجاء الصالح، وأموت من الكوليرا في كالكوتا، أو من جرّاء الطاعون في استانبول!

ليتني كنت بغّالاً في الأندلس! فأعدو طيلة النهار في الممرّات بين جبال إسبانيا، وأرى نهر الوادي الكبير[1] تخترقه جزر من أشجار الدفلى، وأسمع في المساء العازفين على القيائر يغنّون تحت الشرفات، وأنظر إلى القمر يتمرأى في حوض الرخام في قصر الحمراء حيث كانت تسبح قديماً السلطانات.

ليتني صاحب غندول في البندقيّة أو سائق عربةٍ تذهب من نيس إلى روما في فصل الصيف! ومع ذلك فهناك أناس يعيشون في روما، أناس لا يفارقونها أبداً. طوبى لمتسوّلٍ نابولي الذي ينام في شمس الظهيرة، مضطجعاً على الشاطئ ناظراً إلى دخان بركان فيزوف يصعد في السماء، وهو يدخّن سيجاره! أغبطه على سريره المصنوع من الحصى، وعلى الأحلام التي يمكن أن يسترسل فيها أثناء رقدته. البحر جميل على الدوام ويحمل إليه أريج مياهه والهمس البعيد الآتي من كابري.

أحياناً، أتصوّرني في صقلية، أحطّ رحالي في قرية صيّادين صغيرة،

(1) الوادي أو النهر الكبير: نهر إسباني يجري في منطقة الأندلس ويصبّ في الأطلسي.

وجميع القوارب مزوّدة بأشرعة لاتينيّة[1]. أصادف في الصباح، بين السلال والشباك المبسوطة، فتاة من العامّة جالسة، حافية القدمَين، وصدرتها محبوكة بشريط ذهبيّ، على غرار نساء المستعمرات الإغريقيّة، وشعرها الأسود مضفور في جديلتين منسدل حتّى عقبيها. ثمّ تنهض، فتنفض مريلتها، وتمشي، قامتها متينة وليّنة في الوقت نفسه كقامةِ حوريّةٍ قديمة. آه لو أنّ امرأة كهذه تحبّني! طفلة بائسة جاهلة لا تحسن القراءة، لكنّ صوتها في غاية العذوبة، وتقول لي بنبرتها الصقليّة: «أحبّك، ابقَ معي!».

المخطوطة تتوقّف هنا، ولكنّي عرفت كاتبها، وإذا وصل أحد إلى هذه الصفحة وطالع كلّ الاستعارات، والمبالغات، والصور الأخرى التي تملأ الصفحات السابقة، وأراد أن يعثر على نهاية، فليتابع القراءة، وسيجدها.

لا بدّ أنّ الكلمات التي بوسعها التعبير عن المشاعر قليلة، وإلّا لكان الكتاب أُنجِزَ مبقياً على ضمير المتكلّم. ربّما لم يعد لرجلنا شيء ليقوله. ثمة نقطة تعصى على الكتابة، وهي من بنات الأفكار بامتياز، وفي هذه النقطة بالذات توقّف صاحبنا عن الكتابة. بئس القارئ.

إلا أنّني معجب بالصدفة التي شاءت ألّا يذهب الكتاب أبعد من ذلك، وأن يتوقّف في اللحظة التي كان سيغدو فيها أفضل ربّما. كان الكاتب على أهبة الدخول إلى دنيا الواقع، وكان لديه ألف شيء يخبرنا إيّاه، لكنّه قبع، بخلاف ذلك، في وحدةٍ قاسيةٍ عقيمة. بَيْدَ أنّه وجد من اللّائق ألّا يعود للتذمّر، وهذا دليل ربّما على أنّه بدأ يتألّم حقّاً. لم أجد في حديثه، أو في رسائله، أو في الأوراق التي قلّبتها بعد موته، ولا في أيّ

(1) أشرعة لاتينيّة: أشرعة مثلّثة الزوايا كانت شائعة الاستعمال في البحر المتوسّط.

مكان آخر، شيئاً يكشف عن حالة روحه، بدءاً من اللحظة التي توقّف فيها عن كتابة اعترافاته.

إنّ حسرته الكبيرة تتمثّل في أنّه لم يكن رسّاماً ليصوّر اللوحات الرائعة التي صاغها خياله، على حدّ قوله. وكذلك أسِفَ لأنّه ليس موسيقيّاً ليؤلّف السمفونيّات التي تتصادى في رأسه في حين كان يتنزّه في الصباحات الربيعيّة على طول الجادّات المحاطة بأشجار الحور. وفي الواقع، لم يكن يفهم شيئاً في الرسم ولا في الموسيقى. ورأيته يعجب بأشياء عديمة الأهمّيّة تماماً، ويصاب بألم رأسٍ لدى خروجه من الأوبرا. ولو تيسّر له وقت أطول، وتسلّح بالصبر، وجهد في العمل، والأهمّ من ذلك كلّه لو كان يملك ذوقاً أرهف في الفنون لكان استطاع نظم أبيات شعر سخيفة جديرة بأن توضع في مفكّرة إحدى السيّدات، وهذا شيء ظريف، مهما قيل عنه.

في شبابه الأوّل، تأثّر بكتّابٍ سيّئين جدّاً، ويمكن ملاحظة ذلك من أسلوبه، وكلّما كبر، اشمأزّ منهم. ولكنّ الأدباء المبدعين لم يستطيعوا أن يلهبوا مشاعره بحماسة مماثلة.

كان شغوفاً بالجمال، وينفّره القبح وكأنّه جرم. إنّه لشيء مؤلم حقّاً أن يكون الكائن قبيحاً. إذا رأيته عن بعدٍ روّعك مرآه، وإذا اقترب منك أثار دنوّه القرف فيك. وإن تكلّم، أوقع بك العذاب. وإذا بكى، أغاظتك دموعه، وإذا ضحك، وددت لو تضربه. وفي صمته، يبدو لك وجهه الجامد معجوناً بكلّ الرذائل والغرائز الدنيئة. وهكذا، لم يسامح كاتبنا قطّ رجلاً لم يرق له من اللحظة الأولى. وبالمقابل، كان متفانياً حيال الناس الذين راقت له مشيتهم أو شكل جمجمتهم، وإن لم يوجّهوا إليه سوى بضع كلمات.

كان يبتعد عن المجالس، والمسرحيّات، والحفلات الراقصة، والحفلات الموسيقيّة، لأنّه ما إن يدخل إليها حتّى يشعر أنّ قلبه تجمّد حزناً وأنّ برودة جمّدت رأسه. وإذا احتكّ به الجمهور أوغرت صدره ضغينة ساذجة، وواجهه بقلب ذئب، قلب حيوان مفترس مطارد في جحره.

كان مغروراً لظنّه أنّ الناس لا يحبّونه فهم لا يعرفونه.

كانت المآسي العامّة وآلام البشر تحزنه بشكلٍ طفيف. لا بل أجرؤ على القول إنّه كان يشفق على الكناريّ الذي يرفرف بجناحيه في القفص عند شروق الشمس أكثر منه على الشعوب المستعبدة. هكذا خُلِقَ، تخالجه وساوسُ مرهفة، وخفَرٌ حقيقيّ. لم يكن يستطيع، مثلاً، أن يبقى لدى بائع حلوى ويرى فقيراً ينظر إليه وهو يأكل دون أن يحمرّ خجلاً حتّى أذنيه. ولدى خروجه، كان يعطيه كلّ ما لديه من مال في حوزته، ويفرّ هارباً. ولكنّ الآخرين اعتبروه متخابثاً لأنّه كان يستخدم كلماتٍ واضحة، ويقول صراحة ما يفكّرون به هم في سرّهم.

بالنسبة إليه، كان حبّ النساء اللواتي نُعيلهم (وهذا مثال الشبّان الذين لا يملكون الوسائل لتعهّد امرأة) أمراً كريهاً، ومقرفاً. كان يعتبر أنّ الرجل الذي يدفع المال هو السيّد، والأمير، والملك. صحيح أنّه كان فقيراً إلّا أنّه كان يحترم الغنى لا الأغنياء. ثمّ إنّ السعي ليكون عشيق امرأةٍ يُؤويها رجل آخر، ويُلبسها، ويُطعمها، بدا له تصرّفاً دنيئاً كمن يسرق قنّينة خمرٍ من قبو غيره. وكذلك وجد أنّ التباهي بعلاقة مماثلة لَهُوَ من شأن الخدّام الصعاليك، وأصحاب اللؤم.

وماذا عن معاشرة امرأة متزوّجة؟ أن يجعل نفسه صديق الزوج، ويشدّ على يديه بحرارة، ويضحك لنِوادره، ويحزن لسوء سير أعماله،

ويقوم بالتسوّق من أجله، ويقرأ نفس الجريدة التي يقرأها، أي باختصار أن يقترف، بيوم واحد، دناءات وسخافات يعجز عشرة محكومين بالأشغال الشاقّة عن اقترافها خلال حياتهم كلّها، فهذا شيء مهين جدّاً لكبريائه... ومع ذلك أحبّ عدّة نساء متزوّجات. أحياناً كان يسوّغ لنفسه هذا المسعى، لكنّ النفور لا يلبث أن يستولي عليه ما إن تبدأ السيّدة الجميلة ترنو إليه بنظرات شغفة، فيجمّد مسعاه كما يلفح الصقيع أزهار المشمش في شهر أيار.

وقد تسألونني عن النساء السوقيّات وأجيبكم أنّه كان عاجزاً عن إقناع نفسه بالصعود إلى عليّة ليقبّل فماً تناول لتوّه الجبنة، أو يلامس يداً متشقّقة من البرد.

أمّا بالنسبة لإغواء فتاةٍ شابّة، فكان يعتبر ذلك أفظع من اغتصابها، ويرى أنّ ربط مصيرها به أسوأ من قتلها، وأنّ إنجاب طفلٍ جريمة تفوق قتل إنسان. لأنّك إذا قتلت إنساناً فإنّك تحرمه الحياة، أو لنقلْ ليس الحياة كاملة بل نصفها، بل ربعها، بل جزءاً من مئة من هذه الحياة التي ستنتهي يوماً، والتي ستنتهي من دونك. ولكن إذا أنجبت طفلاً أفلستَ مسؤولاً عن كلّ الدموع التي سيذرفها من مهده إلى لحده؟ لولاك لما وُجد، وقد أوجدْتَه، فلِمَ فعلت هذا؟ فعلته من أجل متعتك، وليس لمتعته، هذا أكيد. أو لكي يحمل اسمك، اسمَ أبلهٍ، أتراهِنُ على ذلك؟ كان من الأفضل لو كتبته على جدار. فماذا يجدي ولدك أن تكون غاية وجوده الابتلاء بحمل اسمك؟

أمّا ذاك الذي يستند إلى القانون المدنيّ ويدخل عنوة إلى سرير عذراءَ مُنحت له في الصباح، ممارساً على هذا النحو اغتصاباً شرعيّاً يحميه القضاء، فهو، حسب رأيه، لا مثيل له بين القرود، ووحيدي القرن،

والضفادع، ذكوراً وإناثاً، فهي تتجامع حين تدفعها رغبات مشتركة للتلاقي والتسافد، وهذا الجماع لا رعب فيه ولا اشمئزاز من جهة، ولا عنف أو استبداد فاجر من جهةٍ أخرى. وكان صاحبنا يسترسل في هذا الموضوع بنظريّات طويلة لا أخلاقيّة، وغير مُجد ذكرها هنا.

ذاك هو السبب في أنّه لم يتزوّج قطّ، ولم يتّخذ عشيقة، ولا امرأة يعيلها، ولا امرأة متزوّجة، ولا امرأة سوقيّة، ولا امرأة شابّة. تبقى النساء الأرامل، ولم يكن يفكّر فيهنّ.

وحين توجّب عليه أن يختار مهنة تردّد محتاراً بين ألف فكرة منفّرة. ولو شاء أن يكون من فَعَلَةِ الخير لما استطاع فهو لم يكن ماكراً بما يكفي. وأبعدته طبيعته الطيّبة عن ممارسة الطبّ. ولم يكن نافعاً في التجارة فهو لا يجيد الحساب، وكانت رؤية مصرف وحدها قادرة على إثارة أعصابه. وبالرغم من جنونه، كان يتمتّع بحسّ سليم فائق ولا يستطيع بالتالي أن يأخذ مهنة المحاماة على محمل الجدّ. على أيّة حال، لم يكن مفهومه للعدالة متوافقاً مع الشرائع. وكذلك كان صاحب ذوق شديد الرهافة فلم يصلح لأن يكون ناقداً، وكان مفرطاً في الشاعريّة ربّما وهذا حالَ دون نجاحه في الأدب. ثمّ هل يمكن أن نعدّ هذه مِهَنَاً؟ لكنّ الإنسان مدعوّ للاستقرار واختيار مهنة في الحياة، لأنّه يضجر لبقائه متعطّلاً، وحريّ به أيضاً أن يكون مفيداً فهو خلق ليعمل. تلك حِكَمٌ يصعب فهمها لذا يُعنَون دوماً بتردادها على مسامعه.

وهكذا استسلم للضجر في كلّ مكان، ومن كلّ شيء، إلى أن أفصح عن نيّته بالتخصّص في الحقوق، والذهاب للسكن في باريس. وعندئذٍ غبطَه الكثيرون من أبناء قريته قائلين له إنّه سيكون سعيداً في باريس، فهناك سيتردّد على المقاهي والمسارح والمطاعم، ويصادف النساء

الجميلات. تركهم يتكلّمون وحدهم، وابتسم كمن تأخذه الرغبة في البكاء. وكم مرّة مع ذلك رغب في أن يترك غرفته إلى الأبد: لطالما تثاءب فيها متململاً، منقّلاً مرفقيه فوق مكتبه القديم حيث كتب قصصاً في سنّ الخامسة عشرة! لكنّ مفارقة هذا العالم الصغير آلمته. ربّما كانت الأمكنة التي نصبّ عليها جام لعناتنا هي المفضّلة لدينا، أفلا يتحسّر المسجونون على سجنهم؟ ذلك أنّهم في ذلك السجن كانوا يأملون شيئاً ما، وحين يخرجون ينقطعون عن الأمل. كانوا، عبر جدران مخبئهم، يتخيّلون الريف مزداناً بالأقحوان الزاهي والجداول المنسابة، وسنابل القمح الذهبيّة تكسو الحقول، والأشجار على جانبي الطريق. ولكنّهم حالما يستعيدون حريّتهم، أي بؤسهم، رجعوا إلى رؤية الحياة كما كانت، فقراً، وشظفاً، وقذارة، وبرداً. ويرون الريف أيضاً، الريف الجميل كما فارقوه، مزيّناً بحرّاس الحقول الذين يمنعونهم من قطف الثمار ليسدّوا عطشهم، وحافلاً بخفراء الغابات الذين يحولون دون اصطيادهم فريسة يسدّون بها رمقهم، ومليئاً بالعساكر الذين يعكّرون عليهم رغبتهم في التنزّه لافتقارهم إلى أوراق ثبوتيّة.

وذهب للسكن في غرفةٍ مفروشةٍ ابتيع أثاثها من قبل واستعمله آخرون غيره. بدا له أنّه يسكن بين الأنقاض. كان يمضي النهار في العمل، أي في سماع ضجّة الشارع المخنوقة، ورؤية المطر يتساقط على السطوح.

وعندما تشرق الشمس، كان يذهب للتنزّه في حديقة لوكسمبورغ فيمشي على الأوراق اليابسة متذكّراً أنّه في المدرسة المتوسّطة كان يفعل الشيء نفسه. لكنّه لم يكن يحسب أنّه بعد عشر سنوات، سيصل به الأمر إلى هنا. أو كان يجلس على أحد المقاعد وتمرّ بخاطره ألف فكرة رقيقة حزينة، وينظر إلى مياه البرَك الباردة القاتمة، ثمّ يعود إلى غرفته منقبض

القلب. لمرّتين أو ثلاث احتار في ما يفعله، فذهب إلى الكنائس في وقت زيّاح القربان، وحاول أن يصلّي. لو رآه رفاقه وهو يبلّل أصابعه في جرن الماء المقدّس ويرسم إشارة الصليب لما كفّوا عن الضحك!

ذات مساءٍ شعر باغتياظٍ لا سبب له وذهب يتسكّع في إحدى الضواحي، وعندئذٍ راودته رغبة في أن يقفز على سيوفٍ مجرّدة ويصارع نفسه حتّى الموت، ثمّ تناهت إلى سمعه أنغام أرغن عذبة وأصوات منشدين يردّدون تراتيل. ولج تحت الرواق المعمّد، فألفى امرأة عجوزاً، مقرفصة أرضاً، تستعطي وهي تجلجل القروش في قصعتها المعدنيّة. كان الباب المزركش يُفتح ويُغلق مع كلّ داخلٍ إلى الكنيسة أو خارجٍ منها. سُمِعَتْ جلبة القباقيب، والكراسي المتحرّكة على البلاط. في عمقَ البهو، المذبح مضاء، وبيت القربان ملتمع في ضوء المشاعل، والكاهن ينشد الصلوات، والمصابيح المعلّقة في جناح الكنيسة تتأرجح على حبالها الطويلة، فيما العتمة تغمر أعلى الأقواس القوطيّة والأروقة الجانبيّة، والمطر يسوط الزجاجيّات ويفرقع على إطاراتها الرصاصيّة، والأرغن يشدو، والأصوات تعاود الغناء، كما في ذلك اليوم الذي سَمَعَ فيه العصافير، على جروف الشاطئ، تتحادث والبحر. فما كان منه إلّا أن تولّته الرغبة بأن يكون كاهناً يلقي عظات جنائزيّة، ويرفع الكأس المقدّسة، ويسجد منتشياً بمحبّة الله... وفجأةً تصاعدت ضحكة إشفاقٍ من أعماق قلبه، فأنزل قبّعته على أذنيه وخرج وهو يهزّ كتفيه استهزاءً.

غدا حزيناً أكثر من ذي قبل، وأمسى عزف الأراغن الصغيرة المتنقّلة تحت نافذته مبرّحاً روحه أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ألفى في أنغامها كآبة عارمة وكأنّ هذه الآلات، حسب قوله، تعزف دموعاً. ثمّ لم يعد يقول شيئاً لأنّه أنِفَ التظاهر بأنّه قرِفٌ وسئِمٌ، وبأنّه الرجل الذي أزيلت عن

بصيرته الأوهام كلّها. لا بل ألفيناه في نهاية أيّامه أكثر مرحاً. كان عازف الأرغن، في أغلب الأحيان، رجلاً فقيراً آتياً من الجنوب، أو من بيامونته، أو من جنوة. تُرى لماذا ترك هذا الفقير سفح الجبل حيث كان يعيش، وكوخَه المزيّن بالذرة عند الحصاد؟ نظر إليه مطوّلاً وهو يعزف، برأسه الضخم المربّع، ولحيته السوداء، ويديه السمراوين، وقرده الصغير الذي يرتدي الأحمر ويقفز على كتفه مكشّراً. كان الرجل يمدّ قبّعته، فيرمي هو بقطعة نقود داخلها ويشيّعه بنظراته حتّى يتوارى.

قبالة سكنه، كانوا ينشئون مبنى، واستغرقت الأعمال فيه ثلاثة أشهر. رأى الجدران ترتفع والطوابق تتكدّس الواحد فوق الآخر، وزجاج النوافذ يُجهَّز، والحوائط تُورَّق وتُدهَن، والأبواب تُغلَق أخيراً. ثمّ جاءت عائلات وسكنت المبنى. فاستاء من وجود جيرانٍ قربه مفضّلاً رؤية الحجارة.

وراح يتنزّه في المتاحف ويتأمّل كلّ تلك الشخوص الجامدة التي صنعها الفنّانون، الدائمة الشباب في حياتها المثاليّة. ترى الناس يأتون لزيارتها، ويمرّون من أمامها فلا تحرّك رأسها، أو تنزع سيفها من يدها أو تبرق عيونها حتّى بعد أن يدفن أحفادنا. كان يسترسل في تأمّلاته أمام التماثيل القديمة، لا سيّما تلك التي كانت مبتورة.

وذات يوم، حدث معه شيء في منتهى الغرابة، حين استوقفه مرور أحدهم في الشارع، فأحسّ أنّه رآه من قبل. وكذلك فعل الغريب، فتوقّفا وتبادلا الكلام. كان هو! صديقه القديم! صديقه المفضّل الذي اعتبره أخاً له، زميله أيّام الدراسة الذي جاوره في الصفّ، وفي أوقات الدرس، وفي المراقد. كانا ينجزان أعمالهما الكتابيّة المملّة سويّة وفروضهما أيضاً، وكانا يتنزّهان في الملعب والحديقة متأبّطين أحدهما ذراع الآخر. آنذاك

تعهّدا بأن يعيشا سويّة ويظلّا صديقين حتّى الموت. همّ كلّ واحد منهما بمصافحة الآخر منادياً إيّاه باسمه، ثمّ تبادلا النظرات من أخمص القدمين إلى قمّة الرأس دون أن يقولا شيئاً. كلاهما تغيّرا وتقدّما قليلاً في السنّ. وبعد أن استفسر كلّ منهما عن أحوال صاحبه، توقّفا عن الكلام، ولم يعرفا كيف يواصلان المحادثة. ستّ سنوات مرّت ولم يلتقيا قطّ، ورغم ذلك لم يجدا ما يقولانه. إلى أن سئما أخيراً من التحديق أحدهما إلى الآخر ساهمَين، فافترقا.

وبما أنّه لم يكن لديه طاقة على شيء، وبما أنّ الوقت بدا له، خلافاً لما يقوله الفلاسفة، الثروة الأقلّ استلزاماً للجهد في العالم، أخذ يشرب الخمر، ويدخّن الأفيون، ويمضي غالباً نهاراته نائماً وثملاً إلى حدٍّ ما، في حالة هي بين الخدر والهذيان.

وفي مرّاتٍ أخرى تعاوده حيويّته فينتفض فجأةً مثل نابضٍ. وعندئذٍ يبدو له العمل مفعماً بالسحر، ويحمله إشراق الفكر على الابتسام، ابتسامة الحكماء الوادعة العميقة. يُسارع منكبّاً على العمل، متصوّراً خططاً رائعة وتحدوه الهمّة لإلقاء ضوء جديدٍ مختلف تماماً على حقَبٍ معيّنة، ولأن يصلَ الفنَّ بالتاريخ، ويحلّل أعمال الشعراء والرسّامين الكبار، دارساً من أجل ذلك اللغات، عائداً إلى التاريخ القديم متعمّقاً في عالم المشرق. أخذ يتخيّل نفسه قارئاً النقوش ومفسّراً رموز المسلات. ثمّ لا يلبث أن يجد نفسه مجنوناً لتفكيره بهذه المشاريع، ويمتنع عن فعل أيّ شيء.

أقلع عن القراءة، أو لنقلْ إنّه كان يقرأ كتباً رديئة ومع ذلك كانت تمتعه بسبب من تفاهتها نفسها. وفي الليل يصيبه الأرق فيتقلّب في سريره وهو يحلم تارة ويستيقظ طوراً، إلى أن يجد نفسه في الصباح أكثر تعباً ممّا لو كان أمضى الليل في السهر.

أتلفه السأم، وقد درج على هذه العادة الفظيعة، وألفى بعضاً من لذّة في الخبل وهو ثمرة السأم. كان أشبه ما يكون بمن يشاهد احتضاره. امتنع عن فتح نافذته لتنشّق الهواء، وعن غسل يديه، لا بل إنّه عاش في قذارة الفقراء. لازم قميصه لمدّة أسبوع، وأرسل لحيته وأهمل تسريح شعره. إذا خرج صباحاً وتبلّلت قدماه، أبقى طيلة النهار على حذائه الرطب، ولم يكن يشعل النار، رغم شديد تأثّره بالبرد، أو أنّه كان يرتمي بكلّ ثيابه على سريره محاولاً النوم، مراقباً الذباب يجول سقف غرفته، أو مدخّناً سيجارة ملاحقاً بنظراته الدوائر الحلزونيّة الصغيرة الزرقاء المنبعثة من شفتيه.

وهكذا ندرك دون جهد أنّه لم يكن لديه هدف، وهنا المصيبة. ما الذي كان بإمكانه إحياء همّته أو التأثير فيه؟ أهو الحبّ؟ لكنّه كان يجافيه. أهو الطموح؟ لكنّه كان يثير سخريّته. أهو المال؟ كان جشعه للمال كبيراً لكنّ كسله تغلّب على كلّ ما عداه، ثمّ إنّه كان يرى في جني ثروة طائلة جهداً لا طائل منه. فالترف يليق بالرجل الذي وُلد في رحاب الغنى. أمّا من اكتسب ثروته فيكاد لا يعرف أن يتنعّم بها. ولم يكن يرضيه لتعاظم كبريائه عرش الملك نفسه. تسألونني: ماذا كان يريد إذاً؟ لا أعرف لكنّي متأكّد أنّه لم يكن يطمع البتّة في مقعد نيابيّ، ولا بتبوّء منصب العمدة، ويأنف اللباس المطرّز، وقلادة وسام الشرف، والسروال الجلديّ، والجزمة العالية أيّام الاحتفال. كان يفضّل قراءة أندريه شينييه[1] على أن يكون وزيراً، وأن يكون تالما[2] بدلاً من نابوليون.

كان رجلاً يستسلم للخطأ، ويقع في فخّ الإشكاليّة والالتباس،

(1) أندريه شينييه André Chénier (1762–1794): شاعر فرنسي. اتّسم شعره في البداية بطابع كلاسيكيّ ثمّ غلب عليه نَفَسٌ رومنطيقيّ قويّ. أعدم بالمقصلة قبل أيّامٍ معدودة من سقوط روبسبيير.

(2) تالما Talma (1763–1826) كان الممثّل الفرنسي الأشهر في زمانه.

ويسرف في استعمال النعوت.

إذا نظرت من أعالي القمم، رأيت الأرض وما تحتويه وقد احتجبت عن نظرك. كذلك ثمّة آلام إذا نظر المرء من شواهقها عجز عن رؤية شيء، وهان في نظره كلّ شيء. وإذا لم تستطع الآلام الفتك بك، لا يوجد أمامك سوى الانتحار يحرّرك منها. أمّا هو فلم ينتحر، بل واصل حياته.

وجاء موسم الكرنفال فلم يستمتع بعروضه البتّة. على أيّة حال كانت ردود فعله غير متناسبة مع الظروف المحيطة به. فالمآتم تكاد تثير بهجته، والمسرحيّات تحزنه، إذ كان يتخيّل دوماً أمامه حشداً من الهياكل العظميّة مرتدية ثياباً وقفّازات وأرداناً وقبّعات مزدانة بالريش، منحنية على حافّة المقصورات، رانية إلى بعضها البعض في المناظير الصغيرة بنظراتها الجوفاء. وفي أسفل المسرح، كان يرى، تحت أضواء الثريّا، صفّاً ملتمعاً من القُحوف البيض المتلاصقة. ويسمع أناساً ينزلون الدرج مهرولين ضاحكين متأبّطين أذرع النساء.

ومرّت في خاطره ذكرى من أيّام الشباب، فكّر بـمدينة....، التي ذهب إليها ذات يوم مشياً على القدمين والتي تكلّم هو نفسه عنها في ما قرأتموه آنفاً. أراد أن يراها من جديد قبل أن يموت، إذ كان يحسّ بنفسه على وشك الانطفاء. وضع مالاً في جيبه، ولبس معطفه، وانطلق في الحال. صادفت أيّام المَرافع[1] تلك السنة في بداية شهر فبراير. كان الطقس لا يزال بارداً جدّاً، والطرقات متجلّدة. ثمّ انطلقت العربة بأحصنتها مسرعة. جلس داخل العربة المقفلة ذات العجلات الأربع. لم يأخذه النعاس بل أحسّ بنفسه متلهّفاً لرؤية هذا البحر الذي سيراه ثانية. وراح ينظر إلى سياطِ الحوذيّ التي يضيئها الفانوس في أعلى العربة، كيف

(1) أيّام المَرافع: أيّام معلومة عندَ المسيحيّين تتقدّم الصوم.

ترتمي في الهواء وتهوي على صهوات الأحصنة التي يتصاعد منها البخار. التمعت السماء صافية بالنجوم وكأنّها في أجمل ليالي الصيف.

نحو الساعة العاشرة صباحاً، نزل في... ومن هناك سار الطريق مشياً على القدمين حتّى مدينة... ثمّ أسرع في خطاه ليدفّئ أوصاله. الحفَر مليئة بالجليد، والأشجار مجرّدة من أوراقها، وأطراف أفنانها يكسوها الاحمرار، والأوراق المتعفّنة من جرّاء المطر بساط فسيح داكن يفترش جذوع الأشجار. السماء باهتة تماماً دون شمسها. لاحظ أنّ الأعمدة التي تشير إلى الطريق انقلبت، وأنّ جذوع الأشجار قُطِعت في غير مكانٍ منذ غيابه. أسرع متلهّفاً للوصول. وأخيراً انحدرت الطريق، وهنا سلك، عبر الحقول، درباً يعرفها، ثمّ لاح البحر في البعيد فتوقّف. سمع هدير ارتطامه على الشاطئ، وزمجرته في عرض البحر عند الأفق. تناهت إلى أنفه رائحة مالحة حملها إليه نسيم الشتاء البارد. أخذ قلبه يخفق.

بُني منزل جديد عند مدخل القرية. وهُدم منزلان أو ثلاثة.

كانت القوارب في البحر، والوحشة تعمّ الرصيف. انزوى الناس في منازلهم. عند حافّة السطوح، وأطراف المزاريب تدلّت قطع طويلة من الجليد يسمّيها الأطفال «شماعد الملك». كانت لافتات السمّان وصاحب النزل ترتطم بعوارضها الحديديّة مصدرة أزيزاً حادّاً. علت الأمواج وتقدّمت لتغمر حصباء الشاطئ محدثةً جلبة هي مزيج بين صليل الحديد والشهقات.

بعد أن تناول الغداء، مستغرباً عدم شعوره بالجوع، ذهب ليتنزّه على الشاطئ. كانت الريح ترسل نواحها في الفضاء، والقصب النحيل النابت في كثبان الرمل يصفر، ويلوي سوقه بغضب. والزبد يتطاير من الشاطئ متالاً على الرمل. وأحياناً تحمله هبّة ريح لتذرّه في السماء المغيمة.

أظلم الليل أو بالأحرى اكتنفَ الأفقَ هذا الغسق الطويل الذي يسبق الليل في أكثر أيّام السنة حزناً. كانت ندف كبيرة من الثلج تتساقط من السماء لتذوب فوق الأمواج، لكنّها على الشاطئ بقيت طويلاً وملأته دموعاً فضيّة كبيرة.

رأى، في مكانٍ ما، قارباً قديماً نصف مدفون في الرمل، ربّما جنح إلى هنا منذ عشرين سنة، إذ نبتت داخله الشُّمرة البحريّة والتصق المديخ[1] والأصداف بألواحه المخضرّة. أعجبه ذلك القارب فطاف حوله. لمسه في أماكن مختلفة، وأمعن النظر فيه وكأنّه جثّة.

ثمّة، على بعد مئة خطوة، مكان صغير في جوف الصخرة حيث كان يذهب للجلوس، ويمضي ساعاتٍ طويلة لا يلوي على شيء، أو يأخذ معه كتاباً ولا يقرأ. كان يستلقي على ظهره وحيداً ناظراً إلى أزرق السماء وهو مطوّق بجدران الصخور البيضاء المسنّنة. هناك بالذات استرسل في أعذب أحلامه، وأنصت أيّما إنصاتٍ إلى زعيق النورس ولفحته نباتات الفوقَس[2] المتدلّية، برذاذ شعورها اللؤلؤيّة. هناك كان يرى شراع السفن متوغّلاً نحو الأفق، هناك الشمس أكثر دفئاً من أيّ مكان على سطح الأرض.

وآب إلى الشاطئ، مستعيداً المكان. لكنّه لاحظ أنّ آخرين أتوا إليه لأنّه إذ نقّب الأرض تلقائيّاً تحت قدمه، وجد قعر زجاجة وسكّيناً. ثمّة أناس احتفلوا هنا على الأرجح وجاؤوا برفقة نسائهم، وأكلوا، وضحكوا، وتمازحوا. قال في نفسه: «آه يا إلهي ألا يوجد على هذه الأرض أمكنة شغفنا بها، وعشنا فيها مطوّلاً ونستطيع امتلاكها حتّى الموت فلا يأتي

(1) الشُّمرة البحريّة بقلة لحميّة معمّرة من الفصيلة الخيميّة. المديخ: جنس حيوانات بحريّة من المجوّفات.

(2) الفوقس: نبات بحريّ.

أحد غيرنا إليها أو يرمقها بنظرة؟!».

وصعد من جديدٍ عبر الأخدود الضيّق، حيث كان غالباً يرفس الحجارة بقدميه، ويتعمّد قذف بعضها بقوّة ليسمع ارتطامها بجدران الصخور، وترجيع صداها. اشتدّ الهواء على النجد المشرف على الجرف. في بقعة زرقاء داكنة من السماء رأى القمر يصعد قبالته، وإلى يساره، بانت نجمة صغيرة.

أخذ يبكي. هل كان يبكي برداً أو حزناً؟ كاد قلبه ينفجر وشعر بالحاجة للتحدّث إلى أحدهم. دخل إلى إحدى الكاباريهات حيث كان يتردّد أحياناً لتناول كأس بيرة، وطلب سيجاراً، ولم يستطع الامتناع عن أن يقول للساقية التي كانت تخدمه: «سبق أن جئت إلى هنا». أجابته: «صحيح! لكنّ الفصل الآن ليس جميلاً، ليس جميلاً البتّة يا سيّدي»، وأعادت له ما تبقّى من المال.

في المساء، رغب أيضاً في الخروج. ذهب ليضطجع في حفرة يستعملها الصيّادون لاصطياد البط البريّ. رأى للحظةٍ صورة القمر تتهادى على الأمواج، وتهتزّ في البحر منسابة كأفعى طويلة، ثمّ من كلّ نواحي السماء تكدّست الغيوم من جديد، وأعتم كلّ شيء. في الظلمات، تأرجحت الأمواج قاتمة وتقاذفت متوثّبة لترتطم بالشاطئ وكأنّها هدير ألف مدفع. كان هناك إيقاع يجيل هذا الصخب لحناً رهيباً فيما الشاطئ المهتزّ تحت اندفاع الأمواج يجاوب البحر العالي المدوّي.

فكّر للحظة هل يُفترض به أن ينهي كلّ هذا. لا أحد سيَراه ولا نجدة تؤمل، وسيلقى حتفه في أقلّ من ثلاث دقائق. ولكنّ الغريب أنّ الوجود ابتسم له كأنّه يألف معاكسة اليائسين في اللحظات الحاسمة. بدت له حياته في باريس جذّابة مليئة بالأمل في المستقبل. رأى من جديدٍ غرفته

المؤنسة حيث يعمل، وكلّ الأيّام الهانئة التي يستطيع أن يمضيها هناك. ومع ذلك كانت أصوات الهاوية تناديه، والأمواج تنفتح له مثل قبر، متأهّبة للانغلاق عليه وتكفينه داخل ثناياها الرطبة...

كان خائفاً فعاد، وطيلة الليل سمع الريح تصفر في مجاهل الرعب. أشعل ناراً هائلة والتصق بالموقد حتّى كاد يحرق ساقيه.

ثمّ عاد من رحلته. عاد إلى منزله فوجد نوافذه بيضاء مكسوّة بالجليد. في المدفأة، الفحمات مطفأة. ألفى ملابسه على سريره كما تركها. الحبر جفّ في المحبرة، والجدران لا تزال باردة وترشح رطوبة.

قال في نفسه: «لماذا لم أبقَ هناك؟» وشعر بالمرارة إزاء فرحه بالرحيل.

عاد الصيف، ولم يكن أفضل حالاً. أحياناً فقط كان يذهب إلى جسر الفنون وينظر إلى أشجار التيويلري، وأشعّة السماء الغاربة توشّح السماء بألوانها القرمزيّة، وتعبر تحت قوس النصر وكأنّها مطر مضيء.

وأخيراً، في شهر ديسمبر الفائت، توفّي، ولكن ببطءٍ شديدٍ، بقوّة تفكيره وحدها، من دون أن يعتلّ أيّ عضو في جسده، كمن ينطفئ سقاماً. قد يصعب لمن عانى أفدح الآلام تخيُّل مثل هذه الميتة، لكنّ كلّ رواية تحتمل التساهل حبّاً بما هو خارق.

وأوصى بأن يشرّحوه، مخافة أن يُدفن حيّاً، لكنّه حظَرَ عليهم تحنيطه.

25 تشرين الأوّل/ أكتوبر 1842

نبذة عن المؤلف:

وُلد غوستاف فلوبير في مدينة روان الفرنسيّة في عام 1821 وتوفي في ريفها في عام 1880. يُعتبر من روّاد الرّواية الحديثة ومن زعماء المذهب الواقعيّ الذي تجاوزه هو في الحقيقة بقوّة الشّعر والجانب التأمّليّ والنقديّ في أعماله. كتب الكثير في صباه، بيد أنّه لم يقدّم كتابه الأوّل للنشر إلاّ في سنّ الخامسة والثلاثين. وكان ذلك روايته الشهيرة «مدام بوفاري» التي استهدف فيها، من خلال تجربة امرأة في العشق، ضيق الأفق الاجتماعيّ في المدن الفرنسيّة، والتي سيق بسببها إلى محاكمة بتهمة «المساس بالأخلاق العامّة والدين»، ثمّ بُرِئَ ونالت الرّواية شهرة واسعة. ثمّ أعقبتها أعمالٌ أخرى له تتمتّع بقيمة تأسيسيّة في الأدب العالميّ الحديث أهمّها «التربية العاطفيّة» و«تجربة القديس أنطونيوس» و«بوفار وبيكوشيه» و«سالامبو»، بالإضافة إلى عمليه «حكايات ثلاث» و«قاموس الأفكار الجاهزة». إلى هذا، اشتهر فلوبير بانهماكه الكامل في عمل الكتابة وبعنايته بالأسلوب بصورة يندر مثيلها في تاريخ الأدب.

نبذة عن المترجمة :

كاتبة ومترجمة من لبنان، من مواليد 1963. حصلت على إجازة في الأدب الفرنسي من الجامعة اللبنانية عام 1990، وصدر لها كمترجمة العديد من الأعمال أهمَها : «الجميلات النائمات» لياسوناري كواباتا، و«المرأة العسراء» لبيتر هاندكه، و«خفة الكائن التي لا تُطاق» لميلان كونديرا، و«مدافن الكبوشيين» لجوزف روث، و«أوريليا» لجيرار دو نرفال، و«تاريخ بيروت» لسمير قصير، و«ملك الغائبين» لإلياس صنبر، و«زون» لماتياس إينار، و«شارع اللصوص» للكاتب نفسه، و«المثقفون» لسيمون دو بوفوار، ورواية «جبل الروح» لغاو شنغجيان، ترجمتها بالاشتراك مع بسّام حجّار، و«العصفور الأزرق وحكايات أخرى» لماري كاترين دونوا، وقد صدرت الكتب الثلاثة الأخيرة ضمن منشورات مشروع «كلمة» للترجمة بهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة. تعمل حالياً في مجال التعليم في مدينة جبيل بلبنان.

نصوص الصِّبا - قصص وتأمّلات

قرأتُ وعملتُ بحماسٍ متأجِج... وكتبت... آه كم كنت سعيداً آنذاك! كم كان فكري، في هذيانه، يحلّق عالياً في تلك الأصقاع التي لا تزال مجهولة لدى بني البشر، حيث لا أناس ولا كواكب ولا شموس. كان داخلي لا متناهياً أرحب وأوسعَ من المطلق، وكان الشعر يتهادى محلّقاً باسطاً جناحيه في فضاءٍ من الحبّ والنشوة. ثمّ توجّب عليّ الانحدار مجدداً من هذه السموات إلى الكلمات. لكن كيف بالإمكان أن أعبّر بالكلام عن هذا التناغم الذي يصعد في قلب الشاعر، وهذه الأفكار العملاقة التي تلوي الجُمل كيدٍ قويّة متورّمة تضيق بالقفاز الذي يكسوها فتمزّقه؟

يا لتلك الخيبة. خيبة أن نلامس الأرض، الأرض الجليديّة حيث تنطفئ كلّ نار وتخبو كلّ طاقة. فأيّ مرقاة نتوسّل للانحدار من اللامحدود إلى المحدود؟ كيف يمكن للفكر أن ينحطّ من علٍ دون أن يتحطّم؟ كيف بالإمكان تحجيم هذا العملاق الذي يُعانق اللانهاية؟







